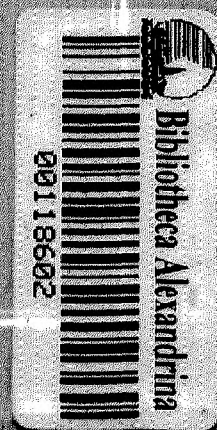


التهجاء العربية في التراث

القسم الأول
في النظامين: الصوتي والصرفي

الدكتور أحمد عام الدين الجندي

دار العربية للكتاب



التهجاء العربية في اللغات

القسم الأول
في النظامين: الصوتي والصرفي

تأليف
الدكتور أحمد علم الدين الجندي

الدار العربية للكتاب

طبعة جديدة

© جميع الحقوق محفوظة لدار التربية للكتاب

1983

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

« وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتَلَفُ السِّنِّيَّكُمْ »

القرآن الكريم

سورة الروم : من آية : ٢٢

* * *

« إِنَّ مَعْجَمَ الْعَرَبِيَّةِ اللَّغْوِي لَا يُجَارِيهِ مَعْجَمٌ فِي ثَرَاتِهِ . إِنَّهُ نَهْرٌ
تَقُومُ عَلَى إِزْفَادِهِ مَنَابِغُ "أَحَادِثِ" تَنْطِقُ بِهَا الْقَبَائِلُ الْعَرَبِيَّةُ » .

كارل بروكلمان

ذكري

إليه ...

حين كنت أسمعه يتلو كتاب الله ، فملك عليّ روعي ووجداني
— إلى والدي — رحمه الله ...

ابنك
علم الدين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الموضوع - أهدافه - دوافعه - منهج البحث فيه - مصادر



موضوع هذا البحث « اللهجات العربية في التراث » ودراسة اللهجات مبحث جديد من مباحث علم اللغة العام ، وهي الخطوة الأولى التي تسبق غيرها ، إذ إن دراسة لغة دراسة تاريخية لا يتم إلا بعد الانتهاء من بحث لهجاتها ، ومع هذا لم تحظ بعناية الدارسين ؛ لجفافها الذي يكسد الذهن ، ويجهد العقل ، لما لها من صلة بالتراث العربي القديم - وحتى في هذا التراث العربي ، لم يكن الحديث فيه عن اللهجات مقصوداً لذاته ، وإنما كان وسيلة يلمس لغيره من الغايات ، وكان مع شحوبه - يستخفي في هامش الدراسة لا في مركزها ؛ ولهذا كان من الأسباب التي دفعتني الى اختيار تلك المشكلة - أن أرضها لا زالت بكراً لم تجهد بعد ، وروضها ما برح غفلاً لم تشذبه توافيف العلماء ، وأقلام الدارسين ، مع أن جزءاً كبيراً من رصيدنا اللغوي ، وقدراً وافراً من ميراث أمتنا يكن وراء دراسة لهجات القبائل العربية لما لها من إتصال وثيق بعلوم القرآن وقراءاته ، وبلهجاتنا الحديثة في جميع البلاد العربية . ومن الأسباب أيضاً ما كان من انصراف الباحثين الى الدراسات الأدبية والتاريخية والاجتماعية و « جهودهم مشكورة » - غير محتفلين بالدراسات اللهجية واللغوية لما تحتاجه من أعباء وجلد ، وجميع هذا أصاب المكتبة العربية في الصمم حيث خلت من أمثال تلك الدراسات أو كادت - على أن ما ظهر منها وما بطن لا يكفي في الكشف عن غوامضها أو يقنع في الإحاطة بها .

من أجل ذلك ، استعجبت لصيحة - أشفقت على نفسي منها - صاح بها باحثان من علماء العربية المحدثين^(١) ، وبعد مراودة مع النفس ، واستعانة بالآناة والصبر ، وعدة من القوة والجلد ، والمعاناة والنظر . سرت في الطريق لأضع لبنة في هذا الصرح الشامخ .

(١) أولهما : الاستاذ حفي ناصف : في بحث قدمه الى مؤتمر العلوم الشرقية بمدينة « فينا » في أوائل المحرم ١٣٠٤ هـ - ١٨٨٦ م . وسماه « مميزات لغات العرب » وهي دراسة تقليدية خالية من تحقيق النصوص ومقابلاتها =

= وتحيصها، وموازنة الآراء والمذاهب والتحليل والنقد، كما أنه يستخف برد الروايات الى مصادرها ومطابقتها، فأهل المصادر الأصلية إجمالاً تأمناً في هامش الكتاب، ومع صغر حجمه إلا أنه يعتبر أول باكورة أطلت على الحقل اللهجي. والمنهج الذي سار عليه حفني ناصف يشبه المنهج الذي سار عليه القراء لبيان أصول اختلاف القراءات (انظر وجوه اختلاف القراءات في : مقدمة كتاب المباني : ٢١٥ وما بعدها ، والنشر لابن الجزري : ٢٧/١ . وقارنه بما ورد في الكلمات الحسان : ٥٣) ولعل الذي دفع حفني ناصف الى ترسم خطأ القراء في منهجه في صدر كتيبه أن العلاقة وثيقة بين القراءات واللهجات من جهة ومن جهة أخرى ان حفني كان قارئاً ، يؤكد هذا أنه كان عضواً في اللجنة التي قامت برسم المصحف وضبطه ، ولهذا رأى منهج القراء في أصول اختلاف القراءات صالحاً لدرس لهجات القبائل على أساسه ونظامه . ولي آراء وتعليقات خالفت فيها المؤلف تظهر تبعاً في أثناء الدراسة .

وثانيها : « في اللهجات العربية » : للدكتور ابراهيم أنيس ، وهي دراسة منهجية مبنية على خطة نقدية خضعت لتتار ملاحظات هامة ، ومبادئ عامة أساسية قائمة على الدرس اللغوي الحديث ، في منهج خلاق ينتقل من وصف الحقائق الى فرض القواعد ، وتعتبر بحق من أنصع الدراسات اللهجية التي ظهرت ، كما انتفعت بآراء المؤلف واتجاهاته الحديثة . وقد اعتمد المؤلف في المادة اللهجية على كتاب حفني ناصف ومعجمي اللسان والمخصص بعد عرض ما فيها عرضاً علمياً . (في اللهجات العربية : المقدمة) كما عالج المؤلف فيها لهجة القاهرة الحديثة (في اللهجات العربية : ٢٠٤ وما بعدها) .

هذا : ويعتبر كتيب حفني ناصف السابق أصلاً ، وجميع البحوث التي ظهرت بعده اقتفت أثره ومنها :

- ١ - (اللغات واللهجات) مقال كتبه الأب الكرمل في مجلة «المشرق» السنة ٦ عدد ١٢ - ١٣ سنة ١٩٠٢ وهو لا يتحدث عن لهجات القبائل ، وإنما يورد تعريفات لعدة مصطلحات لهجية كاللثة ... في قوالب تقليدية .
- ٢ - محاضرة في « علاقة التاريخ باللهجات العربية » وهي محاضرة تلاها بالفرنسية الأمير شكيب أرسلان في مؤتمر المستشرقين المنعقد في «لندن» في أوائل سبتمبر ١٩٣١ م ، ويتركز حديثها في تناول بعض اللهجات الحديثة .
- ٣ - (القراءات واللهجات) للاستاذ المرحوم عبد الوهاب حمودة - وهي دراسة ليست خالصة للهجات ، وإنما جزؤها الأكبر يثير حديثاً عن القراء وتاريخهم وروايتهم . وحديثه عن اللهجات لا يخرج عن كونه روايات سردية تقليدية لا أثر فيها لموازانات أو الدرس اللغوي القائم على عمق الفهم والتقصي والتحليل .
- ٤ - هذا وقد عرض بعض المحدثين الى إشارات عن اللهجات أثناء تواليفهم في الأدب واللغة ، ولكن هذه الإشارات لا تعدو أن تكون ترديداً لبعض النصوص التقليدية الشائعة في كتب العربية دون بحثها أو دراستها أو نقدها وأغلب هذه التماثيل تشير الى تلك الروايات في الهامش مع التمثيل لها بأمثلة مصنوعة (الوسيط في الأدب العربي وتاريخه : ١٤ ط ٧) ، كما أن بعضها يخائبه الصواب في نقل هذه اللهجات ، وبعضها الآخر كانت يتعاضى الجود في هذه اللهجات العربية ، فالدكتور جواد علي يتحدث عن (العرب ولغاتهم) « تاريخ العرب : ٢١٣/١ جواد علي » ولم يتكلم عن هذه اللهجات . كما ذكر أيضاً انه قد خصص كتابه للغات الجاهليين قواعدها من صرف ونحو ، وفي تطور تلك اللغات وفروقه ومطابقتها وبعدها أو قريها من لهجة القرآن الكريم (تاريخ العرب : ج ٧ المقدمة) ، وكنت أظن أنه سيثير بحثاً حول هذه اللهجات ، ولكنه ذكر في نهاية كتابه أنه لا يستطيع أن يدرس لهجات القبائل « لأن هذه اللهجات لم تقدم إلينا نصاً مكتوباً » « تاريخ العرب : ٣٤٨/٧ » ولم يشر الى لهجات القبائل موضوع بحثنا إلا إشارة خافتة لا تعدو ستة أسطر عن لهجتي طي و فزارة (تاريخ العرب : ٣٤٨/٧) ويبدو ان الذي جعله يتخلى عن دراسة لهجات القبائل العربية أنه =

وقد انتهجت في دراسة الموضوع منهجاً علمياً محدداً قام على جمع المادة اللهجية من مصادرها ومطابقتها - ثم تلتها الملاحظة وتمحيص النصوص وتوثيقها وعرض المادة وتحليلها ثم استقراؤها ، مقارناً مسلك اللهجات بمسلك الفصحى لاسيما بيان ما تخالف منها وما تشابه ، والإفاضة في الأسباب التاريخية والجغرافية والاجتماعية لهذا التشابه أو التخالف ، مع العناية بجمع المشكلات المتشابهة وإحاطتها بإطار من الوحدة والتنظيم ، أدى الى إمطة اللثام عن أسرار اللهجات وطرق سيرها في مدارها قمماً ووهاداً ، وتهايم وأنجاداً ، وهذا قادنا الى استنباط الخطوط العامة والتي أثرت السير فيها .

وبما يلاحظ في هذا البحث بصفة خاصة أن أركانه قد دعمت على كثرة من النصوص الأصيلة ، تكتنفه من بين يديه ومن خلفه ، وتهمين عليه الى أن قادته الى نهايته ، في غير تسلسل ولا تحكم ، فقد نبذت التعصب الذي يغلف القلوب فلا تعي ، ويصم الآذان فلا تسمع ، ويعمي البصائر ويعصب الأنظار .

== لا يعترف إلا بالرجوع الى الكتابات المدونة عن لهجات هذه القبائل ، ولم تكشف الأيام بعد عن هذه الكتابات ، ولهذا يدعو الى البحث في جبال الحجاز وكهوفها علته يعثر على كتابات جاهلية أو كتابات تعود الى أيام الرسول (تاريخ العرب : ٣٤١/٧) ولعلنا إذا تقبنا في المصادر العربية ، والمخطوطات المكسدة في مكتبات العالم ودرسناها لاستخراج لهجات القبائل العربية - وجدنا هذه الدعوة وهذا المنهج أقرب من دعوة الدكتور جواد تلك التي يرى فيها جمع لهجات القبائل من الحفريات في الجزيرة العربية .

ه - كما ظهرت بحوث للمستشرقين في هذا الميدان أذكر منهم : Landberg Noldeke, Kampffmeyer, Blau, Freytag, Rabin, Littmann, Vollers. المستشرقون في حديثهم عن اللهجات مشكرون ، إلا أن دراسة بعضهم في اللهجات كانت دراسة تقليدية سرديّة لا أثر فيها للنقد والدرس ، ويمثل هؤلاء Freytag في كتابه : Einleitung in Das Studium Der Arabischen Sprache. Bonn. 1861.

وذفر منهم أهل في دراسته اللهجية الجانب الجغرافي ، فكانت لهجات القبائل عنده جامدة راکدة ، لأنه عزها عن أوطانها التي فيها أقامت ، ومنها ظننت ورائد هؤلاء (Kofler) في بحوثه التي ظهرت سنة ١٩٤٠ .

كما أن بعضها كان يحمل خطأ في الرأي ، وانحرافاً في التفكير ويمثل هؤلاء Vollers في كتابه : Volkssprache und Schriftsprache im Alten Arabien. « Strassburg 1906 » .

كما أن دراسة Rabin في كتابه : Ancient West Arabian. London: 1951. وإن كانت قيمة تتم عن صبر وروية إلا أنها لم تشمل ميدان القرآن وقراءاته بدليل تصريحه في كتابه السابق بأنه لم يعثر على كتاب البحر المحيط ليفحصه « في إضافات الكتاب : 211 Rabin » . وكتاب أبي حيان كما رأينا معقبة كبرى في القراءات . وأرى أن لهجات القبائل يجب أن تبحث على أرض القرآن وقراءاته أولاً . وكانت السمة الغالبة لدراسة المستشرقين أنهم لم يتجهوا نحو الملاحظات الكلية والمبادئ الأساسية لظواهر اللهجات ، على أن مجهودهم الأكبر كان يتركز في الاهتمام باللهجات الحديثة .

واقترضى المنهج أن تكون الدراسة في خمسة أبواب يسبقها تمهيد وتتلوها خاتمة ، مع وجود فهرس ليسكون بمثابة تلخيص أمين لمحتويات الرسالة ، وجريدة مفصلة بأسماء المصادر والمراجع التي أعانتني على هذا البحث .

ففي التمهيد تحدثت عن : جغرافية بلاد العرب ، وتنقلات القبائل العربية ومدى الاعتماد في دراسة اللهجات العربية على أماكن القبائل .

وأما الباب الأول فقد خصصته لجغرافية اللهجات ، ثم بحثت جوانبه في فصلين :

في الفصل الأول : درست رأي المستشرقين وعلماء العربية في تقسيم اللهجات الى الحجازية والتميمية .

وفي الثاني : منهج وتطبيق ، ويشمل اقتراحين لدراسة اللهجات ، ثم تطبيق لدراسة لهجية تقارنية في ضوء هذا المنهج .

وبعد الباب الأول يجيء الباب الثاني ليعرض : مصادر اللهجات ، وينتظم هذا الباب ثلاثة فصول : الأول منها : القرآن الكريم وقراءاته ، والثاني : كلام العرب . والثالث : التراث اللهجي ، ويشمل : تصنيف هذا التراث ، ويعرض تسجيلاً أميناً لمن ألف في لغات القبائل في القرآن ، ومن ألف تحت اسم كتب اللغات ، وكتب نوادر اللغات ، ثم يتلو ذلك دراسات إحصائية تسجل عدد ورود لهجات القبائل في المصنفات العربية ، والتي تشمل كتب النحو ، واللغة ، والقراءات . وكتب الأدب العامة ، وشروح الأشعار . ثم تتلوها إحصائية تسجل أسماء الرواة الذين كانوا مصدرراً لرواية اللهجات العربية المعزوة . ثم عقيبت على ذلك بملاحظات ونقد شملت اللوحات الإحصائية السابقة .

كما شمل الفصل الثالث أيضاً نظرة علماء العربية الى اللهجات من خلال مؤلفاتهم ، وانتظم :

أولاً : نظرة البصريين والكوفيين الى اللهجات .

ثانياً : مدى ظهور لهجات القبائل في مؤلفات البغداديين .

ثالثاً : نظرة علماء العربية الى اللهجات في الغرب الإسلامي .

رابعاً : عصر النحاة المتأخرين .

مع دعم هذه الخطوات بلغة الأرقام والإحصاء .

ثم خصصت الأبواب الباقية لدراسة لهجات القبائل على المستويات الآتية :

الباب الثالث : وفيه درست المستوى الصوتي ، ثم بحثت جوانبه المتعددة في خمسة فصول :
في الفصل الأول : درست حركية الكلمة وتحولها الداخلي ، ثم ثبت بدراسة عن المماثلة في الحركات ، وشمل الفصل الثاني : ظاهرة التقريب في الأصوات حيث درست في ضوءها ظاهرتي الامالة والادغام ، ثم جاء الفصل الثالث متناولاً ظاهرة الهمز ، وفي الفصل الرابع دراسة عن اتساع مدرج اللهجات العربية في إبدال الحروف ، ثم أنهيت ذلك بالفصل الخامس متناولاً ظاهرة الوقف .

ثم عقدت الباب الرابع للمستوى الصرفي : وفي الفصل الأول منه تناولت التصحيح والإعلاء ، وفي الفصل الثاني : المقصور والممدود ، وفي الفصل الثالث درست الأفعال متناولاً أنماطها وأنواعها . كما عقدت الفصل الرابع للحديث عن المشتقات ، وبذلك كونت هذه الفصول الأربعة الباب الرابع من الرسالة .

وعرضت في الباب الخامس للظواهر العامة في لهجات القبائل .

وقد درست في الفصل الأول من هذا الباب ظاهرة فعل وأفعل ، وفي الثاني التذكير والتأنيت ، وفي الثالث : ظاهرة القلب ، وفي الرابع التخفيف والتشديد كما تناولت في الفصل الخامس : مطل الحركات والحروف وانتقاصها في لهجات القبائل ، وبذلك كونت هذه الفصول الخمسة الباب الخامس من الرسالة .

هذا ، وقد كان البحث أميناً في عرض الروايات المتخالفة ، كما كان إيجابياً حين ضعف بعض هذه الروايات التي أثار حولها الشبه والانتقاص ، كما قوى بعضها الآخر اعتماداً على اختبارها للتحقق من صدقها وسلامتها .

وقد عالج البحث نصوص الظاهرة الواحدة على مستويات عدة ليستشف من ذلك القضايا الهامة ، مانحاً فضل بيان لمنهجها والأحكام التي صدرت عليها ، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر (قضية الانعزال الجغرافي وأثرها في ظاهرة التذكير والتأنيت) وقد كان نظام العمل على هذا الصعيد الواسع دراسة الواقع اللغوي كما هو - لا كما ينبغي أن يكون مع الاستعانة أحياناً بالمنهج التاريخي المقارن لنصل من ذلك الى توسيع قاعدة اللهجات وتوضيح أبعادها والفصل بين حدودها التي كانت محكّ عراك بين الضرورات واللهجات .

هذا ، ولما كانت دراسة لهجات القبائل تشمل آفاقاً واسعة ، ويحتاج كل أفق منها دراسة واسعة عميقة ، لم يكن في طاقة الفرد مهما أوتي من استعدادات أن يدرس اللهجات على جميع

المستويات ، لذا آثرت - كما ظهر في المنهج السابق - دراستها على المستويات : الصوتية ، والصرفية ، مع دراسة بعض الظواهر العامة لهذه اللهجات ، وتركت ما وراء ذلك للمستقبل ، إن شاء الله ، لاسيما أن بعض المستويات فيها « كالمستوى الدلالي : السيماتيك » يراعى ظروف الموقف الكلامي الحي وملابساته ، وما يرتبط بذلك من أحوال المتكلمين والسامعين كالحركات الجسمية والإشارات ، والغمز والابتسام ، ومن الصعب الوقوف على مثل هذا ، لأن اللهجات التي نقوم بدراستها انقطع دورانها على الألسن .

أما مصادر البحث : فقد حتمت على دراسة اللهجات أن أقرأها من أولها إلى آخرها قراءة دقيقة فاحصة ، وكثيراً ما كنت أخرج من الكتاب الضخم بكلمة أو كلمتين إذ اللهجات ليس لها كتاب مسطور ، وإنما هي تنفّ وأمشاجٌ في ثنايا كتبهم ، وتصانيف رسائلهم ، لهذا جردت ما وقعت عليه يدي من الكتب مخطوطها ومصورها ومطبوعها جرداً تاماً ، كما قمت بعمل لوحات إحصائية بينت فيها عدد ورود لهجات القبائل ، وعدد الرواة الذين روى عنهم لهجات معزوة إلى قبائلها ، وقد شملت هذه الإحصائيات عدداً من المصادر تمثل الاتجاهات المختلفة من علوم العربية : كالقراءات والمعاجم ، والنحو ، وشروح الأشعار ، والأدب العامة ، وكان لها أثر واضح حيث قادني إلى أدلة يقتنع بصوابها ، وكشفت لي المعالم حتى لا أعتسف الطريق ، أو أسير فيه على غير هدى .

وفي سبيل إخراج الموضوع على هذه الصورة اعترضني صعاب جمة .

١ - منها ما يتصل يجمع اللهجات من مصادرها ، وهذا الجمع وحده يجب أن يكون من عمل هيئة لا فرد واحد ، لأنها تكن في كتب لا رباط يجمعها ، ولا وحدة تلم شعنها ، وإنما هي مطمورة ذهب بها تقادم العهد حتى ان التدوين أهملها ولم يسجل إلا تنقلاً يسيرةً منها في كتب عتيقة لا تعرف نظام الفهرسة أو التنظيم .

٢ - كما أن الكلمات التي جاءتنا عن العرب لاسيما ما يتعلق بمعاني الكلمات أو دلالتها إنما هي كلمات مفردة منعزلة عن السياق الذي يوضحها ، فعندما سمع الأزهري رجلاً من بني كلاب يقول لآخر « قد مككت روعي »^(١) فإننا لا نستطيع تفسير هذه اللفظة إلا إذا عرفنا الحالة التي بين المتكلم والسامع . فإذا عرفنا أن قائلها يخاطب بها رجلاً عنثته - عرفنا معناها لاسيما إذا عرفنا أن تمكك على الغريم - ألح عليه في اقتضاء الدين . وقد ترتب على غموض الظرف اللغوي

(١) اللسان : ٣٨٠/١٢ - ٣٨١ .

أو الظروف التي مهدت للكلام ، وحتمت أن يكون على نخط خاص اضطراب المعنى بين يدي الرواة ، وعدم تحديده ، فمن ذلك ما جاء في اللسان « الحدا كبة : العين . وقال الأصمعي : هو شيء من جسد الشاة » وعن ابن برى عن الأصمعي أن الحدا كبة : الفلصة^(١) . فالكلمة الواحدة أصابها هذا الغموض نظراً لفقدان الحالة التي قبلت فيها وهي نطق الكلام ، وما يقدمه هذا النطق من مساعدات - حتى سمعنا الأصمعي يفسرها بأنها : أي شيء من جسد الشاة ! ولا شك أن معرفة « الجو » الذي قبلت فيه اللهجة يساعد على فهمها ودراستها ، ولهذا اضطرت أن أستعين بالمعلومات التاريخية والجغرافية والنفسية لأتعرف على المجتمع صاحب هذه اللهجة .

٣ - كما أنني لم أستطع أخذ (عينات حية) منطوقة تمثل الواقع اللهجي ، ولم يكن بد من أنني ركنت الى الروايات في المصادر المخطوطة والمكتوبة وهي صامنة مشوشة يحيط بها الغموض وبعوزها كثير من التمهيص والبصر العلمي ، لأستشف منها تلك العينات ، فهي الى حد تمثل واقعاً لهجياً ، وإنما كان ذلك لأن هذه المصادر ما كانت لتهم باللهجة في جوها الاجتماعي ، بل كانت تسجلها وتنظر إليها في موقف دراسي بحث ، وخير طريق للدراسة اللهجات أن تدرس متصلة بالإنسان لا أن تدرس عن طريق الكتب ، لأن الكتابة العربية لا تمثل اللهجات ، وإنما هي اصطلاح فقط ، بدليل أنها لم تنقل اللهجات كما كان ينطقها أهلها ، لأن الكتابة جامدة هامة أو منقط ثابت - واللهجة كائن حي متطور ولهذا كثيراً ما يقع سوء الفهم واللبس في اللهجات على عاتق الكتابة ، يؤيد ذلك ما استشهد به ابن بشّار الانباري من قول الشاعر :

عافَتِ الشَّرْب في الشتاء فقلنا برّديه تصاد فيه سخينا^(٢)

إذ رأى أن (برّد) تدل على المعنى المعروف في الفصحى ، كما تشير الى معنى آخر بمعنى (سخن) وهي في الشاهد بهذا المعنى الأخير ، فتكون على هذا من الأضداد . والحق أن الكلمة ليس لها إلا معنى واحد بعيد عن المعنيين السابقين وهو الورود بمعنى الاقبال عليه ، وكان يجب أن تكتب : بل رديه ، ولكن كتابتها : برديه - جعلت بعض الرواة يتعسف ويحملها على التضاد - والمسئول عن ذلك كتابتنا تلك التي تتسكع منزوية في مؤخرة الزمن وأزقة التاريخ بينما اللغة تهرول عجلة مسرعة في طريق التطور والصعود ، زد على ذلك أن الكتابة العربية لم تسجل الأصوات تسجيلاً دقيقاً ، فلم تسجل الحروف الصوتية القصيرة وتركت بذلك مجالات

(١) اللسان : ٣٢٣/١١ .

(٢) أضداد ابن الانباري : ٥٢ .

للتخمين ، كرسل ، وعمر - هل هما بسكون السين والميم أو بضمهما ؟ وما يتصل بالكتابة وبمعجزها عن توضيح الفروق اللهجية ما عانيناه من لعب النساخ والمحققين في النص بمجمله على الفصحى ، وكثيراً ما رجحت في دراستنا صيغة شعبية في إحدى النسخ ، عمد الناشر الى تبديلها بالفصحى ، ولهذا لم يصلنا التراث اللهجي على تحوله إلا بعد أن مرّ بفريضة دقيقة خضع خلالها وهذب وصقل تحت تأثير الفصحى على أيدي النساخ تارة ، والمحققين تارة أخرى ، والمتزمتين من هؤلاء وأولئك .

٤ - كما وقف في طريقي تلك المادة اللهجية والتي يغلب عليها سحنة الصنعة ، صنعة النجاة^(١) ، حيث صهروها في عقولهم وعلى ألسنتهم ، وكان عليهم أن يتحاشوا أمثلتهم ، ويستشهدوا على اللهجات بما يدور في كلام العربي العادي نفسه ، وبما يجري على لسانه في المنزل والسوق بألوان الفكاهة والقصص الشعبي .

٥ - كما كان من الحواجز الصعبة « المادة اللهجية » المشوشة التي جاءتنا عن العرب مبهترة حيناً ، وممسوخة حيناً آخر ، وملفقة لأغراض في نفس الراوي أحياناً أخرى ، وأعرض أمثلة يسيرة حتى نلص الغموض الذي أحاط بهذه اللهجات فمن ذلك :

(أ) التحريف في الرواية لإثبات لهجة ، فقد استشهدوا على أن (أن) تجزم واستشهدوا لها بقول الشاعر :

إذا ما ركبنا قال ولدان أهلنا تعالوا إلى أن يأتنا الصيد نخطب

وعثرت على الشاهد بعد لأي - وهو لا يرى القيس - وصيغته في ديوانه^(٢) بعد تحقيقه :

(تعالوا إلى أن يأتني)

فأن - ناصبة على الميم الصحيح لا جازمة كما رأوا .

ب (كما ورد في الهمع أن الجزم بـ (لن) لغة بعض العرب^(٣) : وأيد ذلك ابن هشام^(٤) ،

(١) انظر : شرح السيرافي ٣٥٦/٢ ، ٣٥٨ ، مخطوط في نيمور .

(٢) ديوان ابري القيس : ٣٨٩ دار المعارف .

(٣) الهمع : ٤/٢ ، الموفى في النعم والكوفي : ١٢٠ .

(٤) المفتى : ١/٢٢١ .

والأشعوني^(١)، ونقل صاحب الدرر^(٢) الجزم بها عن اللحياني، وانتشهدوا لذلك بقول الشاعر :

(فلن يحلّ للعينين بعدك منظر^(٣))

وأثبت أن الشاهد محرف، وهو لكثير بن عبد الرحمن الخزاعي، وهو في ديوانه بعد تحقيقه :

أيادي سبأ يا عز ما كنت بعدكم فلم يحلّ للعينين بعدك منظر^(٤)

فهم قد أثبتوا الرواية محرفة لإثبات لهجة، مخالفين ما جاء في ديوان الشاعر نفسه، وما جاء في اللسان^(٥)، وأساس البلاغة^(٦) حيث ورد فيها « لم » على اللغة الفصحى، ولا أثر في الشاهد لظاهرة لهجية.

ج (كما حكى اللحياني النصب بـ « لم » لغة^(٧) . وجزم بذلك السيوطي^(٨) لغة لبعض العرب، وعليها قراءة من قرأ « ألم نشرح لك » بفتح الحاء، وقول الحرث بن المنذر الجرمي :

في أيّ يوميّ من الموت أفيرُ أيوم لم ينقدر أم يوم 'قدر'^(٩)

والحق أن « لم » جازمة غير ناصبة، وأن الفتحة على الحاء في الآية إنما جاءت اتباعاً لحركة الراء قبلها، أو لحركة اللام بعدها، ثم أن الحاء من حروف الحلق، وهي تؤثر الفتح^(١٠).

و « لم » في شاهد « الجرمي » جازمة غير ناصبة كذلك، والأمر لا يعدو أن الشاعر ألقى

(١) ٢٧٨/٣ .

(٢) ٤/٢ .

(٣) المغنى : ٢٢١/١ .

(٤) ٦٠/١ شرح ديوان كثير : الجزائر : تحقيق ونشر الشيخ هنري بريس .

(٥) ٨٧/١ .

(٦) ٩٤ .

(٧) مع الفواعل : ٢٦/٢ .

(٨) الصبان على الأشعوني : ٨/٤ .

(٩) المغنى : ٢١٧/١ .

(١٠) المختص : ٢٠٦/١٤ ، شرح الشافية : ٤٠/١ ، والمنصف : ١١٥/١ .

حركة همزة « أم » وهي فتحة ، على راء « يقدر » مراعاة لحبك النسق الصوتي ، وبعض علماء العربية كابن جنى ملح هذا الذوق العربي وأحسسه^(١) .

وإذا كان التحريف قد أصاب المتن حيناً ، فقد أصاب السند أحياناً كثيرة ، وهذا كله يشير الى الصعاب التي لاقيتها ، ولكن ظلها الوعي والمضاء ، والإخلاص للعلم والإيمان به ، والولاء له . كما أعانني عليها المحاصون ، وفي مقدمتهم أستاذي الكريم الدكتور « خليل يحيى نامي » أستاذ فقه اللغة بكلية الآداب بجامعة القاهرة والمشرف على البحث ، حيث وجهه ، ويسر ، وأعان . وأفدت من مكتبته ، وانتفعت بنصحه وتوجيهه ، وأعمق الشكر وأخلصه لشقيقي الأستاذ رمضان الجندي المدرس بالأزهر ، ولزوجي جزاء ما قدما من عون وجهد .

كما أقدم خالص شكري لتلميذي النجيب الأستاذ أحمد أبو طالب الجندي المدرس بمعهد البحوث الإسلامي بالقاهرة .

واليوم : أقدم هذا العمل العلمي بين يديك - عزيزي القارئ - كما قدمته الى كلية الآداب بجامعة القاهرة أمام لجنة المناقشة سنة ١٩٦٥ م . بدون تغيير فيه ، لأنه يمثل مرحلة فكرية من حياتي ، وقد حاز على مرتبة الشرف الأولى من كلية الآداب بجامعة القاهرة - قسم اللغات الشرقية - فرع اللغات السامية الحية والمستهجات .

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله .

أحمد علم الدين الجندي

حدائق المعادي : في ١٣ من رمضان سنة ١٣٨٤ هـ . الموافق ١٥ من يناير سنة ١٩٦٥ م .

(١) انظر : الخصائص : لابن جنى : ٩٥/٣ ، مر الصناعة : ٨٥/١ .

تقديم

أولاً: « جغرافية بلاد العرب »

شبه جزيرة العرب :

حدودها : اختلف جغرافيو اليونان والرومان في حدودها فجعل (اكسنفون) حدودها الشمالية تبدأ من الفرات وأضاف إليها قسماً كبيراً من العراق وقوس بطلميوس وديودور وسترابون بحدودها الشمالية حتى قالوا : انها تبدأ تقريباً من مدينة الرقة الحالية التابعة لمحافظة دير الزور^(١) .

وبلاد العرب في الجزء الجنوبي الغربي من آسيا ، وهي جزيرة يحيط بها الماء من ثلاث جهات: البحر الأحمر ، المحيط الهندي ، والخليج العربي . ويطلق العرب على بلادهم اسم « جزيرة العرب »^(٢) . قال الهيثم بن عدي : جزيرة العرب من العذيب الى حضرموت^(٣) ، وقال الأصمعي : جزيرة العرب الى عدن أبين في الطول والعرض من الأيلة الى جدة^(٤) . وقال الأصمعي : جزيرة العرب ما لم يبلغه ملك فارس ، من أقصى عدن أبين الى أطرار الشام ، هذا هو الطول ، والعرض من جدة الى ريف العراق^(٥) . وقال الشعبي : جزيرة العرب ما بين قادسية الكوفة الى حضرموت^(٦) . وقال أبو عبيدة : جزيرة العرب ما بين حفر أبي موسى ، بطوارة من أرض العراق ، الى أقصى اليمن في الطول ، وأما في العرض فما بين رمل يبرين الى منقطع السماوة^(٧) .

(١) جغرافية شبه جزيرة العرب ص ٣ عمر رضا كحالة . المطبعة الهاشمية دمشق ١٣٦٤ - ١٩٤٤ .

(٢) الهمداني ص ٤٧ ليدن سنة ١٨٨٤ ، بلوغ الأرب : ج ١ ص ١٨٦ الألوحي ط الثالثة . دار الكتاب العربي .

(٣) معجم البلدان : ياقوت ١٠١/٣ ط ١ ١٣٢٤ - ١٩٠٦ مطبعة السعادة .

(٤) معجم البلدان : ياقوت : ١٠١/٣ .

(٥) معجم ما استعجم للبكري ٦/١ تحقيق السقا - لجنة التأليف والترجمة ١٩٤٥ م .

(٦) معجم ما استعجم للبكري ٦/١ .

(٧) المرجع السابق .

ونرى أن تسمية العرب بلادهم بـ (جزيرة العرب) فيه تسامح كبير ، إذ أنهم لم تتم إحاطتها بالماء ، قال ياقوت^(١) : وإنما سميت بلاد العرب جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر ، وذلك أن الفرات أقبل من بلاد الروم فظهر بناحية قنسرين ثم انحط على أطراف الجزيرة وسواد العراق حتى وقع في البحر في ناحية البصرة والأيلة وامتد إلى عبادان وأخذ البحر في ذلك الموضع مغرباً ببلاد العرب منعطفاً عليها ، فأتى منها على سفوان وكاظمة إلى القطيف وهجر وأسياف البحرين ، وقطين وعمان والشحر ، ومال منه عتق إلى حضرموت وناحية أبين وعدن وانعطف مغرباً منصباً إلى دهلك ، واستطال ذلك العنق فطعن في تهائم اليمن إلى بلاد فرسان وحكم والأشعرين ، وعك ، ومضى إلى جدة ساحل مكة ، والجار ساحل المدينة ثم ساحل الطور وخليج أيلة وساحل راية حتى بلغ قلزم مصر وخالط بلادها ، وأقبل النيل في غربي هذا العنق من أعلى بلاد السودان مستطيلاً معارضاً للبحر معه حتى دفع في بحر مصر والشام ، ثم أقبل ذلك البحر من مصر حتى بلغ بلاد فلسطين فمر بعسقلان وسواحلها ، وأتى صور ساحل الأردن وعلى بيروت وذواتها من سواحل دمشق ثم نفذ إلى سواحل حمص وسواحل قنسرين حتى خالط الناحية التي أقبل منها الفرات منعطفاً على أطراف قنسرين والجزيرة إلى سواد العراق^(٢) .

وهذا التحديد وإن كان يسهل فهم تسمية البلاد العربية بالجزيرة إلا أنه يتطلب أن تعتبر ولايات الشام وفلسطين والأراضي المصرية الواقعة شرقي فرع دمياط من ضمن بلاد العرب ، وهذا غير مرض عند المؤرخين ، فإنهم يحدون بلاد العرب من الشمال بالجزيرة وبلاد الشام وفلسطين فهذان خارجان عنها . « وعلى ذلك لا بد من القول بأن هناك تسامحاً في إطلاق لفظ الجزيرة على بلاد العرب »^(٣) .

تقسيم اليونان والرومان :

أقسامها : (أ) قسم بطليموس^(٤) شبه الجزيرة إلى ثلاثة أقسام :

- (١) نقلاً عن هشام بن محمد بن السائب عن ابن عباس .
- (٢) معجم البلدان : ياقوت ١٠٠/٣ - ١٠١ ، وانظر : صفة جزيرة العرب ، الهمداني ص ٤٧ ليدن .
- (٣) محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية : محمد الحصري ٧/١ ط الخامسة مطبعة الاستقامة ١٣٦٦ هـ وانظر في تحديد الجزيرة : سبائك الذهب : محمد البقداوي ص ٨ « بدون تاريخ » التجارية .
- (٤) شبه جزيرة العرب ، ص ٥٥ كحالة ، خلاصة الكلام في تاريخ الجاهلية والإسلام ، محمد غنيم ص ٣٤ ط الأولى - المطبعة العامرية ١٣١٦ هـ .

١ - بلاد العرب الحجرية .

٢ - بلاد العرب الصحراوية .

٣ - بلاد العرب السعيدة .

أما الحجرية : فقد كانت تطلق على شبه جزيرة سيناء وعلى بلاد النبط وهي : الأراضي الجبلية والمرتفعات المتصلة بها الواقعة على شرق البحر الميت وفي شرق وادي العرب وفي جنوب اليهودية حتى خليج العقبة ويفهم من كلام « ديودور » أن بلاد العرب الحجرية كانت في شرق مصر ، وجنوب البحر الميت .

والصحراوية : وتطلق على البادية الواسعة المسماة ببادية الشام ، وقد فهم « ديودور » منها أنها تشمل : المناطق الصحراوية التي كانت تسكنها القبائل البدوية .

أما السعيدة : فقد كانت تشمل أكبر الأقسام رقعة فدخل في حدودها جميع المناطق التي تعرف باسم شبه جزيرة العرب - أي شمال الجزيرة ووسطها وجنوبها^(١) . ويلاحظ على هذه الأقسام أن حدودها كانت تتوسع حيناً وتقلص حيناً آخر حسب الأوضاع السياسية ، كما كانت تخضع لمكانة العرب ومقدرتهم .

(ب) تقسيم جغرافي للعرب القدماء :

حدث خلاف بينهم بشأن تقسيم الجزيرة : ف يرى المدائني أنها تشتمل على خمسة أقسام : تهامة ، ونجد ، والحجاز ، والعروض ، واليمن^(٢) . وزاد ابن حوقل في أقسامها : بادية العراق ، وبادية الجزيرة فيما بين دجلة والفرات ، وبادية الشام . وقسمها جغرافيو اليمن قسمين هما : يمن وشأم ، قال الهمداني : هي عند أهل اليمن يمن وشأم ، فجنوبها اليمن ، وشمالها الشام ونجد وتهامة^(٣) .

وجعل البشاري جزيرة العرب : أربع كور جليسة ، وأربع نواح نفيسة ، والكور : أولها : الحجاز ، ثم اليمن ، ثم عمان ، ثم هجر ، والنواحي : الأحقاف ، والأشجار ، واليامة ، وقرح^(٤) .

(١) جغرافية الجزيرة العربية : محاضرة للدكتور نامي ، وانظر : تاريخ العرب قبل الإسلام : ١١٧/١ .

(٢) سبائك الذهب : ٨ البغدادي .

(٣) صفة جزيرة العرب : ٥ - للهمداني .

(٤) شبه جزيرة العرب : ٤٩ كحالة نقلاً عن أحسن التقاسيم للبشاري .

ويلاحظ في تقسيم العرب الجغرافي لشبه الجزيرة العربية - أن التقسيم لم يكن محدداً بمحدود ثابتة ، فتارة يمتد وأخرى ينحسر - كما أن تقسيم الهمداني وغيره يجعل جنوب الجزيرة كله من اليمن والشائع غير هذا^(١) .

(ج) تقسيم المحدثين :

وكما حدث الخلاف بين القدماء ، حدث مثله بين المتأخرين ، فمنهم من قسمها الى ستة أقسام^(٢) ، ومنهم من قسمها الى ثمانية^(٣) . ومنهم من نظر في تقسيمها باعتبار قربها أو بعدها من البحر^(٤) ، كما أن بعضهم لاحظ في التقسيم الجانب الطبيعي فقسمها الى ثلاثة أقسام :

الشمال ، والوسط ، والجنوب - وإلى هذا ذهب الدكتور عبد الوهاب عزام^(٥) ، تلك هي أهم الآراء قديماً وحديثاً في تقسيم الجزيرة العربية - وسنكتفي بالحديث عن التقسيم الخامس حسب ما ذهب إليه جغرافيو العرب القدماء - وفي ضوءه ستبرز طبيعة الجزيرة وتكوينها الجغرافي .

الحجاز :

قال عبيدالله ، والذي أجمع عليه العلماء أنه (أي الحجاز) من قولهم حجّزه يحجّزه حجّزاً أي منعه ... قال الخليل : سمي الحجاز حجازاً لأنه فصل بين الغور والشام وبين البادية^(٦) . وقال الزبير بن بكار : سألت سليمان بن عياش السعدي : لم سمي الحجاز حجازاً ؟ فقال : لأنه حجّز بين تهامة ونجد . قلت : فما حد الحجاز ؟ قال : الحجاز ما بين بئر أبي بكر بن عبدالله بالشقرة ، وبين أثاية العرج . فما وراء الأثاية من تهامة^(٧) . وقال الأزهري^(٨) : سمي حجازاً ، لأن الحرار حجّزت بينه وبين عالية نجد . وقال الأصمعي^(٩) : ما احتجّزت به الحرار حرة

(١) مهد العرب : ٣٣ عزام .

(٢) شبه جزيرة العرب : ٥١ كحالة .

(٣) خلاصة الكلام : ٣٥/١ - ٣٦ .

(٤) شبه الجزيرة : ٥٢ كحالة .

(٥) مهد العرب : ٣٣ عزام .

(٦) معجم البلدان : ياقوت : ٢١٨/٣ .

(٧) معجم ما استمعتم : ١١/١ البكري .

(٨) لسان العرب : ١٩٦/٧ .

(٩) معجم البلدان : ياقوت الحموي : ٢١٨/٣ ، وانظر : هذا التحديد في اللسان وهو : « وما احتجّزت به

الحرار » ... اللسان : ١٩٦/٧ - ١٩٧ .

شوران وحررة ليلي وحررة واقم وحررة النار وعامة منازل بني سليم الى المدينة فذلك الشق كله حجاز ، ونقل^(١) ابن دريد قال : إنما سمي حجازاً لأنه حجز بين نجد والسرّة .

وقال عمارة بن عقيل^(٢) : ما سال من حررة بني سليم وحررة ليلي فهو الغور حتى يقطعه البحر ، وما سال من ذات عرق مغرباً فهو الحجاز الى أن تقطعه تهامة ، وهو حجاز أسود حجز بين نجد وتهامة . قال عرام^(٣) : حد الحجاز من معدن النقرة^(٤) الى المدينة ، فنصف المدينة حجازي ونصفها تهامي .

ويسمى القسم الشمالي من الحجاز : أرض مدين وحسمى ، وتطلق حسمى على سلسلة جبلية تتجه من الشمال الى الجنوب حيث تجوس خلالها أودية محصورة بين التيه وأيلة من جهة ، وأرض بني عذرة من ظهر حررة نهيل من جهة أخرى ، وكانت قبائل جذام تسكن هذه المناطق في الجاهلية^(٥) .

وقد اختلف الباحثون في العصر الأخير في تحديد الحجاز ، قال محمد صادق^(٦) : ان ولاية الحجاز واقعة بين نجد وتهامة ، ومحدودة من الجنوب ببلاد عسير ، ومن الشرق بصحراء نجد ، ومن الشمال بسورية ، ومن الغرب بالبحر الأحمر . وقال الاستاذ العبادي^(٧) : الحجاز يمتد بوجه عام من رأس خليج العقبة الى حدود اليمن إذا اعتبرنا عسيراً داخلة فيه ، كما يصنع بعض الجغرافيين .

مدن الحجاز وقراه :

لا أريد أن أتحدث حديثاً مفصلاً عن ذلك ، فلا تتسع لمثل هذا تلك الفصول الضيقة المحدودة ، وإليك طرفاً من ذلك :

-
- (١) معجم ما استعجم للبكري : ١١/١ .
 - (٢) معجم البلدان : ياقوت : ٢١٨/٣ .
 - (٣) كتاب أسماء حبال تهامة وسكانها : عرام بن الأصبح السلي ص ٢٤ : ط أولى ، لجنة التأليف : ١٣٧٥ - ١٩٥٦ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .
 - (٤) قال الأعرابي كل أرض منصبة في وعدة فهي النقرة وبها سميت النقرة بطريق مكة التي يقال لها معدن النقرة ، معجم البلدان : ٣٠٨/٨ .
 - (٥) تاريخ العرب : ١٢٨/١ جواد علي .
 - (٦) شبه جزيرة العرب : ١١٠ كحالة . نقلاً عن « دليل الحاج » لعمد باشا صادق .
 - (٧) شبه جزيرة العرب : كحالة : ١١١ نقلاً عن « مراة الحرمين » لارامير رفعت باشا .

أم القرى :

سميت أم القرى^(١) - لأنها أقدم القرى التي في جزيرة العرب وأعظمها خطراً ، اما لاجتماع أهل تلك القرى فيها كل سنة أو انكفائهم إليها وتحويلهم على الاعتصام بها لما يرجونه من رحمة الله تعالى . وقال الليث^(٢) : كل مدينة هي أم ما حولها من القرى . وأم القرى هي مكة المكرمة ، وقد اختلف العلماء في معناها على خمسة أقوال^(٣) . وقال عبيد الله الفقير إليه^(٤) : ووجدت أنها سميت مكة من مك الندى أي مصه لقله مانها لأنهم كانوا يمتكون الماء ، أي يستخرجونه وهي في واد ضيق^(٥) يتجه من الشمال الى الجنوب ، تحيط به جبال شاهقة ، وهي عند درجة ٢١ من ادرجات العرض الشمالي ، ودرجة ٣٧ من درجات الطول الشرقي . وأما صفتها : فهي مدينة^(٦) في واد والجبال مشرفة عليها من جميع النواحي ، وبناؤها من حجارة سود وبيض ملسى ... حارة في الصيف إلا أن ليلها طيب ... وليس بمكة ماء جار ومياهها من السماء ، ليست لهم آبار يشربون منها وأطيبها بئر زمزم ... فإذا جرت الحرم فهناك عيون وآبار ومزارع ونخيل .

وكان أول من سكنها العابقة ، ثم خلفهم : جرهم ، ثم جاءها بنو إسماعيل وتبعهم الأزد بعد سيل العرم ، وعلى أثرهم حلت خزاعة فكنانة فقريش^(٧) .

كما ذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى « ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع » وقد شاء الله تعالى أن تتملك مكة ما حولها ، إذ كانت منابة للعرب وأمناً ، لأنها تمسك بيدها مفتاح التجارة ، ومفتاح المركز الديني الذي كان يتقبلون في الكعبة ، ولهذا دانت لها الرقاب وخضعت . يقول ابن الفقيه : ان أهل مكة لم يؤدوا في الجاهلية أتاوه قط ، ودانت لهم خزاعة

(١) معجم البلدان : ياقوت ١/٣٣٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) معجم البلدان : ١٣٤/٨ - ١٣٥ .

(٤) معجم البلدان : ١٣٥/٨ .

(٥) مهد العرب : ٥٣ - ٥٤ .

(٦) معجم البلدان : ١٤٢/٨ ياقوت .

(٧) العرب قبل الإسلام : ٢٧٥ جرجي زيدان ، تحقيق حسين مؤنس .

وثقيف وعامر بن صعصعة^(١) . كما أشار القرآن الى تجارتهم بقوله « رحلة الشتاء والصيف » وقد جعلت التجارة من مكة مركزاً مالياً في الحجاز^(٢) .

وكان المجتمع المكي يتألف من قريش البطاح والظواهر^(٣) ، وكان في يدها زعامة مكة عند ظهور الإسلام ، وكذلك كانت السقاية والرفادة فيها ، وقد تجتمعت الثروة في يد قريش من تجارتها ، ومن ملك المال ، واحتضن الدين فقد تحققت له الغلبة السياسية . ويشير ابن فارس الى ذلك معللاً بقوله « بأن الله تعالى اختارهم من جميع العرب واصطفاهم ، واختار منهم نبي الرحمة محمداً ﷺ ، فجعل قريشاً قطان حرمه ، وجيران بيته الحرام وولاته ، فكانت وفود العرب من حجاجها ، وغيرهم يقدون الى مكة للحج ، ويتحاضرون الى قريش في أمورهم ، ولم تزل تعرف العرب لقريش فضلها عليهم وتسميهم (أهل الله) ... إذ جعلهم رمط نبيه الأذنين ، وعترته الصالحين »^(٤) .

المدينة :

وأول من سكنها العماليق ، ثم اليهود « قريظة والنضير » ، ثم تتابعت عليها القمائل اليمنية (الأوس والخزرج) التي هاجرت إليها بعد سيل العرم . وللمدينة عدة أسماء « قد أوردها ابن الفقيه »^(٥) منها طيبة ، ويثرب ، وقد نطق القرآن ببعض أسمائها « يقولون لئن رجعنا الى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » ، « وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم » وتقع المدينة في أرض بركانية بين حرتين تقعان شمال جبل أحد^(٦) ، وهو من أشهر جبالها كما تكتنفها عدة أودية من أشهرها : وادي العقيق ، وقد جعل من المدينة وما حولها جنسة وارفة الظل ، يحيط بها النخيل ، والخضرة الدائمة .

والمدينة على الخط الخامس والعشرين من العرض الشمالي — والخط الأربعين من الطول الشرقي وعلى ثلاثمائة ميل من مكة^(٧) .

-
- (١) تاريخ الأدب العربي : ٥٠/١ دكتور شوقي ضيف .
 - (٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : ١٤٧/٨ دكتور حواد علي .
 - (٣) نهاية الأرب : ٣٩٨ ، صبح الأعشى : ٣٥١/١ .
 - (٤) المزهر : ٢١٠/١ ، الصاحبي : ٢٣ .
 - (٥) شبه جزيرة العرب : ١٣٨ كحالة .
 - (٦) تاريخ العرب : ١٣٢/١ جواد علي .
 - (٧) مهد العرب : ٥٥ عزام .

ومن مدن الحجاز وقراه : جدة^(١) ، والحجر^(٢) ، وخيبر^(٣) ، والطائف^(٤) .

تهامة :

ويقال لها الغور وهي الأراضي التي على شاطئ بحر القلزم ممتدة عرضاً الى سلسلة جبال الصراة ، وقال الأصمعي^(٥) : ... إذا تصوبت من ثنانيا العرج واستقبلك الأراك والمرخ - فقد أتهمت . وقال عمارة بن عقيل^(٦) ما سال من الحرتين حرة سليم وحرة ليلى - فهو تهامة . وقال الباهلي^(٧) : وتهامة ما بين ذات عرق الى مرحلتين من وراء مكة .

وقال الرياشي^(٨) : سمعت الأعراب يقولون : إذا انحدرت من ثنانيا ذات عرق فقد أتهمت ، قال الرياشي : والغور : تهامة . وسميت تهامة^(٩) ، لشدة حرها وركود ريحها ، وهو من التهم وهو شدة الحر وركود الريح .

وقال الأصمعي^(١٠) : التهمة : الأرض المتصوبة الى البحر .

وتطلق كلمة « تهامة » على القسم الذي تحاذيه : فتسمى في الجنوب باسم « تهامة اليمن »^(١١) وتهامة عسير ، وفي الشمال تهامة الحجاز ، وتقع فيها كثير من المرافئ العربية مثل : جدة ، وينبع في الحجاز ، والحديدة والخا في بلاد اليمن . ولما كانت الحرارة قاسية في تهامة ، فقد أصبحت الأرض المجاورة للبحر قاحلة تقريباً ، وأما مناطقها القريبة من المنطقة الجبلية ، فهي ذات أودية خصبة تصلح لزراع كثير من النباتات^(١٢) .

(١) معجم البلدان : ٦٧/٣ .

(٢) معجم البلدان : ٢٢١/٣ . وانظر كتاب أسماء جبال تهامة : ٢٧ ؛ للسلي .

(٣) معجم البلدان : ٤٩٥/٣ .

(٤) صفة جزيرة العرب : ١٢٠ ، مهد العرب : ٥٨ - ٥٩ .

(٥) معجم البلدان : ٣٧/٢ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) اللسان : مادة نجد : ج ٤ .

(٨) اللسان : ٣٤٠/١٤ .

(٩) معجم البلدان : ٣٧/٢ .

(١٠) اللسان : ٣٤٠/١٤ .

(١١) صفة جزيرة العرب : ١١٩ الحمداني .

(١٢) شبه جزيرة العرب : ١٣ - ١٤ كحالة .

وقد ذكر الألوسي^(١) كثيراً من قراها ووديانها وأسماء صحاريها .

العروض :

وتعرف أيضاً باليامة ، وسميت عروضاً ، لأنها تعترض ما بين نجد واليمن ، وسميت يامسة نسبة الى اليامة ، وهي أشهر بلد فيها ، وكانت تسمى أيضاً (جوا)^(٢) وهو الاسم القديم لليامة .

ويقسم الألوسي^(٣) العروض الى قسمين :

١ - اليامة . ٢ - بلاد البحرين .

وقال هشام بن محمد السائب^(٤) : ... وصارت بلاد اليامة والبحرين وما والاها العروض . قال ياقوت^(٥) : قال أهل السير : كانت منازل طسم وجديس - اليامة . وتسمى اليامة اليوم : العارض^(٦) - وهو القسم الأوسط من جبل طويق ، ووادي خنيقة وسطه ، وفي الجنوب الغربي منه إقليم الخرج . وفي اليامة : قرية « منفوحة »^(٧) لبني قيس بن ثعلبة . والظاهر^(٨) أن عامل الجفاف قد أثر كثيراً في اليامة فحول أكثر أراضيها الى مناطق صحراوية ، على حين أننا نجد في الكتب أنها كانت غزيرة المياه ، ذات عيون وآبار ومراع .

وتكثر المرتفعات^(٩) في اليامة ويمثلها جبل يقال له « شوان » يصب فيه نعام وبرك ، ومن أوديتها « العرض »^(١٠) حيث يخترق اليامة من أعلاها الى أسفلها ، ولما كان من الأودية الخصبة كثرت فيه القرى والزروع .

ومن بلاد اليامة : الوشم ، والسدير ، والحمل ، وقد ذكر حافظ^(١١) وهبه

(١) بلوغ الأرب : للألوسي : ج ١ / ١٩٤ - ١٩٥ .

(٢) مهج. العرب : ٧٣ ، معجم البلدان : ١٦ / ٨ ، صفة جزيرة العرب : ١٦١ بلميد .

(٣) بلوغ الأرب : ج ١ ص ١٩٦ - ١٩٧ .

(٤) معجم البلدان : ١٠١ / ٣ ياقوت .

(٥) معجم البلدان : ١٦ / ٨ .

(٦) مهج العرب : ٧٣ عزام .

(٧) صفة جزيرة العرب : الحمداني ص ١٦٢ بلميد .

(٨) تاريخ العرب قبل الإسلام ١٤٥ / ١ جواد علي .

(٩) معجم البلدان : ٣٨٦ / ٧ .

(١٠) تاريخ العرب ، جواد علي : ١٤٥ / ١ .

(١١) شبه جزيرة العرب : ٢٤٤ كحالة .

عدداً منها ، ومن أم إماراتها : إمارة الرياض ، وهي عاصمة نجد ، وقد اتخذها آل سعود عاصمة لهم .

نجد :

قال عمارة بن عقيل^(١) : ما سال من الحرة : حرة بني سليم وحرة ليلى ، فهو الغور ، وما سال من ذات عرق مقبلاً فهو نجد .

وقال ابن السكيت^(٢) : ما ارتفع عن بطن الرمة فهو نجد . قال : وهو نجد الى ثنايا ذات عرق . .

وروى الأزهرى^(٣) بسنده عن الأصمعي قال : سمعت الأعراب يقولون : إذا خلفت عجلزا مصعدا - وعجلز فوق القرينتين - فقد أنجدت . وقال عمارة : وسمعت^(٤) الباهلي يقول : كل ما وراء الخندق خندق كسرى الذي خندقه على سواد العراق هو نجد . وقال الأصمعي^(٥) نقلًا عن ابن الاعرابي : نجد اسمان : السافلة والعالية ، فالسافلة ما ولى العراق والعالية ما ولى الحجاز وتهامة وقال ابن الاعرابي^(٦) : نجد - ما بين العذيب الى ذات عرق . وقال ياقوت^(٧) : ونجد اليمن غير نجد الحجاز غير أن جنوبي نجد الحجاز يتصل بشمالى نجد اليمن . وقال الهمداني^(٨) : وصار ما دون ذلك الجبل (أي السراة) من شرقيه من صحارى نجد الى أطراف العراق والساوة وما يليها نجداً ، ونجد تجمع ذلك كله .

ومن هذا العرض نرى أن صورة تحديد (نجد) مبهمه شيئاً ما - في المراجع القديمة ، ويظهر أن حدودها من الحجاز غرباً الى البحرين شرقاً ، ومن بادية الشام شمالاً الى حدود اليمن جنوباً ، وكأنها الهضبة التي تكون قلب الجزيرة ، وقد قيل لها في الانكليزية The Heart of Arabic وتتخلل هذه الهضبة أماكن وتلال تختلف في العلو والهبوط بعضها عن بعض فتعملو في الغرب

(١) معجم ما استعجم للبكري : ١٤/١ .

(٢) اللسان : ١٩٦/٧ - ١٩٧ .

(٣) اللسان مادة (نجد) ج ٤ .

(٤) معجم ما استعجم : ١٤/١ .

(٥) تاريخ نجد : الألوسي : ٨ ط ٢ السلفية : ١٣٤٧ القاهرة . نهاية الأرب : ٢٠٠/١ .

(٦) اللسان مادة (نجد) ج ٤ ، اللسان : ٣٤٠/١٤ .

(٧) معجم البلدان : ٢٥٨/٨ .

(٨) صفة جزيرة العرب : ٤٨ الهمداني .

المهاذي لبلاد الحجاز ، ثم تنحدر بك دون أن تدرك ذلك ، لأنه أحياناً غير محسوس . وتتألف « نجد » من الوجهة الطبيعية من مناطق ثلاثة :

١ - منطقة وادي الرمة ، وتتوافر فيها المياه ويكثر فيها الخصب ، يقول العاصمي سمعت ابن الاعرابي^(١) يقول : الرمة طويلة عريضة تكون مسيرة يوم تنزل أعاليها بنو كلاب . ثم تنحدر فتتزلزل عبس ثم تنحدر فتتزلزل بنو أسد .

٢ - المنطقة الوسطى : وهي هضبة تتخللها أودية تتجه من الشمال الى الجنوب ، وبها جبل طويق .

٣ - المنطقة الجنوبية : وتتكون من المنحدرات الممتدة من جبل « طويق » في اتجاه الجنوب وفيها مناطق معشبة ذات عيون وآبار مثل « الحريق » و « الحرج » ومن مناطقها المشهورة : « الأفلاج » ، « السليل » ، « الدواسر » .

اليمن :

وقد اختلف جغرافيو العرب في حدودها ، فقال البكري^(٣) : وحد اليمن مما يلي المشرق : رمل بني سعد ، الذي يقال له يَبْرين ، وهو منقاد من اليامة حتى يشرع في البحر بحضرموت ، ومما يلي المغرب : بحر جدة ، الى عدن أبين ، وحدها الثالث : طلحة الملك الى شرون ، وشرون : من عمل مكة ، وحدها الرابع : الجوف ومأرب . وقال الأصمعي^(٤) : اليمن وما اشتمل عليه حدودها بين عمان الى نجران ثم يلتوي على بحر العرب الى عدن الى الشحر حتى يحتاز عمار . وقيل^(٥) : حد اليمن من وراء تثليث وما سامتها الى صنعاء وما قاربها الى حضرموت والشحر وعمان الى عدن أبين وما يلي ذلك من التهام والنجد واليمن تجمع ذلك كله .

والقسم الشمالي من اليمن المجاور للحجاز يسمى : تهامة عسير ، وفي عسير أودية وزروع ، وقرى كثيرة ، منها بيشة ، وتربة ، وهي مدينة مسورة كبيرة تحيط بها المزارع والنخيل .

(١) معجم البلدان : ياقوت ٢٩٠/٤ .

(٢) شبه جزيرة العرب كحالة : ٢٢١ .

(٣) معجم ما استعجم : ج ١/١٦ .

(٤) معجم البلدان : ٥٢٢/٨ .

(٥) المرجع السابق .

وأما القسم الذي يلي البحر - فهو الغور واسمه تهامة^(١) . وتهامة اليمن سهل خصيب تتعذر إليه أودية من الجبال المحاذية للساحل ، وهذه الجبال هي امتداد لجبال السراة ، القائمة في الجزيرة العربية من شمال الحجاز الى شمال عدن . « ومن مدن تهامة اليمن : زبيد وبيت الفقيه »^(٢) .

والقسم الجبلي - هو سلسلة جبال يتصل بعضها من الشمال الى الجنوب ، « وجميع هذه الجبال آهلة بالسكان ، وفيها عيون تنبع وتجري على وجه الأرض »^(٣) . وتصب العيون ماءها في أودية حتى تلتقي الى البحر الأحمر .

وهذا الخصب والرخاء ، وتلك الحضارة التليدة تتلمس اطوارها في قول القرآن « لقد كان لسبأ في مسكنهم آية ، جنتان عن يمين وشمال ، كلوا من رزق ربكم واشكروا له ، بلدة طيبة ورب غفور »^(٤) .

وقد تحدث عن اليمن - موقعها ومساحتها وقصورها ومبانيها وجبالها ومعادنها والدول التي حلت بها - الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه المشهور^(٥) .

تفصيلات طبوغرافية :

يمكن أن ترسم صورة كاملة لشبه الجزيرة بعد أن نبرز صورتها في الأمور الآتية :

١ - السهول ٢ - الهضاب ٣ - الجبال

كما يمكن أن نوضح المسائل السالفة في توزيع التضاريس على الوجه الآتي :

(أ) بادية الشام :

وبادية^(٦) الشام على التحقيق كانت اسماً للقسم الغربي منها ، وقسمها الشرقي كان يسمى في الجنوب بادية العراق أو السبأوة . وهي تشمل المنطقة المثلثة الشكل الواقعة فيما يلي خط ٣٠° من شمال شبه الجزيرة ، وفي ناحيتها الغربية صحراء بها حجارة صوانية سوداء تفصل منحدرات

(١) شبه جزيرة العرب : ٣٠٣ كحالة .

(٢) مهد العرب : ٨٦ .

(٣) تاريخ اليمن : ٢٨٢ الرواسي .

(٤) سورة سبأ آية : ١٥ .

(٥) انظر صفة جزيرة العرب : الهمداني : ١٢٠٠ ، ١٢٥٠ ، ١٧٥٠ الخ ...

(٦) مهد العرب : عزام ٣٥ .

مؤاب وابدوم عن منخفض وادي سرحان الذي يمتد الى الجنوب الشرقي والذي تكثر به بحيرات الملح ، وفي طرف هذا الوادي تقع مدينة الجوف .

(ب) النفود أو الدهناء :

وتقع جنوب الجوف ويبلغ طولها من الغرب الى الشرق نحو ٤٠٠ ميل ومتوسط عرضها نحو ٢٠٠ ميل ، وهي في الغالب عديمة الماء ، وتكثر فيها الكثبان المرتفعة ذات الرمل الدقيق .

(ج) الربع الخالي :

مفازة مقفرة موحشة كانت تعرف فيما مضى باسم رملة يبرين^(١) ، وأما أبعاد هذه المنطقة فهي غير محدودة على وجه الصحة ، والمعروف عند العرب أنها تبدأ من جنوبي واحة « يبرين » ، وتمتد الى الهضاب الموازية لساحل البحر الهندي في الجنوب والى الجهة الغربية ، والغربية الجنوبية من هذه المقاطعة توجد مساحات شاسعة من الرمال الرقيقة المعروفة بالأسحاف . لقد وفق^(٢) رجلان من بحاز في الانجليز لاختراقها أحدهما وهو « برترام توماس » من الجنوب الى الشمال الشرقي بحتاراً أطراف الرمال الكثيفة الشرقية ، وقد قص في كتابه : Arabia Felix : Across the Empty Quarter Arabia. ما شاهده في تلك المجازفة .

وفانيتها المستر « سنت جون فلي » حيث عبره من الشمال الى الجنوب الى نقطة متوسطة كان وصلها المستر توماس واتجه منها غرباً الى منتهى وادي الدواسر .

(د) النفود الصغرى :

وتسمى الدهناء ، قال ياقوت ، وقال أبو منصور « الدهناء^(٣) من ديار بني تميم ، وهي سبعة أجبل من الرمل في عرضها بين كل جبلين شقيقة ... وهي من أكثر بلاد الله كلاً » ، وقد اخترقها الشيخ حافظ^(٤) وهبة من الشمال ، وقطعها في ثلاث عشرة ساعة على الإبل ، وقطعها

(١) صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٣٧ ، ص ١٦٥ ، معجم البلدان : ٩٤/٨ .

(٢) قلب جزيرة العرب : ٢٣ ، فؤاد حزة .

(٣) معجم البلدان : ١١٥/٤ .

(٤) مهد العرب : ٧٦ .

من جهة الاحساء في ست ساعات ، ولغز الدهناء^(١) يطلق على أسياف رملية منفصلة عن النفود الشمالي وواصلة بينه إلا في مسافة قصيرة بين النفود الجنوبي الكبير المسمى بالربع الخالي وتنتشر الدهناء بشكل حبال وخيوط وألسنة رملية ، بينها فجوات صلبة ، والدهناء بمجموعها تفصل بين مرتفعات العارض والقصيم والدير ، وبين سواحل « الحسا » و « الكويت » ومهمة النفود أنها تتم الحلقة التي تطوق « نجدا » بالصحارى .

مناخ بلاد العرب :

١ - السمة الغالبة في مناخها الحرارة الشديدة التي تلفح البشرة بوجهها ، إلا أنه يمكن التمييز بين أقسامها فيما يأتي :

المناطق الساحلية^(٢) سواء ما كان منها في الشرق أم في الغرب تتميز بحرارة شديدة أيام أشهر القيظ تشوبها رطوبة لزجة ، وتمثل تلك المناطق في تهامة وسواحل الخليج الفارسي ، وأما المنطقة النجدية فإنها في أيام القيظ تكاد تميل الى الاعتدال بسبب ارتفاعها ، وتكاد تنقسم لياالي هذه المنطقة برقة الهواء ولطافته .

أما المنطقة التهامية الجبلية الشاملة لمكة والمدينة في الغرب ، والحسا في الشرق فالسحنة الغالبة عليها المسموم القاتل في أشهر الصيف متسجراً من صخور تسفعها الهاجرة ، ورمال تغلي اليم وتصر العظم ، ثم يتقلب الجو فيما عدا ذلك . وفي منطقة جبال الحجاز وعسير يظل الجو ممتدلاً حتى في أشهر القيظ وفي جهات الطائف وجبل الشفا وعير لا يشعر السكان بأنهم في بلاد حارة ، والسبب في ذلك^(٣) ارتفاع تلك المنطقة عن سطح البحر .

٢ - بلاد العرب عديمة الأمطار أو قليلتها . وترجح بين الكثرة والقلة تبعاً لاختلاف المواسم والمواقيت ، ففي الجنوب تهطل أمطار الرياح الموسمية في الصيف ، وفي الشمال الغربي تهطل كذلك أمطار الرياح الغربية شتاء ، ومما يعجب الانسان أن المطر أحياناً ينزل قاسياً عارماً حتى إنه ليقطي الأرض بزبد في ساعة واحدة وللإنسان أن يتحدث بعد ذلك^(٤) « كيف أن بلاداً برمتها كانت من قبل بضع دقائق تحرق الجسد بحرارة أرضها إذا بها كنهر متلاطم

(١) قلب جزيرة العرب : ٣١ فؤاد حمزة .

(٢) المرجع السابق : ٥٣ .

(٣) قلب جزيرة العرب : ٥٣ ، شبه جزيرة العرب كحالة ٢٧٩ .

(٤) قلب جزيرة العرب : ٦٠ .

مزيد ، أما الأمطار في نجد ، فلها الشأن الأول في الحياة ،^(١) ، وتسم بالقلة على العموم إذا قيست بمناطق الجنوب ، وهيات أن ترى على وجه البدوي مسحة من السرور إلا إذا برق البرق ، وهطل القطر وشمل بدفقاته جنبات القفر . وهذا الاختلاف وذلك التنوع في الأمطار يعكس صورة للمجتمع العربي فحيث تقل الأمطار أو تنعدم ترى أسلوب العيش الرعوي وحياة التنقل والقفر ، وحيث تكثر الأمطار ترى أسلوباً للاستقرار الزراعي حيث تشق الأرض وتلقى البذور . ويحانب الأمطار نرى المياه الجوفية تتمثل في الوديان عابرة طريقها ، ضربة في قلب الجزيرة والأودية التي تصفي سطح السلسلة الغربي دافعة مياهها الى البحر الأحمر كثيرة جداً منها :

وادي التيم : ويصب قريباً من مدينة العقبة ، ووادي الجوشية^(٢) ، والمالحق والأبيض ، واليعنونة . والجدايل ، والعمور^(٣) ، وداما ، وأزلم ، والمياه^(٤) والحض^(٥) ، والحيران^(٦) ، ووج^(٧) ، وبارق^(٨) ، واندوم^(٩) .

ولما كان العمل الأساسي الذي أهدف إليه هو الحديث عن اللهجات العربية كان لزاماً علي أن أمهد لذلك بالبحث عن القبائل العربية وتنقلاتها في شبه الجزيرة ، حتى أكون على علم بمواطنها وديارها التي اطمأنت إليها وأخلدت ، وحديث مثل هذا بالغ الأهمية إذ دراسة اللهجات لا يمكن أن تكون دراسة حقة إلا إذا اعتمدت على دراسة أماكن القبائل ونزولها في السهل أو في الجبل ، أو على مواطن الكلاً أو على سفوح الوديان ، كما أن بعد القبائل في الأماكن ، وانتشار ديارها هنا وهناك ، أو قرب تلك المنازل والخرائطها في وحدة جغرافية مما يترك آثاره العميقة في لغات تلك القبائل عن طريق تهذيب لغاتها حيناً وتشذيبها أحياناً . كما أن مثل هذه الدراسة الجغرافية – تفتح ميادين للمقارنات اللهجية وإبراز الخلافات التي تكون بين قبيلة وأخرى ،

-
- (١) شبه جزيرة العرب : ٢١٢ كحالة .
 - (٢) معجم البلدان لياقوت : ١٧١/٣ .
 - (٣) صفة جزيرة العرب للهمداني : ١٨٩ بليهد .
 - (٤) معجم البلدان : لياقوت ٣٧٦/٨ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني ٢٢٧ .
 - (٥) صفة جزيرة العرب : الهمداني ٨١ ، ٧١ .
 - (٦) صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢٠ .
 - (٧) معجم البلدان : لياقوت ٣٩٩/٨ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢٠ .
 - (٨) معجم البلدان : لياقوت ٣٢/٢ .
 - (٩) المرجع السابق : ٣٧٣/٨ .

فالملاقة لا زالت قائمة بين اللهجات ، وبين بيئتها الجغرافية بل إننا نجد كثيراً من خد
الأقاليم الجغرافية تنطبع في لغة قاطنيها ومن أجل اختلاف الأقاليم والسكنى و
والاستقرار . تختلف مظاهر اللهجات بين سكان الجبل والصحراء والأودية ، وبين س
الجنوب والشمال ، كما أن هذه الهجرات في الجزيرة - كانت تسبب احتكاكاً لغوياً بين ال
والطائفتين « فاللغة كما أنها لصيقة^(١) بالدين والأدب ، والتاريخ والقومية » نراها كذلك
بالجغرافيا والأرض . والاستاذ « هنري بر » كان على حق عندما قال (واللغة^(٢) تظل -
للحياة » في تطورها الذي لا ينتهي الى حد » .

(١) محاضرات في اللهجات وأسلوب دراستها : مقدمة د. أنيس فريجة . مطبعة الرسالة : ١٣٧٤ - ٥٥

(٢) اللغة : فنديس ص ٦ ترجمة الدواخلي والقصاص . مطبعة لجنة البيان العربي : ١٩٥٠ .

ثانياً : (أ) تنقلات القبائل العربية

مقدمة

لم يكن المجتمع العربي مجتمعاً انعزالياً كما يظن ، بل كان من أهم مميزات النشاط والحركة والتوئب وكانت تيارات القبائل تتحرك في قلب الجزيرة وعلى أطرافها تارة صاعدة وأخرى هابطة ، والعربي بعد ذلك كثير التنقل للقمص أو السطو على القوافل السابجة في بطن الجزيرة ، وكانت الهيئة الجبلية والصحراء الوعرة لها الأثر الكبير حيث صبغتهم بصبغة خاصة ، وطبيعة الإقليم في الجزيرة هو الذي حدد تنقلاتهم وتحركاتهم ، فالمرتعات تقف حائلاً أمام تجمعاتهم ، ثم لا تلبث عزائهم أن تزلزل تلك الكتل الصخرية حيث يفرون منها ضاربين في الوهاد ما دام الفقر والقسوة قد أحاطا بمجتمعهم من كل جانب ، وما دام إقليم الجزيرة قد اتسم بالشذوذ الجغرافي ، فالمناطق القاحلة الجرداء يجانب المناطق الغنية الخصبة وبينما الجبال الضاربة في الأفق يجانب الأغوار الموعلة في العمق ، ففي موضع تبسم الحياة ، وفي موضع تقسو ، ومن المعروف أن العربي يربط حياته بأمرين : تتبع المطر^(١) ، ومواطن الكلأ ، فإن وجد ذلك استقر وأمن ، وإن لم يجد لا يلقي عصا التسيار إلا إذا فاجأه واحد منها ، وحياة العربي كانت تتمثل في الصيد والرعي والغزو والقمص والسلب ، فإن لم يجد العربي عدواً من غير قبيلته - أغار على قبيلته^(٢) والأدلة على ذلك كثيرة في الأدب العربي .

وجميع الصفات السالفة تحتم على العربي أن يكون في دائرة متصلة من الحركة التي لا تنقطع ، بل كانت جميعها تتمثل في دمه ، لأن العربي يريد أن يعيش فلا بد من أن يغزو حيناً ويرعى حيناً آخر ، ومن هنا لا يمكن أن نتصور القبائل بأنها كانت كتلاً صماء لا تتلاقى ، ولعل الهجرة التي أعقبت انهيار سد مأرب كانت أبرز دليل على هذا التمازج والتواصل والحركة ، ونرى صورة لمثل هذا يحدثنا عنها ياقوت حيث يقول في هجرة اليمنيين (وباعد الله بين أسفارهم كما ذكروا فتفرقوا عباديد في البلدان)^(٣) . ثم يحدثنا ياقوت عن نزول من نزل في « خيبر » ،

(١) معجم البلدان : ياقوت ٣٥٧/٧ .

(٢) فجر الإسلام : ١١/١ - ١٢ أحمد أمين : ط الثالثة لجنة التأليف والترجمة ، سنة ١٣٥٤ هـ - ١٩٣٥ م .

(٣) معجم البلدان : ٣٥٦/٧ .

«وتياء» ، «وادي القرى» ، «ويثرب» ، «والحرم» ، «وعمان» ، «والشجر» ، «والشام» .

فلم تكن القبائل في عزلة ولا واقعة تحت أرض محدودة ضيقة ، ولم تكن تتمثل فيها الانطوائية كما حدثتنا كتب الأخبار ، وإنما كان التقارب بين القبائل عن طريق النسب تارة ، والحلف^(١) تارة أخرى ، والمصالح المشتركة أحياناً .

ويرى «جولد تسبير» أن الدوافع التي تكون هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلي بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين ، بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التي تهتم العشيرة كالحماية والأخذ بالنار^(٢) .

ونجد أمثلة للتحالف كثيرة في حياة العرب منها «الرباب»^(٣) ، أو حلف «الحمس» ومعناه : التشدد ، وقد كان بين قريش وكنانة وخزاعة «ويروى عن أبي عبيدة النحوي : أن بني عامر ابن صعصعة دخلوا معهم في ذلك أيضاً»^(٤) .

والذي يرى من تاريخ العرب أن القبيلة لا تكاد تنسم بسحنة خاصة في الزمان والمكان حتى يعرض لها ما يعرض للمجتمعات من قلقلة ، فتختلف الأرض التي كانت تميش فوقها وتختلف كذلك الأسماء التي كانت تنسب بها ، ومن هنا نرى منازلهم تتداخل وتتعدد حتى أصبحنا لا نستطيع أن نحدد من القبائل يسكن هذه الأرض «فيحدثنا العاصمي عن أبي المكارم الاعرابي وابن الاعرابي أن الرمة طويلة عريضة تكون مسيرة يوم تنزل أعاليها بنو كلاب ثم تنحدر فتزل عبس وغيرهم من غطفان ، ثم تنحدر فتزل بنو أسد»^(٥) .

وفي كتاب نصر «أن وسطه لبني كلاب»^(٦) و«غطفان» ، فهذا الخلط الذي أراه من النصين السابقين مرجعه القلقلة المستمرة بين المد والجزر فمرة تنزل بنو كلاب في أعالي الرمة ، ومرة

(١) قال البكري : لما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف انضم الذليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير . معجم ما استعجم : ٣/١ هـ البكري .

(٢) تاريخ العرب : ١/٣٥٤ جواد علي .

(٣) الاشتقاق لابن دريد : ص ١١١ وستفد ، وانظر اللسان : ١/٣٨٨ .

(٤) بلوغ الأرب : الألوسي ٢/٢٨٩ ، نهاية الأرب للنويري : ج ٢ ص ٣٦٧ .

(٥) معجم البلدان : ٤/٢٩٠ .

(٦) المهرج السابق : ٤/٢٩١ .

تنحدر القبيلة نفسها في وسطه فالحدود معالمها باهتة في تلك الجزيرة الشاسعة ، ومرجع ذلك الهجرات التي لا تنتهي حتى تبدأ من جديد في هجرة أخرى ، فكم من قبيلة خانها الفيث ونبا بها الموضع فهجرت إلى مساقط المطر، ومنابت العشب وما هو الهمداني يتحدث عن هجرة الأزدي فيقول (وأقاموا بتهامة^(١) ما أقاموا حتى وقعت الفرقة بينهم وبين كافة عك فساروا إلى الحجاز فرقا ، فصار كل فخذ منهم إلى بلد ، فمنهم من نزل السروات ومنهم من تخلف بمكة وما حولها ، ومنهم من خرج إلى العراق) ...

وكما حدثنا عن هذا ياقوت والهمداني حدثنا عن ذلك أبو علي أحمد^(٢) بن رسته وأبو الحسن المسمودي^(٣) . وإذا كان الخلط في السكتى وفي أماكن القبائل قد لمح عند ياقوت ، فإنه يلح كذلك عند مؤرخ جغرافي مشهور حيث ذكر أن « عسغان^(٤) كانت تسكنها هذيل » وكانت كذلك « تسكنها بنو المصطلق »^(٥) .

وهكذا نجد أنفسنا أمام قفزات رائعة صورتها لنا القبائل العربية فتسارعة تضرب الأرض بأقدامها منجدة ، وتارة تضرب بأقدامها متهمة ، ثم تلمح لها صورة أخاذة على أطراف الجزيرة جبالها ووديانها وغورها ونجدها . وفي الفقرة الآتية أحاول أن أرسم صورة سريعة لتفرق القبائل العربية في الجزيرة لتتعرف على مساكن كل قبيلة على سبيل التقريب ، لأن القبائل تتداخل مساكنها ثم هي دائبة التنقل والفر من هنا وإلى هناك ، فالحديث عن تفرق القبائل صعب عسير ولن يجد الباحث وطناً ثابتاً محدداً لأي قبيلة من القبائل ، ولا بقعة في شبه جزيرةهم - على تباعد أطرافها - اختصت بقوم منهم دون الآخرين فيحدثنا البكري (أن بعض^(٦) بيضة لبني هلال ، وبعضها لسلول) أو أن « الوصيف »^(٧) أدناه لكنانة وشقه الآخر لهذيل « أو » الضجن^(٨) - واد في بلاد هذيل بتهامة أسفل لكنانة ، أو أن « سعياء »^(٩) واد بتهامة

(١) صفة جزيرة العرب : الهمداني ٢٠٩ .

(٢) الأعلام النفيسة : ٥٩ .

(٣) التنبيه والإشراف : ٢٠٨ .

(٤) معجم ما استمع : ٩٩٢/٣ .

(٥) المرجع السابق : ٩٤٣/٣ .

(٦) المرجع السابق : ٢٩٤/١ .

(٧) معجم قبائل العرب : كحالة ٩٩٧/٣ .

(٨) معجم البلدان : ياقوت مادة (ضجن) .

(٩) معجم قبائل العرب : ٩٩٧/٣ .

قرب مكة أسفله لكنانة وأعلاه لهذيل ، أو أن «أدام»^(١) واد بتهامة أعلاه لهذيل وأسفله لكنانة .

أرأيت تداخل الحدود والتحام السكنى ؟ ثم هذا التحديد المبهم من أن الوادي شقته لقبيلة كذا وشقه الآخر لقبيلة كذا ، إن هذه الحدود على الرغم من تحديدها باهتة لا تشفي غلة الباحث اللغوي الذي يريد أن يدرس لهجات هذه القبائل دراسة منهجية .
واليك صورة مبسطة تبرز فيها الخطوط العريضة لهذا التنقل .

تنقلات القبائل :

حدثتنا كتب التاريخ أن العرب قسمان :

١ - العرب البائدة : وهم الذين نادوا ودرست آثارهم ، وانقطعت تفاصيل أخبارهم .

٢ - العرب الباقية وهم قسمان :

القسم الأول :

العرب العاربة . وهم بنو قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام ، وهم عرب اليمن ، ومن أشهر قبائلهم :

جرهم : وكانت منازلهم أولاً باليمن ، ثم انتقلوا إلى الحجاز فنزلوه وأقاموا به^(٢) .

يعرب : ومن يعرب تشعبت القبائل والبطون من فرعين كبيرين وهما حمير ، وكهلان .

القبيلة الأولى : (حمير) وهم حمير بن سبأ « وكانت بلادهم مشارف اليمن فظفار وما حولها »^(٣) . وأشهر بطون حمير قضاة والمشهور من « قضاة » الأحياء الآتية :

الحي الأول : « بلى » .

(١) معجم البلدان : ياقوت ١٠٥٠/١ .

(٢) صبح الأعشى : القلقشندي ٣١٥/١ دار الكتب ١٣٤٠ هـ - ١٩٢٢ م ، قلب جزيرة العرب : فؤاد حمزة ٢٢٥ ، العقد الفريد : مطبعة الاستقامة ط أول سنة ١٩٤٠ ٣/٣٥٣ ، نهاية الأرب : ٢١١ ط أول القاهرة ١٩٥٩ تحقيق الأبياري .

(٣) صبح الأعشى : ٣١٥/١ .

الحي الثاني : « جهينة » .

الحي الثالث : « كلب » قال صاحب حماة « وكان بنو كلب^(١) في الجاهلية ينزلون دومة الجندل وتبوك وأطراف الشام » .

الحي الرابع : « بهراء » وقال في العبر « وكانت منازلهم^(٢) شمالي منازل «بلي» من الينبع الى عقبة أبيه » .

الحي الخامس : « بنو نهل » وكانت منازلهم^(٣) باليمن .

القبيلة الثانية : (كنهلان) وأشهر بطون كنهلان :

أولاً : (الأزد) قال أبو عبيد : ويقال بالسين بدل الزاي . قال الجوهري : بالزاي أفصح وقد قسم الجوهري الأزد الى ثلاثة أقسام :

أ (« أزد شؤة » ، (ومنازلهم المراء)^(٤) .

ب (« أزد السراة » ، وهو موضع بأطراف اليمن نزل به فرقة منهم فعرّفوا به^(٥) .

ج (« أزد عمان » ، وعمان مدينة بالبحرين نزّلها قوم منهم فعرّفوا به^(٦) .

ثم الأزد بطون كثيرة منها : غسان ، قال في العبر « وبلادهم على القرب من بلاد اليمن ... ولفسان هؤلاء ملك العرب^(٧) بالشام » ، ومنها « الأوس والخزرج » ، وكانت منازلهم^(٨) بيثرب .

(١) المرجع السابق : ٣١٦/١ ، معجم قبائل العرب ٩٩١/٣ .

(٢) صبح الأعشى : ٣١٧/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١١٠/١ ، نهاية الأرب : القلقشندي ١٨٢ .

(٣) صبح الأعشى : ٣١٧/١ ، معجم قبائل العرب : ١١٩٧/٣ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني ١١٦ .

(٤) معجم ما استعجم : البكري ٩٠/١ .

(٥) صبح الأعشى : ٣١٩/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١٥/١ .

(٦) صبح الأعشى : ٣١٩/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١٦/١ .

(٧) صبح الأعشى : ٣١٩/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ١٦/١ .

(٨) صبح الأعشى : ٣٢٠/١ ، نهاية الأرب : القلقشندي : ٩٤ ، صفة جزيرة العرب ٢١١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ٥٠/١ .

ثانياً : « طيء » قال في العبر « وكانت منازلهم^(١) باليمن فخرجوا منها على أثر خروج الأزد عند تفرقهم بسيل العرم ، فزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني أسد ثم غلبوا بني أسد على جبلي « أجا وسلمى » من بلاد نجد .

ثالثاً : « مذحج » ، ومذحج بطون كثيرة منها :

أ (« خولان » قال في العبر : « وبلاد خولان في بلاد اليمن من شرقيه »^(٢) .

ب (بنو الحارث بن كعب ، قال في العبر (وديارهم بنواحي نجران^(٣) من اليمن وهم مجاورون لبني ذهل) .

رابعاً : (همدان) قال في العبر : « وكانت ديارهم باليمن من شرقيه ولما جاء الإسلام تفرق من تفرق منهم وبقي من بقي »^(٤) .

خامساً : (كندة) قال صاحب حماة : (وبلادهم اليمن قبلي حضرموت ، وكان لهم ملك بالحجاز واليمن^(٥)) ويذكر الهمداني بأن « كندة^(٦) من أرض حضرموت » وأما ياقوت فيذكر أن « كندة اسم قبيلة ، ومخلاف كندة^(٧) باليمن » ويذكر الاستاذ « نكلسون » أن دولة^(٨) كندة كانت لتبابعة اليمن ، كما كان اللخميون لملوك الفرس والشيء المهم في قيام دولتهم القصيرة العمر : أنها كانت أول محاولة في داخل بلاد

(١) صبح الأعشى : ٣٢٠/١ ، معجم قبائل العرب : كحالة ٦٨١/٢ ، جهرة أنساب العرب : ابن حزم ٣٧٥ تحقيق بروفسال ، دار المعارف بمصر ، معجم ما استعجم ٩٠/١ ، نهاية الأرب : القلقشندي : ٣٢٦ .
(٢) صبح الأعشى : ٣٢٧/١ ، معجم قبائل العرب : ٢٣١/١ ، صفة جزيرة العرب : ١١٦ ، نهاية الأرب ٤٩٠ القلقشندي .

(٣) صبح الأعشى : ٣٢٦/١ ، معجم قبائل العرب : ٣٦٦/١ ، صفة جزيرة العرب ٥٣ .

(٤) صبح الأعشى : ٣٢٨/١ ، معجم قبائل العرب : ١٢٢٥/٣ ، صفة جزيرة العرب ٨٥ .

(٥) صبح الأعشى : ٣٢٨/١ ، معجم قبائل العرب : ٩٩٨/٣ ، نهاية الأرب : ٤٠٩ ، المعتمد الفريد : ٣٤١/٣ ، قلب جزيرة العرب : ٢٣٤ ، فؤاد حمزة .

(٦) صفة جزيرة العرب : الهمداني ٨٥ .

(٧) معجم البلدان : ٢٨٤/٧ .

(٨) تاريخ العرب : مبروك نافع ١٤٣ مطبعة وادي النيل .

العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية لها زعيم واحد ، ولم تنجح هذه المحاولة لأن التوحيد العام نجح على يد نبي الإسلام محمد عليه السلام^(١) .

سادساً : (مراد) قال صاحب حماة (وبلادهم الى جانب زبيد من بلاد اليمن)^(٢) .

سابعاً : (أنمار) قال في العبر (وكانت بلادهم في سروات اليمن^(٣)) والحجاز الى تبالة) .

ثامناً : (جذام) « ومساكنها بين مدين الى تبوك ، فالى أذرح^(٤) » ، وقال الهمداني (ومنها فخذ مما يلي طبرية من أرض الأردن) «^(٥) .

تاسعاً : (لحم) ، (وكان لهم ملك بالحيرة من بلاد العراق)^(٦) .

عاشراً : (الأشعريون) ، وهم من كهلان من القحطانية قال الهمداني (ديار الأشعريين^(٧) من حدود بني مجيد بأرض الشقاق فالى حيس فزييد) ومن بلدانهم : القحمة « والحصيب^(٨) » وقدموا على النبي ﷺ فقال لهم : نعم الحمى^(٩) ، والأشعريون لا يفرون في قتال ولا يفلون هم مي وأنا منهم .

الحادي عشر : (عاملة) ، وقد ذكر الهمداني (أن يجبال عاملة من بلاد الشام^(١٠) منهم الجهم الغفير «وعاملة خرجت الى الشام من سيل العرم^(١١) » ، ونزلوا بالقرب من دمشق » وقد أفاض علماء الجغرافيا والتاريخ من المسلمين في وصف هجرات اليمنيين كأحمد

(١) المرجع السابق : ١٤٧ .

(٢) صبح الأعشى : ٣٢٩/١ ، معجم قبائل العرب : ١٠٦٦/٣ .

(٣) صبح الأعشى : ٣٢٩/١ .

(٤) معجم قبائل العرب : ١٧٤/١ .

(٥) صفة جزيرة العرب : ١٢٩ .

(٦) صبح الأعشى : ٣٣٤/١ ، صفة جزيرة العرب : ١٢٩ ، نهاية الأرب : ٤١١ .

(٧) صفة جزيرة العرب : ١١٩ .

(٨) المرجع السابق : ٥٣ .

(٩) معجم قبائل العرب : ٣١/١ نقلًا عن (مشكاة المصابيح) .

(١٠) صبح الأعشى : ٣٣٦/١ ، صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢٩ ، معجم قبائل العرب : ٧١٤/٢ ، جهرة أنساب العرب : ٣٩٤ .

(١١) خلاصة الكلام : ٥٧ غني ط أولى المطبعة الشرقية .

ابن رسته^(١) ، وأبي محمد الحسن بن أحمد الهمداني اليمني^(٢) (٣٣٤ هـ) وأبي الحسن المسعودي^(٣) (٣٤٦ هـ) وياقوت بن عبد الله الحموي^(٤) (٥٧٢ - ٦٢٦ هـ) .

هذا وقد علل بعض مؤرخي العرب هجرة اليمنيين هذه الى الشمال «بانهيار سد مأرب»^(٥) ، ويعملها الآخرون بالخطاط التجارة في اليمن بين القرن الثالث والرابع ق م - إثر نشاط الرومان التجاري في البحر الأحمر - وقد سبب هذا النشاط الخطاط في المجتمع وتدهوراً فيه .

وأياً ما كان فتصدع السد لم يكن إلا السبب المباشر لمجموعة كثيرة من الأسباب التاريخية المختلفة : اقتصادية واجتماعية وسياسية ، خارجية وداخلية - أدت الى هذا التفكك في المجتمع ، ثم الى الهجرة بعد أن حلت بهم التكتبات ، وفاجأتهم الكوارث . ويستنبط من هذا العرض أن عرب اليمن قد أسسوا في هجراتهم خارج بلادهم ممالك عظيمة - كالغساسنة في الشام ، والمناذرة في العراق - وجميع هؤلاء من الأزدي ، ثم مملكة كندة في نجد والحجاز^(٦) .

وتلك الصورة المبعثرة للقبائل أشبه ما تكون بتداخل الموج عندما تهب عليه الرياح السافيات ، فلم نكد نلمح فاصلاً بين القبيلة والأخرى في هجرتها كما أننا لا نلمح الموجة تنتهي عندما تتصل بها موجة أخرى ، وهكذا كانت الهجرات في اتصال وتداخل وتقلقل .

القسم الثاني : العرب المستعربة :

وعرفت بالمعدنانية ، ومن أولاد عدنان : معد ، وكان لمعد أربعة أولاد : اياد ، نزار ، قنص ، أنمار ... ويقسم النسابون عدنان الى فرعين كبيرين (ربعة ومضر)^(١)

(١) الأعلام النفيسة : ٥٩ .

(٢) صفة جزيرة العرب : ٢٠٩ .

(٣) التنبيه والاعتراف : ٢٠٨ .

(٤) معجم البلدان : ٣٥٦/٧ وما بعدها .

(٥) انظر : في خبر خراب سد مأرب : معجم البلدان : ٣٥٥/٧ .

(٦) لا زال المؤرخون على خلاف في أصل كندة وهل هي عدنانية أو قحطانية ؟ انظر في ذلك : تاريخ العرب قبل الاسلام ٢١٨/٣ - ٢١٩ .

الأصل الأول : (ربيعة)

ولربيعة بطنان وهما : أسد وضيبة ، وديارهم الى الآن بالجزيرة الفراتية تعرف بديار ربيعة ، وقال الهمداني : « ديار ربيعة من العروض ونجد »^(٢) .

ومن أسد (بنو عنزة) ، وكانت ديارهم خير^(٣) من ضواحي المدينة (، وتمتد منازلهم^(٤) من نجد الى الحجاز فوادي السرحان فالحماد فبادية الشام ، ومن أسد - جديلة ومن جديلة عبد القيس قال في العبر : (وكانت ديارهم بتهامة حتى خرجوا الى البحرين وزاحموا من بها من بكر ابن وائل وتميم وقاسمهم المواطن)^(٥) ومن بكر بن وائل من ربيعة بنو عجل - (وكانت منازلهم من اليمامة^(٦) الى البصرة) .

ويرسم الوزير الفقيه عبد الله البكري الأندلسي المتوفي سنة ٤٨٧ هـ صورة متحركة لتنقل قبائل ربيعة ، وذلك بسبب الفتن التي قامت بين قبائلها ، وأشهر القبائل التي فارقتها عبد القيس وشن بن أفسى ومن معهم - فاخترأوا البحرين وهجر^(٧) ، واقتسموها بين قبائلهم .

ودخلت قبائل أخرى من ربيعة ظواهر بلاد نجد والحجاز وأطراف تهامة وما والاها ، وانتشروا فيها ، فكانوا « بالذئاب » ، و « واردات » و « الأحص »^(٨) ... وتيامنت قبائل أخرى من ربيعة الى بلاد اليمن فحالفت أهلها ، واستقرت بها ، وبقوا على أنسابهم - وكان منهم أكلب بن ربيعة بن نزار ، وقبيلة عنز وتنسب الى عبد الله بن وائل بن قاسط من بني أسد بن ربيعة^(٩) .

(١) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ١٤/١ .

(٢) صفة جزيرة العرب : ١٧١ همداني .

(٣) صبح الأعشى : ٣٣٧/١ ، نهاية الأرب : ٣٧٨ .

(٤) معجم قبائل العرب : ٨٤٦/٢ .

(٥) صبح الأعشى : ٣٣٧/١ ، معجم قبائل العرب : ٧٢٦/٢ .

(٦) صبح الأعشى : ٣٣٩/١ ، معجم قبائل العرب : ٧٥٧/٢ ، صفة جزيرة العرب : ١٦١ ، نهاية الأرب : ٣٥٠ القلقشندي .

(٧) معجم ما استمعتم : ٨٠/١ .

(٨) المرجع السابق : ٨٢/١ .

(٩) ٨٢/١ .

« ولم تزل الحروب والقوائع تنقلهم من بلد الى بلد ، وتنفيهم من أرض الى أرض ، وتغلب في كل ذلك ظاهرة على بكر^(١) حتى التقوا يوم (قضة) »^(٢) .

وكانت الدائرة في هذا اليوم لبكر على تغلب - فتبددت تغلب في البلاد ، وانتشرت بكر ابن وائل وعنزة ، وضبيعة ، باليامة فيما بينها وبين البحرين الى أطراف سواد العراق... وانحازت النمر وغفيلة ، الى أطراف الجزيرة وعانات وما دونها الى بلاد بكر بن وائل وما خلفها من بلاد قضاة من مشارق الأرض »^(٣) .

الأصل الثاني : (مضر) .

وقد تشعبت مضر شعبتين : قيس عيلان بن مضر ، والياس بن مضر . هذا ويعلل البكري في معجمه تفرق قبائل مضر في شتى أنحاء الجزيرة العربية الى تباين قبائلهم ، وكثرة عددهم وفصائلهم ، حتى ضاقت بلادهم عنهم « فطلبوا المتسع والمعاش وتبعوا الكلال والماء ، وتنافسوا في المحال والمنازل ، وبغى بعضهم على بعض فاقتتلوا »^(٤) .

وكانت مضر مقيمة وحدها في تهامة - بعد خروج ربيعة منها ، حتى دب بينها التفرق ، ووقعت بين قبائلها البغضاء ، فرأينا قبيلة متهمة ، وأخرى منجدة ، فظعن قيس من تهامة طالعين الى بلاد نجد ، إلا قبائل منهم ، فانحازت الى أطراف الغور من تهامة »^(٥) .

كما نزلت هوازن ما بين غور تهامة إلى ما والى بيشة ، وبركا ، وناحية السراة ، والطائف ، وذا الحجاز وحنين وأوطاس وما صاقبها من البلاد ، ومن هوازن بنو سعد الذين كان رسول الله ﷺ رضيعاً فيهم . وقال في العبر : (وقد افترق بنو^(٦) سعد هؤلاء في الإسلام ولم يبق لهم حي فيطرق) . وكانوا قبل ذلك بنجد شرقي مكة .

(١) المرجع السابق : ٨٥/١ .

(٢) قضة : من اليامة على ثلاثة ليال : معجم ما استعجم ٨٥/١ .

(٣) معجم ما استعجم : ٨٦/١ .

(٤) المرجع السابق : ٨٧/١ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) صبح الأعشى : ٣٤٠/١ ، معجم قبائل العرب : ٥١٣/٢ .

ومن هوازن « بنو عامر » بن صعصعة ، ومن بني عامر « بنو كلاب » قال في العبر : (وكان^(١) لهم في الإسلام دولة باليامة ، وكانت ديارهم حمى^(٢) ضرية . وهي حمى كليب وحمى الربذة في جهات المدينة المنورة وفدك والحوالي ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام) ومن بني عامر بن صعصعة « بنو هلال » (وكانوا^(٣) يقطنون الحجاز ونجد حول مكة وفي بسائط الطائف ما بينه وبين جبل غزوان) وقال الهمداني « ووادي جلدان منقلب إلى نجد في شرق الطائف يسكنه بنو هلال »^(٤) .

ومن بني عامر أيضاً « بنو عقيل » قال في العبر (وكانت مساكنهم^(٥) البحرين في كثير من قبائل العرب ، وكان أعظم القبائل هناك بنو عقيل هؤلاء ، وبنو تغلب وبنو سليم وكان أظهرهم في الكثرة والغلب بنو تغلب ثم اجتمع بنو عقيل وبنو تغلب على بني سليم فأخرجوهم من البحرين ، ثم اختلف بنو عقيل وبنو تغلب بعد مدة فغلب بنو تغلب على بني عقيل فطردوهم من البحرين) ، ومن هوازن « بنو جشم » قال في العبر (وكانت مساكنهم^(٦) بالسروات ، وهي تلال تفصل بين تهامة ونجد متصلة من البحرين إلى الشام) ، والسروات على قرب من هذيل . ومن بطون هوازن « ثقيف » قال في العبر : وثقيف^(٧) بطن واسع ، وكانت منازلهم بالطائف ، وهي مدينة من أرض نجد على مرحلتين من مكة . ومن قبائل قيس « باهلة » (وكانوا يقطنون اليامة^(٨)) ومن قبائل قيس « بنو غطفان » قال في العبر (وكانت منازلهم^(٩) مما يلي وادي

(١) صبح الأعشى : ٣٤٠/١ ، معجم قبائل العرب : ٩٨٩/٣ ، نهاية الأرب : القلقشندي ٤٠٧ .

(٢) قال البكري : وكانت « ضرية » في الجاهلية من مياه ضباب . معجم ما استمع : ٨٦٥/٣ ، ثم قال : وقد دخل في حمى صرية حقوق لسبعة أبطن من بني كلاب ، وهم أكثر الناس أملاكا في الحمى . معجم ما استمع : ٨٦٦/٣ .

(٣) معجم قبائل العرب : ١٢٢٧/٣ .

(٤) صفة جزيرة العرب : الهمداني ١٢١ .

(٥) صبح الأعشى : ٣٤٢/١ ، معجم كحالة : ٨٠١/٢ ، نهاية الأرب : ٣٦٦/١ ، جهرة أنساب العرب ٢٧٣ .

(٦) صبح الأعشى : ٣٤٣/١ ، نهاية الأرب : ٣١٤ القلقشندي .

(٧) صبح الأعشى : ٣٤٣/١ ، معجم قبائل العرب : ١٤٩/١ ، صفة جزيرة العرب : ١٢٠ ، معجم ما استمع للبكري : ٦٧/١ ، ٧٧ ، ٧٩ .

(٨) معجم قبائل العرب : ٦٠/١ ، معجم ما استمع : ٩٠/١ البكري .

(٩) صبح الأعشى : ٣٤٤/١ ، معجم قبائل العرب : ٨٨٨/٣ .

القرى وجبلى طيء : أجباً وسلمى) ، وقال البكري « من نزل بالحجاز غطفان »^(١) ولعل نزولهم الحجاز كان بعد الإسلام . وقال القلقشندي : ومنازل غطفان^(٢) بنجد ممالي وادي القرى . ومن غطفان ذبيان ومن ذبيان « فزارة » قال في العبر : وكانت^(٣) فزارة بنجد ووادي القرى . وقال البكري : من نزل بالحجاز فزارة^(٤) ، ولعل نزولهم الحجاز كان بعد الإسلام .

ومن قبائل قيس أيضاً « بنو سليم » قال الحمداني : وهم أكبر قبائل قيس ، قال في العبر (وكانت منازلهم في عالية نجد بالقرب من خيبر)^(٥) ومن قبائل قيس (عدوان) قال في العبر (وكانت منازلهم^(٦) بالطائف من أرض نجد) قال البكري « ومن نزل بالحجاز من العرب^(٧) عدوان » ولعلهم نزولوا الحجاز بعد الإسلام .

الأصل الثالث : الياس بن مضر :

وكان لالياس بن مضر ثلاثة أولاد : قعة^(٨) ، وطابخة ومدركة وقد تفرعت منهم بطون كثيرة . أما طابخة فقد خرجت من تهامة الى ظواهر نجد والحجاز . ومن قبائل طابخة تميم « وقد نزحت تميم وضبة وعكل بن أد من الحجاز - الى بلاد نجد وصحاريها فحلوا منازل بكر وتغلب التي كانوا ينزلونها في الحرب التي كانت بينهم ثم مضوا حتى خالطوا أطراف هجر ونزلوا ما بين اليمامة وهجر »^(٩) كما نفذت بنو سعد بن زيد مناة بن تميم الى « يبرين » حتى خالطوا بني عامر بن عبد القيس في بلادهم « قطر »^(١٠) .

-
- (١) معجم ما استمعج : ٩٠/١ البكري .
 - (٢) نهاية الأرب : ٣٨٨ القلقشندي .
 - (٣) صبح الأعشى : ٣٤٤/١ ، معجم قبائل العرب : ٩١٨/٣ .
 - (٤) معجم ما استمعج : ٩٠/١ البكري .
 - (٥) صبح الأعشى : ٣٤٥/١ ، معجم قبائل العرب : ٥٤٣/٢ ، جهرة أنساب العرب : ٢٤٩ ، صفة جزيرة العرب : ١٣١ الحمداني .
 - (٦) صبح الأعشى : ٣٤٦/١ ، معجم قبائل العرب : ٧٦٢/١ .
 - (٧) معجم ما استمعج : ٩٠/١ .
 - (٨) نهاية الأرب في فنون الأدب : التنويري السفر الثاني ص ٣٥٨ دار الكتب ١٣٤٢ هـ - ١٩٢٤ م .
 - (٩) معجم ما استمعج : ٨٨/١ .
 - (١٠) المرجع السابق .

الأصل الرابع : (مدركة) :

وله فرع واحد على حاشية عمود النسب (وهو هذيل) ، وهي قبيلة متسعة لها بطون كثيرة^(١) وكانت ديارهم بالسروات ، وسراهم متصلة بجبل غزوان المتصل بالطائف ، وكان لهم أماكن^(٢) ومياه في أسفلها من جهات نجد وتهامة بين مكة والمدينة ، ثم تفرقوا بعد الإسلام ، وكانوا ينزلون الحجاز عند مجيء الإسلام^(٣) .

الأصل الخامس : (خزيمة) :

وله قرعان على حاشية عمود النسب وهما « الهون وأسد » أما أسد فهم بطن كبير متسع قال في العبر (ومنزلهم^(٤) مما يلي الكرخ من أرض نجد في مجاورة طيء . قال ويقال : ان بلاد طيء كانت لبني أسد ، فلما خرج بنو طيء من اليمن تغلبوا على أجأ وسامى وتفرق بنو أسد ، وقد كانوا ينزلون الحجاز^(٥) عند مجيء الإسلام .

تعقيب :

يلاحظ فيما سبق عند عرض القبائل العربية - أن ظهرت أسماء عديدة لها أسماء كأسماء الحيوانات والوحوش والطيور . ونظرة واحدة الى كتب الأنساب العربية مثل (كتاب صبح الأعشى : للقلقشندي^(٦) ، وبلوغ^(٧) الأرب : للألوسي ، ونهاية^(٨) الأرب : للقلقشندي ، ونهاية الأرب للتويري^(٩) ، والعقد الفريد^(١٠) لابن عبد ربه ، والمعارف لابن قتيبة^(١١) ، ونسب

(١) صبح الأعشى : ٣٤٩/١ .

(٢) معجم كحالة : ١٢١٣/٣ .

(٣) معجم ما استمعم للبكري : ٩٠/١ .

(٤) صبح الأعشى : ٣٤٩/١ ، معجم كحالة : ٢١/١ ، نهاية الأرب : للقلقشندي ٣٧ .

(٥) معجم ما استمعم : ٩٠/١ .

(٦) صبح الأعشى ٣٠٨/١ للقلقشندي . وما بعدها .

(٧) ١٩٣/٣ .

(٨) انظر : الفهرست من ص ٤٦٧ - ٤٩١ .

(٩) السفر الثاني : ٣٠٨ ، وما بعدها .

(١٠) ٢٨٧/٣ ، وما بعدها .

(١١) ص ٢٩ ط الأولى : ١٣٥٣ - ١٩٣٥ م المطبعة الرحمانية بصر .

عدنان وقحطان لأبي العباس المبرد^(١) وغيرهما من كتب الأنساب ترىنا كيف أن كثيراً من أسماء القبائل موافقة لأسماء الطيور والوحوش ، وربما أن البدوي لطول الغه بالصحراء صغار يرى في تلك الوحوش — ما يؤنسّه وبواخيه فركن إليها وسكن وأصبحنا نسمع العربي يعلن الإلفة بينه وبين الذئب نفسه الذي جعله أقرب إليه من الانسان .

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكادت أطيروا

ولهذه القربى التي كانت بين الانسان والحيوان ، رأينا أن هذا الحيوان كان مسؤولاً كالانسان تماماً إذا أحدث شيئاً في المصور القديمة ، ففي سفر الخروج إذا نطح^(٢) ثور رجلاً أو امرأة وأفضى ذلك الى موت النطيح ، وجب رجم الثور وحرم اكل لحمه ولا تبعه على مالكه ... فالصلة كانت وثيقة بينهم وبين الحيوان .

وقد شاهد بعض الرحالة إحدى قبائل « البيجا » بالقرب من سواكن لا تأكل لحم الغزال مطلقاً كما أن الحيوان إذا مات عندهم ، دفنوه باحتفال مهيب^(٣) : وقد أورد « سمث » عن ابن الجاور « ان قبيلة بني الحارث باليمن »^(٤) كانوا إذا مات غزال قاموا إليه ففسلوه وكفنوه ثم دفنوه ، ولبسوا عليه الحداد سبعة أيام كأحد أفراد القبيلة .

ولأجل هذه الصلة التي كانت بين الانسان والحيوان لا نعجب ان رأينا أسماء تلك القبائل العربية هي نفسها أسماء الحيوانات التي كانت حبيبة إليهم قال الفلقشندي : « غالب أسماء العرب منقولة عما يدور في خزانة خيالهم مما يخالطونه ويحاورونه ، إما من الحيوانات كأسد وغر وإما من النباتات كنبت وحنظلة ، وإما من الزواحف كحية وحنش ، وإما من أجزاء الأرض كفهري وصخر ونحو ذلك »^(٥) . وأرجع « نولدكه » سبب التسمية الى نوع من الشعر الطبيعي « Natural Poety » فكما أن البدوي راح ينزع من الطبيعة أخيلته الشعرية ، كذلك مال

(١) لجنة التأليف والترجمة : ١٣٥٤ - ١٩٣٦ تحقيق الميني .

(٢) المسؤولية والجزاء : علي عبد الواحد وافى : ص ١٤ الطبعة الثانية سنة ١٣٦٨ - ١٩٤٩ دار إحياء الكتب العربية .

(٣) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب - المرحوم محمد محمود جمعة ص ١٠٤ مطبعة السعادة بالقاهرة : سنة ١٩٤٩ .

(٤) انظر : المرجع السابق .

(٥) نهاية الأرب : ٢٢ الفلقشندي ، بلوغ الأرب : ١٩٣/٣ الألويسي .

إليها يستلمها أو يستخبرها أسماء الشخصية^(١) وعلل ابن فارس تسمية العربي بأسماء الحيوان « وأما تسمية العرب أولادها بكلب وقرود ونمر وأسد - فذهب علماءنا إلى أن العرب كانت إذا ولد لأحدهم ابن ذكر سماه بما يراه أو يسمعه مما يتفأل به - فإن رأى حجراً تأول فيه الشدة والصلابة والبقاء والصبر - وإن رأى ذئباً - تأول فيه الفطنة والنكر والكسب ، وإن رأى حماراً تأول فيه طول العمر والوقاحة ، وإن رأى كلباً تأول فيه الحراسة وبعده الصوت والإنف »^(٢).

ويرى القلقشندي أن العرب^(٣) تسمي أبناءها بمكره الأسماء وتسمي عبيدهم بمحجوب الأسماء « ولعل السبب في ذلك ما قاله الألويسي « حكى^(٤) أنه قيل لأبي الدقيش الكلبي : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب - وعبيدكم بأحسن الأسماء ؟ فقال : « إنما نسمي أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا » .

ولهذا لا نعجب عندما يعدد لنا ابن عبد ربه بطون قضاة فيقول (كلب بن وبرة ، وذلك أن وبرة ولد له : كلب ، وأسد ، ونمر ، وذئب ، وثعلب ، وفهد ، وضبع ، ودب ، وسيد ، وسرحان)^(٥).

(١) النظم الاجتماعية والسياسية : ١١٤ .

(٢) الصاحبي : ابن فارس : ٦٢ ط السلفية .

(٣) نهاية الأرب : القلقشندي ٢٢ .

(٤) بلوغ الأرب : الألويسي ١٩٣/٣ ، صبح الأعشى : القلقشندي ٣١٢/١ .

(٥) العقد الفريد : ٣٢١/٣ .

(ب) مدى الاعتماد في دراسة اللهجات العربية على أماكن القبائل :

في الصفحات السابقة^(١) من الرسالة عرضت بياناً شاملاً لتنقلات القبائل العربية كما جاء في كتب الجغرافيين العرب ، ومن هذا البيان لحت الحركة الدائبة والنشاط الدائم في قلب الجزيرة من جميع أقطارها ، والأفواج البشرية كالسيل الهادر لا ينقطع مده - صاعدة هابطة تتبع مواطن الكلأ ومجاري المياه ، فلم يكن بين القبائل هذه الحدود القاسية القاسية ، ولم يكن المجتمع العربي صلباً جامداً - بل كانت المناقذ عديدة بين القبائل ، وكانت طرق القوافل التي تحدثت عنها تسهل تلك المنافذ وتقوي ذلك التقابل ، وكان ذلك التقابل عن طريق الأسواق والمجتمعات وأيام العرب ، ويذكر صاحب العقد الفريد عدداً كثيراً من هذه الأيام^(٢) التي تقابلت فيها القبائل وتجمعت فيها البطون المختلفة ، وكما جمعت بينها أيام العرب جمعت بينها كذلك المنافرات التي كانت تقع بين القبائل ، وكانت هذه المنافرات من الأمور العادية التي تقع كل يوم بين الأفراد والأسر والقبائل وبطونها ، وقد ساق الألويسي عدداً وافراً من هذه المنافرات في كتابه^(٣) .

وجميع هذه الأمور وغيرها تجعل الباحث يتمثل المجتمع العربي تمثلاً صحيحاً قائماً على التقارب والاتقاء عن طريق الأنساب والمصاهرة حيناً ، وعن طريق الأحلاف تارة أخرى ، قال البكري^(٤) (فلما رأيت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ... انضم الدليل منهم الى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ... وبالطبع كان ينزل الحليف على حليفه في موطنه ليحتمي فيه ، وكانت المصالح الخاصة هي الدافع لتلك الأحلاف ، وتذكر كتب التاريخ والأدب أسماء لهذا التحالف^(٥) ، ونتيجة لهذا كله يظهر أن المجتمع العربي لم يكن انطوائياً ولا منعزلاً ، بل كان متحرراً متقللاً تلتقي تياراته متصلة - لدواعي ضرورات الحياة ومطالب العيش .

(١) الكتاب ص ٣٦ - ٥٠ .

(٢) العقد الفريد : ٤/٦ - ١١١ .

(٣) بلوغ الأرب : الألويسي ٢٨٧/١ .

(٤) معجم ما استعجم : البكري ٥٣/١ .

(٥) بلوغ الأرب : الألويسي ٢٨٩/٢ ، الاشتقاق لابن دريد : ١١١ وستيفل .

وتبع هذا أن القبائل كانت تتحرك كل ساعة وكل يوم فلا تلبث أن تستقر من أثر هجرة شاقنة حتى يناديا منادي الرحيل الى مكان آخر ، قال البكري (لما ضاقت الديار بالعرب تفرقوا في الأرض طلباً للماء والكلأ)^(١) . وما أكثر ما تضيق بلادهم عنهم ، فيطلبون المتسع ويتنافسون على المحال والمنازل ، ومن هنا نرى منازلهم تتداخل وتتعدد ، فالمكان الواحد تجدد عدة قبائل تسكنه وتنزله ، والوادي تتقابل القبائل حوله فيستقرون جميعاً فيه^(٢) .

فإذا كان الأمر كذلك ، فأيهما أجدي لدراسة اللهجات العربية ، أندرس كل لهجة متمثلين أبعادها واتجاهاتها - طالت هذه الأبعاد أم تضاءلت سواء أكانت هذه اللهجة لهجة قبيلة أو بطن أو فخذ مشهور أو مغفور ، أم ندرس اللهجات العربية متصورين أن الجزيرة العربية كل ثابت ينقسم الى قسمين غربي وشرقي ؟ ونتفاضى عن بقية القبائل المغمورة الذكر ، وسنحاول في الباب الآتي عرض آراء علماء العربية والمستشرقين في هذا الموضوع وموقفنا منه .

(١) معجم ما استعجم : ٥٣/١ البكري .

(٢) انظر : أمثلة لذلك في معجم ما استعجم للبكري : ٢٩٤/١ في معجم البلدان لياقوت : مادة : ضجن ١٥٥/١ في معجم قبائل العرب كحالة ٩٩٧/٣ .

الباب الأول

جغرافية اللسجات

الفصل الأول

رأي المستشرقين وعلماء العربية في تقسيم اللهجات إلى الحجازية والتميمية

لقد رأى « فولرز » Volders وسرو Sarauw^(١) إرجاع كل الفروق اللهجية الى الخلاف بين الحجازية والتميمية ... كما رأى « رابين » أنه لا يعلم إلا قليلاً جداً عن سواهما ، ولذلك لا يتمكن من أخذ غيرهما في الاعتبار ، فكأن دراسة اللهجات عندهم تقوم على كلتا الكتلتين الشرقية والغربية مهملين ما عداهما ، ولا يمكن أن أقرهما على دراسة اللهجات عن طريق « الحجازية والتميمية » ، أو « الشرقية والغربية » لأسباب عدة :

معارضة هذا التقسيم وأسباب ذلك :

١ - إن كلمة الشرق أو الغرب أو الحجاز وتيم - كلها أسماء مشوهة الحدود ، ووحدات ضخمة شاسعة ، فدراسة اللهجات على هذا النظام لا يرضى البحث الحديث .

٢ - أن الحجاز وتيم ، كلاهما من القبائل الضخمة ذات الفروع والبطون العديدة ، وكثيراً ما نجد لهجات هذه الفروع تخالف لهجة القبيلة الأم ، ثم إن بعض بطون هذه القبائل نفرت عنها وعاشت في أماكن عديدة - فدراسة اللهجات عن طريق تلك الواحدات الضخمة فيه خطورة ، وخروج على المنهج السليم .

٣ - إذا كنا سنوجه أنظارنا الى الخلاف بين الكتلتين الحجازية والتميمية فقط فإن معنى هذا - أننا سنبتز ما عداها من السمات اللهجية للقبائل المغمورة الذكر وستكون الدراسة اللهجية قاصرة ومحدودة ، ولا تمثل اللهجات في الجزيرة تمثيلاً صحيحاً ، وتحت يدي مصادر ترى الباحث أن اللهجات غير التميمية والحجازية كثيرة جداً كثرة غامرة - فبترها يضع نتائج حاسمة في دراسة اللهجات ، ويحرمانا من ثمرات بيثة لغوية ، نتيجة لإفلات كثيرة من

Rabin, Ancient, West Arabian. P. 1 London. (١)

كلام القبائل المعتمد بها ، بعدما ضاع كثيره وذهبت به الأيام قال أبو عمرو بن العلاء « ما انتهى^(١) إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير » وقال ابن فارس « لغة العرب^(٢) لم تنته إلينا بكليتها وإن الذي جاءنا عن العرب قليل من كثير ، وإن كثيراً من الكلام ذهب بذهاب أهله » ، فإذا كان أكثر لغة العرب قد شردت وقات على الزمان بشهادة أئمة اللغة ، فلا معنى بأن تضيق النجالة الباقية منها .

٤ - أن أخذ تميم والحجاز في الاعتبار دون غيرهما يضيع على الباحث لهجات المدن كمكة والمدينة والطائف ، ويضيع كذلك لهجات : العماثر ، والبطون ، والأفخاذ والفصائل والأحياء « جمع حي ... » وهذا ما حدث فعلاً ، فلم يتعرض Vollers ولا Sarauw ولا غيرهما ، لأنهم ساروا على خطة المستشرقين تماماً - لم يتعرضوا للدراسة لهجات العربية عن طريق الوحدات الصغيرة ، بل كان شغلهم الشاغل تلك الوحدات الضخمة التي لا تعرف لها حدوداً مثل « الشرقية والغربية أو الحجازية أو التيممية » أو مثل اللهجات البارزة مثل طيء وهذيل ، أما ما عداها من اللهجات كحفظلة أو يربوع أو حنيفة ، أو عقيل ، أو غنى ، أو باهلة ، أو سليم ، أو غطفان أو فزارة أو ثقيف إلى أكثر من مائة اسم - فقد أهملوا وتركوا كأن أهلها لم يعيشوا على التربة العربية .

أسباب جغرافية تعارض منهج التقسيم :

ثم كيف تسمى للمستشرقين دراسة اللهجات على أساس الشرق والغرب ، وتقسيم الشرق والغرب في الجزيرة من الأمور الصعبة القاسية حتى على علماء الجغرافيا من العرب وليس أدل على ذلك من قداخل الحدود والمناطق مما جعل العلماء يضطربون في مواقع البلدات وإليكم الدليل :

(أ) في مرآة الحرمين عندما تكلم مؤلفه * عن المدينة قال « وهي في صحراء مستوية ... مكشوفة من جهاتها الأربع » وقال مؤلف تقويم البلدان « المدينة النبوية^(٣) من الحجاز ، وقيل من

(١) طبقات فحول الشعراء : ١٣ تحقيق شاکر .

(٢) الصاحبي لابن فارس : ٣٤ ، وانظر : المزهري للسيوطي : ١/٦٦ ، ٢/٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٣) جغرافية شبه جزيرة العرب : كحالة ١٣٩ .

* المؤلف هو ابراهيم رفعت باشا ١٩٣٥ م .

نجد » وقال عرام « حد الحجاز^(١) من معدن النقرة الى المدينة، فنصف المدينة حجازي ونصفها تهامي » أرأيت الى التخليط وميوعة التحديد ؟

(ب) سبق أن تكلمت عن تحديد الحجاز ، ومما سبق يظهر الاضطراب وعدم الضبط^(٢) .

(ج) كما سبق أن تكلمت عن إقليم نجد ، وأوردت تحديد علماء الجغرافيا من المسلمين له ، وفيه من التخليط وعدم الضبط ما يكفي لاضطراب الحدود^(٣) .

(د) في تقويم البلدان لأبي الفداء : أن اليمامة من الحجاز ، وقيل من العروض وهو الأصح .

وفي صبح الأعشى : أن اليمامة قطعة من جزيرة العرب والحجاز^(٤) ، وفي معجم البلدان لياقوت : « أن اليمامة معدودة من نجد »^(٥) أرأيت الى القلق الجغرافي ، والميوعة في التحديد – إذا ثبت ذلك ، وقد ثبت فما معنى ذلك التحديد الجغرافي القاسي في دراسة اللهجات العربية الذي نادى به المستشرقون وأضرابهم . ولم تكن الفوضى في تحديد الأماكن فقط ، ولكن الفوضى بلغت أقصاها في احتكاك القبائل ونزولها مجتمعة حول مجاري المياه وفي مواطن الكلا ، وقد حدثنا عن ذلك البكري وياقوت والمسهودي وغيرهم .

وعرفنا منهم أن « ربيعة » لما دارت الحرب بينها تفرقت شعباً في البلدان فبعضها نزل في ظواهر نجد ، وبعضها في الحجاز وأطراف تهامة « ولم تزل الحروب والقائعات تنقلهم من بلد الى بلد ، وتنفيهم من أرض الى أرض »^(٦) فبعضهم باليمامة ، وآخرون بالبحرين ، وفرقة منهم الى أطراف سواد العراق^(٧) .

ولما خرجت ربيعة من تهامة وتفرقت شعاعاً في الجزيرة حدث لمصر ما حدث لربيعة ، وضاعت عليهم الأرض بما رحبت ، ثم اقتتلوا وتفرقوا ونزلوا أماكن متعددة متهمين ومنجدين –

(١) كتاب أسماء جبال تهامة : عرام السلمي ص ٤٢٤ .

(٢) هذا الكتاب ص ٢٢ - ٢٦

(٣) هذا الكتاب ص ٢٨ - ٢٩

(٤) شبه جزيرة العرب : كحالة ٢١٤ .

(٥) معجم البلدان : ٥١٦/٨ .

(٦) معجم ما استمعتم : ٨٥/١ .

(٧) المرجع السابق : ٨٦/١ .

شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ، هذا أمرهم في الجاهلية ، ولما جاء الإسلام ، وفي ضحاها رأينا أماكنتهم تتغير ، فالقبيلة التي كانت متهمه وجدناها في صبح الإسلام منجدة^(١) ، وتمثلت لنا شبه الجزيرة أشبه ما تكون بالموج المتداخل لا نلمح له فاصلاً ، بل موج زاهر يفشاه موج .

فإذا كان الأمر كذلك من اضطراب تحديد الأماكن ، واضطراب نزول القبائل ، فما معنى فكرة التقسيم التي نادى بها المستشرقون جميعاً وما معنى عملية البتر الجغرافي في الجزيرة ، ألا يمكن أن يقع ذلك البتر على رأس قبيلة فيقسمها نصفين ، فتكون نصفاً مشرقية ونصفاً مغربية ، ثم بعد ذلك تكون الطامة الكبرى التي نفذها « رابين Rubin » مترسماً خطأ سابقه وهي أن مثل هذه القبائل « مختلطة فهي غير شرقية وغير غربية وبالتالي – فلغتها منذ البداية وسط بين العربية الشرقية والعربية الغربية »^(٢) .

والحقيقة التي أراها أن تقسيمه للجزيرة وشطره لها ، لما لم يسلم له وقابلته عقبات مثل قبائل « قيس » التي في وسط الجزيرة ، وثبت أن بعض قبائلها وبطونها كانت تعيش في الحجاز ، وبعضها الآخر في نجد – راح يتخبط من جديد ويعلن أن هذه منطقة متوسطة « لا شرقية ولا غربية » ، ثم لا يزال يتخبط حتى يعلن « بأنه من المحتمل أن تكون لغتها منذ البداية وسطاً بين الغربية والشرقية » وكيف حكم على لغة المنطقة الوسطى منذ البداية مع أنه نفسه يعترف في صراحة^(٣) « بأننا لا نستطيع بأي حال أن نعيد بناء مادة كاملة في لهجة من اللهجات وكان مثل هذه المسائل الخطيرة عنده تثبت « بالاحتمال » ، « والظن » والظن لا يغني عن الحق شيئاً ! .

اهتمام القدماء بالكتلتين الشرقية والغربية دون غيرهما ، وأثر ذلك :

وما وقع فيه المستشرقون ، وقع فيه القدماء أنفسهم من أول سيبويه ، ونظرة واحدة الى كتابه « الكتاب » ولا سيما شرح السيرافي تريك الكثرة الغامرة اللهجات الحجاز ونم بينما باقي اللهجات العربية الأخرى لا تنال منه اهتماماً ، ومن الرسم البياني في هذا الكتاب – لسان العرب ، وشرح المفصل لابن يعيش ، وخزانة البغدادي ، يتضح ذلك ، ومعنى هذا أن علماء العربية اقتفوا أثر سيبويه في إهماله العزو للهجات البطون المعصورة .

(١) المرجع نفسه : ٩٠/١ .

(٢) رابين 3 . P .

(٣) رابين 13 . P .

والحقيقة القاسية أن اهتمام اللغويين بالحجاز وتميم - ضيع علينا أكثر من نصف اللغة ، وما جاءنا من اللهجات العربية غير لغتي تميم والحجاز - أضاعوه وشرذوه ، ثارة مهمل العزو ، وأخرى تحت الشذوذ ، وأحياناً باسم الندور أو « الندرة » . وطوراً بين المسموع الذي يسمع ولا يقاس عليه ! حتى جاءتنا بقية اللهجات العربية وليدأ مشوه الحلقة مبتور اليدين والقدمين محروماً من النسب لأمه وأبيه ! ومصادق ذلك ما حكاه الصّـة في من أن في (هيات)^(١) ستاً وثلاثين لغة ثم لا يعزو منها إلا صيغتين واحدة لتمييم ، والأخرى للحجاز دون غيرها . والمسئولية الكبرى تقع على الرواة أحياناً ، وعلى جامعي اللغة حيناً آخر ، ذلك الجمع المبتور الأشل ، لم يكن الخروج الى البادية لجمع اللغة ولهجاتها أمراً جاداً « ولا مقصوداً »^(٢) فيه الى الجمع بمعناه الذي يراد عندما يقصد استيعاب اللغة وجمع مادتها واستقراء أحوالها - ولا يمكن لجمع اللغة أن يتحقق بمثل خرجات الأصمعي وم' أفنى من قنينات مداده المعدودة « ثم أرى راين ممنناً في تجاهله اللهجات الأخرى غير لهجات تميم واليمن والحجاز حيث يقول « وفيها عدا لهجات الحجاز »^(٣) وقيم واليمن - فالمعلومات التي لدينا طفيفة جداً - نعملنا على أن نتجاهلها مؤمنين بأننا لا نعرف عنها شيئاً » .

والحق أنني عرفت عنها شيئاً كثيراً ، وتحت يدي احصائية أمينة لها . فإزاء اضطراب الحدود ، وتداخل القبائل بعضها مع بعض في المرعى والماء ، « وعدم استقرارها في مكان واحد »^(٤) يجعلنا نميل الى أن الحدود الجغرافية كما رآها المستشرقون أمر لا سبيل إليه في الجزيرة العربية ، لأننا لا نستطيع أن نحدد جغرافية قبيلة واحدة ، إذ إنها في الصباح لها حدود ، وفي المساء لها حدود تختلف عن حدود الصباح ، لأن الحدود الحقيقية ترجع الى اختلاف قوة القبيلة وقدرتها على عقد الأحلاف للاستعانة بغيرها لدفع الأذى عنها ، وإذا عجزنا عن تحديد قبيلة واحدة فكيف نقوم بتحديد جغرافي لهجي بين شرق الجزيرة وغربها .

ولكن (راين) رأى دراسة اللهجات العربية في ضوء التقسيم الجغرافي : الشرقي والغربي ، أو الحجازي والتميمي (حيث عالج اللهجات الغربية - يقصد الحجازية - على أنها وحدة

(١) التصريح : ١٩٦/٢ - ٧ .

(٢) الاجتهاد في النحو العربي : أمين الخولي ، بحث قدم لمؤتمر المستشرقين المنعقد باستانبول سبتمبر سنة ١٩٥١ مخطوط .

(٣) راين 16 P .

(٤) تاريخ نجد : ٢١ الأوسي .

منفصلة تماماً^(١) وكان قبائل الجزيرة عنده كانت تعيش منعزلة منفصلة ملتزمة هذا التقسيم ، فلا يمكن لقبيلة غربية أن تسكن في حدود شرقية ، ولا تستطيع قبيلة شرقية أن تعيش على موارد المياه في أرض غربية ، هذه الانعزالية القاسية ما كانت تعرفها العرب ولا آمنت بها يوماً من أيامها ولا ساعة من ساعاتها .

أدلة لهجية تكشف عن مدى التشابه بين الكتلتين وتعارض منهج التقسيم ، وبعد أن أقيمت الدليل تاريخياً واجتماعياً وجغرافياً على ما أردت ، أسوى أدلة لهجية تؤيد ذلك وتكشف عن :

- أولاً : تشابه بين الكتلتين الشرقية والغربية .
- ثانياً : اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الشرقية .
- ثالثاً : اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الغربية .
- رابعاً : خلافاً لهجية في القبيلة الواحدة ، شرقية كانت أم غربية .

(١) راين P. 2 .

أولاً : تشابه بين الكتلتين الشرقية والغربية

١ - في تخريج قوله تعالى : « إن هذان لساحران » وهي قراءة أبي جعفر وغيره - عرض أبو حيان لتخريج النحاة لها ، ثم قال : (والذي ^(١) نختاره في تخريج هذه القراءة ، أنها جاءت على لغة بعض العرب من إجراء المثني بالآلف دائماً وهي لغة لكتانة حكى ذلك أبو الخطاب ، ولبني الحارث بن كعب ، وخثعم ، وزبيد ، وأهل تلك الناحية حكى ذلك عن الكسائي ، ولبني العنبر وبني الهجيم ومراد وعذرة) . وأما السيوطي ^(٢) : فقد نسب هذه الظاهرة الى (كنانة ، وبني الحارث بن كعب ، وبني العنبر ، وبني الهجيم ، وبطون من ربيعة ، وبكر بن وائل ، وزبيد ، وخثعم ، ومهدان ، ومزادة ، وعذرة) .

كما نطق بها عدد من الشعراء - أذكر منهم المتلمس ^(٣) :

فأطرقَ إطراقَ الشَّجَاعِ ولو يرى ماغاً لِنَابِيهِ الشَّجَاعَ لَصِمّاً

وأنشده بعض المتأخرين من النحويين « لناباه » قال الأزهري : هكذا أنشده الفراء - لناباه - على اللغة القديمة لبعض العرب ^(٤) .

وفي الأصمعيات : « لنابيه » ^(٥) ، والمتلمس هذا : ولد في أخواله من بني « يشكر » ^(٦) وكانوا يسكنون اليمامة .

ومن هذا العرض ، أرى ظاهرة إلزام المثني الآلف قد نسبت الى « بني الحارث بن كعب »

(١) البحر المحيط : ٢٥٥/٦ ، النهر الماد : ٢٥٠/٦ .

(٢) مع الموامع للسيوطي : ٤٠/١ .

(٣) هو جرير بن عبد المسيح من بني ضبيعة بن ربيعة بن نزار - ومكث في أخواله « بني يشكر » ويقال : إنه ولد فيهم - فكث فيهم حتى كانوا يغلبون على نسبه .

(٤) الأصمعيات : ٢٨٧ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون ، وشاكر : دار المعارف ٩٥٥ ، اللسان : ٢٣٩/١٥ .

(٥) الأصمعيات : ٢٨٧ .

(٦) معجم قبائل العرب : كحالة ١٢٦٥/٣ .

وخشمهم ، وزبيد ، ومراد ، وعذرة ، وكنانة ، وهمدان ، ومزادة . وجميع هذه القبائل السابقة غربية ، يمنية . « فزبيد »^(١) بطن من سعد العشيرة من القحطانية « وخشمهم »^(٢) بطن من « أنمار » من « أراش » من القحطانية . قال : « في العبر »^(٣) وبلاد خشم مع إخوتهم « من بجيلة » بسرورات اليمن والحجاز الى تبالة ، « وبنو عذرة »^(٤) بطن من قضاة .

فالقبائل السابقة كلها من المجموعة الغربية ، ونسبهم الى قحطان . ولكننا نجد أن قبائل من الشرق تشترك معهم في تلك الظاهرة . فقد عزيت الظاهرة الى قبائل شرقية مثل « ربيعة » ، وبكر بن وائل ، وبني العنبر^(٥) .

٢ - « جبرت » لغة بني تميم^(٦) ، وكثير من أهل الحجاز يتكلم بها . وهنا اتفاق بين الشرق الذي تمثله تميم ، والغرب الذي يمثله الحجاز .

٣ - قال كثير^(٧) :

إذا وصلننا خلّة كي نزيلها أبيننا وقلنا الحاجية أول
لها مهل لا يستطاع دراكه وسابقة ملحّب لا تتحول^(٨)

وقال المغيرة بن حنبل^(٩) :

إني امرؤ حنظلي حين تنسبني لا ملعتيك ولا أخوالي العوق^(١٠)

(١) نهاية الأرب : القلقشندي ٢٦٨ .

(٢) المرجع السابق : ٢٤٣ .

(٣) نهاية الأرب : ٢٤٣ .

(٤) المرجع السابق : ٣٥٩ .

(٥) وم من تميم : المرجع السابق ٦٨ .

(٦) المصباح المنير : ١٤١/١ .

(٧) هو من خزاعة وهي من الأزد . نهاية الأرب : ٢٤٤ .

(٨) الشعر والشعراء : ٢٠٢ تحقيق السقا .

(٩) من ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم : الشعر والشعراء : ١٥١ السقا .

(١٠) الشعر والشعراء : ١٥١ .

وقال أبو صخر الهذلي :

كانها مَلَكٌ لم يتغيراً وقد مرّ للدارين من بعدنا عصر^(١)
واستشهد صاحب التصريح بقول الشاعر .

لقد ظفر الزوّار أقفية العدا بما جاوز الآمال مُلأَسِرَ والقتل
فحذفت النون على لغة زبيد وبني خثعم من قبائل اليمن^(٢) .

فهذه الظاهرة اشتركت فيها اليمن بمثلة في زبيد وخثعم ، وشاركتها فيها تميم ، وشاعر من
هذيل . فالجموعة الغربية بها ملامح لهجية تماماً كما في الشرقية .

٤ - « أفلطني » لغة في « أفلمتني » - لغة تيمية قبيحة ، وقد استعمله ساعدة بن جؤية فقال :
بأصدق بأسٍ من خليل ثمينه وأمضي إذا ما أفلمطَ القائمُ اليدُ

أراد - أفلت - القائم اليد - فقلب^(٣) - فهذه لغة تيم وهي شرقية تكلم بها رجل من
قبيلة غربية وهي هذيل ، ولا يمكن أن يكون قد استعملها لضرورة شعرية ، إذ الوزن لا
يتأثر بذلك .

٥ - اختارت تيم موافقة لغة الحجاز في قولهم « هذه حضار » بسبب الراء ، وذلك أن بني
تيم يختارون الإمالة - وإذا ضموا الراء ثقلت عليهم الإمالة ، وإذا كسروها خفت الإمالة أكثر
من خفتها في غير الراء ، لأن الراء حرف مكرر والكسرة فيها مكررة كأنها كسر ثان^(٤) ...
ولأجل هذا « تركت تيم لغتها » ووافقت لغة الحجاز في ذلك^(٥) .

وقال ابن سيده « قال أبو سعيد : اعلم أن بني تيم تركوا لغتهم في قولهم : هذه حضار
وسفار ، وتبعوا لغة أهل الحجاز بسبب الراء »^(٦) ففي النصوص السابقة نجد أن « تيمياً » تركت

(١) الجمع : ٢٠٨/١ ، الدرر اللوامع : ١٧٥/١ الشنقيطي ، وانظر : ديوان الهذليين : ٣٠/١ .

(٢) التصريح على التوضيح : ٢٩/٢ .

(٣) اللسان : ٢٤٧/٩ ، ديوان الهذليين : ٢٤٠/١ « بأصدق بأساً » .

(٤) كتاب السراي على سيويه : ٣٣٠/٤ مخطوط بالتميمورية ٥٢٨ نحو .

(٥) المرجع السابق .

(٦) الخصاص : ٦٧/١٧ ، التصريح على التوضيح : ٢٢٥/٢ ، حاشية يسن : ٢٢٥/٢ .

لغتها ووافقت لغة الحجاز في لغتها ، فهذا إن دل فإنما يدل على الملامح القوية والاشتراك في السمات اللهجية بين الشرق والغرب أو بين تميم والحجاز .

٦ - كما نجد أمثلة تحقق فيها الحجاز الهزمة - على غير لغتها ، لأن لغتها التخفيف قال سيبويه « وقد بلغنا أن قوماً من أهل الحجاز يحققون : نبيء وبريئة »^(١) مع أن الشائع أن الذي يهزم هي تميم . وابن كثير وهو القاريء المكي يلتزم تحقيق الهزمة - مع أنه في بيئة الحجاز التي تسهل ولكنه مال في قراءاته الى تحقيق الهزمة كتميم »^(٢) كما يرى ابن السكيت أن تيمماً تقول في عطاءة وعباءة وصلاة وسجاءة - عطاءية وعباية وصلاية وسجاية^(٣) . فتميم هنا في الأمثلة السابقة لم تنطق بالهمز - والصفة التي اتصفت بها هي الهمز^(٤) ولكنها لم تلتزم حدودها وطريقها بالنسبة لظاهرة الهمز التي كان يجب عليها أن تحققها ، والصفة التي اتصفت بها اللغة الحجازية هي تسهيل الهمز^(٥) ولكنها لم تلتزم هذا التسهيل الذي كان يجب عليها أن تلتزمه ووجدناها تنطق بالهمز في مثل « نبيء وبريئة »^(٦) ، والحابئة والذريئة ، وهذا إن دل فإنما يدل على أن الفروق بين الكتلتين التيممية والحجازية لم تطرد في كل الكلمات ولا على جميع الألسنة في الكتلتين ، ويدل أيضاً على أن كلتا الكتلتين المتعارضتين كانتا تتوافق مع الكتلة الأخرى فالحجازي الذي يسهل الهزمة - نطقها بالتحقيق كتميم ، والتيممي الذي يحققها - رأيناها يسهلها كالحجازي .

٧ - وقرأ الحسن « وإن كان قيسه قد من دُبُر »^(٧) بسكون الباء ، وهي لغة الحجاز وأسد^(٨) . فاتفقت لغة الحجاز وهي غربية مع لغة أسد وهي شرقية .

٨ - يقرأ أبو عمرو بن العلاء والكسائي ومن يقنط^(٩) « يقنطون »^(١٠) « لا تقنطوا »^(١١)

(١) كتاب سيبويه : ١٧٠/٢ .

(٢) في اللهجات العربية : ٦٦ ط ٢ .

(٣) إبدال ابن السكيت : ٥٦ .

(٤) كتاب سيبويه : ١٦٩/٢ ، شرح شواهد شافية ابن الحاجب : ٣٣٥/٤ .

(٥) كتاب سيبويه : ١٦٧/٢ - ١٦٨ ، شرح الشافية : ٣٠٩/٢ - ٣١١ .

(٦) النهاية لابن الأثير : ١٢٠/٤ ، المحقق : ١٥٢/١٧ - ١٥٣ .

(٧) سورة يوسف : آية ٢٦ .

(٨) المحاف فضلاء البشر : ٢٦٤ .

(٩) سورة الحجر : آية ٥٦ .

(١٠) سورة الروم : آية ٣٦ .

(١١) سورة الزمر : آية ٥٣ .

بكسر النون والباقون بفتحها كعلم يعلم لغة فيه . والأول ، كضرب يضرب لغة أهل الحجاز وأسد وهي الأكثر^(١) .

فمنها تحدث ظاهرة لهجية بين الحجاز التي تمثل الغرب وأسد التي هي من الشرق .

٩ - بلحارث^(٢) بن كعب وبعض ربيعة يحذفون نون اللذان واللتان في حالة الرفع : ويرى بيت للأخطل وهو^(٣) :

(هما اللتان لو ولدت تميم) أراد اللتان

فقبيلة بلحارث بن كعب وهي غربية يمنية تتفق في ظاهرة لهجية مع قبائل شرقية ممثلة في ربيعة وتغلب .

١٠ - الوقف بالنقل^(٤) ظاهرة تيمية ، ووردت نصوص تشير الى أن هذه الظاهرة أيضاً في اليمن^(٥) . وتميم في الشرق واليمن في الغرب .

١١ - حذف الحركة أو اختلاسها في حالة الوصل - ظاهرة وجدت في أعراب عقييل وكلاب^(٦) ، وقد أثبت أن الظاهرة نفسها وجدت في أزد الشراة^(٧) وعقييل وكلاب في الجانب الشرقي ، وأزد الشراة في الجانب الغربي .

١٢ - نسب ابن خالويه قراءة قوله تعالى : « ما لكم من إله غيره »^(٨) بالنصب لتمام^(٩) بيتنا

(١) انحاء فضلاء البشر : ٢٧٥ .

(٢) التصريح على التوضيح : ١٣٢/١ ، خزائن الأدب ٥٠٣/٢ .

(٣) الأخطل تغلي : الشعر والشعراء : ١٨٩ تحقيق السقا .

(٤) انظر : الوقف بالنقل بالفصل الخامس من الباب الثالث من هذا الكتاب

(٥) كتاب شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلام : ١١٥ لشوان الطبري ط بريل .

(٦) انظر : الوقف بالحذف بالفصل الخامس من الباب الثالث من هذا الكتاب

(٧) البحر : ٢٢٦/٥ ، المحتسب : ٤٠١/١ تيمور .

(٨) سورة الأعراف : آية ٥٩ - ٦٥ .

(٩) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه ، تحقيق برجستراسر ٤٤ .

نسب الفراء هذه القراءة الى بعض بني أسد^(١) وقضاة . وقد نقل رأي الفراء^(٢) صاحب التصريح أيضاً . كما نسبها الجوهري الى شهل وقضاة ، وبعض بني أسد ، عندما ذكر أن هذه القبائل تنصب (غير) إذا كان بمعنى (إلا) سواء تم الكلام قبله أم لا^(٣) . وشهل وقضاة « قبائل قحطانية »^(٤) غربية كما أن تيمناً وبعض أسد قبائل شرقية .

١٣ - إن صاحب إتحاف البشر نسب قراءة « عليهم القتال » ، « يؤتيهم الله » ، « وبهم الأسباب » ، « وفي قلوبهم العجل » بضم الميم وكسر الهاء في ذلك كله « الى لغاة بني أسد والحرمين »^(٥) ، والمقصود بلغة الحرمين مكة والمدينة وما من مدن الحجاز ، والظاهرة اللهجية السابقة قد تحدث في بني أسد وهي شرقية ، وبين أم القرى ويثرب وما غربيتان .

١٤ - يرى صاحب التصريح أن أهل الحجاز تعمل « ما » بشروط ، وتيمناً^(٦) تملها ، وعلى ذلك سار جميع النحاة^(٧) . لكن يقف في سبيل ذلك ما جاء عن الفرزدق :

(فما أ.د من قيس عيلان^(٨) فاخرا) ...

وقوله أيضاً : (فما المرء منفوعاً^(٩) بتجريب واعظ) ...

والفرزدق تيمى شرقي - وكان عليه أن يلتزم الرفع ، ولو نطقها (فاخر ، منفوع) لأمكن ذلك من غير مساس بالوزن الشعري - ولعل السبب في اتجاهه هذا أن الظاهرة اللهجية قد تشترك فيها قبائل من الجزء الشرقي موافقة الجزء الغربي وبما يؤيد هذا إشارة خافتة أوردها ابن هشام حيث يرى أن « ما » أعملها الحجازيون والتهاميون والنجدون عمل ليس^(١٠) .

(١) معاني القرآن : ٣٨٢/١ - ٣٨٣ الفراء : تحقيق الشيخ محمد النجار .

(٢) التصريح على التوضيح : ٣٦١/١ .

(٣) المصباح المنير : ٧٠٤/٢ .

(٤) نهاية الأرب : ٤٠٠ ، معجم كحالة : ٦١٨/٢ .

(٥) إتحاف فضلاء البشر : ١٢٤ .

(٦) شرح التصريح : ١٩٦/١ .

(٧) الكتائب : ٢٨/١ .

(٨) راين : ١٧٥ .

(٩) شرح ديوان الفرزدق : ٥٢/١ ، تحقيق الصاوي .

(١٠) معنى اللبيب : ٦/٢ .

فأضاف ابن هشام الى الحجاز - نجداً - في إسمائها ، وابن هشام حجة ، وتكفيها فيه شهادة ابن خلدون حيث يقول عنه « ما زلنا ونحن بالمغرب نسمع أنه ظهر بمصر عالم بالعربية يقال له ابن هشام - أنحى من سيديوه »^(١) .

فكان نجداً - وهي شرقية قد اشتركت مع القبائل الغربية في الظاهرة . ومما يؤكد رأي ابن هشام هذا - أن بعض قبائل حجازية كانت تسكن نجداً ، وبعض قبائل نجدية كانت تسكن الحجاز ، مما يؤكد التداخل بين القبائل ، ومن العسير إقامة فصل جغرافي يترتب عليه فصل لهجي بين الشرق والغرب ، ومما يؤكد هذا أن سمر ابن أبي ربيعة نطق خبر (ما) مرفوعاً في قوله :

ما روضة جساد الربيع لها مولىة^(٢) ما حولها جذب^(٣)
وكنا ننتظر منه أن ينصب خبرها ، لأنه حجازي .

١٥ - ويقول عمرو بن قسيمة^(٤) :

فبيني على طير سنيح نحوسه وأشام طير الزاجرين سنيحها^(٥)
والمعروف أن العرب تختلف في العيافة . فمنهم من يتيمن بالسانح ، ويتشائم بالبارح وهم أهل نجد ، ومنهم من يخالف ذلك وهم أهل الحجاز ، ولذلك نرى النابغة - وهو نجدى - يتشائم بالبارح في قوله :

زعم البوارح أن رحلتنا غداً وبذلك تدعاب الغراب الأسود
وقال كثير - وهو حجازي ممن يتشائم بالسانح :

أقول إذا ما لطيير مرت خيفة^(٦) سوانحها تجري ولا أستثيرها^(٦)

(١) قطر الندى وبل الصدى : المقدمة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ .

(٢) مولىة - مطرة بفتح الراء

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ٣٠ ط بيروت .

(٤) وهو من قيس بن ثعلبة من بني سعد بن مالك : الشعر والشعراء ٣٣٦/١ شاعر .

(٥) اللسان : مادة « سنج » ٣٢٠/٣ ، الشعر والشعراء : ٣٣٧/١ تحقيق شاعر .

(٦) اللسان : ٣٢٠/٣ .

والإشكال هنا في قول عمر بن قيس ذلك النجدي الذي كان يجب عليه أن يتيمن بالسانح تبعاً للهجة قومه ، ولكنه تكلم بما يتكلم به أهل الحجاز فتشائم بالسانح ، فهذا ان دل فلانما يدل على أن الحدود بين الشرق والغرب قد انهارت وخف الخلاف بينها حتى أصبحنا - ولا ضير - أن نسمع نجدياً كهذا الاعرابي يجد نفسه طليقاً فيتكلم بما تكلم به أهل الحجاز ، وأعتقد أنه لو سار على لهجة قومه لما أعياه ذلك ولما حدث للبيت أي تشويه عروضي وإلا فأبي تشويه يحدث لو قال :

(وأيمن طير الزاجرين سنيحها)

أو (وأحسن) على لهجة قومه ، ولكنها العادات والتقاليد قد اختلطت وتوحدت بسين الشرق والغرب ، وما اللغة إلا واحدة من هذه العادات ، وتلك التقاليد .

١٦ - طالعتنا كتب اللغة والنحو أن أصحاب الإمامة هم تميم وقيس وأسد وعامة أهل نجد ، كما طالعتنا السيوطي^(١) بذلك ، وابن يمين^(٢) (٦٤٣ هـ) ، وأبر شامة الدمشقي (٦٦٥ هـ) يقول « الإمامة والفتح لفتان مشهورتان فاشيتان على ألسنة الفصحاء من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم فالفتح لغة أهل الحجاز ، والإمامة لغة عامة أهل نجد من تميم وقيس وأسد »^(٣) كما يقول مثل ذلك ابن الجزري^(٤) - ونتيجة هذه النصوص أن القسم الشرقي من الجزيرة يميل ممثلاً في تميم وقيس وأسد ، وأن القسم الغربي يفتح ممثلاً في الحجاز .

ولكن وجدنا حديثاً يفاير ما تقدم إذ قد عزا السيوطي بعض الإمامة للحجاز^(٥) كما ثبت بالسباع أن أهل الحجاز يملون^(٦) الألف للكسرة .

ويقول ابن الأنباري (٥٧٧ هـ) « والإمامة تختص^(٧) بلغة أهل الحجاز ومن جاورهم من بني

(١) مع المراجع للسيوطي : ٢٠٤/٢ .

(٢) شرح المفصل لابن يمين : ٥٤/٩ .

(٣) إبراز المعاني : لأبي شامة : ١٥٢ .

(٤) النشر : ٣٠/٢ مطبعة مصطفى محمد .

(٥) مع المراجع : ٢٠٠/٢ .

(٦) المرجع السابق : ٢٠٠/٢ .

(٧) أسرار العربية : ٤٠٦ ابن الأنباري ط دمشق .

تميم . ويطالعنا سيديويه في عدة أماكن من كتابه بنسبة بعض أحوال الإمامة إلى الحجاز^(١) . ويظهر - والله أعلم - أن القضية المعروفة وهي نسبة الفتح للحجاز - لم تكن صحيحة تماماً ، بل كان بعض الحجاز يميل - مثل ما كانت تميل تميم . كما ثبت أن الممليين في شرق الجزيرة قد يفتحون^(٢) ، وهذا معنى قول سيديويه « اعلم أنه ليس كل من أمال الألف وافق غيره من العرب ممن يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعض ما يميل صاحبه ويميل بعض ما ينصب صاحبه ، وكذلك من كان النصب من لفته ، لا يوافق غيره ممن ينصب ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأول في الكسر ، فإذا رأيت عربياً كذلك فلا تزينه خلط في لفته ، ولكن هذا من أمرهم^(٣) . كما حكى صاحب الغنية عن أبي بكر بن مقسم « أن بعض أهل نجد ، وأكثر أهل اليمن يميلون ألف « حق » ، لأن الإمامة غالبية على ألسنتهم في أكثر الكلام^(٤) . وفي هذا النص أجده ملامح بين اليمن ونجد ، والأولى غربية ، والثانية شرقية .

(١) الكتاب : ٢٦١/٢ .

(٢) انظر (الإمامة) في الفصل الثاني من الباب الثالث من هذا الكتاب

(٣) شرح السيرافي : ٣٤١/٥ تيمور .

(٤) مع الهوامع : ٢٠٤/٢ .

ثانياً : اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الشرقية

(أ) بين تميم ، وأسد ، وقيس :

- ١ - قرأ ابن كثير وغيره « وآخرون مرجثون لأمر الله »^(١) بالهمز ، و « ترجىء من تشاء »^(٢) وهي لغة تميم ، والباقون بغير همز لغة قيس وأسد^(٣) . وكان المسهلين في (ترجى) راعوا تخفيف الهمزة فيها لمكان « تؤوى » إذ الآية « ترجى من تشاء منهم وتؤوى » وفي قوله تعالى « قالوا أرحبه وأخذه »^(٤) وأرسل في المدائن حاشرين « وقوله تعالى « ترجى من تشاء »^(٥) قال الطبري في تفسيره « الهمز من كلام بعض قيس ، وترك الهمز من لغة تميم وأسد »^(٦) .
- فعلى نص صاحب « إتحاف البشر » يوحى بأن تيمماً في جانب ، وقيساً وأسدأ في جانب آخر . وعلى نص الطبري نرى قيساً في جانب وتيمماً وأسدأ في جانب آخر .

(ب) بين تميم وقيس :

- ١ - قال أبو زيد : تميم تقول : سماء البيت ، وقيس تقول : بني سماوة البيت^(٧) .
- ٢ - تقول قيس : الضبع - بضم الباء ، وبسكونها في لغة تميم^(٨) .
- ٣ - لغة بني تميم يقولون : الرفقة - بضم الراء والجمع رفاق - وبكسرها في لغة قيس ، والجمع : رفق^(٩) . فالخلاف قائم بين تميم وقيس - في نفس الكلمة أولاً ثم في جمعها ثانياً .

(١) سورة التوبة : ١٠٦ .

(٢) سورة الأحزاب : آية ٥١ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ٥٩ .

(٤) سورة الأعراف : آية ١١١ .

(٥) سورة الأحزاب : آية ٥١ .

(٦) تفسير الطبري : ٢١/١٣ تحقيق شاكر .

(٧) نواذر أبي زيد : كتاب مسائية : ٢٥٣ .

(٨) المصباح المنير : ٥٤٥/٢ ، الخزانة : ٣٦٩/٢ .

(٩) المصباح المنير : ٣٥٩/١ .

- ٤ - يقولون في لغة قيس : الصرع ، وتميم تقول : الصرع^(١) . قيس بالكسر ، وتميم بالفتح .
- ٥ - قيس تقول : ناقة عَجَازة ، وتميم تقول : عَجَازة^(٢) . قيس بكسر الحرف الأول ، وتميم بفتحه .
- ٦ - تقول تميم : المغزل والمصحف والمطرق . بكسر الحرف الأول ، وقيس تقول : المغزل والمطرق والمصحف^(٣) - بالضم .
- ٧ - الأضحا : يؤنث في لغة تميم ، ويذكر في لغة قيس^(٤) .
- ٨ - في قوله تعالى « وإن جنحوا للسلم فاجنح^(٥) لها » قرأ الأشهب العقيلي - فاجنح - بضم النون - وهي لغة قيس - والجمهور بفتحها - وهي لغة تميم^(٦) .
- ٩ - يقال لصق به يلصق لصوقاً - وهي لغة تميم^(٧) وقيس تقول : لسق - بالسين^(٨) .
- ١٠ - ما نقل عن أبي زيد من أن السدفة - في لغة تميم - الظلمة ، وفي لغة قيس الضوء^(٩) . وما نقل عن أبي عبيد من أن : السدفة - في لغة تميم - الضوء وفي لغة قيس : الظلمة^(١٠) . كما نقل صاحب اللسان عن أبي زيد من أن السدفة في لغة بني تميم - الظلمة ، وعند قيس : الضوء^(١١) . كما نقل السيوطي مثل ذلك عن أبي عبيد القاسم في الغريب المصنف في باب الأضداد^(١٢) .

-
- (١) إصلاح المنطق : ٣١ ، المحصص : ٧٤/١٥ ، الغريب المصنف : ٢٣/١ مخطوط بدار الكتب رقم ١٢١ .
- (٢) إصلاح المنطق : ١٠٣ - ١٢٢ ، المحصص : ٨٤/١٥ ، اللسان : ٢٤٠/٧ .
- (٣) إصلاح المنطق : ١٢٠ ، المحصص : ٦٨/٤ ، ٢٠٤/١٤ .
- (٤) كتاب التذكير والتأنيث للسجستاني : ص ٦ رقم ٢٦٤ لغة تيمور .
- (٥) سورة الأنفال : آية ٦١ .
- (٦) البحر : ٥١٤/٤ ، شواذ القرآن : ابن خالويه : ٥٠ ، المحتسب : ابن جنى مخطوط بالتيمورية رقم ٣٧٩ تفسير : ٣٥٠/١ .
- (٧) اللسان : ٢٠٥/١٢ .
- (٨) الأضداد للأصمعي : ٣٥ تحقيق هفتر ، الأضداد لابن السكيت : ١٨٩ هفتر .
- (٩) المحصص : ابن سيده سفر ٤٩/١ .
- (١٠) اللسان : ٤٦/١١ وما بعدها .
- (١١) المزهو للسيوطي : ٣٩٠/١ ، ٤٠١ .

١١ - ما نقل عن أبي زيد في الغريب المصنف من أن الالفت - في كلام قيس الأحمق ، وفي كلام تميم : الأعسر^(١) .

١٢ - ما روي عن اللحياني من أن : تميماً تقول - خلا فلان على اللبن وعلى اللحم - إذا لم يأكل معه شيئاً ، ولا خلطه به . وقيس تقول : أخلى فلان على اللبن واللحم^(٢) .

١٣ - بعض قيس يقولون : وجع ياجع بيننا تقول تميم : وجع ييجع^(٣) .

فهذه خلافات في الصيغ ، وفي دلالة الكلمات ، وفي الجمع بين تميم وقيس والمعلوم أن تميماً من القبائل الشرقية ، وأغلب عشائر وبطون قيس تقع كذلك في المنطقة الشرقية ، ومع ذلك فقد رأينا الخلاف الشاسع بينها مما يبرهن على أن التقسيم إلى شرقي وغربي لا يستقيم .

(ج) بين أسد و تميم :

١ - في حديث أنس « كان لا يقطع التذنوب من البسر » والتذنب : الرطب واحده تذنبية . وروي عن الفراء أنه يقول : جاءنا بتذنوب - بالضم - ونسبها لبني أسد ، والتميمي يقول : تذنب^(٤) - بالفتح .

٢ - كما حدث خلاف في صيغة النداء « يا فل » بين بني أسد ، و تميم ، فالجوهري يذكر أن بني أسد يوقعونها على الواحد والاثنتين والجميع والمؤنث - بلفظ واحد^(٥) . وقال ابن بُزْج : بعض بني أسد يقولون : يا فل أقبل ، ويا فل أقبل ، ويا فل أقبلوا ، وقالوا للمرأة فيمن قال : يا فل أقبل ، يا فلان أقبلي . وبعض بني تميم يقول : يا فلانة أقبلي ، وبعضهم يقول : يا فلانة أقبلي^(٦) .

٣ - نسب في اللسان إلى تميم أنهم يقولون « البُلولة » من بِلَّة الثرى . كما نسب إلى أسد أنهم تقول : البُلولة^(٧) .

(١) المزمع : ٣٨١/١ .

(٢) اللسان : ٢٦١/١٨ .

(٣) ليس في كلام العرب : ١٥ تحقيق الشنيطي ، خزائن الأدب : ٢٣٥/١ .

(٤) لسان العرب : ٣٧٦/١ .

(٥) اللسان : ٤٩/١٤ .

(٦) المرجع السابق : ٢٠٢/١٧ .

(٧) نفس المرجع : ٧٠/١٣ .

فالخلاف واضح بين قبيلتين شرقيتين : أسد وتميم ، فالكتلة الشرقية بينها اختلاف في اللهجة لا يقل عن الاختلاف بين الحجازيين والتميمين .

٤ - قال أبو عمرو « الدمدم »^(١) الصلتيان المجبل في لغة أسد ، وهو بلغة تميم الدندن . فأسد وتميم كلاهما من المجموعة الشرقية ، وعلى الرغم من هذا وقع الخلاف بينها في الصيغتين بالميم عند أسد ، وبالنون عند تميم .

٥ - عزا أبو حيان في قوله تعالى « وليلعل الذي »^(٢) عليه الحق ، أن « أمل ، وأملى - لغتان - الأولى لأهل الحجاز وبني أسد ، والثانية »^(٣) لتميم .

(د) بين تميم وبكر :

وسأل أبو عدنان أبا عبيدة عن الماء العد - فقال له : الماء العد بلغة تميم - الحثي ، قال : وهو بلغة بكر بن وائل : الماء القليل^(٤) ، وكلا القبيلتين من الشرق .

(هـ) بين نجد وأسد :

وصاحب الإتحاف يحدّثنا أن حفصاً وحزرة والكساني وأبا جعفر وخلفاً يقرءون « حج البيت »^(٥) بكسر الحاء في لغة نجد ، وبعض القراء بالفتح لغة أهل العالية والحجاز وأسد^(٦) . فالحجاز غربية ولكنها وافقت لغة أسد ، وهي من القسم الشرقي . بينما نرى منطقة نجد وهي شرقية تتخالف مع شقيقتها أسد وهي تسكن المنطقة النجدية .

(١) الإبدال لابن السكيت : ٢٢ ، اللسان : ٩٩/١٥ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٨٢ .

(٣) البحر المحيط : ٣٤٢/٢ .

(٤) اللسان : ٢٧٦/٤ ، المصباح المنير : ٦٠٥/٢ .

(٥) سورة آل عمران : آية ٩٧ .

(٦) إتحاف فضلاء البشر : ١٧٨ .

ثالثاً : اختلاف لهجي بين قبائل الكتلة الغربية

١ - حدثتنا كتب العربية أن المؤلف في الفصحى أن يفتح حرف المضارعة فتقول « تعلم » ، « نضرب » الخ ... وحدثتنا كذلك أن كسر حرف المضارعة من خصائص لغات المنطقة الشرقية ، وأما المنطقة الغربية فتفتح حروف المضارعة فتقول « تعلم » ، بدليل ما رواه أبو حيان حيث نسب (نستعين)^(١) ، بالفتح الى لغة الحجاز .

ودليلنا على ذلك ما رواه سيدي في قوله « هذا باب ما تكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة للأسماء كما كسرت ثاني الحرف حين قلت : فعل - وذلك في لغة جميع العرب سوى أهل الحجاز »^(٢) ونقل مثل هذا الكلام صاحب شرح الشافية^(٣) . ونسب ابن جني كسر حرف المضارعة مما ثاني ماضيه مكسور - الى تميم^(٤) . وعزا السيرافي فتح حرف المضارعة الى الحجاز^(٥) . ومفهوم هذه النصوص جميعاً أن فتح حرف المضارعة من عادات المنطقة الغربية ممثلة في الحجاز ، وأن المنطقة الشرقية ممثلة في تميم تؤدي عملية كسر حرف المضارعة فإذا سمعنا من عمر بن أبي ربيعة قوله :

ما لقلبي كأنه ليس مني وعظامي أخال فيهن فتتيرا^(٦)

لم نعجب لأنه حجازي ، والحجازي يفتح ، فعلى ذلك قال (أخال) . وإنما العجب يأخذنا عندما نرى المرزوقي ينسب الكسر « إخال »^(٧) الى هذيل ، وكذلك نسب الطوسي الكسر في قوله « نستعين » الى هذيل^(٨) . كما ذكر الخليل أن لغة هذيل في « تعرج وتعكف - تعرج

(١) البحر المحيط : ٢٣/١ - ٢٤ .

(٢) الكتاب : ٢٥٦/٢ .

(٣) شافية ابن الحاجب : ١٤١/١ .

(٤) المحتسب : ١١/١ : مخطوط بالتيمورية .

(٥) شرح السيرافي على سيدي : ٣١٦/٥ مخطوط بالتيمورية .

(٦) حاشية المرزوقي : ١٨٤٥/٤ تحقيق عبد السلام هارون .

(٧) المرجع السابق .

(٨) البحر المحيط : ٢٣/١ - ٢٤ .

وتعكف لأنهم مولعون بالكسر^(١) وفي مكان آخر نسب المرزوقي الكسر « إخال »^(٢) إلى طيء ، وكذلك « نسبها التبريزي في شرحه »^(٣) على الحماسة ، ومعلوم أن « هذيل » من القبائل الغربية التي كان يجب أن تنطق بالفتح فتقول « أخال » ولكن ماذا نصنع وقد عزي الكسر إليها ؟

وقبل أن يتركك العجب ترى رواية أخرى يسوقها إليك البغدادي ، وذلك حيث ينسب « إخال » بالفتح لأسد^(٤) - وعلى هذه الرواية تكون « أسد » وهي من القبائل الشرقية التي تكسر كتميم - قد اتخذت لها طريقاً آخر مما يجعل نظام التقسيم الجغرافي يحيطه المشكلات من كل جانب ، فكأن المجموعة الشرقية ذاتها انقسمت على نفسها ، كما انقسمت المجموعة الغربية على نفسها أيضاً .

٢ - في قوله تعالى « حتى إذا ساوى بين الصدفين »^(٥) يرى صاحب الإنحاف « أن الصدفين - بضمين - لغة قريش ، والصدفين « بفتحين » لغة الحجاز »^(٦) ومن المعروف أن قبيلة قريش - حجازية ، ومع ذلك لم يمنعها هذا من أن تختلف مع سمة لهجية منسوبة للحجاز ، فقبيلة حجازية قد اختلفت لهجياً مع لغة الحجاز .

(١) كتاب العين للخليل : ١٣١ طبع بغداد .

(٢) شرح الحماسة للمرزوقي : ٢٤٨/١ .

(٣) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٤٢/١ تحقيق محي الدين .

(٤) خزائن الأدب للبغدادي : ١١/٤ .

(٥) سورة الكهف : آية ٩٦ .

(٦) انحاف فضلاء البشر : ٢٩٥ .

رابعاً : خلافاً لهجية في القبيلة الواحدة

- ١ - قال أبو زيد - لماق الشيء : كتبه في لغة عقيل - وسائر قيس يقولون : لمقه - محاه^١ .
ومنه قول بعض العرب - لمقه بعد ما نغقه - أي محاه بعد كتبه .
- وقد ذكرت كتب الأنساب أن « عُقَيْلًا - من قيس »^٢ ، ومع ذلك اختلفت قيس القبيلة الأم مع بطن من بطونها .
- ٢ - يسوق السيرافي نصاً مضمونه « أن قوماً من ربيعة يقولون^٣ - منهم في منهم » ويعلم سيديويه لذلك فيقول « أتبعوها الكسرة ولم يكن المسكن حاجزاً حصيناً عندهم »^٤ .
ويستفاد من هذا النص أن بعض ربيعة اختلفت على بعضها الآخر ، فمنهم من كسر ومنهم من ضم .
- ٣ - يرى السيرافي أن ناساً^٥ من بكر بن وائل يكسرون الكاف من نحو « منكم وأحلامكم » فبعضهم ضم وبعضهم كسر ، بدليل أن الظاهرة في (ناس) منهم .
- ٤ - وحكى أبو محمد البطليوسي في كتاب الفرق أن بني ضبة يقولون : فاظت نفسه بالطاء ، وفي الغريب المصنف : أن ناساً من بني تميم يقولون : فاظت نفسه^٦ وتشير كتب الجغرافيا والأنساب أن منازل ضبة « كانت في جوار بني تميم^٧ إخوتهم » فهم إخوتهم في النسب ، وجيرانهم في عالم الجغرافيا - ومع هذا فكل قبيلة اتخذت لها مجرى لهجياً يخالف القبيلة الأخرى .

(١) لسان العرب : ٢٠٨/١٢ .

(٢) معجم قبائل العرب : ٨٠١/٢ كعالة .

(٣) شرح السيرافي : ٦٢/٥ ؛ خطوط بالتمورية .

(٤) الكتاب : ٢٩٤/٢ .

(٥) شرح السيرافي : ٦٣/٥ ؛ خطوط بالتمورية ، الكتاب : ٢٩٤/٢ .

(٦) المزهو للسيوطي : ٥٦١/١ - ٥٦٢ .

(٧) معجم قبائل العرب : ٦٦١/٢ كعالة .

٥ - وسأل ابن السكيت أعرابيين فصيحين من بني كلاب عن (انفحة الجدي) فقال أحدهما لا أقول إلا انفحة ، وقال الآخر : لا أقول إلا منفحة ، ثم اختلفا على أن يسألا عنها أشياء بني كلاب فاتفقت جماعة على قول ذا ، وجماعة على قول ذا^(١) .

٦ - تحدثنا كتب اللغة أن الفصحى تجمع « ناقة » على « أينق » بينا طيىء تقول في جمعها « أوتق » وذلك كما جاء عن ابن السكيت^(٢) ، وابن يعيث^(٣) ، وهذا معناه أنهم يفضلون حركة (أو) .

ومما يؤيد ذلك أن طيئاً نفسها تقول في (حيث)^(٤) « حوث » أي بتفضيل حركة (أو) كما سبق ، ولكن على الرغم من ذلك وجدناهم يفضلون حركة (أي) على (أو) فيقولون : « محبت »^(٥) بدلاً من « محوت » كما أنهم قالوا « المياثق » في « الموائق » في قول عيماض بن أم درة الطائي :

(ولا نسأل الأقوام عهد المياثق)^(٦)

كما روى ذلك أحمد بن يحيى ثعلب مع تغيير « عهد » بـ « عقد » .

فالقبيلة الواحدة خلطت بين الحركتين (أو) و (أي) ، مما يدل على أن اللغة الإنسانية طبيعة لا تخضع لهذا البتر الجغرافي .

تعقيب :

ظهر من هذا العرض الموجز أن دراسة اللهجات العربية على أساس الكتلة الغربية والكتلة الشرقية لا يحل مشكلات اللهجات ، وأنه من الصعب ادعاء أن الكتلة الحجازية في جانب والكتلة التميمية في جانب آخر ، وأن كل كتلة منها شرقية أو غربية يمكن أن تعالج كل واحدة منها على أنها وحدة منفصلة تماماً ، وأقمت فيما تقدم أدلة دامغة - تاريخية واجتماعية وجغرافية ، وأخيراً أدلة لهجية وكلها تعارض منهج المستشرقين في التقسيم ، كما بينت أن الجانب الغربي مؤثر في الجانب الشرقي ومتأثر به أيضاً ولهذا فلا أستطيع فهم قول المستشرق Rabin عندما أراد

(١) لسان العرب : ٤٦٤/٣ ، إصلاح المنطق : ١٧٥ - ١٧٦ .

(٢) إصلاح المنطق : ابن السكيت : ١٤٤ دار المعارف .

(٣) شرح المفصل : ١٢٩/٨ .

(٤) مجالس ثعلب : ٦٣٤/٢ ، المغنى : ١١٦/١ .

(٥) اللسان : ١٣٩/١٠ .

(٦) شرح الشافية : للرضى : ٢١٠/١ ، نادر اللغة : لأبي زيد : ٦٤ - ٦٥ .

أن يتحدث عن اللهجات الغربية « بأنها وحدة منفصلة تماماً »^(١) والذي أوقعه في ذلك هو التقسيم الجغرافي الشرقي والغربي ، وأرى أن هذا التقسيم لم ينع من وجود صلات لغوية قوية ربطت بين هذه اللغات في شقي الجزيرة في الزمن الأقدم ، كالذي حدث بين مجموعة اللغات الأكادية وبين اللغات العربية الجنوبية القديمة كالمعينية والحضرية والقتبانية والأوسانية^(٢) ، كما ثبت أيضاً من الدراسات اللغوية المقارنة وجود ملامح متشابهة شديدة بين القسمين الشرقي والغربي متمثلة في اللغات الكنعانية والبابلية^(٣) وهذا التشابه لم يأت عفواً ، ولكنه يشير الى ماض مشترك ، وإلى مراحل تاريخية واحدة .

وأثبتنا كذلك أن هذا التقسيم لم يكن محددًا ثابتًا ، بل اختلف علماء الجغرافيا من المسلمين في بيان هذه الحدود كما أسلفنا القول في ذلك فجعل دراسة اللهجات العربية في ضوء هذا التقسيم قلقة مبهمة ، والحق أن الجزيرة لم تعش منعزلة منفصلة ملتزمة هذا التقسيم ، بل كانت القبائل في تنقل دائم ، وهذه الانعزالية القاسية ما كانت لتعرفها العرب .

وإنني لا أنكر أثر الفاصل الجغرافي بين القسم الشرقي والغربي ، ولكنني أعتقد كذلك أن العامل الجغرافي ليس كل شيء - بل هناك عوامل أخرى متشابكة يأخذ بعضها برقاب بعض - يجب أن تكون محل الاعتبار الأول في الدراسات اللهجية ، كالعامل الإنساني والاجتماعي والتاريخي ، إذ إن الإنسان الذي كان يعيش في الشرق وفي الغرب من الجزيرة العربية هو إنسان واحد - وهو الإنسان العربي ، ويقول : Jespersen « ليس المهتم في اختلاف اللهجات هو الفاصل الطبيعي الجغرافي »^(٤) . وعلى فرض أن العامل الجغرافي له أثره الكبير ، فيجب ألا ننسى أن الكتلة الشرقية الممتدة لتجدد كانت تختلف اختلافًا عظيمًا في ذات نفسها من حيث تكوين التربة وطبيعة التكوين الجغرافي والجيولوجي ويجب ألا ننسى الاختلاط في السكنى وموارد المياه والأسواق مما كان له الأثر الفعال في تآكل خشونة الاختلاف اللهجي بين الكتلة الشرقية وأختها الغربية ولقد قيل « إن إنشاء سوق سنوية في جبال « روكيز » كان من نتائجه

(١) رابن : P. 2 .

(٢) محاضرات الدكتور خليل نامي في كلية الآداب .

(٣) تاريخ اللغات السامية : ١٠١ ولفنسون .

(٤) اللغة بين المعيارية والوصفية : ص ١٨٦ الدكتور تمام حسان .

أن أصبحت القبائل الهندية الحمراء من شرق هذه الجبال ومن غربها يفهم بعضها بعضاً بعد أن كانت لا تستطيع التفاهم بسبب اختلاف لهجاتها اختلافاً كبيراً^(١).

ولهذا آثرت أن أدرس لهجات القبائل - لا عن طريق هذه الوحدات القبلية المنعزلة عن بعضها كل لهجة الحجاز وهذيل وقيس وفصل كل لهجة عن الأخرى في الدرس والبحث ، بل درستها على مستوى الظواهر اللفظية ، تلك التي تجمع بين قبائل عدة ما داموا يشتركون في الظاهرة ، وهذا منهج يؤمن بالأخذ والعطاء والتأثير والتأثر بين القبائل أولاً ، ثم يؤمن بوحدة الجنس العربي في الجزيرة ثانياً .

ولهذا كان لي أن أتجه اتجاهاً آخر في الدرس - ما دامت طريقة المستشرقين قد عجزت عن حل المشكلات اللفظية التي أثارها .

وفي الفصل القادم سأقدم اقتراحين جديدين لدراسة اللهجات في ضوءها . ثم أحاول أن أحل المشكلات اللفظية السالفة .

(١) انظر : المرجع السابق .

الفصل الثاني

« منهج وتطبيق »

قدمت في الفصل السابق شواهد اجتماعية وجغرافية ولهجية ، وجميعها تعارض منهج المستشرقين في جعلهم دراسة اللهجات قائمة على المعسكرين الحجازي والتميمي فقط . ووضعت خطورة ذلك - وفي هذا الفصل سأقدم منهجاً يتلخص في عرض اقتراحين يمكن أن تقوم دراسة اللهجات على أساسهما ، ثم نقيم دراسة لبعض النصوص اللهجية في ضوء هذا المنهج .

أولاً : الاقتراح الأول

أن تدرس اللهجات على أساس أصغر وحدة قبلية ، ولأجل أن تتمثل ذلك نسوق ما ذكره علماء العرب في طبقات الأنساب .

يحدثنا القلقشندي^(١) أن الأنساب ست طبقات :

الطبقة الأولى : الشعب ، وهو النسب الأبعد كمدنان .

الطبقة الثانية : القبيلة ، وهي ما انقسم فيها الشعب : كربيعة ومضر .

الطبقة الثالثة : العمارة ، وهي ما انقسم فيه أقسام القبيلة كقريش أو كنانة .

الطبقة الرابعة : البطن ، وهو ما انقسم فيه أقسام العمارة كبنو عبد مناف .

الطبقة الخامسة : الفخذ ، وهو ما انقسم فيه أقسام البطن كبنو هاشم .

الطبقة السادسة : الفصيلة ، وهي ما انقسم فيه أقسام الفخذ ، كبنو العباس .

ومن العلماء من زاد : « الأسرة »^(٢) ، ثم العنزة وبعضهم يزيد^(٣) الرهط ويقع في اعتبارهم

(١) نهاية الأرب : ١٣ القلقشندي .

(٢) بلوغ الأرب : ١٨٩/٣ الألويسي .

(٣) نهاية الأرب للتويزي السفر الثاني : ص ٣٠٠ دار الكتب .

أشياء مرادفة لما تقدم كفولهم «حي» وبيت وعقيلة ، وأرومة ، وجروثة^(١) الخ ... «وقد حدث خلاف في هذه الطبقات بالزيادة أحياناً والنقص أحياناً أخرى . وذلك لا يعنيها ، وإنما هدفنا أن نحدد أصغر وحدة اجتماعية في هذا النظام فماذا تكون ؟ أرجح أنها الرهط أو الحي أو الفصيلة وكلها تقريباً بمعنى واحد ، ويرى القلقشندي وحققاً ما رأى أن المراد « بالفصيلة » « العشيرة الأدنون »^(٢) بدليل قوله تعالى : « وفصيلته التي تؤويه » أي تضمه إليها ولا يضم^(٣) الرجل إلا أقرب عشيرته » ولعل أصغر وحدة اجتماعية هي ما يطلق عليه علماء الاجتماع كلمة Family أي الأسرة . وأياً ما كان فالأسرة أو الرهط أو الفصيلة كلها تمثل وحدة صغرى ، وعلى هذا تكون الوحدة الاجتماعية الصغرى ممثلة في الأسرة أو الفصيلة ، والرهط – هي الأساس السليم الذي يجب أن تقوم على أساسه الدراسة اللهجية ، وذلك لأن الرابطة في تلك الوحدة الاجتماعية الصغرى كانت قوية حيث (كانوا يؤلفون)^(٤) من وجهة النظر الاجتماعية والقانونية ما يشبه الشخص الواحد ، حتى إن ثروة الأسرة كانت ملكاً مشاعاً لجميع أفرادها » وإنما أثرت دراسة اللهجات على هذه الوحدة الصغرى الاجتماعية ، لأن السمات اللهجية ستكون منطبقة عليها دون غيرها ، وسيترتب على هذا أن نمزق الكتل التيممية والحجازية واليمينية والقيسية والأسدية وغيرها من الكتل حتى لا تضيق تلك الوحدة الاجتماعية الصغرى ، وتبتلع سماتها اللهجية تلك الوحدات الكبرى ، وللأسف هذا ما حدث فعلاً ، حيث ضاعت الوحدة الاجتماعية الصغرى وأصبحنا لا نرى إلا وحدات ضخمة – كالغزو إلى تميم أو أسد أو ربيعة أو مضر أو اليمن أو الحجاز أو نجد ، وكلها وحدات ضخمة مشوهة واسعة الحدود والبطون ، وكلها بالطبع لا ترضي الباحث ولا تشفي غلته ، فإذا ما طالعنا العلماء بالعزو إلى قبيلة تميم مثلاً ، فماذا يقصد بتميم هل كل بطونها وعماثرها وفصائلها أو بعضها ؟ وإذا كان بعضها فلم سكنت المصادر عن تعيين هذا البعض في كثير من الأحيان ، وإذا طالعنا بالنسبة إلى قبيلة كقيس – فماذا يقصد بها ؟ هل يريد القبيلة كلها مثلاً مع العلم أن قيساً من القبائل الضخمة ذات الشعب والفصائل المتفرقة في شرق الجزيرة وغربها ، لا شك أن مثل هذه الكتل الضخمة لا تؤدي إلى نتائج حاسمة عندما ندرس اللهجات في ضوءها ، إذ دراسة اللهجات في ضوءها يضيع

(١) بلوغ الأدب : ١٨٩/٣ الألوحي .

(٢) نهاية الأرب : ١٤ القلقشندي .

(٣) بلوغ الأرب : ١٩٠/٢ الألوحي .

(٤) الأسرة والمجتمع : ص ٩ الدكتور علي عبد الواحد وافي ، سنة ١٣٦٧ - ١٩٤٨ ط الثانية دار إحياء الكتب العربية .

على الباحث لهجات العماير والبطون والفصائل ، وحققا لقد ضاعت معالم لهجاتها ، ضاعت بين « استعمال الشرقية والغربية أو التسمية والحجازية » ، وكان مثل هذه البطون لم تستثنى سمات الجزيرة العربية يوماً ولا عاشت على تربتها ولا استظلت تحت سماها . وإلا فأي ضياع أكبر عندما نسمع عزواً الى لغة نجد^(١) تلك الكتلة الجغرافية المشوهة - وما أكثر ما نسمع ، مع أن المعروف أن تلك المنطقة وحدها تشمل تيمناً بفروعها وبطونها ، وتشمل أسداً وقبائل ربيعة وبطونها المتناثرة على موارد المياه وأطراف الصحراء ، فإذا يعنون بنجد ، ونجد حوت في بطن صحرائها أسماء عمائر وقصائل وعقائل وأرومات تساوي عدد حصاها .

وماذا يريدون بالحجاز ، والحجاز بلغت في تهائها ونجودها ، وعلى موارد مياهها ، وأسلاف خلجانها العدد العديد من القبائل .

وكما أسفنا لنسبة اللهجات الى نجد ، نأسف كذلك لنسبتها الى الحجاز^(٢) تلك الكتلة

(١) انظر في العزو الى نجد : اللسان ٣١١/١ ، ٢٢٦/٢ ، ٣٢١/٣ ، ٤٧٠/٤ ، ٢٤٤/٦ ، ٢٧٤ ، ١٣٥/٧ ، ٤٢٧ ، ٦١/٩ ، ١٩٥/٨ ، ٤١٤/١٣ ، ١٧٥/١٤ ، ٣٩١/١٥ ، ١٠١/١٦ ، ١٩٤/١٧ ، ١٩٦ ، ٢٥٩/١٨ ، شرح الشافعية لابن الحاجب : ١٥٢/١ ، اللسان ، ٣٦٢ ، ٢١٩/٢٠ ... الأضداد للأصمعي والسجستاني وابن السكيت والصفاني : ص ٦ ط بيروت سنة ١٩١٢ م ، ١٦٤ ، ١٩٣ ، الزهر للسيوطي : ٢١٥/١ الرابعة ١٣٧٨ هـ ، المذكر والمؤنث للغراء ٢١ ط حلب سنة ١٣٤٥ هـ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٠ ، الزهر : ٤٦٣ - ٥٥٤ - ٥٥٥ ، إصلاح المنطق لابن السكيت : ص ١٣٩ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون والشيخ شاکر ، ٢٠٦ ، المصباح المتير : ١٤٤ ، ٣٥١ ، ٣٩٣ ، ٣٩٦ ، ٥٥٤ ، ٧٨٠ ، ١٠٠١ ، البحر المحيط : ٨٣/١ ، ١٠٩ ، ١٧٢ ، ٢٨٢ ، ٣١٨ ، ٣٤٠/٢ ، ٤٣٣ ، ٥٠١ ، ١٠/٣ ، ٣٨٠ ، ٤١٠ ، ١٤١/٤ ، ١٨٤ ، ٢٣٤ ، ٢٦٩/٥ ، ١٨٥/٦ ، ٢٤٤ ، ٤٧٨ ، ٢٠٠/٧ ، ٤٦٠ ، ١١/٨ ، مع الهوامع للسيوطي : ٢٠٤/٢ ، ٢٠٠ ، القلب والإبدال : ابن السكيت ٤٨ ط بيروت : ١٩٠٣ م . الأفعال : ابن القطائع : ٢٧٧/٢ ، ١٦٢/٣ ، الطبعة الأولى بجيدر أباد . الغرب المصنف : ٢٦١ لأبي عبد القاسم خط دار الكتب رقم : ١٢١ . المذكر والمؤنث لابن جني ١٠ خط لغة تيمور : ٣٨٨ . البلغة في شذور اللغة : ٦٥ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ١٢٨ المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٠٨ . ديوان الأدب : الفارابي ورقة ٢٨٨ ، ٨٩ ، ٢٦٦ تيمور لغة ٣٨٣ خط دار الكتب . المخصص : لابن سيده سفر : ٥٩/١٠ ، سفر ١١/١١ ، سفر ٢٣/١٤ ، سفر ٥٧/١٥ ، ٨٣ ، سفر : ٢٤/١٧ ، سفر : ٢٤٨/١٤ . المجهرة لابن دريد ٢٨٨/١ .

(٢) انظر العزو الى الحجاز : كتاب سيويدي ٢٨/١ ، ٣٦ ، ١٨٧ ، ١٩٣ ، ٣٦٣ ، ٤٠٣ ، ٤٠/٢ - ٤١ ، ٤٣ ، ١٥٨ ، ١٦٠ ، ١٦٣ ، ٦٦٧ ، ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧١ ، ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ، ٣٩٨ ، ٤١٦ ، ٤٢٤ ، ٤٢٩ . شرح الشافعية : ٤٠/١ ، ١٥٢ ، ٢٣٩/٢ ، ٢٤٤ ، ٢٨٦ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ، ٤/٣ ، ٣١ ، ٣٢ ، ١١١ ، ١١٩ ، ٢٦٨ ، ٢٧٩ ، كثر الحفاظ في كتاب تهذيب الألفاظ للتبريزي : ٥٥٧ ، شرح المفصل : ابن يمين ١٩/١ ، ١٠٥ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ٨٠/٢ ، ٨١ ، ٩١ ، ١١٦ ، ١٩/٤ ، ٢٠ ، ٢٨ ، ٤٢ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ١٠٦ ، ٢٧/٦ ، ١٢٩/٨ ، ٥٤/٩ ، ٧٤ ، ١٠٧ =

الجغرافية الضخمة ، التي لا ترضى منهجنا في دراسة اللهجات ، والحق أنني قد جمعت لهجات أخرى حجازية في كتب عدة ، ولكن حسبي بعض ما سجلته وكل ذلك ليوجد الباحث أن هذه

= ١١٦ ، ١٠١ ، ٦٣ / ١١٨ ، ١٤١ ، ١٥٣ . المحتسب لابن جني ٧٨ / ١ ، ٣٢٥ ، ١١٤ ، ١٧١ ، ١٧٥ ، ٢ / ٢ ، ٣١٢ مخطوط رقم ٣٧٩ قصير تيمور ، المذكر والمؤنت للقراء : ١٣ ، ٢٥ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ٣٤ طبع حلب . خزائن الأدب : البغدادي ٢ / ٤٦٨ ، ٤٤٢ ، ٢٢٠ / ٣ - ٢٢١ - ٢٣٥ / ١ ، ٥ / ٢ ، ١٩ ، ٢٠ ، ١٢٥ - ١٢٩ ، ٤١٠ / ٤ . التصريح ١ / ٣٦ ، ٦٨ ، ١٢٧ ، ١٩٦ ، ٢٤٦ ، ٣٥٢ ، ٩٥ / ٢ ، ١١٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٤ ، ٣٩١ ، ٤٠١ ، ٣٩٧ ، ١٩٩ . أسرار العربية ابن الانباري ١٤٤ ، ٣٩١ دمشق . مغنى اللبيب ابن هشام ١ / ٢٧٧ ، ٦ / ٢ ، ١٩١ التجارية . أدب الكاتب ، ابن قتيبة ٤٨٨ تحقيق محي الدين . مجالس ثعلب ٢ / ٤٢٢ ، ٦٤٦ دار المعارف . شمس العلوم : نشوان الميري ٥٠ - ٥١ مطبعة بريل ١٩١٦ م . الاشتقاق ، ابن دريد ١٤ ، ٤٠ ، ٦٨ ، جونجن سنة ١٨٥٤ . حاسة المرزوقي : ١ / ٢١٠ ، ٢٤٩ ، ٦٤١ / ٢ تحقيق هاروت كتاب الإبل للأصمعي ٨٢ ط بيروت ١٩٠٣ . الإنصاف ابن الانباري ١٠٧ / ١ مطبعة حجازي ط أولى ١٩٤٥ م تحقيق محي الدين . الفائق في غريب الحديث الزعزعي ١ / ١١٩ ، ٣ / ٢١٠ ، ٢١٠ ، ٢٤٩ ، ٦٤١ / ٢ تحقيق هاروت اللغة ، ابن فارس ١ / ٢٣٦ . ديوان أدب : الفارابي ورقة ١٣٣ ، ٢٣٥ ، ٣٣٠ ، ٣٥٢ مخطوط تيمور لفظة رقم ٣٨٣ ، كتاب المذكر والمؤنت ابن جني ١٠ لفظة رقم ٣٨٨ مخطوط تيمور كتاب التذكير والتأنيث السجستاني ١٨ لفظة تيمور خط رقم ٢٦٤ . البلغة في شذوذ اللغة ٦٥ ، ٦٧ ، ٦٩ ، ١٢٨ بيروت . عقد الجوهرة في الأسماء المؤنثة والمذكورة ١٤ لفظة رقم ٣٢٧ تيمور . المختضب للبرد ٤٩٩ - ٥٠٠ القسم الثاني من الجزء الرابع مصورة بدار الكتب رقم ١٥٢٥ نحو . الحجية للفارسي ١ / ٥٠ مخطوط بدار الكتب قراءات رقم ١٩٥٥٣ . التذيل والتكميل ورقة ١٧ ج ٥ مصور بمحكمة القاهرة ٢٦٠٥٨ . الفريب المصنف : القاسم بن سلام ٢٦١ ، ٢٦٨ خط دار الكتب رقم ١٢١ . كتاب الوحوش : للأصمعي : ٢٨ - ٢٩ ط فينا ١٨٨٨ أعمال ابن القطاع : ٢ / ٦٤٤ حيدر آباد الدكن ، البحر المحيط ١ / ٢٥ ، ٣٧ ، ٤٥ ، ٤٧ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٨٣ ، ١٠٩ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٣٨ ، ١٧٧ ، ٢١٨ ، ٢٨٢ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ ، ١٥٠ / ٢ ، ٢١٤ ، ٢٢٩ ، ٢٤٣ ، ٢٨٥ ، ٣٢٨ ، ٣٤٠ ، ٣٤٢ ، ٣٤٤ ، ٣٥٤ ، ٣٩٨ ، ٥٠١ ، ٤٣ / ٣ ، ٤٣ ، ٩٦ ، ١٥٢ ، ١٨١ ، ١٩٣ ، ٢٣٦ ، ٢٤٧ ، ٢٨٩ ، ٢٨٩ ، ٣٣٩ ، ٣٧٧ ، ٣٨٠ ، ٣٨٤ ، ٣٩٧ ، ٥١١ ، ٤١ / ٤ ، ١٤١ ، ١٨٤ ، ٢٢٧ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٤١ ، ٣٧٧ ، ٣٨٩ ، ٤٠٦ ، ٤٧١ ، ٤٩٦ ، ٥١٨ ، ٥١٥ / ٥ ، ٢٨٠ ، ٢٨٦ ، ٢٩٨ ، ٣٠٠ ، ٣٠٤ ، ٣٥٧ ، ٤٩٠ ، ٢١٠ ، ٥١١ ، ١٠٧ / ٦ ، ١٧٢ ، ٢٤٤ ، ٢٧٣ ، ٣٧٤ ، ٤٠٤ ، ٤٢٣ ، ٤٥١ ، ٤٧٨ ، ٩١ / ٧ ، ١١٠ ، ١٨٢ / ٧ ، ٢٦٩ ، ٤٤٩ ، ٥١٤ ، ٥١٨ ، ١١٧ ، ١٩٤ ، ٢٣٢ ، ٤٩٧ ، الاضداد ابن الانباري : ٢٢ ، ٢٣ ، المطبعة الحسينية المصرية . النصف ابن جني ١ / ٢٢٨ ، ١٨ / ٢ مصطفى الحلبي . الجمل للزجاجي ١١٩ ، ٣١٧ ، ٣٨٠ مطبعة جول كرونل الجزائر سنة ١٩٢٧ . معاني القرآن . القراء ١ / ١٩٠ ، ٢١٢ ، ٢٨٦ ، ٤٤٧ ، ٤٨٠ ، ط دار الكتب . الامالي الشجرية ١ / ٧٤ ، ٢٠٩ ، ١١٤ / ٢ ، ٢٣٨ ، ط أولى حيدر آباد الدكن ١٣٤٩ . جهرة ابن دريد ١ / ١٧٣ ، ٢٢٨ ، ٢١ / ٢ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥٢ ، ٢١٤ ، ٢٤ / ٣ ، ٦٨ ، ٢٣٩ ، ٢٦٧ . الجمع للسيوطي ١ / ٤٧ ، ٢٩ ، ٧٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ١١٥ ، ١٢٥ ، ١٢٣ ، ١٤٦ ، ٢٠٨ ، ١٠٧ / ٢ ، ٨٠ / ٢ ، ٢٣٩ / ١ ، ١٥٣ / ٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٩ ، ٢١١ ، ٢٢٧ ، اللسان : ١ / ١١٩ ، ١٤ ، ٢٤ ، ٤٧ ، ١٢٧ ، ١٢٨ ، ٢٣٥ ، ٢٣٩ ، ٣٨٠ ، ٣٢٦ / ٢ ، ٤٢٦ ، ٤٦٣ ، ٤٧٦ ، ١١٦ / ٣ ، ٣٢٩ ، ٣٢٩ ، ٤٩٠ ، ٧ / ٤ ، ٢٥٠ ، ٤٢٥ ، ٤٣٧ =

النسبة أو هذا العزو الى الكتل الكبرى ضيع علينا اللهجات الصغرى ، والتي نسيها الرواة أو تناسوها لأغراض لهم خاصة ، ولهذا نرى أن العزو الى الوحدات الصغرى بالمقارنة الى الوحدات الكبرى يظهر تأفهاً ضئيلاً ، ونظرة واحدة الى الرسم البياني بين ذلك . يضاف الى هذه الضالة قاعة قليلة لا تتجاوز أصابع اليد نسبت الى أفراد من البيئة العربية (أي نسبت الى الوحدات الصغرى الاجتماعية) التي كنت أحب وأتمنى أن يكون عزو اللهجات إليها حق نضع يدنا على حقيقة اللهجات في شبه جزيرة العرب ، ولقد كلفني البحث عنها جهداً وعنتاً . وهي :

أ (لغة « المعاج »^(١) جاءتنا عن الأصمعي ، وجاءتنا أيضاً عن « ابن سلام »^(٢) .

ب (لغة « يزيد بن مزيد الشيباني » وجاءت عن ابن السكيت^(٣) ، والقالي^(٤) .

ج (ولغة « بثينة » جاءت عن « الليث »^(٥) وأهل بثينة هؤلاء كانوا يسكنون هضبة على طريق السفر بين البحرين والبصرة^(٦) .

= ٤٦٩ ، ١١٧ ، ٧٣/٥ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ٢٧٦ ، ٦٢/٦ ، ٢٤٤ ، ٢٧٤ ، ١٣٥/٧ ، ١٣٦ ، ٢١٣ ، ٢٨٥ ، ٣٠٥ ، ٥٠/٨ ، ٥٧ ، ١٣٣ ، ١٩٥ ، ٢٧٥ ، ٣٠٠ ، ٣٧/٩ ، ٦١ ، ٨٣ ، ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٣٣٤ ، ٤٠٩ ، ٩٢/١٠ ، ٢٣١ ، ٢٩٦ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ، ٢٨١/١١ ، ٣٠٣ ، ٩/١٢ ، ١٩ ، ٣٨ ، ١٤٣ ، ٢٢٢ ، ٣١٢ ، ١٢٧/١٣ ، ٣٣٦ ، ٣٥٣ ، ٤١٤ ، ٤٤١ ، ١٥٤/١٤ ، ١٧٥ ، ٢٧٣ ، ٢٥٦/١٥ ، ٣٨٩ ، ٣٩٤ ، ٤٢٨ ، ٥٩/١٦ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٢٣ ، ١٧١ ، ٢٩٣ ، ٧٤/١٧ ، ١٧١ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٣٠٧ ، ٢٧/١٨ ، ٣٠٨ ، ٥/١٩ ، ١٧ ، ٧٩ ، ٨٢ ، ١٠٣ ، ١٨/٢٠ ، ٤٤ ، ٦٧ ، ١١٤ ، ١٢٥ ، ٢٨٣ ، ٣٤١ . الطبعة الأولى . نوادر يونس بن حبيب وردت لغة الحجاز ٢٧ مرة . نوادر اليزيدي : وردت لغة الحجاز ست عشرة مرة من ص ٢٧٥ - ٢٧٧ انظر المزهري للسيوطي . إصلاح المنطق : ابن السكيت : ٩٨ ، ١٠٧ ، ١١٧ ، ١٢١ ، ١٣٢ ، المحمص لابن سيده : السفر الأول / ٤٨ ؛ ١٦٤ ، سفر ٣/ ٢٢ ، ٦٤ ، سفر ٥/ ٢٤ ؛ ١٢٣ ؛ ١٢٤ ، سفر ٨/ ١٦٢ ؛ ١٦٥ ؛ سفر ١٢/ ٢٧ ، ٣١/ ٦٦ ، ٣٢٢ ، سفر ١٤/ ٨٧ ، ٢١٤ ، ٢١٧ ؛ سفر ١٥/ ٩٤ ، ١٣٧ ، سفر ١٧/ ١٤ ، ٢٤ ، ٦٦ ، ٦٧ .

(١) كتاب خلق الانسان للأصمعي : ص ١٦٥ طبع مع كتاب القلب والإبدال لابن السكيت باسم « الكنز اللغوي » بيروت سنة ١٩٠٣ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ص ٦٥ ابن سلام ، تحقيق شاکر .

(٣) القلب والإبدال : ٥٤ .

(٤) أمالي القالي : ٩١/٢ ط الثانية دار الكتب : ١٩٢٦ .

(٥) اللسان : ٣١٨/١٨ .

(٦) انظر : التاج - ومعجم البلدان لياقوت .

د (لغة « أبي حية النميري » جاءت عن ابن الجزري^(١) .

هـ (لغة « أبي عون الحرمازي »^(٢) .

و (لغة « أبي الجراح العقيلي » جاءت عن اللحياني^(٣) .

ز (لغة « أبي هريرة » : جلدٌ ، فزدٌ ، في جلدت وفزت ، وقد عزاها إليه المختار بن بونة^(٤) .

فهذا العزو السابق يجعل الباحث يتأكد من مواضع أقdamه حين يجد عزواً الى « أصغر وحدة اجتماعية » . ولنفرض مثلاً أن الرواية رقم (أ) جاءتنا عن « تميم » لأن المعجاج تميمي ، فهل تتساوى الروايتان مثلاً حيث تكون النسبة « لغة المعجاج » أو لغة « تميم » ؟ ربما هذا يرضي بعض الباحثين ولكن الحق أن هذا لا يرضي دارس اللهجات ومع أن نسب المعجاج يثول الى « تميم »^(٥) إلا أن تميمًا هي قبيلته الكبرى أو هي (الأم) التي تجتمع فيها البطون والقصائل ، ولكننا نريد أن نحدد لهجة المعجاج فنرى أن ابن حزم ينسبه الى « سعد بن مالك »^(٦) الذي يثول نسبه بعد سلسلة نسبية الى تميم ، فدارس اللهجات الحديث ، يرضى بأن تستبدل « سعد بن مالك » بتميم — وإن كانت نسبة « سعد » ستؤول الى تميم ، وإنما كان هذا لا يرضى لأن اللغة في انتقالها من الأم الى العماثر والبطون والأحياء تصيبها بعض التغيرات الصوتية والدلالية والمعجمية في نظامها اللهجي .

وما يقال عن « المعجاج » يمكن أن يقال « عن أبي عون الحرمازي » فالحرماز « بطن من تميم »^(٧) فلو نسبت اللهجة الى تميم بدل « حرماز » لما كان هذا العزو دقيقاً ، وإن كانت الحرماز من تميم . لأن اللغة كما قلنا آنفاً تتغير في انتقالها من السلف الى الخلف .

(١) النشر في القراءات العشر : ٣٣٨/٢ .

(٢) طبقات فحول الشعراء : ٦٥ .

(٣) اللسان : ٩٣/١٤ .

(٤) ألفية ابن بونة : ٤٠٢ .

(٥) الشعر والشعراء : ٢٣٠ ط السقا .

(٦) جهرة ألساب العرب : ٢٠٤ ابن حزم دار المعارف .

(٧) نهاية الأرب : ١٢٣ .

وهذا الخلط توقعناه من القدامى «فأبو حنيفة الدينوري نسب ما كان لغة لرؤبة بن العجاج -
نسبه الى تميم»^(١) ولكن يظهر أن خلط الدينوري لم يعجب رجلاً كابن سلام الذي قال إن
هذه اللغة « وهي لغة نصب الجزأين بليت هي لغة جماعة من تميم هم قوم رؤبة بن العجاج »^(٢) .
والحق أن الدراسة اللهجية لا تسمح بهذا التعميم ، ففرق بين قوم رؤبة بن العجاج ، و تميم .
وأرى أنه كلما عزيت الظاهرة الى أصغر وحدة اجتماعية - استطاع الباحث أن تكون
دراسته للهجات دراسة منهجية مبنية على التخصيص والتحديد الذي يؤمن به العلم والعلماء .

(١) الدرر اللوامع : الشنقيطي : ١١٢/١ ؛ الخزائن : ٢٩١/٤ - ٢٩٤ .

(٢) الخزائن : ٢٩١/٤ - ٢٩٤ .

ثانياً : الاقتراح الثاني

أن تدرس اللهجات العربية على هدى اختلاف طبقات المجتمع العربي ، فاختلاف مظاهر الحياة الاجتماعية في البيئة يؤدي الى التميز في اللهجة ، ولا شك أن مظاهر الحياة الاجتماعية واسعة متشابكة متداخلة فمنها ما يرجع الى البدوة والحضارة وما يتصل بذلك من الأنظمة الاقتصادية ، وشئون الحياة المادية ، ونظام السياسة والتشريع وحياة الأسرة ، فجميع هذه الأمور وما يتوالد منها له أثر فعال في اختلاف اللهجات في البيئة .

أثر المجتمعات في اللغة :

وقد لاحظ ابن فارس اختلاف مثل هذا في المجتمع الجاهلي والإسلامي حيث انقرضت كلمات جاهلية عندما أشرق فجر الإسلام ، ولا شك أن انقراض تلك الكلمات الجاهلية إنما كان سببه تغير المجتمع من نظام جاهلي الى آخر إسلامي فهو يقول « ومن الأسماء^(١) التي كانت فرالت بزوال معانيها قولهم « المربع » ، « والنشيط » ، « والفضول » وقولهم للملك : « أبيت اللعن » ، وترك أيضاً تسمية من لم يحج (ضرورة) ومما كانت العرب تستعمله ثم ترك قولهم « حَجْرًا مَحْجُورًا » .

وقد يكون للمجتمع أثره لا في انقراض الكلمات كما سبق ، بل له أثره أيضاً في تخصيص دلالة الكلمة حيناً وتوسيعها حيناً آخر أو تغيير مجال الدلالة ، كما قد يصيب مدلول الكلمة بالانحراف ، فيتحرف معناها الأصلي ، ومن ذلك كلمات كانت عامة في مدلولها في المجتمع الجاهلي ثم لما جاء الإسلام خصص معانيها ، وقد لاحظ ذلك ابن فارس حيث يقول : كان العرب في جاهليتهم على إرث من إرث آبائهم في لغاتهم وآدابهم ونسائلكهم وقرابينهم ، فلما جاء الله جل ثناؤه بالإسلام حالت أحوال ونسخت ديانات ، وأبطلت أمور ، ونقلت من اللغة ألفاظ من مواضع الى مواضع آخر زيادات زيدت ، وشرائع شرعت ، وشرائط شرطت فغنى الآخر الأول^(٢) وهذا التطور لا يكون مقصوراً على المفردات والمذلولات فحسب ، وإنما يشمل كذلك التطور الصوتي والتفاعل بين الأصوات وانسجامها أو عدمه . ومما يؤكد أثر المجتمع في اللغة ما

(١) الصاحبي لابن فارس : ص ٥٨ - ٦١ .

(٢) المرجع السابق : ٤٤ .

لاحظه الأقدمون أنفسهم ، فقد جاء عن أبي عدنان أسلوب عزاء الى التميميات^(١) دون التميميين ، وهذا شيء غريب حقاً ، ولا أجد تفسيراً لذلك إلا لاستحكام حلقات الانفصال بين الجنسين في بيئة تميم لأسباب اجتماعية أو دينية ، ومن هنا اشتملت لهجة النساء التميميات على جمل وأساليب لا يستخدمها الرجال التميميون ، ويلاحظ هذا في الشعوب البدائية ، والتي لا شك في أن أكثر تميم تمثلها . ولقد كان الأستاذ « هنري بر » على حق عندما رأى « أن المجتمع^(٢) من جهة كونه مجتمعاً ، له حياته الخاصة التي تشمل حياة الأفراد - ينعكس على اللغة » وفي مكان آخر يقول أيضاً « واللغة تظل خاضعة للحياة في تطورها الذي لا ينتهي^(٣) الى حد » .

طبقات المجتمع العربي :

والمجتمع العربي^(٤) الجاهلي بدو وحضر ، أهل وبر وأهل مدر يتساوى في هذه الحال عرب الشمال وعرب الجنوب وعرب جميع أنحاء جزيرة العرب الأخرى ، وأجزاء الجزيرة كلها تشترك في صفتي البداوة والحضارة فكلتا الصفتين تتخلل في كل مكان من الجزيرة ، فنناطق الحجاز وإن اتسمت بالحضارة فليس معنى هذا أنها لا تشتمل على البداوة ، ومنطقة نجد وإن غلبت عليها البداوة فليس معنى هذا أنها لا تشتمل في بعض أجزائها على الحضارة ، وليس معنى صفة البداوة - الثبات وعدم التطور فقد أثبت علم الاجتماع « أن الجماعة^(٥) البشرية لا يمكن أن تثبت على حال واحدة ، وأن أكثر الجماعات جموداً ينالها التطور والتغير باستمرار » وطبقة البدو يعيشون في الصحراء وهم كما وصفهم « سمنت » ، « رعاة^(٦) يحبون الحرب ويغير بعضهم على بعض » بعكس طبقة الحضر الذين يعيشون في المدن كمكة والطائف وخيبر والمدينة ومدن اليمن كمأرب وصنعاء - على حرث الأرض والتجارة . فالعرب في جاهليتهم لم يكونوا مجتمعاً واحداً ، بل كان مجتمعهم يمثل شطرين وقد نرى قبيلة واحدة يسكن جزء منها مستقراً في الحضر بينما باقيها لا يزال على بداوته في أهل الوبر ، وذا هو عرام بن الأصبع السلمي يحدثننا عن

(١) اللسان : ٢٥٩/٨ .

(٢) اللغة : فندريس : ٨ تعريب الأستاذ الدواخلي والدكتور القصاص . لجنة البيان العربي : سنة ١٩٥٠ .

(٣) المرجع السابق : ص ٦ .

(٤) تاريخ العرب قبل الإسلام : ج ٨ ص ٨ جواد علي ؛ محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ج ١ ص ١٦ . الشيخ محمد الحفصري .

(٥) النظم الاجتماعية والسياسية : ٦ المرحوم محمد جمعة .

(٦) تاريخ الاسلام السياسي : ٦٥/١ حسن إبراهيم حسن ط ٢ ١٩٤٨ دار النيل .

نهد فيقول « ويسكن ذراهما^(١) وأحوازمها نهد وجهينة في الوبر خاصة دون المدر ولهم هناك يسار ظاهر »^(٢).

ثم يقول في مكان آخر « والصفراء^(٣) : قرية كثيرة النخل والمزارع وماؤها عيون كلها - وهي لجهينة والانصار ولبنى فهر ونهد » ونرى من هذا النص أن بعض نهد كانوا يسكنون الوبر ، وبعضها الآخر كان يسكن في الحضر في قرية الصفراء .

ثم يحدثنا عن مزينة فيقول « ولبن صدر^(٤) من المدينة مصعداً أول جبل يلقاه من على يساره (ورقان) وهو جبل أسود عظيم كأعظم ما يكون من الجبال ... سكانه أوس من مزينة ... (وقدس) هذا جبل شامخ ... والقدسان جميعاً لمزينة ... ويقابلها من غير الطريق المصعد جبلان يقال لهما (نهبان) ... وهما لمزينة ... (والفرع) وهي قرية غناء كبيرة وهي لقريش والأنصار ومزينة ، ويؤخذ من هذا النص أن مزينة بعضها كان يسكن الجبل أي هم في طبقة البدو ، والبعض الآخر كان يسكن الحضر كما في بلدة « الفرع » الذي وصفها عرام بقوله « قرية^(٥) غناء كبيرة » وكقريش فلانها وإن كانت قبيلة واحدة ، إلا أن بعضها كان يسكن البادية ويسمى قريش الظواهر ، وبعضها يسكن الحاضرة ويسمى قريش الأباطح ، فالعرب فيهم البدو أهل الوبر الذين يتخذون حياة الحيام والتنقل حول مجاري المياه ، ومنهم الحضر الذين يشتغلون بالزراعة ، وهم مستقرون في قراهم ومدنهم ، ولذلك فإن بعض المؤرخين الذين نظروا إلى العصر الجاهلي نظرة واحدة ووصموه بالبداءة - ولم يراعوا تلك الفروق الشاسعة في المجتمع - قد جانبوا الحقيقة وضلوا في أحكامهم .

ولا شك أن الدراسات اللهجية في الجزيرة العربية ستؤمن بهاتين النظريتين في المجتمع المنقسم إلى طبقتين تختلف إحداها عن الأخرى اختلافاً كبيراً إذ المجتمع البدوي له من ظروفه في حياته ما يدفعه إلى التطور بلغته ، وكذلك انعزال بيته وتعصبه في خصائصه اللهجية وشدة احتفاظه بتلك السمات - كما أن دورانه حول مسايل المياه ومواطن الكلأ ، وتلك الحركات الدائبة - تجعله يتجه اتجاهها خاصاً في كيفية نطقه وتحديد مدى تأثير الأصوات بعضها ببعض من ادغام لميله

(١) الضمير يعود على جبلي (رضوى وعزور) .

(٢) أسماء جبال تهامة : ٣٩٧ عرام بن الأصبع ط أول سنة ١٩٥٦ .

(٣) أسماء جبال تهامة : ص ٣٩٨ عرام بن الأصبع ط أول سنة ١٩٥٦ .

(٤) أسماء جبال تهامة : ص ٤٠١ - ٤٠٢ .

(٥) المرجع السابق : ٤٠٤ .

الى السرعة في الحديث ، وإسقاطه بعض الحروف من الكلمة تخفيفاً كي يصل الى غرضه من أقرب طريق وأيسره بعكس الحضري المستقر في كلامه وعيشه ، المطمئن الى بيئته حيث يوفي نطق الأصوات دون إسقاط حرف منها ، وذلك لأن بيئته تتطلب منه حسن الأداء وتأخير الألفاظ ، ومن أجل هذا اتسمت اللهجات والبيئة البدوية بسهات صوتية وأدائية تجعلها تغاير لهجات البيئات الحضرية ، يقول الاستاذ « شارل كوينتز » (البدو^(١)) الرجل أبعد من غيرهم عن التأثر بلهجات سواهم ، لما في طبيعة البدوي من الاعتزاز وسكان الحواضر يأخذون ويعطون ، ولذلك كانوا أسرع في التأثر من البدو - يفيدون من اللغات المحيطة بهم) .

كما لحظ الميداني فرقاً بين لغة سكان العراء وسكان المدن ، ولمح ابن جنى هذا حين ساق مردداً لغة المدر والوبر^(٢) ، كما ساق الجاحظ صيفاً يرجع الاختلاف بينها الى المجتمعات^(٣) ، كما فرق ابن خلدون^(٤) في مقدمته بين لغات الحواضر والأماصار ، وبين لغات البادية من الأعراب .

ولقد سبق أن أثرت نصوصاً لهجية تقف في وجه المستشرقين وتقسيمهم وقلت انه يجب أن نلتزم لدراسة اللهجات العربية نظاماً جديداً ، والآن أحب أن أعالج بعض تلك النصوص التي اعترضت بها على منهج المستشرقين ولم يجد منهمج حلاً لها .

(١) مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة : ٣٨٦/٨ .

(٢) الخصائص : ٥/٢ .

(٣) البيان والتبيين : ١٨/١ - ١٩ .

(٤) مقدمة ابن خلدون : ٨٧ - ٩١ ط مصطفى محمد بدون تاريخ ؛ وانظر حديثه عن لغات البدو والحضر .

ثالثاً : دراسة لهجية تقارنية في ضوء المنهج المقترح

١ - قال كثير^(١) :

إذا وصلتنا خلة كي تزيلها أبيننا وقلنا الحاجبية أول
لها مهمل لا يستطاع دراكه وسابقة ملتحب لا تتحول

وقال المغيرة بن حبياء^(٢) :

إني امرؤ حنظلي حين تنسبني لا ملعتيك ولا أخوالي الموق

وقال أبو صخر الهذلي :

كأنها ملأت لم يتغيرا وقد مرّ للدارين من بعدنا عصر

واستشهد صاحب التصريح بقول الشاعر :

لقد ظفر الزوّار أفقية العدا بما جاوز الآمال ملأسر والقتل

فحذفت النون على لغة زبيد وبني خثعم من قبائل اليمن ، وقد يعترض معترض بأن هذا الحذف لضرورة الشعر ولكن يرد ذلك بأنه ثبت في نثرهم مثل هذا حين قالوا « خرجت مدار » « وجئت لمسجد »^(٣) فهذه الظاهرة اشتركت فيها اليمن ممثلة في زبيد وخثعم ، وشاركتها فيها تميم وشاعر هذلي - فالمجموعة الغربية بها ملامح لهجية تماماً كما في الشرقية .

وقد سبق^(٤) أن تعرضت لهذه الأبيات الشعرية ، فإذا سرنا على طريقة المستشرقين في الفصل بين الكتلة الغربية وبين الكتلة الشرقية وعالجنا كلاً منها على حدة ، وقفت في طريقهم تلك الأمثلة اللهجية المتشابهة بين الكتلتين فيرتطم تقسيمهم أمام عتبة هذا التشابه ، لكن إذا سرنا على منهجنا الجديد الذي نادينا به أمكن أن نجد الحل بين أيدينا وهو :

(١) هو من خزاعة وهي من الأزدي ؛ نهاية الأرب للعلقشندي : ٢٤٤ .

(٢) من ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم . الشعر والشعراء : ١٥١ .

(٣) مميزات لغات العرب : ٣٠ حفي ناصف ط الثانية .

(٤) انظر من هذا الكتاب ص ٦٠ - ٦١ .

من الملاحظ « أن القبائل البدوية تميل إلى السرعة في نطقها وتلمس أيسر السبل فتدغم الأصوات بعضها في بعض ، وتسقط منها ما يمكن الاستغناء عنه دون إخلال بفهم^(١) السامع » . ومعنى ذلك أن هذه القبائل لاسيما ما اتصف منها بإسقاط النون في (من) كانت بدوية ، فتميم كان يغلب عليها البداوة ، أو على الأقل ذلك الجزء الذي كان يحذف ويقتصد في الجهد العضلي ويسرع النطق كي يصل إلى غرضه من أيسر طريق وأقربه ، وكذلك أرجح أن الذي نطق بهذه الظاهرة من هذيل تأثر بالبدو ، لاسيما وأن المجتمع الهذلي لم يكن حضرياً كله ، بل بعضهم كانوا يعيشون على قن الجبال ضارين في البيداء ، وتسلم لنا طريقتنا تلك التي تبني الفوارق اللهجية على أساس من تباين طبقات المجتمع العربي ، بغض النظر عما إذا كان أصحاب هذه الظواهر بعضهم من الشرق وبعضهم من الغرب .

٢ - « أفلطني » لغة في « أفلتني » - لغة تميمية قبيحة وقد استعمله ساعدة بن جؤبة فقال :

بأصدقِ بأس من خليل ثينةٍ وأمضى إذا ما أفلط القائمُ اليدُ

أراد - أفلت - القائمُ اليدَ - فقلب^(٢) . فنرى من هذا النص أن اللغة التميمية الشرقية تكلم بها رجل هذلي - من الغرب ، وعلى طريقة المستشرقين في فصل الكتلة الشرقية عن الغربية يقف في سبيلهم مثل هذا التشابه ، ولكننا نجد لمثل هذا حلا على طريقتنا يتمثل فيما يأتي :

لا شك أن تميمًا يغلب عليها البداوة ، « والبدو^(٣) يميلون في نطقهم إلى الحروف المفخمة - لأن هارنة قوية في الآذان مما يلائم طباع البدو وخشونتهم ولا شك أن الطاء في مثالنا حرف مطبق نظيره التاء ، فاختصت الحروف المطبقة باللسان البدوي وما يرجح ذلك أن سيويوه « ينسب صيغة^(٤) فحصط برجلك ، وحصط - يريد حصت وفحصت - إلى تميم » .

كما أرجح أن هذا الهذلي وإن كان من القبائل الغربية التي يغلب عليها التحضر - متأثر بالبداوة ، لاسيما وأن لهجات الهذليين^(٥) متأثرة بمجموعة اللهجات الشرقية . وبيت ابن جؤبة

(١) في اللهجات العربية : ١٢٠ الدكتور أنيس ط ٢ .

(٢) اللسان : ٢٤٧/٩ ؛ ديوان الهذليين : ٢٤٠/١ والرواية « بأصدقِ بأساً » .

(٣) في اللهجات العربية : ص ١١٥ الدكتور إبراهيم أنيس الطبعة الثانية .

(٤) سيويوه : ٣١٤/٢ .

(٥) رابين : ٧٩ - ٨٠ .

السابق لا يمكن أن نخرجه على أن هناك ضرورة شعرية اقتضته أن ينطق بالطاء بدل التاء لأن الميزان الشعري قائم في كلا النطقين بالتاء والطاء .

٣- سقت حديثاً^(١) ملخصه : أن فتح حرف المضارعة من عادات المنطقة الغربية ممثلة في الحجاز ، وأن المنطقة الشرقية ممثلة في تميم تكسر حروف المضارعة وقلنا ان المرزوقي نسب (إخال) بالكسر الى هذيل وفي مكان نسبها الى طيء ، والمعروف أن هذيل غربية ، وكان الواجب أن تنطق (أخال) بالفتح كالبيئة الغربية ، ولكن النصوص جاءت بالكسر لهما - فهذا إن دلّ فإنما يدل على أن التقسيم الجغرافي الى كتلتين شرقية وغربية والفصل بينهما يصيبه التشويه والتعقيد من أجل هذا التشابه بين تميم وبقية الكتلة الشرقية من جهة ، وبين طيء هذيل من الكتلة الغربية من جهة أخرى ، ولكن إذا نظرنا الى هذه المشكلات من وجهة منهجنا الذي نادينا به سابقاً - وجدنا أن هذه أمور يسيرة على الحل : فالمعروف أن المنطقة الشرقية يغلب عليها البداوة ، وأرجح أن البدويين منهم آثروا الكسر ، على حين أهل الحضر ممثلين في الحجاز آثروا فتح حرف المضارعة ، فإذا وجدنا هذيلاً نسب إليها الكسر في (إخال) وكالقرأة المنسوبة إليهم في قوله تعالى « نِستعين » كما نسبها الطوسي^(٢) ، وهذيل غربية ، أرجح أن هذا القسم من هذيل الناطق بالكسر من بيئة بدوية فإذا رأينا ابن منظور يعزو الفتح في (تعلم)^(٣) لبعض هذيل « كان معنى ذلك أن الذين يفتحون من هذيل متأثرون بالحجاز المتحضر وأن الذين يكسرون منهم متأثرون بالبدو من قيس وقيم وأسد وربيعه لأنهم يكسرون »^(٤) .

٤- نسبت العَنَتَنَة الى تميم « وهي قلب الهمزة^(٥) عينا » واستشهدوا لها بقول ذى الرمة :

أَعَنُ ترسّمت من خرقاء منزلة ماء الصّبابَة من عينيك مَسْجُوم

أراد الشاعر - أن ترسّمت . وساق التبريزي^(٦) في حماسه بيتاً روايته :

رعاك ضمان الله يا أم مالك والله عن يشقيك أغنى وأوسع

(١) هذا الكتاب ص ٧٢ - ٧٣

(٢) البحر المحيط : ٢٣/١ - ٢٤ .

(٣) لسان العرب : ٢٨٣/٢٠ .

(٤) اللسان : ٢٨٣/٢٠ .

(٥) السيرافي على سيبويه : ٢٧٨/١ مخطوط بالتيمورية ؛ شرح الشافعية لابن الحاسب ٢٠١/٣ ؛ الخزائن :

٤٩٥/٤ - ٥٩٦ .

(٦) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٧٠/٣ تحقيق محمد محيي الدين .

وقال الثبريزي يحتمل وجهين : أحدهما : عن أن يشقيك والثاني : أن تكون العين مبدلة من همزة (أن) ، لأن بعض العرب يفعل ذلك بكل همزة مفتوحة فيشدون قول ذي الرمة :
أعن ترسمت ... ولقد حدد الجاحظ شاهد الحماسة بأنه من هذيل^(١) .

فهذه الظاهرة التي نسبت الى تميم الشرقية نرى صداها في هذيل الغربية ، وكما قلنا إن التشابه بين الكتلتين يقف في سبيل تقسيم المستشرقين ، ولكن على منهجنا يكون الأمر سهلاً « ذلك »^(٢) لأن البيئة الصحراوية التي تنتشر فيها الأصوات الى مسافات شاسعة لا يعوقها عائق - تتطلب الميل الى توضيح الأصوات بطرق عدة من بينها الجهر بالصوت « فقلب الهمزة عيناً هو ميل بالصوت الى الجهر حتى يكون واضحاً ، وذلك « أن الهمزة صوت شديد »^(٣) ، لا هو بالمجهور ولا بالهموس ، لأن فتحة المزمار معها مغلقة - إغلاقاً تاماً « بينما العين « صوت مجهور عند النطق به يندفع الهواء ماراً بالحنجرة فيحرك »^(٤) الوترين الصوتيين « فعندما تقلب تميم الهمزة الى العين فإنما تفعل ذلك حتى يصبح الصوت مجهوراً ، لأن الجهر من خصائص البدو ، يقول ابن دريد : « ان بني تميم عندما يحققون الهمزة ، يجعلونها عيناً »^(٥) ، فالهمزة حين يبالغ في تحقيقها تصبح عيناً . فإذا رأينا هذه الظاهرة لرجل هذلي غربي - فلا بد أنه من هذيل البدوية ، لا هذيل الحضرية ، لأن الحضرة لا يميلون الى الجهر بالصوت .

٥ - من ظواهر قبيلة طيء اللهجية (أنها تفتح قياساً^(٦) ما قبل الياء إذا تحركت الياء بفتحة غير اعرابية فتقلب الياء ألفاً) ومثل لها ابن الحاجب^(٧) بقوله في بقي : بقى ، وكذلك مثل لها السيرافي^(٨) . وعلل البغدادي هذه الظاهرة عند طيء فقال « لأنهم يكرهون

(١) الحيوان للجاحظ : ١٤٨/٧ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .

(٢) في اللهجات العربية : ٩٦ .

(٣) الأصوات اللغوية : ٨٣ الدكتور أنيس .

(٤) المرجع السابق : ص ٨١ .

(٥) الجهرة : ٢٣٧/١ .

(٦) شرح شواهد الشافية : ٨/٤ البغدادي .

(٧) شرح الشافية لابن الحاجب : ١٣٤/١ .

(٨) شرح السيرافي لسيبويه : ٥٩٥/١ .

يجيء^(١) الياء المتحركة بعد كسرة فيفتحون ما قبلها لتقلب ألفاً ، وقد جمعت شواهد وردت للظاهرة في قبائل أخرى منها :

أ (ما قاله الشاعر :

« سُقَى السَّمِّ ممزوجاً بشَبِّ يَمَانِي »

وعقب أبو بكر عليه بقوله :

(« سُقَى^(٢) في لغة طييء وغيرها بمعنى سُقِي)

ب) ووردت كذلك تلك الصيغة في شعر كعب بن زهير في قوله :

ومن للقوافي^(٣) شأنها من يحوكها إذا ما تَوَى كعب وفوز جرول

فأصل الفعل تَوَى - بمعنى مات - ولكنه قال (تَوَى) .

ج) كما وردت صيغة (فنا) في شعر زهير بن أبي سلمى في قوله :

تربّع صارة^(٤) حتى إذا ما فَتَنَّا الدُّحْلان عنه والإضاء

د) وقد نسبت تلك الظاهرة أيضاً الى رجل من بلعارث^(٥) بن كعب

هـ) كما وجدت مثل هذه الصيغة في شعر رجل تميمي هو علقمة بن عبدة التميمي حيث يقول :

زَها الشَّقْوق حتى ظلَّ إنسان عينه يفيض بغمور من الدَّمع متأف^(٦)

و) كما وجدت مثل هذه الصيغة في شعر امرئ القيس وهي :

عارض^(٧) زوراء من نَسَمَ غير باناةٍ على وتره^(٨)

(١) خزائن البغدادي : ١٤٩/٤ .

(٢) جهرة ابن دريد ٣٢/١ وانظر صيغة أخرى في الجهرة : ١٤٣/٢ .

(٣) الشعر والشعراء : ١٠٣/١ شاعر ؛ وفي ديوان كعب : ٥٩ (نوى) بالثاء دار الكتب .

(٤) ديوان زهير : ٦٨ ؛ طبقات فحول الشعراء ٢٩٠ .

(٥) اللسان : ٣٢٢/١٩ ؛ الترادد : ٥٨ .

(٦) البحر المحيط : ٢٣٩/١ - ٢٤٠ .

(٧) ديوان امرئ القيس : ١٢٣ دار المعارف ؛ اللسان : ١٠٤/١٨ ؛ معجم مقاييس اللغة لابن فارس :

٢٧٦/٩ تحقيق عبد السلام هارون .

(٨) البانية من القسي التي لصق وترها بكبدها ؛ ردي البانة - طائبة ؛ ورجل باناة - منحني على وتره عند

الرمي ؛ اللسان ١٠٤/١٨ .

ز (ورأينا صداها في شعر طفيل الغنوي إذ يقول^(١) :

فلما فتنّا ما في الكتائب قارعوا بكل رقيق الشفرتين مشطّب

كما جاءت مثل هذه الصيغة في شعر المستوفى بن ربيعة بن كعب بن سعد حيث يقول^(٢) :

هل ما بقى إلا كما قد فاتني يوم يمرّ وليسلة تحدونا ؟

وقد استشهد ابن دريد بقول الشاعر :

وقبر بأعلى مسحلان^(٣) مكانه وقبر سقي صوب السحاب ببربخا

وفي (ل) سقى « بفتح القاف » أصح وهي لغة طيء وأسد^(٤) .

والآن أقف وقفة في مناقشة تلك الظاهرة في ضوء النصوص السابقة فأقول :

١ - إن الظاهرة عزيت الى طيء والى بلحارث بن كعب وكلاهما من القبائل اليمنية .

٢ - وجدنا صداها يتردد عند زهير بن أبي سلمى ، وكعب بن زهير ، وكلاهما من مزينة مضر من العدنانية^(٥) ، وجميع هذه القبائل غربية .

ولكن وجدنا صداها يتردد في تميم ، حيث نطق بها علقمة بن عبدة وهو تميمي أي في الجانب الشرقي ، وعند امرئ القيس - وكان في كندة وهي تنظم معظم بلاد نجد ، وعند المستوفى بن ربيعة بن كعب بن سعد ، وهو تميمي^(٦) ، وجدناها عند طفيل الغنوي ، وهو من قيس بن عيلان « وكانوا يسكنون نجداً »^(٧) كما وجدناها عند أسد - وهي شرقية كما نص على ذلك ابن

(١) عبث الوليد : ٢٣٢ ط الترقى ، وفي ديوان طفيل : ١٣ .

فلما فتنّا ما في الكتائب قاربوا على القراع من جلد الهجان الجوب

(٢) الشعر والشعراء : ١٤٤ السقا ، طبقات فحول الشعراء : ٢٩ تحقيق شاکر .

(٣) الجهرة لابن دريد : ٣٤٨/٣ - ٣٤٩ ؛ قال أبو بكر : (وقبر بأعلى مسحلان) : قبر المنذر ، وقبر بربيع ، وهو قبر عمرو بن مامة عم النعمان : الجهرة ٣٤٩/٣ .

(٤) جهرة ابن دريد : ٣٤٩/٣ .

(٥) الشعر والشعراء : ٩٠/١ تحقيق شاکر ؛ معجم قبائل العرب : ١٠٨٣/٣ كحالة .

(٦) طبقات فحول الشعراء : ٢٩ ؛ الشعر والشعراء : ١٤٤ تحقيق السقا .

(٧) معجم قبائل العرب : ٨٩٥/٣ كحالة .

دريد ، فالظاهرة قسم بين الشرق والغرب وعلى أساس التقسيم والفصل بين الكتلتين لا نستطيع أن نفهم مثل هذا التشابه في الظاهرة اللهجية . وإنما إذا بحثناها لا على أساس الفصل الذي نادى به المستشرقون بين الجزيرة - وإنما على أساس منهجنا الذي رسمناه آنفاً - ينجلي الموقف وهو :

أن الانسجام بين الأصوات سقنا له نصاً من كتاب شرح سيديو السيرا في يقول : « بأن تميماً تكسر أول « فعليل » - إذا كان حلقى العين ، فتقول في بعير^(١) : يعير . وفي قوله تعالى « بهيمة الأنعام »^(٢) - بهيمة الأنعام وعزا أبو حيان الصيغة الثانية وهي التي حدث فيها الانسجام إلى تميم^(٣) .

فالانسجام من طبع البدوي ، لأنه يميل بطبعه إلى الاقتصاد في الجهود عند نطقه ، فإذا نطق « بهيمة » بالكسر عمل اللسان من وجه واحد وهو الكسر ، بعكس « بهيمة » بالفتح فإن فيها مشقة ، لأن اللسان ينتقل من الفتح إلى الكسر .

وإذا ما حققنا البحث في القبائل التي نطقت بطريقة الانسجام في الظاهرة التي معنا من قولهم في « بقي » وهي صيغة لم يحدث فيها الانسجام - إلى « بقي » وهي الصيغة التي حدث فيها الانسجام - وجدنا تلك القبائل كالاتي :

- ١ - قبيلة طيء وهي قبيلة بدوية يمنية الأصل .
- ٢ - قبيلة بلحارث بن كعب (وهي يمنية ، بطن من مذحج من القحطانية^(٤)) وهي بدوية أيضاً .
- ٣ - تميم - ويغلب عليها البداوة - أو على الأقل ما كان ينطق منها « بالانسجام » .
- ٤ - « غنى » وهي قبيلة بدوية نسبتها إلى قيس عيلان^(٥) ، وكانت تسكن « نجداً » .
- ٥ - « أسد » وهي قبيلة بدوية تسكن « نجداً » فتكون تلك الظاهرة - متممة مع مظاهر « الانسجام » الذي هو من خصائص البدو . وسواء علينا أكان هؤلاء البدو من شرق

(١) شرح السيرا في : ١٣٦/٢ مخطوط بالتميمورية رقم ٥٢٨ نحو .

(٢) سورة المائدة : آية ١ .

(٣) البحر المحيط : ٤٠٩/٣ .

(٤) معجم قبائل العرب ٢٣١/١ كحالة ، صبح الأعشى : القلقشندي : ٣٢٦/١ ، صفة جزيرة العرب : الحمداي : ١١٦ .

(٥) معجم كحالة : ٨٩٥/٣ .

الجزيرة أم من غربها ، فهو أمر لا يعنينا كثيراً في دراسة اللهجات بقدر ما يهمنا ذلك الأساس الذي أشرنا إليه سابقاً ، والذي رأينا أن الدراسة يجب أن تقوم عليه ، ولذلك رأينا هذه الظاهرة السابقة في الحجاز بدون انسجام - وهي بقيّ - ولعل السبب في ذلك أن الناطقين لها بدون انسجام متحضرون .

٦ - سقت فيما تقدم خلافاً لهجياً بين تميم وقيس ملخصه : أن تميماً تقول : الرفقة بضم الراء ، وقيس تكسرهما^(١) ، فالكتلة الشرقية اختلفت على نفسها وهذا بطعن في التقسيم ، ولكن يسهل فهم هذا الخلاف إذا عرفنا أن الضم يميل إليه البدو ، لأنه سمة من سمات الحشونة البدوية ، ويمثلهم تميم ، وأن الكسر يحنج إليه الحضر ، لأنه سمة من سمات الرقة . ولهذا أرجح أن الذين آثروا الكسر - هم القبائل المتحضرة من قيس ، والتي كانت تجاور الحجاز لا جميع قيس ، لأن قيساً من القبائل الكبرى ، والتي ينضوي تحتها عشرات من العماير والبطون والفصائل ، وكانت جميعها تتناثر على صفحة الجزيرة العربية في الحجاز ونجد وشرق الجزيرة وغربها .

(١) المصباح المنير : ٣٥٩/١ .

الباب الثاني

مصادر التبرعات

الفصل الأول

القرآن الكريم وقراءاته

القرآن هو المعجزة الكبرى الخالدة على الزمان ، جاء الى الأرض ليكون للعالمين نذيراً ، فراع خيال العرب وأخذ أسماعهم بما فيه من آيات محكمات ، ومعجزات على الزمان خالدة ، فكان الواحة التي يستظل بها الانسان من حر الحياة الالفة ، والنسمة الرطبية التي تفسح عن الانسانية كدح الأيام ووعشاء الدهور .

(لا جرم^(١) أن القرآن سبّر السماء - فهو نور الله في أفق الدنيا حتى تزول ، ومعنى الخلود في دولة الأرض الى أن قدول) .

ولقد اندفع المسلمون كالسيل يدرسون ويحفظونه ، متفهمين متمبدين تحقيقاً لقول الله : «إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون»^(٢) ولما تكفل الله تعالى بحفظه خص به من شاء من بريته ، وأورثه من اصطفاه من خليفته قال تعالى «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا»^(٣) . وكان الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور كما جاء في صفة أمة الرسول «أنا جيلهم»^(٤) في صدورهم .

ولقد أحيط نص القرآن الكريم بالعناية الشديدة المنقطعة النظير ، فأقام الله له أئمة ثقات تجردوا لتصحيحه ، وبذلوا أنفسهم في إتقانه ، وتلقوه من النبي ﷺ حرفاً حرفاً ، لم يهملوا^(٥) منه حركة ولا سكوناً ولا إثباتاً ولا حذفاً ولا دخل عليهم في شيء منه شك ولا وهم ، ولقد تلقاه أصحاب رسول الله منه على تلك الرعاية والأمانة حتى كان يستمع إليهم وهم يقرءون عليه ،

(١) تاريخ آداب العرب للراعي : ١١/٢ مطبعة الاستقامة الطبعة الثانية .

(٢) سورة الحجر : آية ٩ .

(٣) سورة طه : آية ٢٢ .

(٤) النشر : ابن الجوزي ١/٩١ .

(٥) المرجع السابق .

فمن ابن مسعود قال : « قال لي رسول الله : اقرأ علي : ففتحت سورة النساء فلما بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيداً »^(١) رأيت عينيه تذرفان من الدمع فقال : « حسبك الآن »^(٢) ! وما روي من قول النبي ﷺ « من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم معبد »^(٣) ، وذلك حين قام ابن مسعود يصلي والنبي ﷺ يسمع قراءته^(٤) وإنما سقت هذين النصين ليتبين من خلالها توثيق النص القرآني ، لأن النبي ﷺ كان يستمع الى قراءة أصحابه ، وهناك توثيق آخر لهذا النص الكريم ظهر فيما رواه عطاء بن يسار عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : لا تكتبوا^(٥) عني شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عني شيئاً سوى القرآن فليمحاه ، فالرسول مبالغة منه في شدة الحفاظ على النص القرآني رأى ألا يكتب شيء عنه من كلامه حتى لا يختلط الأمر فيما بعد على المسلمين بين السنة والقرآن .

لذلك كان القرآن هو النص العربي الصحيح المتواتر المجمع على تلاوته بالطرق التي وصل إلينا بها في الأداء والحركات والسكنات ، « فلم يتوفر لنص ما توفر للقرآن الكريم من تواتر رواياته ، وعناية العلماء بضبطها وتحريرها متنّاً وسنداً »^(٦) بل لم تعرف البشرية كتاباً أحيط بالعناية واكتنفت بالرعاية فحفوظ على تراكيبه وكلماته وحروفه وحركاته ، وكيفية ترتيبه بلهجاته مع إتقان متنّها في التلقن والتلقين ، ودقة بالغة في الأخذ والأداء - مثل الكتاب العزيز^(٧) ، ولهذا كان القرآن الكريم مع قراءاته الواردة إلينا عن الصحابة وقراء التابعين - وهم جميعاً ممن يحتاج بكلامهم المعادي بل قراءاتهم التي تحروا ضبطها - حجة في اللغة لاسيما لهجات العرب الذين أبيع لهم أن يقرءوه على لهجاتهم المختلفة فكانت قراءات القرآن موثلاً جامعاً لللهجات العرب قال الإمام أبو محمد عبد الله بن قتيبة « وكان من تيسير الله أن أمر نبيه ﷺ أن يقرء كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم ، فلهذلي يقرأ « عني حين » يريد (حتى حين) لأنه هكذا يلفظ بها ويسمعا ، والأسدي يقرأ (تَعْلَمُونَ) ، (وتَعْلَم) « وتَسُود وجوه » ، « وألم إعهد إليكم »

(١) سورة النساء : آية ٤١ .

(٢) تاريخ القرآن : للزنجاني ١٧ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٣٥٤ هـ .

(٣) المسند : ابن حنبل ١ / ١٧٦ ، ١ / ٢٦٥ تحقيق أحمد شاكر دار المعارف سنة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

(٤) كتاب المصاحف ١٣٧ .

(٥) المصاحف - الصجستاني ١ : ط أول المطبعة الرحمانية تحقيق آثر جلري .

(٦) في أصول النحر : الأفغاني ٢٥ : مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ ط الثانية .

(٧) نظرة في النحر : طه الرازي مجلة المجمع العلمي بدمشق مجلد ١٤ ج ٩ - ١٠ سنة ١٣٥٥ هـ - ١٩٥٦ م .

والتعميمي يهزم ، والقرشي لا يهزم ، والآخر يقرأ « وإذا قيل » ، « وغيبض » بإشمام الضم الكسر ، « وبضاعتنا ردت إلينا » بإشمام الكسر مع الضم ، « ومالك لا تأمتنا » بإشمام الضم مع الادلغام - وهذا ما لا يطوع به كل لسان ^(١) فالقرآن العظيم وإن نزل بلغة أدبية نموذجية ، إلا أنه أبيع في قراءاته أن يخرج عن تلك اللغة النموذجية - تبسيراً على العرب ، وجمعاً لكلماتهم وكما يسر الله على الناس في الدين « حين » ^(٢) أجاز لهم على لسان رسوله الكريم ﷺ أن يأخذوا باختلاف العلماء من أصحابه رضي الله عنهم في فرائضهم وأحكامهم وصلاتهم وزكاتهم وحجهم وطلاقهم وعققتهم وسائر أمورهم « يسر عليهم » كذلك في قراءات القرآن حيث تقرأه كل قبيلة بلهجتها . قال ابن قتيبة : « ولو أراد كل فريق من هؤلاء أن يزول عن لفته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشياً وكهلاً - لاشتد ذلك عليه وعظمت الحنة فيه » ^(٣) وذلك يتفق مع ما رواه ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « أقرأني جبريل على حرف فراجعته » فلم أزل أستزيده ويزيدني حتى انتهى الى سبعة أحرف ^(٤) .

وهذا الحديث مشهور في كتب القراءات والمصاحف والتفاسير ، كما ورد من طرق متعددة ، وبأوجه مختلفة ^(٥) ، ولكلها مع ذلك متفقة في الفكرة ^(٥) ، وهي أن الرسول ﷺ أدرك أن الأمة العربية لا تستطيع أن تقرأ كتاب الله إذا نزل بلغة واحدة ، لأن لغة العرب لهجات مختلفة « فلو كلفوا العدول عن لغتهم والانتقال عن ألسنتهم لكان من التكليف بما لا يستطاع » ^(٦) فطلب الرسول من ربه التخفيف فنزل بلهجات عدة ، والدليل على ذلك ما يقوله الإمام

(١) مشكل القرآن : ابن قتيبة ٢٢٢/١ الخانجي ، النشر : ابن الجزري ٢٢/١ .

(٢) القرطبي : ابن مطرف الكتاني ٢٢٢/١ ط أول مطبعة الخانجي .

(٣) النشر : ابن الجزري : ٢٣/١ .

(٤) فتح الباري بشرح البخاري : ١٩/٩ لابن حجر المطبعة البهيمية سنة ١٣٤٨ ، وانظر النشر : ١٩/١ لابن الجزري .

(٥) فقد روي عن جمع كثير من الصحابة : كابي بن كعب ، وأنس ، وحذيفة بن اليان ، وزيد بن أرقم ، وسبرة بن جندب ، وسليمان بن صرد ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وعبد الرحمن بن عوف ، وعثمان بن عفان ، وعمر بن الخطاب ، وعمر بن أبي سلمة ، وعمر بن العاص ، ومعاذ بن جبل ، وهشام بن حكيم ، وأبي سعيد الخدري . وقد وصل عدد الصحابة عند السيوطي في إحصائه لروايات هذا الحديث - واحداً وعشرين صحابياً (انظر : تفسير الطبري ٩/١ ، الإتقان ٤٧/١ ، فتح الباري ١٩/٩ . مقدمتان في علوم القرآن ص ٢٠٢) .

(٥) انظر : جامع البيان في تفسير القرآن : الطبري ١٠/١ ط أول .

(٦) النشر : ابن الجزري : ٢٢/١ .

الدمشقي أبو شامة : ٦٦٥ هـ - « القرآن العربي فيه من جميع لغات العرب ، لأنه أنزل عليهم كافة ، وأبيح لهم أن يقرءوه بلغاتهم المختلفة ، فاختلقت القراءات فيه لذلك »^(١) ، ويفهم من هذا أن الاختلاف في كثير من القراءات يرجع الى اختلاف لهجات العرب ، فتكون القراءات القرآنية مصدراً هاماً وينبوعاً ثراً في تعريفنا ب لهجات العرب ، لأن القرآن العظيم بلغتهم جميعاً نزل لا بلغة قبيل دون قبيل ، فقد جاء عن أبي عبيد أن القرآن « بعضه بلغة قريش ، وبعضه بلغة هذيل ، وبعضه بلغة هوازن ، وبعضه بلغة اليمن وغيرهم - ثم قال : وبعض اللغات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً »^(٢) ، وروى عن ابن عباس أنه قال « نزل القرآن على سبعة أحرف ، خمسة منها للمعجز من هوازن سعد بن بكر وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف »^(٣) وقال ابن عطية في مقدمة تفسيره مبيناً لهجات القبائل في القرآن « وقاعدة هذه القبائل : قريش ، ثم بنو سعد بن بكر ، لأن النبي ﷺ قرشي ، واسترضع في بني سعد ونشأ فيهم ، ثم ترعرعت وعفت تماشاً وهو مخالط في اللسان : كنانة ، وهذيل ، وثقيف ، وخزاعة ، وأسد ، وضبة وألفافها ، لقريش من مكة وتكرارهم عليها ، ثم بعد هذه تيمناً ، وقيساً ، ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب »^(٤) ، كما روى السيوطي عن أبي بكر الواسطي في كتابه « الإرشاد في القراءات العشر » أنه ذكر أن القرآن قد اشتمل من اللغات على خمسين لغة^(٥) ، وعددها ، ونظرة واحدة الى النوع السابع والثلاثين في الإتقان تطالعنا بقائمة ضخمة لألفاظ قبائل وردت في القرآن - بعضها بلغة حمير^(٦) ، وبعضها بلغة جرهم^(٧) ، وخثعم^(٨) ، ومذحج^(٩) ، وكندة^(١٠) ، ولغة الأشعرين^(١١) ... فالقرآن الكريم لم يلتزم لهجة واحدة - ولو كانت لهجة قريش كما توهم

(١) إبراز المعاني لأبي شامة : ٢٨٧ مطبعة الحلبي : ١٣٤٩ .

(٢) الكلمات الحسان : ٥٦ ؛ فتح الباري : ٢٢/٩ ؛ الإتقان : ٨/١ - ٤٩ ؛ لسان العرب : ٣٨٥/١٠ . ٣٨٦ .

(٣) مقدمتان في علوم القرآن : ٢١١ ؛ الكلمات الحسان : ٥٦ ؛ التبيان : ٥١ . الإتقان : ٨/١ .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٦٩ .

(٥) الإتقان : ١٣٦/١ .

(٦) الإتقان : ١٣٥/١ .

(٧) المرجع السابق ، كتاب اللغات في القرآن : ٢٠ .

(٨) الإتقان : ١٣٦/١ .

(٩) كتاب اللغات في القرآن : ٥٠ .

(١٠) الإتقان : ١٣٦/١ .

(١١) الإتقان : ١٣٦/١ ، كتاب التيسير في علوم التفسير : ١٢٧ .

ذلك بعض الروايات^(١) ، ومما يدفعها ما جاء عن ابن عبد البر (٤٦٣ هـ) في التمهيد « إن غير لغة قريش موجودة في جميع القراءات »^(٢) كما يرى الشيخ جمال الدين بن مالك أن القرآن كما نزل بلغة الحجازيين نزل بلغة التميميين^(٣) « فالقرآن كما فيه من لهجة قريش فيه من لهجة غيرها من القبائل العربية يوضح هذا ما روي عن عمر بن الخطاب ، وكان لا يفهم معنى قوله تعالى « أو يأخذهم على تخوّف »^(٤) فوقف به فتى فقال : إن أبي يتخوّفني حقي فقال عمر : الله أكبر « أو يأخذهم على تخوّف » أي على تقتصّ لهم^(٥) .

فهذه القصة إن دلت فلنما تدل على معنى واحد ، وهو أن القرآن كله لم ينزل بلغة قريش - بل فيه من لهجات العرب الأخرى ، وذلك أن عمر بن الخطاب قرشي ، فلو كانت هذه الكلمة التي جهلها بلغة قريش لعرفها ولكن جهل بها - وهو القرشي دليل على أن هذه الكلمة لم تكن بلهجة قريش ، وفي رواية ساقها القاضي البيضاوي في تفسيره ١٨٢/٣ : ان عمر سأل عن قوله تعالى « أو يأخذهم على تخوّف » وهو على المنبر ، وقال ما تقولون فيها ؟ فسكتوا ، فقام شيخ من هذيل فقال : هذه لغتنا . التخوف : التنقص ، فقال : هل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ قال : نعم ، قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته :

تَخَوَّفَ الرَّحْلَ مِنْهَا تَمَامًا كَقَرْدٍ دَأْ كَمَا تَخَوَّفَ عَوْدَ النِّبْعَةِ السَّفَنَ

وقد أورد ابن قتيبة^(٦) هذا المعنى في قول طرفة - على إحدى الروايتين .

وجامِلٌ خَوْعٌ^(٧) من نبتة زجر المعلّى أصلاً والمنيح

وذكر أن : (خوع) معناها : نقص ، وقد ذكر مكانها « خوف » : بمعنى نقص ، في رواية أخرى - وهي حينئذ تنفق والقرآن الكريم .

(١) ابن جرير الطبري : ٢٣/١ ط أميرة ، فتح الباري : ١٦/٩ .

(٢) الإتيان : ١٣٦/١ .

(٣) الإتيان : ١٣٦/١ ، مقدمتان في علوم القرآن : ٢٦٩ .

(٤) سورة النحل : آية ٤٧ .

(٥) مقدمتان في علوم القرآن : ٣٧١ .

(٦) الميسر والدقادح : ابن قتيبة : ٥٩ - ٦١ ط السلفية .

(٧) الجامل : اسم جمع غير مكسر ، ومعنى الجامل ، جماعة الإبل مسح رعاتها/هاמש الميسر والدقادح : ٦٠ .
نقل عن شرح ديوان طرفة : ١٣ - ١٤ ط قازان نشره : الشيخ الشنقيطي .

وليست القراءة السبعية وحدها - مصدراً من مصادر اللهجات العربية ، بل تشاركها القراءات الشاذة ، لأن لها سنداً من صحة الرواية ، وموافقتها وجهاً من وجوه العربية ، ولهذا كان ابن جنى على حق عندما وثق الشاذ واحتج له ، وأنه (نازع بالثقة الى قرائه ، محفوف بالروايات من أمامه وورائه)^(١) . ثم حاول ابن جنى أن يعلن توثيقه للشاذ بقوله : « ولم يله أو كثيراً منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه ... والرواية تنميه الى الرسول ﷺ والله تعالى يقول « وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا »^(٢) ، وما القراءات الشاذة في نظرنا إلا صورة نابضة بالحياة لكثير من لهجات القبائل العربية - ولكن هذه القبائل - لم تنل نصيباً من المجد والجاه - فحكوا بشذوذ قراءاتهم التي هي صورة حية للهجاتهم ، وأرى أن القراءة وإن شذت - هي أقوى من تراث النثر والشعر على السواء يقول الفراء « والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر »^(٣) ، ولهذا قامت حركة علمية على امتداد التاريخ بالتأليف في القراءات الشاذة ، والدفاع عنها . وأشهر من ألف فيها :

- ١ - كتاب معاني القرآن ، لأبي علي محمد بن المستنير قطرب (ت ٢٠٦ هـ) .
- ٢ - كتاب معاني القرآن ، لأبي زكريا الفراء (٢٠٧ هـ) وقد طبع الجزء الأول منه عام ١٩٥٥ ، والثاني عام ١٩٦٦ .
- ٣ - كتاب اختلاف المصاحف ، لأبي حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني (ت ٢٥٥ هـ) .
- ٤ - كتاب معاني القرآن للزجاج (ت ٣١١ هـ) .
- ٥ - كتاب المصاحف للحافظ أبي بكر عبدالله بن أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني (ت ٣١٦ هـ) . وقد نشر هذا الكتاب وحققه الدكتور آثر جفري عام ١٩٣٦ م .
- ٦ - كتاب الشواذ ، لأبي بكر أحمد بن موسى بن مجاهد (ت ٣٢٤ هـ) .
- ٧ - كتاب البديع ، لابن خالويه ت ٣٧٠ هـ ، وقد طبعت جمعية المستشرقين الألمانية ١٩٣٤ م مختصر كتاب البديع ، ونشره وحققه الاستاذ برجشتراسر .
- ٨ - كتاب المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، لأبي الفتح عثمان بن جنى

(١) المحتسب : ابن جنى : ٣/١ تيمور .

(٢) المرجع السابق : ٤/١ تيمور .

(٣) معاني القرآن : الفراء : ١٤٠ .

ت ٣٩٢ هـ ، وقد نشر المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة الجزء الأول من هذا الكتاب عام ١٣٨٦ هـ ، كما نشر الجزء الثاني والأخير منه سنة ١٩٦٩ م .

١٠ ، هـ - اللوامح ، لأبي الفضل الرازي ت ٤٥٤ هـ ، وكتاب المبهج لسبط الخياط البغدادي ت ٥٤١ هـ .

١١ - كتاب شواذ القراءة واختلاف المصاحف لمحمد بن أبي نصر بن عبدالله الكرمانى ، وقد عثر على مخطوطته صديقنا الدكتور عبدالصبور شاهين بكتبة الأزهر برقم ٢٤٤ قراءات .

هذا ، ومن كان يقرأ بالشواذ : الحسن البصري ت ١١٠ هـ ، ومحمد بن عبد الرحمن بن محيصن السهمي مقرئ مكة ت ١٢٣ هـ ، وسليمان بن مهران الأعشى ت ١٤٨ هـ ، ويحيى اليزيدي ت ٢٠٢ هـ ، وابن شنبوذ ت ٣٣٨ هـ ، وكان يرى جواز القراءة بما خالف الرسم ما دامت الرواية صحيحة النقل ، ولهذا عقده مجلس بحضرة الوزير أبي علي بن مقله ، وجماعة من العلماء والقضاة ، وضرب في هذا المجلس سبع درر ، ولم يتركه الوزير حتى أعلن توبته عن القراءة بالشاذ (انظر طبقات القراء لابن الجزري ٥٢/٢) .

ولقد أمدتنا المصاحف القديمة للقرآن بمدد لا ينقطع من سمات لهجات القبائل ، لأن اختلافها في الإملاء والرسم يوضح لنا اتساع العربية إبان نزول الوحي من جهة ومن جهة أخرى يشير الى تعدد لهجات القبائل ، فحلول التاء المفتوحة محل المربوطة في (رَحْمَت) في المواضع السبعة بالبقرة والأعراف وهود وأول مريم والروم والزخرف ، و (رَنَمَت) في أحد عشر موضعاً من كتاب الله ، و (امرأت) كما في سورة القصص والتحريم وآل عمران ، و (قَرَّت) بالقصص ، و (فُطِرَتْ) بالروم ، و (شَجَرَتْ) في سورة الدخان ، و (لَمَنْت) بآل عمران والنور ، و (جَنَّتْ نعيم) بالواقعة ، و (ابنت عمران) بالتحريم ، و (مَعْصِيَت) بالمجادلة ، و (كلمت ربك) بالأعراف^(١) - يشير الى أثر القرشية في الإملاء القرآني ، كما نلمح أثر القرشية أيضاً في قوله تعالى : « أن اقذفه في التابوت »^(٢) وقوله « أن يأتكم التابوت »^(٣) ، وقد كتبت في

(١) الإنحاف : ١٠٣ والمفنع للداني : ٧٧ وما بعدها .

(٢) سورة طه : آية ٣٩ .

(٣) سورة البقرة : آية ٢٤٨ .

مصنف زيد بن ثابت (التابوة)^(١) ويفسر هذا ما روي عن زيد حين أراد أن يكتب (التابوت)^(٢) بالهاء على لغة الأنصار - فمنعوه من ذلك ، ورفعوه الى عثمان رضي الله عنهم ، وأمرهم أن يكتبوه بالتاء على لغة قريش^(٣) ، كما حملت مصاحف الصحابة والتابعين إشارات مفيدة كانت عمدتنا في هذا البحث^(٤) . كما أن قراءات القرآن قد صورت لهجات القبائل أيضاً ومصدق ذلك قول أبي حيان « والقراءات جاءت على لغة العرب^(٥) قياسها وشاذها » .

ولقد كان إسرائيل ولفنسون على حق عندما قال : « إن العربية يجب أن تبحث أحوالها في ضوء القرآن أولاً »^(٦) .

وإذا ما قارنا بين ما ورد في القرآن الكريم من لهجات عربية ، وبين ما ورد في غيره من كتب العربية . كان القرآن أوفى منها جميعاً ، ولهذا جمعت أسماء اللهجات التي وردت في كتاب البحر المحيط لأبي حيان كله بأجزائه الثمانية ، فوجدت أنه ذكر اللهجات الآتية وهي ما ورد في تفسيره للقرآن الكريم .

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	بلحارث بن كعب	«	الحجاز
«	بكر بن وائل	«	تميم
«	قيس	«	ربيعة
«	أسد	«	قريش
«	هذيل	«	

(١) مصنف زيد بن ثابت : ٢٢٥ جفري .

(٢) هذه الكلمة دخلت العربية عن طريق الحبشية ، وأصلها من الآرامي اليهودي/اللغة العربية كائن حي : ٣٦ هامش .

(٣) حاشية عبادة على الشذور : ٧٤/١ . كتاب المصاحف : ٩/١ لابن أبي دارود . فضائل القرآن لابن كثير : ٣٥ .

(٤) انظر مصاحف ابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وأم سلمة ، وطلحة بن مصرف ، والأعمش في كتاب تاريخ المصاحف لجفري .

(٥) البحر المحيط : ٤٩٣/٨ .

(٦) تاريخ اللغات السامية : ٢٠٦ وما بعدها ط أولى لجنة التأليف والترجمة .

القبيلة	اللهجة	القبيلة	اللهجة
كعب	«	عذرة	«
همدان	«	القين	«
أزد شنة	«	سليم	«
مكة	«		«
برابر مكة	«	فقمس	«
عقيل	«	كنانة	«
غتم	«	دُبَيْر	«
المدينة	«	نجد	«
مالك (من بني أسد)	«	عامر	«
صباح	«	تهامة	«
أزد عمان	«	غسان	«
يربوع	«	التخ	«
زبيد	«	خشم	«
طيس	«	الصعدان	«
الحيرة	«	اليمن	«
العالية	«	كلاب	«
		أكلوني البراغيث	«
حمير	«	سفل مضر	«
هوازن	«	ضبة	«
لخم	«	كلب	«
فزارة	«	نجران	«
حوران	«	أزد السراة	«
بلعنبر	«	كندة	«
الأزد	«		«
مراد	«	الهجينم	«
جدام	«	حنيفة	«
مجر	«	الأنصار	«
عطفا	«	عكل	«
العرب العاربة	«	تيم	«

فإذا ما ذكرنا أسماء اللهجات التي وردت في كتاب «شرح السيراني على سيبويه»^(١) وهو يمثل أعظم كتب العربية - وجدنا أسماء اللهجات التي وردت في أجزائه الستة كالآتي :

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	طيس	«	تميم
«	الحجاز	«	المدينة
«	العراق	«	مكة
«	بكر بن وائل	«	خير
«	النضير	«	أسد
«	كعب	«	بغداد
«	ققلب	«	قيس
«	البصرة	«	الكوفة
«	الموصل	«	أزد الشمر
«	خثعم	«	هذيل
«	سعد	«	اليمن
«	بنو عدي	«	فزارة
«	بنو ربيعة		

وإذا أخذنا إحصائية لكتاب سيبويه^(٢) ، وجدنا أسماء اللهجات وردت فيه كالآتي :

اللهجة	القبيلة	اللهجة	القبيلة
«	خثعم	«	الحجاز
«	تميم	«	
«	سُلَيْم	«	طيس
«	أسد	«	كعب
«	غني	«	بكر بن وائل

(١) اعتمدت في هذه الإحصائية على نسخة مخطوطة بالنيمرية رقم ٢٨ هـ نحو .

(٢) اعتمدت في هذه الإحصائية على نسخة بولاق المطبوعة .

اللہجۃ	القبیلۃ	اللہجۃ	القبیلۃ
«	قیس	عدي (من تميم)	
«	فزارۃ	بنو سعد	«
«	ربیعۃ	هذیل « العلویون »	«

فإذا أردنا أن نقارن بين هذه الكتب القرآنية والنحوية يتبين أن أسماء القبائل في « البحر المحيط » لأبي حيان أربع وستون قبيلة ، على حين بلغت في شرح « السيرافي على كتاب سيويه » خمساً وعشرين ، وفي كتاب سيويه ست عشرة قبيلة^(١) .

وفي كتاب « اللغات في القرآن » المسند لابن عباس ، وهو الكتاب الوحيد الذي وصلنا عن لغات القرآن ، بعد أن فقدت جميع كتب لغات القرآن الأخرى بلغت أسماء القبائل فيه - ستاً وثلاثين^(*) . فيكون القرآن الكريم وقراءاته - مصدراً أوفى من غيره في دراسة اللهجات العربية القديمة . بل هو الحقل الخصيب الذي ينطوي على تاريخ العربية وأصول منابعها الثرة ، وإذا طمعنا في كتابة تاريخ للفتنا عليه سمة علمية - يجب أن نفتش عن قراءات القرآن أولاً ، ولذلك يصيبني القلق العلمي عندما تعرض المستشرق Rabin الى دراسة قسط من اللهجات العربية من غير أن يفتش عن كتاب (كالبهر المحيط) - كما صرح بذلك في آخر كتابه المشهور: « Ancient West Arabian » في قسم الإضافات الملحقه بكتابه المذكور^(٢) .

(١) مطبعة الرسالة سنة ١٩٤٦ تحقيق صلاح الدين المنجد .

(*) وقد ذهب محقق الكتاب الى أنها تسع وعشرون (انظر إحصاءه ص ٦ كتاب اللغات في القرآن - لابن عباس تحقيق د. صلاح الدين المنجد) ولكنني أضفت بعض القبائل الى إحصائه وهي : هَمْدَان . الأرس . اليمن . عذرة . الخزرج . تَغْلَب . الحجاز .

(٢) في إضافات الكتاب P. 211 رابن .

الفصل الثاني

كلام العرب

ويشمل :

أولاً : الروايات الواردة في كتب العربية :

لا شك أن الروايات التي جاءت عن العرب وامتثلت بها كتب اللغة والنحو والأدب والتاريخ والسير - تمدنا بروافد عديدة في موضوع اللهجات العربية، وذلك أن العلماء عندما قرروا جمع اللغة أخذوها عن العرب الذين لم تفسد الحضارة، وفي ذلك يقول أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى « بالألفاظ والحروف » والذين عنهم نقلت اللغة العربية وبهم اقتدى ، وعندهم أخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب هم : قيس ، وقيم ، وأسد ، فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه وعليهم اتكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ولم يؤخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم وبالجملة فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم فإنه لم يؤخذ لا من - لحم ولا من جذام - فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقيط ولا من قضاة ولا من غسان ولا من إباد - فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية ، ولا من تغلب ولا الثمر فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية ، ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ولا من عبد القيس ، لأنهم كانوا سكان البحرين مغالطين للهند والفرس ، ولا من أزد عمان ، لأنهم كانوا مغالطين للهند والفرس ، ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ، ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم ولا من حاضرة الحجاز ، لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدؤوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم (١) .

وليس المهم الآن أن أناقش هذا النص - لأنني أعارض منهج اللغويين فيه ، لأنهم عزلوا عن مجال الاستشهاد معظم القبائل العربية ، وإذا كانوا قد عزلوا كل هذا - فما الذي يبقى لهم من

(١) الاقتراح : للسيوطي ١٩ - ٢٠ ط الهند الثانية ، المزهر للسيوطي ٢١١/١ - ٢١٢ .

اللغة ! وإنما أريد أن أقول الآن إنهم عندما أرادوا جمع اللغة نظروا الى اللغة العربية ككل ، فكانوا يجمعون من هذه القبيلة ومن تلك بدون أن يميزوا بين قبيلة وأخرى ، بل كانوا يجمعون حيثما اتفق ، فجاءت اللغة خليطاً من هنا ومن هناك ، خليطاً من اللغة الفصحى المنسجمة في خصائصها وخليطاً من اللهجات العربية ذات الصفات الخاصة بكل قبيلة عربية - وما أكثر هذه القبائل ! - ثم بنوا قواعدهم من هذا الخليط المتناثر المتشاحن ، ومن هنا كان الاضطراب في النحو الذي نشاهده حتى طالعتنا الكتب بقوائم عدة لجمع الكلمة الواحدة ، فاجلجل أجمل ثم إجمالاً ثم جاملاً ثم جمالة ثم جمالات^(١) .

وقالوا كذلك ناقة « ثم جمعوها : ناقات ونوقاً وناقاً وأياق ونياقاً وأينقاً وأنوقاً^(٢) . كما نرى كثرة المصادر للفعل الواحد فتفاعل يأتي مصدرها على التفاعل بضم العين والتفاعل بفتحها ، والتفاعل بكسرهما كما قالوا « تفاوت : تفاوتاً وتفاوتاً^(٣) » وكما قالوا في مصدر « لقي ، زيدا فقد قالوا فيه « لِقَاءً ولقاءة ولقية ولقياً ولقية ولقياناً ولقياناً ولقيانة^(٤) » .

وإنما كثرت هذه الخلافات في المصادر وفي المجموع وصيغ الأفعال وغيرها لأن جمع اللغة كان خليطاً من اللهجات الخاصة بكل قبيلة - مع الفصحى النموذجية الموحدة ولم يلحظ الجامعون للغة هذا الملحظ^(٥) ولو أن الرواة وقفوا في استنباط قواعدهم عند اللغة الأدبية التي جاءتهم موحدة وبمثلة في الآداب الجاهلية والقرآن الكريم لجنبوا أنفسهم الكثير من المهارات والجدل حول ما يجوز وما لا يجوز ، ولكنهم حاولوا اقحام تلك الصفات الخاصة باللهجات العربية - فبدت لنا القواعد اللغوية مضطربة متعددة الوجوه^(٥) ونظرة واحدة الى كتاب « أدب الكاتب لابن قتيبة » ، أو « إصلاح المنطق لابن السكيت » أو « فصيح ثعلب » أو « الاقتضاب لابن السيد البطليوسي » أو « درة الغواص للحريري » وشرحها للخفاجي ، تففك على بحر زخار من الأوجه المختلفة ، والأبنية الكثيرة في الأسماء والأفعال والمصادر .

نخلص من هذا الى أننا حتماً سنجد روايات عن اللهجات العربية في كتب العربية على

(١) ليس في كلام العرب : ابن خالويه ٣٠ ط أولى سنة ١٣٢٧ هـ مطبعة السعادة .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق : ص ٥ ، وانظر : أدب الكاتب لابن قتيبة : ص ١٠ هـ مطبعة السعادة الطبعة الثالثة :

١٩٥٨ .

(٤) ليس في كلام العرب : ص ٦ .

(٥) في اللهجات العربية : ص ١٤ الدكتور إبراهيم أنيس الطبعة الثانية .

اختلاف نحلها واتجاهاتها - نجد هذه الروايات مختلطة اختلاطاً من العسير على الباحث أن يميزه - من اللغة الفصحى ، وقليل ما نجد إشارة الى هذه اللهجات في تلك الروايات ، ولعل السبب يرجع الى أن علماء العربية كانوا يعتقدون أن لغة قریش أفضل من غيرها من اللهجات العربية الأخرى - فاكثفوا بتسجيل القرشية وأهلوا ما عداها ، ولا شك أنها نظرة خاطئة ، لأن اللغة ظاهرة اجتماعية يتميز بها كل مجتمع إنساني ، واللغة تطورت بتطور الانسان ذاته ، ونمت بنمو حضارته ، فليس هناك من مبرر للمفاضلة بين لهجة وأخرى ^(١) واللغة الجيدة هي التي تقوم بوظيفتها في الفهم والإفهام ، وفي التعبير عن دواخل الناس بدون اجهاد ، وأعتقد أن جميع اللهجات العربية كانت تقوم بذلك خير قام .

كما كان علماء العربية ينظرون الى اللهجات على أنها نوع من الانحطاط اللغوي ، وغاب عنهم أن ما يسمونه « انحطاطاً » هو في الحقيقة تطور لغوي ، وما هو ذا ابن حزم ينكر تفضيل لهجة على لهجة أخرى « وقد توم قوم في لغتهم أنها أفضل اللغات ... وهذا لا معنى له ... لأن وجه الفضل معروفة ... وإنما هي بعمل أو اختصاص ، ولا عمل للغة ولا جاء نص في تفضيل لغة على لغة ... وقد غلط في ذلك جالينوس فقال : ان لغة اليونانيين أفضل اللغات ، لأن سائر اللغات إنما تشبه إما نباح الكلاب وإما نقيق الضفادع » ^(٢) .

فلأنهم كانوا يحترمون لهجة قریش لمكان النبي ﷺ منها ، جمعوا لهجتها وتركوا ما سواها ، فإن انحرفوا عن طريقتهم وسجلوا لهجة غير قرشية طالعك قوائم أو صافهم لهذه اللهجات من مثل قولهم : « لغة ردية ^(٣) أو لغة شعاء ^(٤) أو هذلية شاذة ^(٥) أو لغة « ضعيفة وردية ^(٦) أو قليلة ^(٧) ، أو « خبيثة ^(٨) .

وربما كان من أسباب إهمال اللهجات العربية وعدم تسجيلها « أن المملكة العربية حينما

(١) نحو عربية ميسرة : ٧٣ د. فريجه .

(٢) مشكلات حياتنا اللغوية : ٦٣ - ٦٤ الحولي .

(٣) أمالي الشجري : ٣٨١/١ .

(٤) اللسان : ١٤٩/٣ - ٢٢٧/٤ .

(٥) اللسان : ٤٨٠/١٣ .

(٦) اللسان : ١٣٩/٢٠ ، ٢٧١ .

(٧) كتاب سيويه : ٢٩٦/٢ .

(٨) الشافية : ٢٤٧/٢ .

اتسعت - كان لا بد لضمان وحدتها ، والقضاء على عوامل الفرقة فيها ألا تعطى اللهجات العربية من العناية ما قد يزيد من عصبية القبائل ويباعد بينها - فأهمل أمرها^(١) وعلى ذلك فقد جاءتنا هذه اللهجات العربية ممسوخة حيناً ، ومبتورة السند مشوهة المثل أحياناً أو مهملة العزو .

(أ) فمن إهمال العزو :

١ - يقال : اطمأن يطمئن اطمئناناً ، واطمأن يطمئن اطمئناناً^(٢) . فأبو الطيب اللغوي يهمل عزو هذه الخلافات البدلية بين الميم والباء بينما بالتحقيق وجد أن صيغة « الباء » معزوة لبني أسد^(٣) .

٢ - كما يهمل العزو الأصمعي في (المغاير والمغاير)^(٤) ، والتحقيق أثبت أن الأولى لأسد^(٥) .

٣ - ما يذكره صاحب المصباح من أن « الهدى » ما يهدي إلى الحرم من النعم يثقل ويخفف^(٦) فيهمل العزو في التخفيف والتثقيل ، وأثبت أن الهدى - مخففاً لغة الحجاز ، ومثقلاً لغة تميم وسفلى قيس^(٧) .

٤ - ما ذكره من أن « الأكاف » للحمار ، معروف ... والوكاف : على البدل لغة جارية^(٨) . واكتفى صاحب المصباح بكونها لغة فقط . ولكن عند التحقيق نجد أن اليزيدي في نوادره ينسب إلى أهل الحجاز صيغة الواو ويعزو إلى تميم صيغة الألف وهي : الإكاف^(٩) .

(ب) وأحياناً يتشككون في الصيغة هل هي لهجة ، أو هي واقعة على الإبدال فمن ذلك :

١ - في حديث القبائل : سئل عن مضر . فقال تميم برثمتها وجرثمتها - قال الخطابي : إنما هو

(١) في اللهجات العربية : ٤٠ الدكتور إبراهيم أنيس .

(٢) الإبدال لأبي الطيب اللغوي : ١/ ٥٣ .

(٣) الإبدال لابن السكيت : ١٣ .

(٤) الإبدال لأبي الطيب : ١/ ١٨٦ .

(٥) إبدال ابن السكيت : ٣٥ .

(٦) المصباح المنير : ٩٨٤ .

(٧) اللسان : ٢٠/ ٢٣٤ .

(٨) المصباح المنير : ١/ ٣٠ .

(٩) الزهر للسيوطي : ٢/ ٢٧٧ .

برثنتها بالنون - فيجوز أن تكون الميم لغة وأن تكون بدلاً لازدواج الكلام في الجرثومة كما قال الغدايا والعشايا^(١).

٢ - ما روي عن النبي ﷺ أنه أبدى يده إلى الأرض عند انكشاف المسلمين يوم حنين فأخذ منها قبضة من تراب فحذا بها في وجوه المشركين - فما زال أحدهم كليلاً . قال ابن الأثير : أي « حشى » على الإبدال ، أو هما لفتان^(٢) .

(ج) وقد يتحسرون في الصيغة الواردة أمي لغة أم لثغة مثل :

١ - والعاذر : لغة في العاذل ، أو لثغة ، ولقيت منه عاذوراً : أي شراً ، لغة في العاثر ، أو لثغة^(٣) .

١ - ما قاله الثعالبي من أنه استظرف قول الليث عن الخليل : الذعاق كالزعاق سمعنا ذلك من بعضهم ، وما ندري : ألغة أم لثغة^(٤) ؟ « ونقل مثل ذلك ابن سيده »^(٥) .

(د) وقد يكتفون بأن الصيغة وردت « في بعض اللغات » مثل :

١ - ما ذكره ابن دريد من أن « ماغت السنور » مثل : (مأءت) تموغ مواغا - إذا صوتت في بعض اللغات^(٦) .

٢ - الفضاغض « بالغين المعجمة » في بعض اللغات - العرنين وما والاه من الوجه^(٧) .

٣ - الخنذع - عيب يعاب به الرجل - وأحسبه القليل الغيرة على أهله - سمعته في بعض اللغات^(٨) .

(١) اللسان : ١٦٠/١٩٥ .

(٢) اللسان : ١٨٨/١٨٧ .

(٣) الجاسوس : للشدياق : ٣٤٦ ط القسطنطينية ١٢٩٩ هـ الجواثب .

(٤) الزهر : ١/٥٥٦ .

(٥) النخوص : ابن سيده/السير ٩ ص ١٣٦ ، كتاب العين للخليل : ٧١ بفداد .

(٦) الجهرة لابن دريد : ٣/١٥٢ .

(٧) المزهر للسيوطي : ٢/٣٦٧ .

(٨) الجهرة لابن دريد : ٢/٢٠٣ .

٤ - ما قاله ابن دريد من أن « الصهوة في بعض اللغات - مطمئن من الأرض تلجأ إليه ضوال الابل »^(١) وقال السيوطي بأن « الصوة » في بعض اللغات الأرض ذات الحجارة^(٢) .

(هـ) وأحياناً تكتفي الرواية بأن الكلمة أو الصيغة « لغة لبعض العرب » مثل :

١ - ما ذكره الفراء من أن « المنجنيق - أنثى ، وبعض العرب يسميها : منجنوق وقال الفراء بعد ذكر الصيغة السابقة « أحكيت لي ولم أسمعها من العرب »^(٣) .

٢ - قرأ الحسن : « من كان يريد^(٤) الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها » ، « بالياء بعد الغاء » نوفي - فاحتمل أن يكون مجزوماً بحذف الحركة المقدرة على لغة من قال « ألم يأتيك » وهي لغة لبعض العرب^(٥) .

(و) أو تتشكك الرواية في الصيغة ، فتارة تحمل وجهاً من الصيغة على المصدر ، والوجه الآخر على الاسم - مثل :

١ - ما ذكره الفراء في قوله تعالى « إِنْ يَنْسَخْكُمْ قَرْحٌ^(٦) فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ » من أن « قرح قد قرىء بها - وأكثر القراء على فتح القاف - وكأن القرح : ألم الجراحات ، وكأن القرح : الجراح بأعيانها »^(٧) هكذا جاءت الصيغة في حالتها مهمة العزو والتحقيق يثبت أن الفتح لغة الحجاز ، والضم لغة تميم^(٨) .

٢ - ما ذكره صاحب البحر في قوله تعالى « إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً^(٩) » بيده . فقرأ الحريمان

(١) المرجع السابق ٩١/٣ .

(٢) المزهر للسيوطي : ٢١٧/١ .

(٣) المذكر والمؤنث للفراء : ٢٩ ط أولى - حلب .

(٤) سورة هود : آية ١٥ .

(٥) البحر المحيط : ٢٠١/٥ .

(٦) سورة آل عمران : آية ١٤٠ .

(٧) معاني القرآن للفراء : ٢٣٤/١ دار الكتب ، الحجة : ابن خالويه ورقة ٢٧ مخطوط بدار الكتب رقم

١٩٥٢٣ ب .

(٨) كتاب اللغات في القرآن : ٢٣ مطبعة الرسالة .

(٩) سورة البقرة : آية ٢٤٩ .

وأبو عمرو غرفة - بفتح الغين ، والباقون بضمها - فقليل هما بمعنى المصدر ، وقيل هما بمعنى المغروف ، وقيل : الغرفة بالفتح : المرة وبالضم ما تحمله اليد^(١) . وهكذا تكون الصيغة غير معزوة في كلتا الحالتين . والتحقيق يثبت أن الضم للحجاء ، وبالفتح لتميم ، وإنما قلنا ذلك ، لأن قبيلة تميم تميل إلى انسجام الأصوات ففتح الغين مع فتح الفاء تجعل اللسان يعمل في طريق منسجم ، بعكس الحجاء وهي التي لا تميل إلى الانسجام ولذلك قرأها بالضم لأن اللسان ينتقل من الضم إلى الفتح ، ومما يثبت أن الفتح لتميم ، أن أبا عمرو ابن العلاء قرأها غرفة - بالفتح وهو تميمي .

(ز) أو حينئذ آخر تطالعنا كتب اللغويين والنحاة باضطراب في عزو اللهجة ويظهر ذلك في :
١ - ما رواه ابن دريد من أن « الرخعة » والجمع « الرمخ » وقالوا الرمخ وهو البلح لغة يمانية^(٢) .
وفي نسخة أخرى من الجهرة قال بأنها لغة طائية^(٣) .

٢ - في قوله تعالى « أو الطِفْلُ الذين لم يظهروا على عورات النساء »^(٤) قرأ الجمهور (عورات) بسكون الواو ، وهي لغة أكثر العرب ، لا يحركون الواو والياء في نحو هذا الجمع . والمشهور في كتب النحو تحريك الواو والياء في مثل هذا الجمع - وهي لغة هذيل بن مدركة ، وقال الفراء : العرب على تخفيف ذلك إلا هذيل فتثقل ما كان من هذا النوع من ذوات الياء والواو وأنشدني بعضهم :

أَخُو بَيْضَاتٍ رَائِحٍ مَتَاوَبٌ رَفِيقُ مَسْحِ الْمَكْبِينِ سَبُوحٌ^(٥)

فكان ظاهرة فتح هذا الجمع منسوبة بالإجماع إلى هذيل . والدليل على ذلك أن سيويه يرى هذا ، ورضي الدين^(٦) صاحب الشافية ، والبغدادي شارح^(٧) الشواهد ، والسيرافي على شرح

(١) البحر المحيط : ٢٦٥/٢ .

(٢) الجهرة : ٢١٤/٢ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) سورة النور : آية ٣١ .

(٥) البحر المحيط : ٤٤٩/٦ .

(٦) شرح الشافية : ١١٣/٢ .

(٧) شرح شواهد الشافية : ١٣٢/٤ .

كتاب سيبويه^(١) ، والبغدادى في خزانته^(٢) ، ولكن نقل ابن خالويه في كتابه شواذ القرآن : أن بني تميم يقولون روضات وجوزات وعورات - يعني بتحريك الواو بالفتح ، وسائر العرب بالإسكان^(٣) ، فالاضطراب بادٍ في آراء العلماء بخصوص تلك الظاهرة - فبعضهم ينسبها الى هذيل^(٤) ، وبعضهم ينسبها الى تميم^(٥) .

٣ - الوديلة هي المرأة - طائية . قال أبو عمرو ، قال الهذلي : الوديلة المرأة في لغتنا^(٦) . ثم ساق ابن منظور شاهداً من قول أبي كبير الهذلي على ذلك وهو :

وبياض وجهه لم تحل أسرارُه مثل الوديلة أو كسيف الأنضر^(٧)

فالنصوص هنا متعارضة ، كما أوردها ابن منظور بين هذيل تارة ، وطيب تارة أخرى .

هذه أمثلة يسيرة مما حوته الروايات الأجمية واللغوية عن اللهجات العربية وقد سقت أمثلة عنها لا تبلغ معشار ما فيها - من الخلط والتشويه ، وإلا فما هذا العزو المضطرب لصيغة واحدة يختلف فيها النسابون الى هذا الحد ، فمرة تنسب الى اليمن ، وأخرى الى طيء أو تنسب حيناً الى هذيل ، وحيناً آخر الى تميم ، ثم يختلفون أحياناً في وصف الظاهرة كالكشكشة والكسكة الى حد يجعل الباحث أسيفاً الى مصير تلك الدراسات اللهجية ، والمبث الذي نالها على أيدي الرواة وعلماء اللغة . هذا إذا وصلت اللهجة معزوة وهو قل من كثر - أما الكثرة الغالبة ، وفروايات^(٨) مهملات العزو - كقولهم هي « لغة »^(٩) أو لغة معروفة مشهورة^(١٠) « أو لغة

(١) شرح السيرافي على سيبويه : ٦٦/٥ مخطوط بالتميمورية ٥٢٨ نحو .

(٢) الخزانة : للبغدادى ٤٢٧/٣ - ٤٢٩ .

(٣) الدر اللقيط : ٤٤٩/٦ ، وإنظر مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه ١٠٣ نشرة برجستراسر ١٩٣٤ القاهرة .

(٤) البحر المحيط : ٤٧٢/٦ ، النهر الماد من البحر ٤٧١/٦ .

(٥) مختصر شواذ القرآن : ١٠٣ .

(٦) اللسان : ٢٤٩/١٤ .

(٧) الموجع السابق ، وفي ديوان الهذليين : ١٠٢/٢ « كسيف » .

(٨) حيث ذكر ابن الشجري لهجات « حيث » ولم ينسب صيغة « حوت » أمالي الشجري ٢٦٢/٢ ، وكذلك أهل أبو زيد العزوي في « ألته يألته ألثا » ولاته يلتينه ليتا « النوادر في اللغة لأبي زيد ١٩٧ ، بينما نسبت الصيغة الأولى لتميم والثانية للعباز . انظر : الزهر للسيوطي : ٢٧٦/٢ .

(٩) حاشية المزوقي : ١٤٣٨/٣ تحقيق الأستاذ هارون : ١٣٥٩/٣ ، ٧٣٠/٢ ، حاشية التبريزي : ٢٥٠/٢ تحقيق محي الدين مطبعة حجازي ، المخصص لابن سيده سفر ١٣٣/٤ ، الصباح المنير ٢١/١ .

(١٠) المخصص لابن سيده سفر ١٩/١٧ .

قوم^(١) ، « أو لغة بعضهم »^(٢) ، « أو لا ندري ألفة^(٣) أم لثغة » ، « أو لغة قليلة »^(٤) ، « أو رديئة »^(٥) ، « أو شعاء »^(٦) ، « أو لغة علياء »^(٧) ، أو قصة الرجل الذي « ظهى بضى^(٨) فالسيوطي يخبر أنه « رجل » ، ولا نعلم عنه إلا أنه رجل أما من هو الرجل ، وتعيين قبيلته لنعرف خصائصها – فتسكت المصادر العربية وتصف آذانها ، أو قول الرواة أحياناً إن هذه الكلمة (في بعض اللغات)^(٩) بمعنى كذا – هكذا مبهمه قلقة .

ثانياً : الأمثال :

لا شك أن المثل صورة حية من حياة الشعب ، يعبر عن آماله ، وآلامه التي تحيط به في ماضيه وحاضره ومستقبله – إذ هو يوثقه تنصهر الأحوال الاجتماعية والاقتصادية واللغوية فيها ، فنملاً لما كانت قرين من القبائل التجارية وجدنا في أمثالهم ما يدل على ذلك كقولهم « لا في العير ولا في النفير »^(١٠) ، كما أن الحالة الاقتصادية لما كانت في ضيق وعسر – كانت الأمثال العربية مرآة لتلك الأحوال فهي تصور ذلك تصويراً دقيقاً . وليس هذا الكلام مقصوراً على الأمثال الأدبية فقط ، ولكنه أكثر انطباقاً فيما يخص الأمثال العامة ، إذ هي خير أنموذج حي ينطبق على الحياة ولذلك فهي أصدق مثال على لغة القوم ، ولذلك يحرص جامعو الأمثال الشعبية على كتابتها كتابة مطابقة تماماً لنطقها ، حتى تكون ذات جدوى أكثر من ناحية الدلالة اللغوية^(١١) .

(١) النوادر في اللغة : لأبي زيد : ٤٠ ، الكامل المبرد ١٨٦/١ ط التجارية ١٣٦٥ هـ ، الجاسوس على الفاموس : للشدياق ٥٤٨ ، سر صناعة الاعراب : ابن جنى ١١١/١ الحلبي .

(٢) أمالي الشجري : ٣٤/٢ ، ٣٠٢/٢ ، الكامل المبرد : ١٩٥/٢ ، المحصن لابن سيده سفر ١٤/١٠ .

(٣) المحصن سفر ١٣٦/٩ .

(٤) سيبويه ٢٩٦/٢ .

(٥) أمالي الشجري ٣٤/٢ .

(٦) اللسان ١٤٩/٣ ، ٢٢٧/٤ .

(٧) أمالي الشجري ٣٠٤/٢ ، أو لغة علياء : انظر أمالي الشجري : ٧٩/٢ - ٨٠ أو اللغة العامة انظر : المصباح ٥٧١ .

(٨) المزهر للسيوطي : ٥٦٣/١ .

(٩) مثل ما ذكره ابن سيده من أن « القطاء هي المعجوز في بعض اللغات » المحصن لابن سيده السفر الأول ص ٥٢ ، المزهر للسيوطي ٣٦٧/٢ .

(١٠) فجر الإسلام : أحمد أمين : ٧٦ ط الثالثة .

(١١) الأمثال العامة في نجد : ٧ القسم الأول ط أولى ١٣٧٩ هـ ١٩٥٩ م .

والحق أن المثل يفوق الشعر، ذلك لأن الشعر له طبقة خاصة تنطق به فهو أرقى من مستوى العامة، أما المثل فعام تنطبع فيه أسرار الحياة كلها، وتشارك فيه جميع الطبقات، قال أبو هلال العسكري في كتابه «جهرة الأمثال» في شرح (بمعين ما أرينك) أن معناه «أعجل» وهو من الكلام الذي قد عرف معناه سماعاً من غير أن يدل عليه لفظه، وهذا يدل على أن لغة العرب لم ترد إلينا بكاملها^(١)، فالأمثال دلالتها على اللهجات أصدق من الشعر في ذلك: لأن الشعر له نظامه وجرسه وحدوده، بعكس المثل الذي ينطق به الإنسان في سهولة ويسر لقربه من النفس وشدة إلفه بالحياة قال ابن المقفع «إذا جعل الكلام مثلاً - كان أوضح للمنطق، وأتق للسمع، وأوسع لشعوب الحديث»^(٢)، ومن أجل هذا عبر بعضهم عن الأمثال بأنها «صوت للشعب»^(٣)، ويكفيها أن الاستعمال قد حفظها، فشاعت على الألسنة لأنها مركز للحياة في كل خطوة من خطواتها وحركة من حركاتها، وهي إما أمثال قديمة أو حديثة.

أ - الأمثال القديمة ودلالاتها على اللهجات :

- ١ - قولهم «أتى عليهم ذو أتى»^(٤) فهذا مثل من كلام طيء، وذو في لغتهم تكون بمعنى الذي، يقولون «نحن ذو فعلنا كذا» أي نحن الذين فعلنا كذا، و«هو ذو فعل كذا» ومعنى المثل «أتى عليهم الذي أتى على الخلق».
- ٢ - قولهم «أثقل من ثجّام»^(٥)، وهو مبني على الكسر عند الحجازيين «٦».
- ٣ - كما قالوا «هو أثقل»^(٧) من الزاروق «وهو اسم للزئبق في لغة أهل المدينة».
- ٤ - وقولهم : «جزاء سنّار»^(٨) والسنّار في لغة هذيل - اللص وذلك أنهم يقولون للذي لا ينام الليل سنّاراً، فسمى اللص به لقلة نومه.

(١) فجر الإسلام : أحمد أمين ٧٥ ط الثالثة .

(٢) مجمع الأمثال ٦/١ مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م .

(٣) فجر الإسلام : أحمد أمين ٧٥/١ .

(٤) مجمع الأمثال ٦/١ ، وانظر : المزمع للسيوطي ٤٣٨/٢ ، ٣٠٨ .

(٥) مجمع الأمثال : ١٥٥/١ .

(٦) شرح السيرافي على سيويه : ٣٤٨/٤ مخطوط بالتييمورية ، خزانة الأدب للبغداد ١/٩ ، ٣ ، ١٥٧/٢ ، ٤١٤ ، ٤٨٠ .

(٧) مجمع الأمثال للميداني ١٥٦/١ .

(٨) المرجع السابق : ١٧٧/١ .

٥ - وقالوا «حب الى عبد محكده»^(١) المحكد : الأصل ، وهي لغة عقيل ، وأما كلاب فيقولون « محكد » يضرب لمن يحرص على ما يشينه .

٦ - وقولهم «ليت^(٢) القسي كلشها أرجلا» يضرب للمتمنى محالاً ، لأنه لما كانت أعالي القسي أطول من أسافلها ، ونو تركت الأسافل على غلظ الأعالي مع قصرها؛ لم توات النازع فيها ، ولتخلفت عن الأعالي وخذلتها .

والمعلوم أن ليت - تنصب الاسم وترفع الخبر إلا في لغة تميم فإنها تنصبها « كما حكى ذلك ابن سلام^(٣) - وزعم أنها لغة رؤبة^(٤) وقومه » وزعم أبو حنيفة الدينوري في كتاب «النبات» أن النصب « بليت » - لغة تميم ، ولذلك فأرجح أن الذي نطق بالمثل هكذا - أي بنصب الجزأين - من قوم رؤبة .

٧ - وقالوا « لأضمتك ضم الشتائر »^(٥) . قال أهل اللغة : هي لغة يمانية - وهي الأصابع - وذو شتائر : ملك من ملوك اليمن ، وقال حميري منهم يرثي^(٦) امرأة أكلها الذئب :

أيا جحمتنا بكى على أم واهب أكيلة قلوب بيمض المذائب
فلم يبق منها غير شط عجانها وشنترة منها وإحدى الذوائب

٨ - كما روى ابن فارس^(٧) أن الأصابع في لغة حمير هي الشتائر. وأن القلوب في البيت الأول هو الذئب بلغة حمير^(٨) .

٩ - ما روى عن عبدالله بن مسعود أنه قال « ما على الأرض^(٩) شيء أحق بطول سجن من

(١) المرجع السابق : ٢٠٠/١ .

(٢) المرجع نفسه : ١٨٧/٢ .

(٣) خزانة الأدب : ٢٩١/٤ - ٢٩٤ .

(٤) رؤبة : من تميم : الشعر والشعراء لابن قتيبة : ٢٣٠ تصحيح السقا .

(٥) مجمع الأمثال للبيداني ١٨٩/٢ .

(٦) اللسان : ٩٩/٦ .

(٧) الصاحبي لابن فارس : ٢٦ .

(٨) المرجع السابق .

(٩) مجمع الأمثال للبيداني ٢٦٠/٢ .

لسان « والمثل روي بنصب » أحق وبرفعها . ولا شك أن الذي نطق بالنصب حجازي ، وأن الذي نطقه بالرفع تميمي ، لأن الحجاز تنصب خبرها^(١) ، وتيمم تهملها^(٢) ، ومثله « مكروه أخوك لا بطل » أمثال الميداني ٣١٨/٢ فقد ورد المثل أيضاً بالألف « أخاك » العربية ص ١٠٦ يوهان فك .

ب - الأمثال العامية الحديثة ودلالاتها على اللهجات العربية القديمة :

وإذا كانت الأمثال العربية القديمة مصدراً من مصادر اللهجات العربية ، فإن الأمثال العامية الحديثة تعتبر معيماً صافياً للهجات العربية القديمة أيضاً ، وذلك لأن العلاقة بين لهجاتنا الحديثة ولهجاتنا العربية القديمة قوية . بل هناك بعض الظواهر اللهجية القديمة والتي لا يمكن تفسيرها - أمكن تفسيرها الآن في ضوء اللهجات العربية العامية ، لأن اللهجات القديمة بقيت تنتقل على ألسنة الناس في الأجيال الذاهبة حتى وصلتنا ، وتلك الظواهر العامية في اللهجات الحديثة - هي في الواقع عريقة في القدم ممتدة جذورها في حياة الأمة العربية - ومن هنا نجد أن خصائص لغتنا العامية قد عاشت على أرض التربة العربية الأولى - عندما كانت تسير على ألسنة القبائل العربية القديمة ، ولذلك كان على الباحث أن يلتصق بخصائص اللهجات العربية القديمة - في أمثالنا العامية ، وأحاديثنا العادية لأنها جميعاً تحمل بذوراً للهجات القديمة .

وكانت دلالة الأمثال العامية - على اللهجات العربية القديمة - طبيعية لا تكلف فيها ولا التواء ، وسأكتفي في هذا المقام بالحديث عن ظاهرة واحدة ، في الأمثال العامية ، وأما بقية الأمثال فستدرس في خلال لهجات القبائل .

وردت عدة أمثال يستنبط منها ظاهرة لهجية واحدة وتلك الأمثال هي :

(أ) « الحير تكفيه الإشارة »^(٣) .

(ب) « قصيرة تقطع طويلة »^(٤) .

(١) الخزانة للبغدادي ١٣٠/٢ - ١٣٥ .

(٢) الكتاب لسيبويه ٢٨/١ ، ٦٢ ، ٧٤ ، ٣٦ . وانظر شرح السيرافي لكتاب سيبويه ٤٠٢/١ - ٤٠٤ مخطوط بالتيمورية .

(٣) الأمثال العامية في نجد ٧١/١ رقم ١٨٣ قسم ١

(٤) المرجع السابق ٢٢٠/١ رقم ٥٥٦ .

ج) « خِذِ الحَفْنَةَ مِنَ اللّٰحِيَةِ الْعَفْنِيَّةِ »^(١) .

د) « الخَيْلُ تَضْمَرُ لِأَجْلِ سَاعَةٍ »^(٢) .

هـ) « الدُّنْيَا مَا تَغْنِي عَنِ الْآخِرَةِ »^(٣) .

وأريد أن أبين أن هذه الأمثال العامية النجدية تهدينا الى شيء واحد مهم - وهو أن نجداً كانت محطاً للإمالة - لاسيما إمالة ما قبل هاء التانيث كما في الأمثال السابقة ، وكانت الكسائي يميل^(٤) ما قبل هاء التانيث ، وكذلك كان القاريء، عاصم ١٢٧ هـ - وهما كوفيان - والكوفة نزها رجال من قبيلة أسد وتيم ، وقد اشتهرتا بالإمالة ، « بسل الكسائي نفسه كان مولى بني أسد »^(٥) كما يذكر السيوطي أن الإمالة في تيم وأسد وقيس وعامة أهل نجد^(٦) وصاحب التصريح يعزو الإمالة الى « تيم وقيس وأسد وعامة نجد »^(٧) - فإذا كان الأمر كذلك تكون الأمثال السابقة - وهي كلها في عامية نجد الحديثة - قد أمدتنا بتأييد لميل تلك القبائل التي حدثنا الرواة عنها أنهم يميلون .

وأما السبب في إمالة ما قبل هاء التانيث - في الأمثال الخمسة السابقة في عامية نجد، فيرجع الى أن الألف يمال ما قبلها ، والهاء شبيهة بالألف ، فأميل ما قبل الهاء كذلك ، لاسيما وأن الألف والهاء تحل إحداهما مكان الأخرى ، من ذلك ما ذكره ابن خالويه في قوله تعالى « أنا أحنّي وأميت »^(٨) - من أن (أنا) فيها أربع لغات : أنا فعلت ، أن فعلت ، أنت فعلت ، أنته فعلت ،^(٩) فالألف قرينة الهاء - فإذا ما أميلت الألف - أميلت كذلك الهاء ، وهذا معنى قول سيديويه « شبه الهاء بالألف ، فأمال ما قبلها كما يميل ما قبل الألف »^(١٠) .

(١) المرجع السابق ٨١/١ رقم ٢٠٩ ويضرب في اغتنام القليل من البخيل .

(٢) المرجع السابق ٨٨/١ رقم ٢٣٦ .

(٣) الأمثال العامية في نجد ٩٤/١ رقم ٢٥٥ .

(٤) إبراز المعاني : أبو شامة ١٧٦ ، النشر لابن الجزري ٨٢/٢ ، ولقد قيل للكسائي : إنك تميل ما قبل هاء التانيث فقال : هذا طباع المروية . النشر : ٨٢/٢ مطبعة مصطفى محمد .

(٥) طبقات القراء : ابن الجزري ٥٣٥/١ ، النشر لابن الجزري ١٦٩/١ .

(٦) مع الموامع للسيوطي ٢٠٤/٢ مطبعة السعادة .

(٧) التصريح على التوضيح : خالد الأزهرى ٣٥/٢ .

(٨) سورة البقرة : آية ٢٥٨ .

(٩) الحجة في قراءات الأئمة السبعة ورقة ٢٠ ابن خالويه مخطوطة بدار الكتب رقم ١٩٥٢٣ ب .

(١٠) الكتاب لسيديويه : ٢٧٠/٢ ، وانظر النشر لابن الجزري ٨٧/٢ .

ثالثاً : اللهجات العربية الحديثة :

وهي مصدر أصيل يهتدى به الى معرفة اللهجات العربية القديمة ، وذلك أن الجزيرة العربية قديماً كانت قبائل ، وبطوناً ، وتلك القبائل وهذه البطون تختلف لهجاتها فيما بينها اختلافاً مرده الى الفردية والمغايرة حيناً ، أو الكسل والشذوذ أحياناً ، كما أن هذا الاختلاف قد يرجع الى احتكاك القبائل بعضها ببعض مع اختلاف الظروف الاجتماعية الى غير ذلك من العوامل التي أفاض فيها علماء اللغة والاجتماع. وكما وجدت في المجتمع العربي القديم تلك العوامل التي تساعد على اختلاف اللهجات بين القبائل ، وتشيع الفارقة بين البطون ، وجدت كذلك في هذا المجتمع نفسه عوامل قد ترجع الى روابط سياسية أو اجتماعية — كما ظهر ذلك في الأحلاف^(١) ، والاتحادات الكبرى كاتحاد كندة^(٢) حيث حاولت أن تكون مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية — هذه العوامل هي التي تمسك بالمجتمع كي يحافظ على الطابع المميز للهجته ، وتعرقل من العوامل التي تساعد على اختلاف لفته ، ولا يزال الأمر بين عوامل انفصال ، وعوامل اتصال — هذه تباعد بين اللهجات وتلك تقرب بينها^(٣) حتى يكون النصر في النهاية لعوامل الانفصال ، وعندئذ تتميز اللهجات ، ويبقى لها كيانها وهذا معنى قولهم « إن في كل لغة حية قوتين متضادتين ، الأولى : تدفع بالفرد عن المركز ، والأخرى : تشد به نحو المركز^(٤) » .

ونرى مظاهر اختلاف هذه اللهجات : في المشترك^(٥) ، وفي التضاد^(٦) ، وفي الترادف^(٧) ، والقلب^(٨) ، وفيما سمع عن العرب من أشياء قاطعة في اختلاف اللهجات مثل ما ذكره ابن خالويه في شرح الفصيح ، وما جاء عن الأصمعي من قوله : « اختلف رجلان في الصقر ، فقال أحدهما :

(١) تاريخ العرب : ٣٥٢/١ جواد علي ، معجم ما استعجم ٣/١ البكري (تحقيق السقا) .

(٢) تاريخ العرب : ١٤٧ مبروك نافع .

(٣) في اللهجات العربية : ١٩ الطبعة الثانية دكتور ابراهيم أنيس .

(٤) نحو عربية ميسرة : ١٠٥ أنيس فريجة .

(٥) المزهر للسيوطي : ٣٦٩/١ وما بعدها .

(٦) المزهر : ٣٨٧/١ ، القرطبي : ٢٨/١ ابن مطرف الكتاني ، اللسان : ٤٤٣/٤ ، ١٠١/٥ . البحر المحيط : ١٥٤/٦ .

(٧) المزهر : للسيوطي : ٤٠٢/١ وما بعدها .

(٨) مع المراجع للسيوطي : ٢٥٥/٢ .

الصقر - بالصاد ، وقال الآخر : السقر - بالسین ، فتراضيا بأول وارد عليها فحكيا له ما هما فيه فقال : لا أقول كما قلتما - إنما هو - الزقر^(١) .

ثم شاء الله أن تنزح العربية مع الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً حيث اتصلت هناك لغات الفاتحين بلغات غيرهم ، وقام الصراع بين لغة الدخيل ، ولغة الأصيل ، ولغة الغزاة الفاتحين ، ولغة المغلوبين المهزمين ، وفي نزوح العربية من ديارها حدث لها هزات واضطرابات ، ونالها بعض التغيير والتبديل ، وشاء الله أن تنتشر هذه العربية في تلك المساحات من البلاد المفتوحة قريبها وبعيدها ، ومن المقرر أن اللغة المقهورة تترك في اللغة الغالبة آثاراً كثيرة في مختلف المظاهر^(٢) ، وكان هذا الصراع مع اللغات الآرامية في سوريا والعراق ولبنان ، ومع القبطية في مصر ، ومع البربرية في شمال إفريقيا ، ومع الفارسية بآيران ، ومع التركية ببلاد المغول ، وتقتضي نواميس اللغات أنه متى انتشرت اللغة في مناطق واسعة من الأرض ، وتكلم بها طوائف مختلفة من الناس - استحال عليها الاحتفاظ بوحدتها الأولى أمداً طويلاً^(٣) .

وهكذا كان لا بد لهذا المبدأ أن ينطبق على اللغة العربية ، عند انتشارها ، فقد انشعبت إلى لهجات - واتخذت كل لهجة منهجاً خاصاً بها تحت تأثير ظروفها الخاصة بها « فلهجة العراق أو لهجة المغرب - في العصر الحاضر - لا يفهمها المصري إلا بصعوبة وفي صورة تقريبية »^(٤) ، لكن لما كانت العربية الفصحى - هي لغة الكتابة ولغة الدين في هذه الأماكن - كان من الضروري أن تخف أوجه الخلاف بين تلك اللهجات العامية ، ذلك لأن العربية الفصحى كما يقول يوهان فك : « ظلت في الأدب الملكية المتوجة التي أقسم لها يمين الطاعة كل من ادعى إلى الثقافة بسبب أو نسب »^(٥) فأصبح مكان الفصحى ثابتاً مشعخع البناء - نظراً لبقاء وحدة الثقافة في تلك الدول من جهة ، ومن جهة أخرى أن هذه اللغة هي لغة الدين الجديد نفسه وأداته الأولى ، فكان الإسلام بمثابة الطائر الذي حملها على جناحيه حتى نشرت أوليتها في تلك المناطق واقتربت في أرواح المؤمنين بهالة من التقديس والتعظيم ، وإنما بلغ انتشار العربية مداه الواسع في تلك المناطق لأنها تتشابه مع بلاد العرب في طبيعتها وخصائصها وبيئتها - ولذلك علل انتشار

(١) الخصائص : ٣٧٨/١ ، الاقتراح : ٢٦ للسيوطي ، حيدر آباد ط الثانية .

(٢) فقه اللغة : ١٢٥ الدكتور عبد الواحد وافي الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٠ .

(٣) فقه اللغة : ١٤٢ وافي .

(٤) المرجع السابق ١٤٣ وافي .

(٥) العربية : ص ١٤٣ يوهان فك ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار ط دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٦ .

العربية سريعاً في مصر ، لأن بيئتها موصولة بالبيئة العربية ، وجغرافيتها كذلك ، وما يقال في مصر يقال في غيرها : كالعراق ، لأنها موصولة الطبيعة بالجزيرة العربية ، وشمال إفريقيا ، فهي بلاد متشابهة في مظاهرها وفي صحرائها وصخورها وتلالها ، ثم انشعبت هذه اللغة العربية الى لهجات عامية ، لأنها انتشرت في مناطق شاسعة من الأرض ، وقد قسم المحدثون هذه اللهجات العامية الى خمس مجموعات^(١) .

أ (مجموعة اللهجات الحجازية) وتشمل لهجات الحجاز ونجد واليمن) .

ب (مجموعة اللهجات السورية) وتشمل جميع اللهجات العربية في سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن) .

ج (مجموعة اللهجات العراقية) .

د (مجموعة اللهجات المصرية) وتشمل جميع اللهجات العربية في مصر والسودان) .

هـ (مجموعة اللهجات المغربية) وتشمل جميع اللهجات العربية في شمال إفريقيا) .

ولهذا وجدنا أن كل قطر من الأقطار العربية يختلف فيه لهجات العامية عن غيره في مدلول اللفظ الواحد ، وفي صيغة الجمع . ففي مصر يقولون^(٢) « طقطوقة » للإناء الذي يطرح فيه رماد اللقائف ويطلقون « الطقطوقة » على الأغنية البلدية ، بينما الشامي لا يعرفها تطلق إلا على الأغنية فقط .

وفي الشام : يجمعون سيطرة على سيكارات ، وفي لبنان : على سواكير ، وفي مصر على سكاير .

وفي مثل ذلك يقول المستشرق مورينو « لقد تعلمت العربية في إيطاليا ، ثم أقمت زمناً في ليبيا وفي مصر والسودان والعراق ، فواجهتني مشقة اختلاف اللهجات ، وصعوبة التفاهم بها ، إذا قلت لعربي في بنغازي : أعطني شراباً ، ثم قلت لعربي في طرابلس ، أعطاني أحدهما مشروباً ، وأعطاني الآخر جورباً »^(٣) .

(١) فقه اللغة : ١٥٩ وافى .

(٢) من مقال الاستاذ محمد كرد علي بجملة جمع اللغة العربية ج ٧ .

(٣) جريدة الأهرام في ١١/٢٤/١٩٦١ من مقال لبنت الشاطئ .

فالعامية قد انحرفت في هذه الأقطار عن الفصحى، وهذا الانحراف ناشئ في أغلب الأحيان من القصد الى التخفيف في النطق، ويحدث التحريف^(١) :

- ١ - إما بزيادة حرف كما هو الحال في راجل بدلاً من رجل، ودواية في دواة .
- ٢ - وأما بتخفيف الهمزة مثل بير بدلاً من بئر .
- ٣ - وقد يكون باتباع حركة أول الكلمة للحرف اللين الذي في وسطها مثل : بيت بدلاً من بيت « ومولد » بدلاً من مؤلد .
- ٤ - وإما بإبدال بعض الحروف بأخرى - أسهل في النطق مثل : « بجتر » في بعثر . اتأوب بدلاً من تائب .
- ٥ - أو تخفيف النطق بإبدال الحرف المضعف - ياء مثل :
مدّيت - حطّيت - فكّيت
- ٦ - أو يكون التخفيف^(٢) ناشئاً عن النعت مثل أيش بدك - أي شيء بودك . أو منسين ، وأصلها من أين .
- ٧ - أو يكون التخفيف ناشئاً عن القلب مثل : الزحالف للزاحف - أي السلاحف والمعلقة يعني المعلقة .
- ٨ - أو من الإبدال : مثل : يلطّ الطعام يعني يرهط . واشترّت الدابة يعني اجتت . دحك يعني ضحك .
- ٩ - أو من النقصان من عطوني - في أعطوني ، ومثل : مرت فلان ، أي امرأته ، ونهار الحد . أي الأحد ، وقولنا : عَ الرف ، مَ السّوق .
- ١٠ - أو التصحيف : مثل احْدِف الشّيء : أي احذفه ، واتنين في اتين ، أو تمر في ثمر .

وهكذا شاء الله للعامية العربية أن تسير مع الزمن، وتنطلق في ركب التطور: من الصعب

(١) انظر مجلة مجمع اللغة العربية ج ٧ من مقال في « موقف اللغة العربية العامية من اللغة العربية الفصحى » للأستاذ محمد فريد أبو حديد .

(٢) انظر : في هذا مجلة مجمع فواد الأول ج ٤ في مقالة « اللهجة العامية في لبنان وسورية » للأستاذ المعلوم .

الى السهل ، ومن الحشن الى الناعم ، ومن المعقد الى اليسر ، ومن المزخرف الى البسيط ، ولهذا فإن الفروق التي تشاهد بين الفصحى واللهجات العامية - إنما تلتج من حاجة الناس الى التعبير عن أفكارهم بسهولة وبساطة ووضوح ، ومن نزوعهم الى الاقتصاد في الكلام^(١) .

وهذا التخفيف الذي سارت عليه العامية العربية ، والذي مثلنا له سابقاً يرجع الى قرب نخرج الحروف حيناً ، و الى لهجات القبائل أحياناً ، وما يعرض من التصرف في اللفظ والسمع ، فالكثرة من الألفاظ العربية أصيلة من لهجة قريش أو غيرها من القبائل القيسية والأسدية ، والتميمية ، والهذلية والطائية واليمينية وغيرها ، ذلك لأن القبائل العربية التي هاجرت من الجزيرة الى آفاق الأرض الرحبية - كانت من أصول مختلفة ، لذلك اختلفت اللهجات العامية العربية في تلك الأصقاع تبعاً لأصلها ، ويمكننا لذلك أن نقول بأن العامية العربية الحديثة أقدم من الفصحى على الزمن - فهي موصولة بالنسب بها عاشت معها في أرضها ونحت سمائها - ألم تكن عاميتنا لهجات تختلف القبائل والبطون والمشاير ؟ فسبقت بذلك اللغة الفصحى وتقدمت عليها - ثم جرت عليها سنة الزمن في التطور ، وعجيب أن يصمها قوم بالفساد لأنها تطورت ، وما الفساد إلا أن تتجدد في مكانها - وتتكتل ، بل تتخجر أساليبها ومعانيها ، ألم تكن عاميتنا من صنع مجتمع عربي أصيل ؟ فليست ظواهره العامية بنت اليوم أو الأمس بل هي قديمة قدم التاريخ ، موصولة بالنسب بفصحانا ، قوية الوشائج بلغة القرآن وأدب العرب ، وإذا كان التطور قد أصاب هذه اللهجات فلقد أصاب الفصحى هذا التطور وذلك التصرف . فحرى بعد هذا أن يجد الباحث علائق قوية بين هذه العاميات العربية ، وبين لهجات القبائل في جزيرة العرب . وسيجد الباحثون مقدار ما احتفظت به هذه اللهجات الحديثة من صفات لهجية قبلية قديمة ، وفي ذلك يقول الدكتور إبراهيم أنيس^(٢) « فاللهجات الحديثة وإن كانت قد تطورت في البيئات العربية المختلفة تطوراً مستقلاً باعد بينها ، وصبغها بصبغة محلية في بعض ظواهرها - قد استمسكت بكثير من السمات التي عرفت عن القبائل القديمة » .

وإذا كانت العامية الحديثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً باللهجات العربية القديمة فإنها ترتبط كذلك بالفصحى ، فمن هذا الارتباط بين العامية والفصحى :

ما ذكره صاحب اللسان في مادة^(٣) (زناً) - (زناً) عليه تزنة - ضيق واستشهد ببيت العفيف العبدى :

(١) نحو عربية ميسرة : ١١٥ ، فريحة .

(٢) في اللهجات العربية : ٢١٦ الطبعة الثانية .

(٣) اللسان : « زناً » .

لاهم* إن الحراث بن جبلة زناً على أبيه ثم قتله

قال : وأصله : زَنَّا - بالهمزة ، وفي الحديث أنه كان (أي النبي عليه السلام) لا يحب من الدنيا إلا أزنأها - أي أضيّقها . وفي اللسان أيضاً : زناً الظل يزناً - قلص . وقال صاحب القاموس^(١) (زناً - لزق بالأرض ، وزناً بوله - احتقن ، وأزنأه - ألبأه ، وزناً عليه تزنة - ضيق .

هذا معنى الكلمة في معاجم اللغة .

فإذا انتقلنا إلى اللسان العامي في مصر نجد أننا نقول (زَنَّا فلان على نفسه أو أولاده) بمعنى ضيق بخلاً (وانزق فلان في كذا) إذا أضاق عليه أمر ، أو حزبه شدة (وفلان انزق بالبول ، أو انزق بوله) بمعنى احتبس (وزنق الحفير اللص في الحائط) ألجأه إليها .

ونقول (فلان ما يعرفش ربّه إلا وقت الزنقة) أي وقت الضيق - وبالمقارنة ظهر أن هذه المادة مستعملة في اللسان العامي كما في العربية الفصحى ومما يؤكد هذا ما جاء عن أبي عمرو : الأفر . الوثبة بالمعجلة ، والقفز : الوثب^(٢) ، وكذلك أبدلت القاف همزة في اللغة البونية ، وفي شمال مراكش ، كما وجدت الظاهرة في لهجة مالطة^(٣) .

وإذا كانت العلاقة بين عاميتنا والفصحى على تلك الحال ، فأمرها مع اللهجات العربية القديمة أكثر اتصالاً ، وأقوى رابطة ، واكتفي هنا بكلمة واحدة حتى يبين الوقت لعرضها مع دراستنا عن لهجات القبائل .

روي عن تميم أنها تقلب الألف المتطرفة همزة فيقولون في حرف التنفي « لا » ، « لأ »^(٤) والدليل على ذلك ما ثبت من أن بعضهم يقلب الألف في المقصور همزة فيقول : « الهدأ »^(٥) في

(١) القاموس : (زناً) .

(٢) إبدال أبي الطيب : ٢ / ٦٢ . وأشب وقشب بمعنى خلط .

(٣) حروف الحلق : دكتور خليل نامي .

(٤) مميزات لغات العرب : ص ٢٧ ، مجلة المجمع اللغة العربية ج ١٣ من مقال العامية ... الفصحى للأستاذ محمود تيمور .

(٥) مميزات لغات العرب : ٢٧ حفي ناصف .

* لا،هم* : أي اللهم

الهدى ، وروى السيرا في « أن بعض^(١) العرب يقلب الألف همزة نحو « رأيت رجلاً » فإذا ملنا الى لهجتنا المصرية لنتعرف منها ما يساوق هذه اللهجات نراها تقول في حرف النفي (لا) - « لا » بالهمز ، فليس في مصر من ينطق بها إلا مهموزة ، إلا أهل الصعيد فإنهم يقولون فيها (ل) بقلب الهمزة عيناً - مبالغة منهم في الوضوح والبيان ، وقلب الهمزة عيناً من سمات^(٢) تميم ، وهذا يؤكد أن في النازلين الأولين في صعيد مصر من العرب قوماً من بني تميم .

(١) شرح السيرا في على سيبويه : ٤٣١/٥ - ٤٣٣ غطوط بالتيمورية .

(٢) خزانة الأدب للبندادي : ٤٩٥/٤ ، ٥٩٦ .

الفصل الثالث

« التراث اللهجي »

أولاً : تصنيف هذا التراث :

١ - التأليف في لغات القبائل في القرآن^(*) :

يظهر أن هذا النوع من التأليف « كان من أول الفنون اللغوية ظهوراً »^(١) ، لأنه يتصل بالقرآن الكريم مباشرة ، ولا شك أن كل تأليف يتصل بالقرآن الكريم - نال من القوم عناية ظاهرة ، إذ كانت له قدمة على غيره ، وتفضيل على ما سواه .

أ (فقد ألف هشام الكلبي (٢٠٤ هـ) كتاب « لغات القرآن »^(٢) كما في الفهرست : ص ١٤٧ وقد أشار إليه في كتاب الأضنام المحقق أحمد زكي ص ٧٣ .

ب (وألف الفراء (٢٠٧ هـ) كتاب « لغات القرآن » كما أشار إليه أبو حيان في تفسيره^(٣) ، والشيخ عبادة في حاشيته على شذور^(٤) الذهب ، كما ساق صاحب التصريح نصوصاً من « لغات القرآن » للفراء^(٥) .

ج (كما ألف الاصمعي « ٢١٣ هـ » كتاب « اللغات »^(٦) في القرآن .

(*) انظر مقالنا « نصوص من تراث لغوي مفقود » بجلة المجمع اللغوي بالقاهرة ج ٢٦ .

(١) المعجم العربي : ٧٣/١ دكتور نصار مطبعة دار الكتاب العربي ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٦ .

(٢) الفهرست : ابن النديم : ٥٩ .

(٣) البحر المحيط : ١٩٣/٣ .

(٤) حاشية عبادة على الشذور ١٤٨/١ .

(٥) التصريح على التوضيح : ١٢٨/١ ، ١٣٨/١ .

(٦) الفهرست : ابن النديم : ٥٩ .

د) وقفى على أثره أبو زيد الانصاري (٢١٥ هـ) فألف مثل ذلك^(١) وأشار الى ذلك التأليف صاحب « البغية »^(٢) ، وابن النديم^(٣) .

هـ) كما ألفت في لغات القرآن - الهيثم بن عدي^(٤) .

و) وذكر ابن دريد (٣٢١ هـ) في الجمهرة أنه ألف كتاب اللغات^(٥) في القرآن كما ذكره صاحب الفهرست ، وقال : بأنه لم يتمه^(٦) .

ز) ونسب ابن النديم مؤلفاً باسم « لغات القرآن » الى محمد بن يحيى القطيعي (٥٤٤ هـ) .
ح) وذكر السيوطي في ترجمة أحمد بن علي بن محمد البيهقي (٥٤٤ هـ) أنه صنف (المحيط بلغات^(٧) القرآن) .

ط) ووجدت نسخة في مكتبة المرحوم أحمد تيمور بدار الكتب بعنوان (لغات القرآن - مختصرة من مفردات الراغب) لا يعلم^(٨) مؤلفها والنسخة بدون خطبة ، وهو يتعرض لمفردات القرآن على ترتيب حروف الهجاء ، فيقدم حرف الألف مثل « الأب ، الأبد ، أبقى » ... ثم باب الباء : البت البتر - البت . . . والكتاب لا ينسب أي لفظ من القرآن الى قبيلته ولذلك أرجح أن الكتاب « أقرب الى غريب القرآن » منه الى لغات القرآن .

ي) كما رأيت نسخة أخرى في التيمورية بعنوان^(٩) « لغات القرآن » لأبي حيان (٦٥٤ هـ) وبقرائي لهذا الكتاب لم أجد به أثراً من لغات القبائل في القرآن - إلا كلمة واحدة في القرآن نسبها الى قبيلتها : قال « أفلم يئسوا » معناه : بلغة التخخ « يعلم

(١) بغية الرعاة السيوطي : ٢٥٥ مطبعة السعادة .

(٢) الفهرست : ٥٩ .

(٣) الفهرست : ٥٩ .

(٤) جمهرة : ابن دريد ٤٠٠/٢ والفهرست : ٥٩ .

(٥) الفهرست : ٥٩ .

(٦) الفهرست : ٥٩ .

(٧) بغية الرعاة : ١٥١ .

(٨) رقم ٣٧٧ مخطوط بالتيمورية لغة .

(٩) رقم ٧٤٤ لغة مخطوط بالتيمورية .

ويتبين ، والله أعلم^(١) بالصواب . والكتاب يرتب مفردات القرآن حسب الحروف الهجائية ، ولقد أهمل أبو حيان عزو مفردات القرآن الى لغاتها ، ولذلك أشك كثيراً في اسم هذا الكتاب ، لاسيما وأن السيوطي في ترجمته له في بغية الوعاة ذكر مؤلفاته ، ولم يذكر منها هذا الكتاب ، بل ذكر له كتاباً آخر باسم « إتحاف الأريب بما في القرآن »^(٢) من الغريب ، ، ومما يؤيد ظني أن الكتاب الذي نسبه له السيوطي ، قد طبع في « حماة » سنة ١٣٤٥ هـ ، ١٩٢٦ م مطبعة الإخلاص ، وبمقارنتي « كتاب تحفة الأريب بما في القرآن من الغريب » بكتابه الذي أتكلم عنه وهو « لغات القرآن » وجدت أن مادة الكتابين واحدة ، مما يدل على أن م فهرس مكتبة المرحوم تيمور قد أخطأ في عنوان الكتاب .

(ك) وعثرت في الحزاة التيمورية على تأليف سمي (رسالة غريب القرآن على لغات القبائل)^(٣) ألفه أبو حيان (٦٥٤ - ٨٧٤ هـ) ، وهذه الرسالة المنسوبة الى أبي حيان النحوي تدير على نظام سور القرآن ، فيستخرج لهجات القبائل من كل سورة على حدها مبتدئاً بسورة البقرة ، فآل عمران ...

(ل) وهناك رسالة تحت عنوان (كتاب اللغات^(٤) في القرآن) ، أخبر به إسماعيل بن عمرو المقرئ ، عن عبدالله بن الحسين بن حسن بن المقرئ ، بإسناده الى ابن عباس ، وقام بنشرها الدكتور صلاح الدين المنجد ، وهذا الكتاب منسوب لابن عباس ويسير على ترتيب المصحف ، إذ يذكر اللهجات واللغات من كل سورة ، وليس فيه أي شاهد على هذه اللهجات ، وهو ما يؤكد أنه مختصر من كتاب أكبر منه ، وقد طبع هذا الكتاب على هامش « كتاب التيسير في علوم التفسير » لعبد العزيز بن أحمد الدميري الشهير بالدريني^(٥) من أول صفحة ١٠٩ وما بعدها ، كما طبع الكتاب مرة أخرى على هامش تفسير الجلالين بمصر ١٣٥٦ هـ . وقد نسب الكتاب في الطبعتين الأخيرتين معزواً فيها « للإمام أبي القاسم^(٦) بن

(١) لغات القرآن : أبو حيان : ٣٣ مخطوط بالتيمورية رقم ٧٤ لغة .

(٢) بغية الوعاة : السيوطي ص ١٢٢ .

(٣) مخطوط بالتيمورية رقم ١٤٠ حديث .

(٤) مطبعة الرسالة بالقاهرة ١٩٤٦ م .

(٥) مطبعة التقدم بمصر ١٣١٠ هـ .

(٦) كتاب التيسير في علوم التفسير : الدميري ١٠٩ .

سلام ، كما أكد بروكلمان نسبته الى أبي عبيد القاسم بن سلام^(١) معتمداً على ما ورد في كتاب التيسير وغيره .

ولكنني أشك في نسبة هذا الكتاب أو تلك الرسالة الى أبي عبيد القاسم بن سلام للأسباب الآتية :

١ - بالبحث في كتب اللغويين ورجال الطبقات لم أجد من نسب كتاباً كهذا الى أبي عبيد القاسم ، فابن النديم^(٢) مثلاً يذكر له « كتاب غريب القرآن » ، « وكتاب معاني القرآن » . وأبو بكر الزبيدي في طبقاته لا ينسب له رسالة باسم « ما ورد في القرآن من لغات القبائل » ولا ما يشبه هذا^(٣) ، وكذلك صاحب مراتب النحويين لا يذكر له إلا كتابه « غريب القرآن » وذكر أنه منتزع من كتاب أبي^(٤) عبيدة ، ومثله السيوطي^(٥) في بغية له رسالة في لغات القرآن .

٢ - في هامش كتاب التيسير يقول المؤلف « هذه^(٦) رسالة جليظة لبعض الأفاضل تتضمن ما ورد في القرآن الكريم من لغات القبائل ، وأظنها للإمام أبي القاسم بن سلام ، فصاحب الكتاب وان نسب الرسالة الى أبي عبيد ، فإن قوله « وأظنها » يشير الى أنه غير متأكد من نسبتها إليه ، ثم إنه لم يذكر اسمه صراحة .

٣ - أن رواة الرسالة ليس منهم اسم أبي عبيد القاسم بن سلام ، بل رواها اسماعيل بن عمرو المقرئ عن عبدالله بن الحسين بن حسنون المقرئ بإسناده الى ابن عباس^(٧) .

٤ - أن بروكلمان في كتابه يذكر أن رسالة أبي عبيد القاسم التي نتحدث عنها مأخوذة من كتابه المفقود في غريب^(٨) القرآن - وإذا كان الأصل مفقوداً فكيف ساع له أن يدعي

(١) تاريخ الأدب العربي : ١٥٩/٢ نشره المرحوم الدكتور النجار .

(٢) الفهرست : ابن النديم : ١١٢ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٢١٧ وما بعدها تحقيق أبو الفضل .

(٤) مراتب النحويين : أبو الطيب اللغوي : ٩٣ مطبعة نهضة مصر تحقيق أبي الفضل .

(٥) بغية الوعاة : السيوطي : ٣٧٦ .

(٦) كتاب التيسير في علوم التفسير : ١٠٩ .

(٧) كتاب اللغات في القرآن : ج ١ / ١١٠ .

(٨) بروكلمان : تاريخ الأدب العربي : ١٥٩/٢ .

بأن رسالتنا مأخوذة من أصل مفقود ، ويربط بين الرسالة هذه ، وبين أصلها الذي لا نعرف عنه شيئاً .

لهذا ، أشك في نسبة هذه الرسالة الى أبي عبيد القاسم بن سلام ، وكما شككت في نسبة هذه الرسالة أشك في نسبة «رسالة غريب القرآن»^(١) على لغات القبائل ، لأبي حيان (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) وهي التي تحدثت عنها آنفاً وعلّة ذلك :

١ - بمقارنتي نصوص هذه الرسالة ، على النصوص الواردة في (كتاب اللغات في القرآن) المعزوم الى ابن عباس ، وجدت نصوص الرسالتين لا تختلف عن بعضها ، فعزوا اللهجات يكاد يكون متفقاً .

٢ - في مقدمة رسالة أبي حيان المخطوطة يدلي المؤلف برواية عن شرف الدين أبي الحسن علي بن المفضل ابن علي المقدسي إجازة ، قال : أخبرنا الشيخان الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي : ... عن إسماعيل بن عمرو المقرئ الى ابن عباس ، فهي تتفق ورواية « كتاب اللغات في القرآن » المسند الى ابن عباس لذا شككت في نسبة (رسالة غريب القرآن على لغات القبائل) الى أبي حيان .

٣ - ان السيوطي مثلاً لم يعز لأبي حيان^(٢) هذا الكتاب -- عندما ترجم له واعتقد ان النسبة لأبي حيان جاءت خطأ من م فهرس مكتبة المرحوم أحمد تيمور كذلك .

فقد كتب اللغات في القرآن :

وهذه الكتب السابقة والتي تحدثت عن أسمائها في « لغات القرآن » تعد مفقودة حتى الآن مما يحدث فراغاً ضخماً في الدراسات القرآنية اللهجية ، وصلة ذلك من الناحية التاريخية بلهجات القبائل العربية فيه - باستثناء الكتب السالفة التي وصلتنا عن المكتبة التيمورية ، والتي ألفت ظلاً من الشك عليها آنفاً من ناحية أسمائها ، ومتنها .

فتكون الرسالة الباقية في أيدينا حتى الآن من هذا العدد الضخم الذي جاء في كتب التراجم والطبقات - هي ممثلة في (كتاب اللغات في القرآن) وهو ثمرة لفرس ابن عباس ظهر الى

(١) مخطوطة بالتيمورية رقم ١٤٠ حديث

(٢) بنية الرواة : السيوطي : ١٢٢ . وانظر مقالنا بمجلة مجمع اللغة العربية الجزء ٢٦ ربيع الأول ١٣٩٠ هـ مايو ١٩٧٠ م .

الوجود من دار الكتب الظاهرية ، ونشرتها مطبعة الرسالة^(١) . ومن المفيد أن نشير الى أن السيوطي قد نقل في إتحافه « النوع السابع والثلاثون » من كتاب سماه « تأليفاً مفرداً » نصوصاً في موضوع (لغات القرآن) .

وهذه النصوص التي نقلها السيوطي تتفق الى حد كبير مع ما تضمنه (كتاب اللغات في القرآن) المعزى الى ابن عباس ، لكن تأليفه هذا يختلف عن كتاب اللغات في القرآن السابق بشيئين :

أولهما : أن السيوطي حذف ما جاء في القرآن بلغة قريش والحجاز اختصاراً - وهو بهذا العمل بتر جزءاً كبيراً من لغات القرآن - إذ أن قريشاً لها القسط الوافر من لهجاته .

ثانيهما : أنه رتب هذه اللغات ترتيباً يفاير نظام الكتاب الأصلي ، فترتيبه حسب اللهجات الواردة ، لا السور كما في الرسالة . فيبدأ ما ورد بلغة كنانة ثم هذيل ...

نقد كتاب اللغات في القرآن :

قارنت هذا الكتاب المسند الى ابن عباس ، بالرسالة المعزوة للإمام أبي القاسم بن سلام والمنشورة على هامش كتاب (التيسير في علوم التفسير) للدميري^(٢) فظهر لي اضطراب في عزو اللغات واللهجات القرآنية أقرره فيما يلي :

١- في قوله تعالى « لولا اجْتَبَيْتُهَا » أتيتها ، بلغة ثقيف . هذا ما ورد في الرسالة على هامش كتاب « الدميري »^(٣) ، « وفي كتاب اللغات في القرآن » أنها بلغة قريش^(٤) .

٢- في قوله تعالى « ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا »^(٥) بكسر السين بلغة قريش وهي لغة النبي ﷺ ، وبفتح السين بلغة تميم ، هذا عزو كتاب اللغات في^(٦) القرآن ، وفي هامش الدميري : أن فتح السين لغة^(٧) جرهم .

(١) القاهرة : ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م .

(٢) مطبعة التقدم : ١٣١٠ هـ .

(٣) كتاب التيسير في علوم التفسير : ١١٩ .

(٤) اللغات في القرآن : ٢٨ .

(٥) الأنفال : آية ٥٩ .

(٦) اللغات في القرآن : ٢٩ .

(٧) التيسير في علوم التفسير : ١٢٠ .

٣ - وفي قوله تعالى «إلا تنفروا»^(١) يعني تغزوا ، بلغة كنانة عن كتاب اللغات ، وعلى هامش الديميري أنها بلغة هذيل^(٢) .

٤ - في قوله تعالى «فلا تبتئس»^(٣) يعني تحزن ، بلغة كندة ، كما في هامش الديميري^(٤) كما عزيت الى سدوس في كتاب^(٥) اللغات ، وعزاها السيوطي في الإتيان الى قبيلة كندة^(٦) !

٥ - وفي قوله تعالى «لأحتكن ذريته»^(٧) يعني لأستأصلن بلغة قريش كما في لغات القرآن^(٨) ، بينما عزيت في رسالة القاسم بن سلام الى لغة الأشعرين^(٩) ، وعزاها السيوطي الى الأشعرين كذلك^(١٠) ، وقد سجلت هذه المتناقضات بين الرسالتين حتى بلغت أكثر من خمسة وعشرين خلافاً بين النسختين ، مما يجعلني أقول في اطمئنان بأن هذا الفن قد دخله التحريف والاضطراب في النسخة الوحيدة التي وصلتنا من مؤلفاته القيمة ، والتي ضاعت جميعها في ثنایا التاريخ .

واكتفى بهذا في (كتب لغات القرآن) وتاريخها وعرضها ، مع ملاحظة أن تلك الرسالة التي بأيدينا الآن لا تحصر حديثها إلا في المفردات القرآنية تسردها سرداً مضطرباً كما رأيت من الأمثلة السابقة ، وكنا نود أن تكون الرسالة أو غيرها في تاريخ اللهجات وتمييزها على الوجه التاريخي وأدواره الاجتماعية ، ولكن مثل هذا ضمن به التاريخ كما ضمن علينا به القدامى .

ولقد عزّ علي ضياع الكتب السالفة في لغات القرآن ، ومن ثمّ ضياع ثروة كبيرة من تاريخ كتابنا المقدس اللغوي ، فتمقتبت كتب العربية على اختلاف نحلها علي أضغ يدي على نوع من

(١) التوبة : آية ٣٩ .

(٢) التيسير : ١٢١ .

(٣) سورة هود : آية ٣٦ .

(٤) التيسير : ١٢٢ .

(٥) كتاب اللغات : ٣٢ .

(٦) الإتيان : السيوطي : ١٣٦/١ .

(٧) سورة الاسراء : آية ٦٢ .

(٨) اللغات : ٣٤ .

(٩) هامش التيسير : ١٢٧ .

(١٠) الإتيان : ١٣٦/١ .

تلك المادة التي احتوتها الكتب الضائعة فعثرت على عدة نصوص من كتب (لغات القرآن)
المفقودة ، أنقل أمثلة يسيرة منها :

نصوص من كتب لغات القرآن المفقودة ومنهجها :

١ - عندما ذكر ابن هشام أن « هؤلاء » بالمد لغة الحجازين^(١) ، وبها جاء القرآن وبالقصر لغة
تميم - علق صاحب الحاشية بقوله (في لغة تميم وقيس وأسد وربيعه - ذكر ذلك الفراء في
كتابه « لغات القرآن » ولم يخصه بتميم)^(٢) . كما ساق صاحب التصريح^(٣) هذا النص
السابق وعزاه الى الفراء في كتابه « لغات القرآن » .

٢ - وقال الفراء في (لغات القرآن) وربما قالوا : هذان ذوات تعرف ، وهؤلاء ذوات تعرف^(٤) .

٣ - وقال الفراء في (لغات القرآن)^(٥) سمعنا أعرابياً من طيء يسأل ويقول : (بالفضل ذو
فضلكم الله به ، والكرامة ذات أكرمكم الله به) فبنى « ذات على الضم ، ونقل حركة الهاء
الأخيرة الى ما قبلها وحذف الألف ، فسكنت الهاء » .

٤ - وعندما كان ابن دريد يتحدث عن (الذي والذ واللذان واللذون - قال : « وقد استقصيناها
في كتاب القرآن » ، وعلق مصحح الجهرة على ذلك بقوله (كذا في الأصول - ولعله كتاب
لغات القرآن)^(٦) كما ذكر ابن دريد « كتاب اللغات في القرآن » مرة أخرى في جهرته^(٧)
وفي كتابه « الاشتقاق »^(٨) حيث قال : وهذا يستقصى في لغات القرآن . ولا شك أن هذه
النقول من تلك الكتب توضح على الأقل المنهج الذي سارت عليه ، ويظهر أنها تتجه الى
الناحية اللغوية والنحوية والصرفية - على العكس من الرسالة المعزوة الى ابن عباس فميدانها
مفردات القرآن وألفاظه ، وقد ضربت أمثلة سالفه لها .

(١) شذور الذهب : ١٤٧/١ ط دار لإحياء الكتب العربية .

(٢) حاشية عبادة على الشذور : ١٤٨/١ .

(٣) التصريح على التوضيح ١٢٨/١ .

(٤) التصريح على التوضيح : ١٣٨/١ .

(٥) التصريح على التوضيح : ١٣٨/١ .

(٦) جهرة ابن دريد : ٢٤٧/٣ .

(٧) الجهرة : ٤٠٠/٢ .

(٨) الاشتقاق : ٨٠ تحقيق الاستاذ عبد السلام هارون .

وأياً ما كان فهذه القول من تلك الكتب المفقودة - يجب أن تحفز الدارسين الى جمعها من جديد من كتب العربية على اختلاف نحلها ومشاربها ، وفي ضوء هذا نتبين منهجها والطريقة التي سارت عليها - ومن هنا يمكن أن تقوم دراسة تاريخية مقارنة لهذه اللهجات .

٢ - المؤلفات تحت اسم « كتب اللغات » :

لا شك أن القدماء من علماء العربية ما كانوا ليعرفوا كلمة (لهجات) بل كانوا يستبدلون بها (لغات) يتضح هذا عندما أشار صاحب الأمالي الى قوله تعالى : « والشفع^(١) والوتر » فقال : - الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم وأسد^(٢) وقيس . كما ذكر أحمد بن فارس اختلاف لهجات العرب فقال « اختلاف لغات العرب من وجوه^(٣) ... » وعقد ابن جنى باباً في خصائصه « باب اختلاف اللغات وكلها^(٤) حجة » كما ذكر السيوطي في مزهره « باب الضعيف^(٥) من اللغات » فاللغة عندهم كانت مرادفة لللهجة عندنا^(٦) ولكن البحث الحديث يفرق بين اللهجات واللغات أو بين اللهجة واللغة^(٧) .

ولهذا يمكن أن نستقرئ ما ترك لنا القدامى من توألفهم في اللهجات العربية تحت اسم « اللغات أو كتب اللغات » فيما يأتي :

- أ (يونس بن حبيب البصري (١٨٢ هـ) ذكر له ابن النديم تأليفاً باسم « كتاب اللغات »^(٧) .
- ب (أبو عمرو إسحاق بن مرار الشيباني (٢٠٦ هـ) ذكر القفطي أن له من التأليف « كتاب اللغات »^(٨) كما أرجح أن كتاب اللغات هذا هو كتاب الجيم أو كتاب الحروف الذي ألفه أبو عمرو ، لأنه جمع فيه الحوشي ولم يقصد المستعمل^(٩) .

(١) سورة الفجر : آية ٣ .

(٢) آمالي القالي : ١٣/١ دار الكتب ١٩٢٦ .

(٣) الصاحبي : ٩٩ .

(٤) الخصائص : ١٠/٢ .

(٥) المزهر : ٢١٤/١ .

(٦) انظر في اللهجات العربية : ١٣ ، مجلة الأزهر : المجلد الثالث والمثرون سنة ١٩٥٢ ص ٥٤ .

(٧) الفهرست : ٦٩ ط الاستقامة .

(٨) إنباه الرواة : ٢٢٧/١ .

(٩) إنباه الرواة : ٢٢٦/١ .

ومما يؤكد هذا ما جاء عن السيوطي « وله كتاب اللغات - وهو المعروف بالجم ، ويعرف أيضاً بكتاب^(١) الحروف » وأرى أن العلاقة وثيقة بين معنى الحروف ومعنى اللغات ، يفسرها ما جاء في مسند الحافظ أبي يعلى أن رسول الله ﷺ قال : « إن القرآن نزل على سبعة أحرف كلها شاف^(٢) كاف » فقد ذهب أبو عبيد وثعلب والزهري إلى أن المراد بالأحرف السبعة في الحديث سبع لغات من لغات العرب^(٣) .

ويظهر أن كتاب اللغات هذا قد ضمن به أبو عمرو على تلاميذه ، جاء في مراتب النحويين : « وأما كتاب الجم « اللغات » فلا رواية له ، لأن أبا عمرو بخل به على الناس فلم يقرأه عليه^(٤) أحد » ، وعلى الرغم من فعلة أبي عمرو هذه - فقد ذكر بروكلمان أن نسخة فريدة من كتابه^(٥) هذا محفوظة بمكتبة الاسكوريال بأسبانيا^(٦) .

وأياً ما كان فكتاب الجم هذا يعتبر ذخيرة للهجاء القبائل العربية - تلك التي اهتم الشيباني بأشعارها ، « إذ أخذ عنه دواوين أشعار القبائل^(٧) كلها » يدل على ذلك ما ورد في اللوحات الثماني من كتاب الجم إذ ينسب إلى : الأكوعي والسعدي ، والطائي ، والعماني ، والعقوي ، والأشعري ، والوالي ، والكلابي ، والكلي ، والزهيري ، والبكري ، والعذري ، والنميري ، والغنوي ، والسياني ، والتغلي ، والسلمي^(٨) ... كما أن عنايته بالرجز وإبراده له بكثرة غامرة في كتاب الجم - يشير إلى اهتمامه بأمر اللهجات ، لأن الرجز هو اللهجة الشعبية للقبيلة يأتي عفواً لا مؤونة فيه ولا كلفة ، ولهذا يعكس السمات اللهجية ويصورها كما هي .

ويذكر السيوطي في البنية ص ٢٦٦ في ترجمة أبي عمرو شمر بن حمدويه الهروي (٢٥٥ هـ - ٨٦٩ م) بأنه ألف كتاب الجم

(١) البنية : ١٩٢ .

(٢) الانتان : ٤٧/١ .

(٣) فتح الباري : ٢٢/٩ ، الانتان : ٤٨/١ .

(٤) مراتب النحويين : ٩٢ .

(٥) برقم أسكوريال ثاني ٥٧٢ تاريخ الأدب العربي : ٢٠٣/٢ بروكلمان : الترجمة العربية .

(٦) علمت أن معهد المخطوطات بجامعة الدول العربية قد أخذ منها صورة وأعطاهم للمستشرق « شارل كوينتز » لدراستها وإخراجها ، فقابلت سيادته وطلبت رؤية النسخة المصورة ، ولكنه نأسف لسفره ساعثنذ لأوروبا

(٧) الفهرست : ١٠٧ .

(٨) المعجم العربي : ٨١/١ دار الكتاب العربي .

- ج (يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧ هـ) وقد عزا له ابن النديم مؤلفاً باسم « كتاب اللغات »^(١) ، وكذلك عزا له السيوطي في بغيته^(٢) ، ومزهره^(٣) عَزَى الى الفراء مصنف باسم « كتاب الجمع واللغات » ، وذلك في كتابه « المذكر والمؤنت »^(٤) .
- د (أبو عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ - ٢١٠ هـ) وقد عزا له صاحب الفهرست^(٥) وياقوت^(٦) ، والسيوطي في بغيته^(٧) ، ومزهره^(٨) مؤلفاً باسم « كتاب اللغات » .
- هـ (أبو زيد الأنصاري : (٢١٤ هـ) ، وقد عَزَى له في الفهرست^(٩) ، والبغية^(١٠) ، ومزهر السيوطي^(١١) كتاب باسم « كتاب اللغات » . وقال بروكلمان عن أبي زيد بأنه « كان شديد العناية يجمع اللغات »^(١٢) واللهجات .
- و (عبد الملك بن قريب الأصمعي (٢١٦ هـ) ، وقد عزا له ابن النديم^(١٣) ، والقفطي^(١٤) والسيوطي^(١٥) وابن خلكان مؤلفاً باسم « كتاب اللغات » أيضاً .
- ز (عمر بن شبه بن عبيدة بن ربطة البصري النميري : (٢٦٢ هـ) وقد مات بسر من رأى ،

-
- (١) الفهرست : ١٠٦ .
- (٢) البغية : ٤١١ .
- (٣) المزهر : ٩٦/١ .
- (٤) المذكر والمؤنت : ٣٠ ط حلب .
- (٥) الفهرست : ٨٦ .
- (٦) معجم الأدباء : ١٦١/١٩ .
- (٧) البغية : ٣٩٥ .
- (٨) المزهر : ٩٦/١ ، انظر : نوادر المخطوطات رقم ٧ ط أولى تحقيق عبد السلام هارون .
- (٩) ص ٨٧ .
- (١٠) ص ٢٥٥ .
- (١١) ٩٦/١ .
- (١٢) تاريخ الأدب العربي : ١٤٥/٢ الترجمة العربية .
- (١٣) الفهرست : ٨٨ .
- (١٤) إنباه الرواة : ٢٠٣/٢ .
- (١٥) البغية : ٣١٤ .

وعزى له في كتاب الفهرست^(١١) ، ومعجم الأدباء^(١٢) والبغية^(١٣) مصنف باسم « الاستعانة بالشعر وما جاء في اللغات » .

ح (أبو بكر بن دريد (٣٢١ هـ) ، وقد عد ابن النديم^(١٤) ، وصاحب إنباه الرواة^(١٥) ، وابن خلكان^(١٦) : من تصانيفه (كتاب اللغات) .

ط (عمر بن جعفر بن محمد الزعفراني (توفي في القرن الرابع الهجري) وقد ذكر كل من صاحب الفهرست^(١٧) وصاحب معجم الأدباء^(١٨) ، وصاحب البغية^(١٩) أن من مصنفاته « كتاب اللغات » .

ي (أبو نصر الفارابي ٣٣٩ هـ - وقد عزى له (كتاب في اللغات) انظر الفارابي ص ٤٠ عباس محمود . ط دار إحياء الكتب العربية .

ك (عزيز بن الفضل الهذلي (القرن الرابع الهجري) وقد عزا له الأزهرى في مقدمة تهذيبه^(٢٠) ، وياقوت في معجمه^(٢١) ، والسيوطي في البغية^(٢٢) - مؤلفاً باسم « كتاب لغات هذيل » .

ل (حسين بن مذهب المصري اللغوي (٦٥٠ هـ) وقد ذكر السيوطي أن من كتبه « كتاب السبب في حصر لغات العرب »^(٢٣) كما ورد هذا المؤلف أيضاً في تاريخ آداب العرب للرافعي^(٢٤) .

(١) ١٧٠ .

(٢) ٦١/١٦ دار المأمون .

(٣) ٣٦١ .

(٤) الفهرست : ٩٨ .

(٥) إنباه الرواة : ٩٧/٣ .

(٦) وفيات الأعيان : ٤٤٩/٣ .

(٧) ١٣٠ .

(٨) ٥٩/١٦ .

(٩) ٣٦٠ .

(١٠) ٧٨ .

(١١) معجم الأدباء : ١٦٨/١٢ .

(١٢) ٣٢٤ .

(١٣) البغية : ٢٣٦ .

(١٤) ١٣٦/١ ط الاستقامة .

م) علي بن الحسن الهنائي المصري ، وقد عزا له ابن النديم مؤلفاً باسم (كتاب في غريب كلام العرب ولغاتهما^(١)) ، ولعل الكتاب يهدف الى حصر ما يسمى باللغات من نحو : المصنوع والضعيف ، والمنكر ، والمتروك ، والرديء ، والمذموم والحوشي والنوادر – وذلك نفس ما تواضعوا عليه من معنى اللغات .

ن) الحسن بن محمد الصّغاني (٦٥٠ هـ) وقد ذكر السيوطي في البغية أن له مصنفاً باسم «الشوارد في اللغات»^(٢) ، وقد عثرت على هذا الكتاب بدار الكتب المصرية برقم ٤١٨ لغسة ، ومعنون باسم « ما تفرد به بعض أئمة اللغة » وهي نفسها كتاب « الشوارد في اللغات » وسأتمرض للهجاء فيه – عندما أتناول دراسة الناحية المنهجية في تلك الكتب .

س) أبو عبدالله اليمني – ألف رسالة (في اللغات النادرة) وهي مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية رقم ١٣٨ ، وأبو عبدالله اليمني هذا – ذكره صاحب الخزانة فيمن ألف في طبقات النحويين^(٣) .

فقد المؤلفات في كتب اللغات :

وهذه الكتب السابقة والمؤلفة في لغات القبائل تعد مفقودة – فلم يصلنا من هذا العدد السابق إلا كتاب « الجسم » للشيباني ، وكتاب « الشوارد في اللغات » للصغاني ، ورسالة « اللغات النادرة » لأبي عبدالله اليمني .

نصوص من هذه الكتب تبين منهجها :

وعلى الرغم من فقد هذه الكتب التي تعد أصولاً للهجات القبائل العربية فإنني حاولت أن أعثر على نقول من بعضها – تبين منهجها في تناول لغات القبائل فمن ذلك :

١ – « كتاب اللغات » الذي ألفه أبو زيد الأنصاري (٢١٤ هـ) والذي يعد مفقوداً حتى الآن ، وردت منه نقول في جهرة ابن دريد معنونة باسم « باب من اللغات عن أبي زيد » في مكانين مختلفين من الجهرة^(٤) ، ومنهجها يظهر عندما تناول ابن دريد في الباب الأول حاكياً عن

(١) الفهرست : ١٣٠ .

(٢) بغية الوعاة : ٢٢٧ .

(٣) خزانة البغدادي : ١٤/١ تحقيق محي الدين .

(٤) الجهرة : ٤٧٢/٣ ، ٤٨٤ .

أبي زيد صيغاً وردت بالتشديد والتخفيف كقولهم « هو هدى لبیت الله ، وهدى لبیت الله »^(١) هكذا بدون عزو ، إلا أن اليزيدي عزا المخففة الى لغة أهل الحجاز والمشددة الى تميم^(٢) . كما تناول اختلاف صيغ الماضي مع المضارع ، واختلاف حركات العين في الأسماء كقوله ، وقد قرئ « والذي سَخِبْتُ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا » ونَكْدًا ونكداً - بكسر العين وفتحها وإسكانها ، وينظر لذلك بقوله « مثل سَبَطَ وَسَبَطَ وَسَبَطَ » بكسر العين وفتحها وإسكانها ، ثم تناول أمثلة بالهمز تارة والتسهيل أخرى كقولهم « رأف الرجل وراف » كما تناول أمثلة أخرى ظهر فيها الإبدال كقولهم « انتقع لونه وامتنع وامتنع »^(٣) .

ثم تناول أبو بكر بن دريد باباً آخر من اللغات عن أبي زيد تعرض فيه للألفاظ الثنائية كالأب والأخ والدم والفم - على النقصان والتام ، واستشهد بالشعر في لغات الأب والفم كقول الفرزدق في حالة التام :

« هُنَا نَفْسَتَا فِيَّ مِنْ فَمِيهَا » .

كما أثار زيادة الميم في بعض الألفاظ مثل « ابنم » فزادوا فيه الميم كما زادوا في « الفم » وإنما هو فاه وفوه وفيه ، وهي في التنزيل « بأفواههم » ولم يقل « بأفهامهم » وكما تزداد الميم في ابن فيقال « ابنم » تزداد في الاثنين ، ومن ذلك :

(منّا ضرارٌ وابناه وحاجب) .

وقد تأتي في حالة الحذف كقول القائل :

أَتَظَلُمُ جَارَتِيكَ عَقَالَ بَكْرٍ . وقد أوتيت مالا وابنميناً^(٤)

كما أشار الى تداخل اللغات بقوله « ويقولون : مِتْ ومُتْ ، ودمت ودمت » بالكسر والضم ، فمن قال : مت « بالكسر » قال : يمات ، واستدل لها بقول الرازي :

(عيشي ولا يومي بأن تماتي)^(٥)

(١) الجهرة : ٤٧٢/٣ .

(٢) الزهر : ٢٧٧/٢ .

(٣) الجهرة : ٤٧٣/٣ .

(٤) الجهرة : ٤٨٥/٣ - ٤٨٦ .

(٥) الجهرة : ٤٨٥/٣ ، وفي الخصائص ٣٨٦/١ ط الهلال « عيشي ولا يؤمن أن تماتي » ، وفي الصحاح « عيشي ولا تأمن أن تماتي » .

ونادراً ما يعزو أبو زيد الى بعض القبائل، كقوله في الصيغة السابقة « وأكث ما يتكلم به طييء »^(١) كما يشير الى التصحيح والإعلال في قوله « وتقول العرب : استجاب واستجوب »^(٢) وأحياناً يشير الى تطور الدلالة كقوله : تقول العرب « زكأت الى فلان - في معنى لجأت »^(٣) ويستشهد لها ، كما يشير الى المشترك كقوله : والعرب تقول « هلال السماء وهلال الصيد ، وهلال النعل ، وهلال الإصبع »^(٤) كما تناول المعاقبة في قوله « والعرب تقول قتلوت اللحم ، وقلتيته ، وقلوت الرجل في البغض وقلتيته »^(٥) وقد يصدر أبو زيد على بعض اللغات أحكاماً منهجية كقوله : « وهي اللغة العالية »^(٦) أو حكمه على لفظ بقوله « وهو أعلى »^(٧) .

ويلاحظ على هذه اللغات أنها وردت مهمة العزو الى أصحابها كقوله : « حوث تعلم »^(٨) مع أن اللسان عزاها الى تميم^(٩) . وكشال المعاقبة السابق فقد ورد مهمل العزو عن أبي زيد إلا أن اليزيدي عزاها في نوادره^(١٠) وكأهماله عزو بعض الصيغ المشددة^(١١) والمخففة ، مع أن اليزيدي عزاها في نوادره^(١٢) .

إلا أنني أرجح أن إهمال العزو في أبواب اللغات - التي نقلها ابن دريد عن أبي زيد - إنما كان من ابن دريد نفسه ، لا من أبي زيد ، لأن أبا زيد كما يرى بروكليمان « كان شديد العناية بجمع اللغات واللهجات »^(١٣) وهذا الحكم لا يتفق وهذه الأبواب التي نقلها ابن دريد عن أبي زيد معنونة باسم « أبواب من اللغات عن أبي زيد » وقد وردت الصيغ والتراكيب مهمة العزو الى

-
- (١) الجهرة : ٤٨٥/٣ .
 - (٢) الجهرة : ٤٨٨/٣ .
 - (٣) الجهرة : ٤٨٦/٣ .
 - (٤) الجهرة : ٤٨٧/٣ .
 - (٥) الجهرة : ٤٨٧/٣ ، قارن هذا بما ورد في زهر السيوطي : ٢٧٧/٢ .
 - (٦) الجهرة : ٤٨٧/٣ .
 - (٧) الجهرة : ٤٨٤/٣ .
 - (٨) الجهرة : ٤٨٨/٣ .
 - (٩) اللسان : ٤٤٦/٢ .
 - (١٠) الزهر : ٢٧٧/٢ .
 - (١١) الجهرة : ٤٧٢/٣ .
 - (١٢) الزهر : ٢٧٧/٢ .
 - (١٣) تاريخ الأدب العربي : ١٤٥/٢ .

لهجات القبائل العربية ، لهذا أرجح أن ابن دريد قد اختصر هذه الأبواب - وحذف منها ، وما يؤيد هذا ما جاء في هذه الأبواب عن ابن دريد قال : قال أبو زيد « هداوي وهدايا »^(١) ولما رجعت الى اللسان وجدته يقول « الهدية جمعها هدايا ، وهداوي - وهي لغة أهل المدينة ، وعن أبي زيد : الهداوي لغة عليا معد ، وسفلاها : الهدايا »^(٢) فنقل اللسان عن أبي زيد يشير الى اهتمامه بالعزو الى القبائل ، بعكس نقل ابن دريد عن أبي زيد في الكلمة نفسها ، إذ جاءت مهمة العزو عنده .

٢ - كذلك أمكنني العثور على نص من كتاب الفراء المسمى « كتاب الجمع واللفات » حيث يقول فيه : « كل جمع كانت واحدته بالهاء وجمعه بطرح الهاء فإن أهل الحجاز يؤنثونه ، وربما ذكروا ، والأغلب عليهم التأنيث ، وأهل نجد يذكرون ذلك ، وربما أنثوا والأغلب عليهم التذكير »^(٣) ويمكن أن نستنتج منهج الفراء في هذا الكتاب من هذا المثال ، فهو يعقده للمقارنة بين لهجات القبائل في صيغ المجموع كما سبق .

٣ - أما كتاب الحسن الصغاني - فقد سبق الحديث عنه ، ويهمني الآن عرض بعض نصوصه لتبين منهجه ، واللهجات فيه ، وأحب أن أشير الى أن الكتاب أربعة أنواع .

النوع الأول : فيما قرئ في الشواذ من القراءات ، ومنهجه يتضح من أمثلته كقوله :

أ (يهبط : (بفتح الباء) لغة في يهبط (بكسر ها) .

ب (الكسالى : (بكسر الكاف) لغة في الكسالى والكسالى (بفتحها وضمها) .

ج (التايوه : بالهاء لغة الأنصار .

ويلاحظ على هذا القسم أنه يأتي بالآية ثم يبين القراءة فيها ، ونادراً ما يعزو القراءة الشاذة الى قبيلة معينة .

النوع الثاني : فيما تفرد به أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب البصري ، وقد عزا فيه بعض الصيغ الى بعض القبائل مثل تميم كقوله : يسمت في الهداية (بكسر الميم) لغة تميم في يسمت

(١) الجهرة : ٤٧٢/٣ .

(٢) اللسان : ٢٠/٢٣٣ .

(٣) المذكر والمؤنث للفراء : ٣٠ ط حلب .

(بضمها) ، أو هذيل : كقوله : أجويت القدر وهذيل تقول : أجويتها^(١) . كما عزا الى العالية وأهل نجد .

النوع الثالث : فيما تفرد به أبو حاتم السجستاني .

ويلاحظ على هذا القسم إهمال عزو اللهجات كقوله : النقاوة والنقاة لفتان في النقاوة (بضم النون) والنقاية ، ولم يعز الى القبائل العربية إلا مرة واحدة عزا فيها الى لغة تميم ، كما خلا هذا القسم من الشواهد الشعرية .

النوع الرابع : مجموعة من سائر كتب اللغة وشروح شوارد الأشعار . وقد عزا فيه بعض اللغات الى بني أسد ، وتميم ، وأهل المدينة ، وكلب ، وطيب . ووردت بعض الصيغ مهمة العزو كقوله « حاد يحود لغة في يحيد » ، كما يلاحظ أنه يشرح في هذا القسم بعض الألفاظ الغريبة كقوله « اجرأشت الإبل : سمت وامتلت بطونها فهي بجرأشة بفتح الهززة - ثم علل غرابتها بقوله : « وإنما أدخل هذه اللفظة في الشوارد انفتاح همزة بجرأشة - لامتنها » . وكان ابن خالويه كان يرى غرابتها ، ولذلك يقول : « وجدت هذه اللفظة بمعد سبعين سنة »^(*) .

٣ - التأليف في نواذر اللغات وشواردها :

والنواذر من ندر الشيء يندر ندوراً : سقط وشذ ، وقد نجد أحكاماً للتوين على بعض الألفاظ كقولهم : « غالباً » و « كثيراً » و « نادراً » و « قليلاً » و « مطرداً » ، فالمطرود - لا يتخلف ، والغالب : أكثر الأشياء ، ولكنه يتخلف والكثير دونه ، والقليل دون الكثير ، والنادر : أقل من القليل^(٢) .

وليك ثبت بن ألف تحت هذا الاسم من علماء العربية :

أ) أبو عمرو بن العلاء (١٥٧ هـ) ، فقد عزاله صاحب الفهرست مؤلفاً باسم « كتاب النواذر »^(٣) .

(١) بمعنى غلبتها .

(٢) وانظر حديثاً مفصلاً حول المؤلفات في كتب اللغات ومنهجها وروايتها ونصوصها ونقدتها متناً وسنداً في مقالنا (من الآثار اللغوية المفقودة في ضوء المنهج الوصفي) وذلك بمجلة المجمع اللغوي بالقاهرة ج ٢٧ .

(٢) الزهر : ٢٣٤/١ .

(٣) الفهرست ١٣٦١ .

- ب) القاسم بن معن (١٧٥ هـ) وقد نسب إليه السيوطي مصنفاً باسم « كتاب النوادر »^(١) .
- ج) يونس بن حبيب (١٨٢ هـ) وله « كتاب النوادر » كما جاء في الفهرست^(٢) .
- د) أبو مالك عمرو بن كركرة : مولى بني سعد . ذكر له أبو الطيب^(٣) ، وابن دريد^(٤) كتاب النوادر .
- هـ) الكسائي (١٨٩ هـ) له « كتاب النوادر » ذكره ابن النديم^(٥) ، والسيوطي^(٦) وذكر له القفطي : كتاب النوادر الأوسط ، وكتاب النوادر الكبير^(٧) . وزاد ياقوت له : كتاب النوادر الأصغر^(٨) .
- و) أبو شبل العقيلي (١٩٣ هـ) : له « كتاب النوادر » ، ذكره ابن النديم^(٩) .
- ز) أبو محمد يحيى بن المبارك اليزيدي (٢٠٢ هـ) عزا له الأزهرى^(١٠) ، وابن النديم^(١١) ، والسيوطي^(١٢) ، مصنفاً باسم « كتاب النوادر » .
- ح) قطرب (محمد بن المستنير ٢٠٦ هـ) « كتاب النوادر » ذكره : ابن النديم^(١٣) ، وياقوت^(١٤) ، والقفطي^(١٥) ، والسيوطي^(١٦) .

(١) البغية : ٣٨١ .

(٢) ٦٩ .

(٣) مراتب التحويين : ٤٠ .

(٤) الجهرة : ٤٥٥/٣ .

(٥) الفهرست : ١٣٦ ، ١٠٤ .

(٦) المزهر : ٩٦/١ .

(٧) إنباه الرواة : ٢٧١/٢ .

(٨) معجم الأدباء : ٢٠٣/١٢ .

(٩) الفهرست : ٧٤ .

(١٠) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .

(١١) الفهرست : ١٣٦ .

(١٢) البغية : ٤١٥ .

(١٣) الفهرست : ٨٤ .

(١٤) معجم الأدباء : ٥٣/١٩ .

(١٥) إنباه الرواة : ٢٢٠/٣ .

(١٦) البغية : ١٠٤ .

- أبو عمرو الشيباني (٢٠٦ هـ) له « كتاب النوادر » ذكره: أبو الطيب^(١١)، والأزهري^(١٢) ، وابن النديم^(١٣) ، والسيوطي^(١٤) .
- الفراء (٢٠٧ هـ) عزا له الأزهري^(١٥) ، وصاحب الفهرست^(١٦) ، وصاحب البغية مؤلفاً باسم « كتاب النوادر » .
- أبو عبيدة (٢١٠ هـ) « كتاب النوادر » ذكر في مقدمة تهذيب^(١٨) اللغة للأزهري .
- الأصمعي (٢١٦ هـ) « كتاب النوادر » ذكره الأزهري^(١٩) ، وابن النديم^(٢٠) ، والسيوطي^(٢١) ، كما عزا له صاحب البغية^(٢٢) مؤلفاً باسم « نوادر الأعراب » .
- أبو زياد الكلبي (٢١٥ هـ) - ذكر له ابن النديم « كتاب النوادر »^(٢٣) .
- أبو زيد الأنصاري (٢١٥ هـ) له « كتاب النوادر » ذكره الأزهري في مقدمة تهذيبه^(٢٤) ، والسيوطي^(٢٥) في مظهره .
- الأخفش سعيد بن سعدة (٢١٥ هـ) عزا له الأزهري كتاباً في « النوادر »^(٢٦) .

-
- (١) مراتب النحويين : ١٩ .
- (٢) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .
- (٣) الفهرست : ١٣٦ .
- (٤) الزهر : ٩٦/١ .
- (٥) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .
- (٦) ١٣٦ .
- (٧) ٤١١ .
- (٨) ٧٧ .
- (٩) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٧ .
- (١٠) الفهرست : ١٣٦ .
- (١١) البغية : ٣١٤ .
- (١٢) ٣١٤ .
- (١٣) الفهرست : ٧٣ .
- (١٤) ٧٨ .
- (١٥) ٩٦/١ .
- (١٦) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .

- ع (أبو مسعل (القرن الثالث) ذكر له ابن النديم « كتاب النوادر »^(١١) .
- ف (اللحياني (القرن الثالث) وقد عزا له صاحب الفهرست^(١٢) ، ومعجم الأدباء^(١٣) ، والقفطي^(١٤) ، والبغية^(١٥) ، مصنفاً في « النوادر » . وقال عنه الفراء « هو أحفظ الناس للنوادر »^(١٦) .
- ص (عبدالله بن سعيد الأموي (القرن الثالث) ذكر له ابن النديم^(١٧) ، والقفطي^(١٨) ، والسيوطي^(١٩) كتاب النوادر .
- ق (ابن الأعرابي (٢٣١ هـ) عزا له الأزهرى كتاباً في النوادر^(٢٠) ، وذكر له صاحب^(٢١) الفهرست ، ومعجم الأدباء^(٢٢) ، وإنباء الرواة^(٢٣) مصنفاً باسم « نوادر بني فقمس » كما ألف في « نوادر^(٢٤) الزبيريين » .
- د (ابن السكيت (٢٤٤ هـ) ذكر له الأزهرى في مقدمة التهذيب^(٢٥) ، وابن النديم^(٢٦) في الفهرست كتاب النوادر .
- ش (ابن دريد (٣٢١ هـ) أسند إليه في الجمهرة^(٢٧) ، والفهرست^(٢٨) « كتاب النوادر » .

-
- (١) الفهرست : ٧٥ . وقد طبعه أخيراً المجمع العلمي بدمشق ط الترقى ١٩٦١ .
- (٢) ٧٨ .
- (٣) ١٠٧/١٤ .
- (٤) إنباء الرواة : ٢/٢٥٥ .
- (٥) ٣٤٦ .
- (٦) إنباء الرواة : ٢/٢٥٥ .
- (٧) الفهرست : ١٣٦ .
- (٨) إنباء الرواة : ٢/١٢٠ .
- (٩) الزهر : ٢/٤١٠ .
- (١٠) مقدمة تهذيب اللغة : ٧٨ .
- (١١) ابن النديم : ١٣٦ .
- (١٢) ١٩٦/١٨ .
- (١٣) ١٣١/٣ .
- (١٤) معجم الأدباء : ١٩٦/١٨ .
- (١٥) ٧٨ .
- (١٦) ١٣٦ ، ١١٤ .
- (١٧) ٤٤٩/٣ .
- (١٨) ١٣٦ .

نصوص من كتب النواذر تبين منهجها ، وصلاحها باللهجات :

وجعل هذه الكتب السلفه تعدّ مفقودة ، ولا نعرف عنها إلا أسماء مؤلفيها ، ولما كان المهم في دراستنا الوقوف على طريقة تأليفها أو منهجها في معالجة اللغات ، فقد حاولت البحث عن بعض نقول منها في كتب العربية فعثرت على كثير من هذه النقول ، أكتفي منها بما يأتي :

١ - ما ذكره السيوطي في المزهري من اقتباسات من نواذر يونس بن حبيب (١٨٢ هـ) والتي تعد مفقودة - ويهمني في الحديث عنها ما يخصّ اللهجات فهو يبدوها بموازنة بين لهجة الحجاز وتيم في الألفاظ والصيغ ، ويمكن أن نخطط لها منهجاً على مستويات :

أ (كالمستوى الصوتي كقوله « أهل الحجاز يقولون خمس عشرة خفيفة لا يحركون الشين ، وتيم تثقل وتكسر الشين ، ومنهم من يفتحها »^(١) .

ب (والمستوى الصرفي كقوله : أهل الحجاز يبطن (بكسر الطاء) وتيم يبطن (بضمها)^(٢) . وكقوله « أهل الحجاز جوة ، وتيم : جؤنة بالهمز »^(٣) .

كما يضرب أمثلة لظواهر أخرى كالمعاقبة كقوله « أهل الحجاز القنية ، وتيم القنوة »^(٤) . أو فعل وأفعل « أهل الحجاز لاته عن وجهه ، وتيم ألته »^(٥) .

ويلاحظ على منهج يونس في دراسة اللهجات في كتابه النواذر - كما اقتبس منه السيوطي - أنه لم يشر للمستوى الإعرابي ، ولا المستوى الدلالي أو المعنوي ، كما أنه لم يستشهد على صيغ اللهجات بشواهد شعرية ، بل يذكر الصيغة مجردة عند الحجاز ، ثم يناظر لها بصيغة عند تيم كما تقدم ، كما أن تعرضه للهجات كان في دائرة الحجاز وتيم ، فلم يتناول الظواهر اللهجية في القبائل العربية الأخرى ، كما يلاحظ على هذه الاقتباسات اللهجية أنها مهمة التحقيق حيث يقول « أهل الحجاز الحصاد ، وتيم الحصاد »^(٦) بدون إشارة لضبط الحروف ، مع أن « الكسر للحجاز ،

(١) المزهري : ٢٧٥/٢ .

(٢) المزهري : ٢٧٥/٢ .

(٣) المرجع السابق : ٢٧٦/٢ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) المزهري : ٢٧٦/٢ .

(٦) المرجع السابق .

والفتح لنجد^{١١} وتيم . وبلغت المقابلات بين الحجاز وتيم في الصيغ سبعة وعشرين مرة . أغلبها يدور على اختلاف الحركات .

٢- كما وردت عدة اقتباسات من « نواذر » أبي محمد اليزيدي (٢٠٢ هـ) أشار إليها السيوطي ، واللمحات التي تعرض لها اليزيدي تسير في المستويات والمنهج التي سارت عليه نواذر يونس السابقة ، فهي تتعرض للصيغ بين الحجاز وتيم دون غيرها من قبائل العرب ، وتعرض للخلافات :

- أ (الحركية في الأسماء كقوله « أهل الحجاز : الشفع والوتر (بفتح الواو) وتيم بكسرهما »^{١٢} .
- ب (والأفعال كقوله « أهل الحجاز : برأت من المرض ، وتيم : برئت »^{١٣} .
- ج (القلب كقوله « أهل الحجاز : لعمرى ، وتيم^{١٤} رعلي » .
- د (والتذكير والتأنيث كقوله « أهل الحجاز : هي التمر وهي البر ، وهي الشعير ، وهي الذهب ، وهي البسر ، وتيم تذكر هذا كله »^{١٥} .

ويلاحظ على موازنات اليزيدي أنه يهتم بالضبط في الصيغ أحياناً عندما يتول : وتيم تكسر الجميع ، أو أهل الحجاز تقوله « بالفتح »^{١٦} مما لا نجد نظيره في نواذر يونس ، وأحياناً أخرى يهمل في ضبط الصيغ كقوله : « أهل الحجاز : غرفت الماء غرفة ، وتيم غرفة » هكذا مهملة الضبط ، وجريرة هذا تقع على المؤلف والمحقق على السواء ، وأرى أنها بفتح الغين المعجمة لتيم ، لأن أبا عمرو بن العلاء^{١٧} قرأ بها وهو تيمي ، ثم هي بالفتح أميل الى الانسجام - الأمر الذي تهدف إليه قبائل تيم ، كما يلاحظ أن حديثه عن تلك الصيغ التي بين الحجاز وتيم - قد خلا من الشواهد ، إذ يسردها سرداً ، وقد بلغت الخلافات اللهجية عنده بين الحجاز وتيم ستة عشر أكثرها يدور حول اختلاف الجانِب الحركي .

(١) البحر : ٣٣٤/٤ .

(٢) المزهر : ٢٧٧/٢ .

(٣) المزهر : ٢٧٦/٢ .

(٤) المزهر : ٢٧٧/٢ .

(٥) المزهر : ٢٧٧/٢ .

(٦) المزهر : ٢٧٧/٢ .

(٧) النشر : ٢٣٠/٢ .

٣ — ويحذر بي أن أشير الى كتاب أبي زيد (في النوادر)^(١) وهو مطبوع ، ولا يهني فيه إلا تناول الصيغ اللهجية للقبائل ، وأرجح أن اللهجات الواردة في « النوادر » سمعها أبو زيد بنفسه عن العرب لقوله « ما كان فيه من قصيد أو لغات فهو سماعي »^(٢) من العرب « فملاحظة أبي زيد للغات العرب — كانت ملاحظة مباشرة ، موثقة بالسمع والضبط ، وبالكتاب ستة أبواب للنوادر ، ويتناول في هذه الأبواب صيغاً وأنماطاً من الألفاظ لا تسير في فلك اللغة الفصحى »^(٣) ، ثم لا رابط بين هذه الصيغ التي تتوالى في أبواب النوادر وكتاب أبي زيد هذا وإن سماه كتاب النوادر إلا أن لهجات القبائل برزت فيه بروزاً ملموساً ، ولهذا قمت برسم لوحات إحصائية تبين لهجات القبائل فيه^(٤) وهي تشير الى النتائج التالية :

١ — أن أبا زيد كان شديد الاهتمام بعزو اللهجات الى قبائلها ، حتى أن ابن دريد في جهرته نقل بابين من اللغات عن أبي زيد^(٥) .

٢ — شدة الصلة بين كتب النوادر ، وبين كتب اللغات ، مما يشير الى وحدة المنهج بين الفنين ، وما يرجح هذه الصلة أن الذين ألفوا في كتب النوادر — هم أنفسهم ألفوا في كتب اللغات ، كيونس ، والفراء ، وأبي عبيدة ، وأبي زيد ، والأصمعي ، وابن دريد ، وأبي عمرو الشيباني ، فإذا أضفنا الى هذا تلك النقول التي جاءتنا عن كتب النوادر السابقة — وكلها تشير الى تردد أسماء القبائل ولهجاتها ازدادنا يقيناً بتشابهك التأليف وتقارب المنهج بين كتب اللغات ، وكتب النوادر ، حتى وجدنا مولفاً كالفراء يجمع بين الفنين ، ويولف مصنفاً باسم « كتاب النوادر »^(٦) واللغات « على أن جمل هذه الكتب — وان فقدت — وهي المصادر الأولى ، إلا أنها تركت ظلها في التراث العربي الذي بين أيدينا ، والذي يعتبر مصدراً ثانوياً للهجات القبائل .

(١) بالمطبعة الكاثوليكية في بيروت : ١٨٩٤ م .

(٢) نوادر أبي زيد : ٢ .

(٣) انظر ٨١ وما بعدها ، ١٦٩ وما بعدها .

(٤) انظر اللوحة الإحصائية رقم (أ) بعد ص

(٥) الجهرة : ٢٧٢/٣ ، ٤٨٤ .

(٦) الزهر : ٩٦/١ .

٤ - المؤلفات تحت اسم « دواوين القبائل وأشعارها » أو كتب القبائل :

وأشهر من جمع دواوين القبائل أبو عمرو الشيباني ، وفي إنباه الرواة ٢٢١/١ « أنه جمع شعر نيف وثمانين قبيلة ، وساق ابن النديم في الفهرست ص ٢٣٢ أسماء ستة وعشرين ديواناً من دواوين القبائل ، كما ذكر الأحمدي في الموثلف والمختلف ستين ديواناً لستين قبيلة (انظر مصادر الشعر الجاهلي ٥٤٩ ناصر الأسد) . ويظهر أن دواوين القبائل وكتبها كانت سجلاً حافلاً بأخبار القبيلة ونسبها وحروبها ولغاتها ، يقول بشر بن أبي خازم :

«وجدنا في كتاب بني تميم ...» (المفضليات ٣٣٤ ط الثالثة) وقد حملت هذه الكتب وتلك الدواوين بذوراً لهجية مثل :

١ - جاء في المخصص ص ١٦ ص ١٥٢ يقال : امرأة جبان ، وجبانة والجمع جبناء ، وقد جاء في (شعر هذيل) أجبان .

٢ - حشك القوم على مياههم حشكاً بفتح الشين - اجتمعوا ، عن ثعلب ، وخص بذلك بني سليم ، كأنه إنما فسر بذلك شعراً من (أشعارهم) اللسان ٢٩٤/١٢ .

٣ - وجاء في الفهرست ص ١٢٣ أن أبا سعيد السكري عمل أشعار جماعة من الفحول ، وقطعة من القبائل منها (أشعار اللصوص) وقد حاولت العثور على نقل خارجي من « كتاب أخبار اللصوص وأشعارها » فوجدت أن أبا زكريا التبريزي في شرح ديوان الحماسة ج ١ ص ٢١٢ روى عن السكري أخباراً تتصل باللصوص وأشعارها جاء فيها « فنتنحس عنها » أي : نبحت ، وهي لغة طائية .

وكذلك حمل الأثر الباقي من دواوين القبائل - بعد أن عصفت بها الأعاصير - سمات لهجية كثيرة ، كديوان الهذليين ، إلا أن شراح الديوان قد لجؤوا وانحرفوا عن المنهج السديد :

أ (فحملوا بعض الكلمات حملاً وأكروها إكراهاً على أن تكون لهجة للقبيلة ، فقد رأوا أن (أطرقا) في قول أبي ذؤيب :

على أطرقا ناليات الحما م إلا التام وإلا العصي

جمع طريق في لغة هذيل . الديوان ٦٥/١ ، لكنني أرجح أن الكلمة لا شأن لها بلهجة هذيل ، وأنها كما جاء في اللسان (أطرق) اسم موضع ، وفي التهذيب اسم مكان ، وفي

معجم ما استمعجم (أطرقا) موضع بالحجاز ، وبما يؤكد ذلك ما جاء في معجم البلدان (٢٨٦/١ ط السعادة) من قول عبدالله بن أمية المخزومي :

ولاني زعيم أن تسيروا وتهربوا وأن تتركوا الظهران تعوي ثعالبه
وأن تتركوا ماء يجزعة أطرقا وأن تسلكوا أي الأراك أطيابه

فالظهران والأراك اسما مكان ، واقترا (أطرقا) بهما يؤكد أنها اسم مكان أيضا .

(ب) كما اضطربت الدلالة بين أيديهم ، لأن شراح ديوان هذيل لم يستشيروا رجال القبيلة أنفسهم ،
فقول أبي ذؤيب في الديوان ٧٩/١ :

تدلى عليها بين سبّ وخيطة يجرداء مثل الكف يكبو غراها

(ديوان الأدب ورقة ٣١٣ ، المزهر ٢٥١/١ ، اللسان ٤٤١/١ ، الجمهرة ٢٣٣/٢) يشير
إلى أن : الخيطة - الوتد بلغة هذيل ، والسبّ بلغة هذيل - الحبل .

وذكر أبو عبيدة ما يخالف هذا في بيت الهذلي ، وفسر الخيطة - بالحبل ، والسبّ -
بالوتد (الجمهرة ٣٢/١) .

(ج) كما وقع الخلاف بينهم في تفسير اللهجة : (فالضّحاح) بلغة هذيل - الكثير ولا يعرفها
غيرهم (اللسان (ضحج) والمخصص ص ٩ ص ١٣١ ، والجمهرة ١٥١/٣) .

والعجيب أنها وردت في ديوان الهذليين ٤٨/١ في شعر أبي ذؤيب وفسرت على أنها
(جماعة إبل قليلة) !

(د) ان أكثر شعر القبيلة جاءنا عن رواة أغلبهم من غير هذيل ، ولهذا أصابه التحريف
والتبديل :

جاء في الديوان ٦٠/١ في قول أبي ذؤيب :

بأسفل ذات الدبر أفرد خشفها فقد ولدت يومين فهي خلوج

وفي رواية (جحشها) مكان (خشفها) ، والجحش في لغة هذيل بمعنى (الخشف)
وهو ولد الظبية إذا قوي ، وفي اللسان (جحش) : والجحش أيضا الصبي بلغة هذيل .
فمرة (الخشف) وأخرى : الجحش ، وثالثة : الجحش في لغة هذيل بمعنى الخشف ، ورابعة :
الجحش : الصبي بلغة هذيل ! وانظر مقالنا بجملة بجمع اللغة العربية بالقاهرة (ج ٢٨) .

٥ - لغة الاحصاء :

ولقد قمت بعمل لوحات إحصائية في بعض التصانيف الثانوية العربية لأرى الى أي حد يتردد صدى أسماء القبائل العربية تلك التي عُزيت لها لهجات خاصة بها . وقد اخترت من هذه المصنفات ما يمثل الفنون المختلفة فاخترت من كتب النحو : كتابين :

أولهما : شرح مفصل الزخشي (٥٣٨ هـ) لابن يعيش^(١) (٦٤٣ هـ) .

ثانيهما : خزانة الأدب ، ولب لباب لسان العرب - لعبد القادر البغدادي (١٠٩٣ هـ)^(٢) . كما اخترت من كتب اللغة كتابين أيضاً :

أولهما : إصلاح المنطق لابن السكيت^(٣) (٢٤٦ هـ) ، وثانيهما : لسان العرب لابن منظور^(٤) (٦٨٠ هـ) .

واخترت من كتب القراءات صنفين :

أولاً : القراءات الشاذة : ويمثلها :

١ - (كتاب شواذ القرآن) لابن خالويه^(٥) .

٢ - (كتاب المحتسب في شواذ القراءات) لابن جني^(٦) .

ثانياً : القراءات السبعية : ويمثلها : (كتاب إبراز المعاني من حوز الأماني) لأبي شامة^(٧) . (٦٦٥ هـ) .

ويلاحظ على الإحصائيات في كتب القراءات ما يلي :

١ - أن ابن خالويه قد فاته أن يصرح بأسماء بعض اللهجات العربية : كهذيل ، وعقيل ، والحجاز ،

(١) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ب)

(٢) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ج)

(٣) انظر اللوحة الإحصائية رقم (د) .

(٤) انظر اللوحة الإحصائية رقم (هـ) .

(٥) انظر اللوحة الإحصائية رقم (و) .

(٦) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ز) .

(٧) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ح)

وأزد السراة ، وضبة ، وقيس ، ووهليل (فخذ من النخع) بينا ذكر هذه اللهجات صاحب المحتسب .

٢ - كما أن ابن جنى في محتسبه قد أهمل لهجات لم يصرح فيها بأسماء بعض القبائل العربية كلهجة : المدينة ، وبكر بن وائل ، وبني عامر ، ونجران ، وربيعه ، واليمن ، وعكل ، وقضاة ، وكلاب ، وكلب . بينا ابن خالويه قد صرح بأسمائها .

٣ - وبفحص كتب القراءات الشاذة رأيت أنها كثيراً ما كانت تهمل عزو القراءات القرآنية الى قبائلها ، أو لهجاتها ، ويظهر هذا من فحص الكتابين السابقين في قراءات الشواذ :

أ (ففي قوله تعالى « وَنَحْشُرْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى »^(١) قرئت يجزم الراء والهاء^(٢) - بينا أثبتنا لغة لبني كلاب وعقيل^(٣) .

ب (كما قرئ « هذه بضاعتنا ردت إلينا »^(٤) بكسر الراء^(٥) ، بينا التحقيق أثبتنا لغة لضبة^(٦) .

ج (وقرئ قوله تعالى « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ »^(٧) أيتان مرساها « بكسر الهمزة^(٨) ، والتحقيق أثبت أنها لغة سليم^(٩) ، ومما يؤكد هذا^(١٠) أن قارئاً منهم قرأ بها .

(١) سورة طه : آية ١٢٤ .

(٢) شواذ ابن خالويه : ٩٠ .

(٣) البحر : ٢٨٧/٦ .

(٤) سورة يوسف : آية ٦٥ .

(٥) شواذ ابن خالويه : ٦٤ .

(٦) البحر : ٣٢٣/٥ .

(٧) سورة الأعراف : ١٨٧ .

(٨) شواذ ابن خالويه : ٤٨ .

(٩) البحر : ٤٣٤/٤ .

(١٠) البحر : ٤١٩/٤ .

د (كما قرىء قوله تعالى «أفمينا»^(١) بالخلق الأول، بتشديد الياء^(٢) الأولى ، وأثبت أنها لغة لبعض بكر بن وائل^(٣) .

فهذه القراءات السابقة - وغيرها كثير كما ثبت من فحصى لهذا الكتاب - قد أمسل ابن خالويه عزوها إلى أصولها أو قبائلها ، وما وقع فيه ابن خالويه ، تردى فيه ابن جنى ، إذ كثيراً ما يقول في محتسبه : وبعض العرب^(٤) ، ومن العرب^(٥) ، وهي لغة^(٦) ، أو لغات^(٧) ، وأحياناً يحكم على اللهجة كقوله : لغة مردولة^(٨) ، أو لغة فاشية^(٩) ، أو أقوى اللغات^(١٠) ، ولكنه مع هذا لا يعزوها إلى قبيلها .

٤ - إن دراسة القراءات القرآنية تمثل بحق الحقل البكر الذي تكن فيه اللهجات العربية ، لأنها مصدر حي أصيل تابع من دقة التلقين والتلقي ، وحسن الضبط وإتقان الرواية .

وانتقيت من كتب الأدب العامة : الأماي (لأبي علي الفاي^(١١) : ٣٥٦ هـ) . كما اخترت من كتب شروح الأشعار (شرح ديوان الحماسة للمرزوقي^(١٢)) (٤٢١ هـ) .

وقد آثرت في تلك الإحصائية أن أحرص على تسجيل عدد ورود لهجات القبائل في كل من تلك الكتب .

-
- (١) سورة ق : ١٥ .
 - (٢) شواذ ابن خالويه : ١٤٤ .
 - (٣) البحر : ١٩٤/٨ .
 - (٤) المحتسب : ٦٥/١ .
 - (٥) المحتسب : ٦٨ ، ٦٧/١ .
 - (٦) المحتسب : ٧٧/١ ، ١٩٧ .
 - (٧) ٣٧ ، ٧٧/١ .
 - (٨) ١١٠/١ .
 - (٩) ٤٢٩/١ .
 - (١٠) ٤٢٩/١ .
 - (١١) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ط)
 - (١٢) انظر الإحصائية (ي)

فإذا أدركنا هذه الإحصائيات على ناحية أخرى - وهي أننا لا نريد منها تسجيل عدد لهجات القبائل المختلفة كما تقدم، ولكننا نريد منها إحصاء الرواة الذين كانوا مصدرًا لرواية هذه اللهجات المعزوة والمسندة إلى قبائلها - حتى يمكن أن نستشف منها من الرواة كان مكثراً في عزو اللهجات إلى قبائلها، ومن منهم كان مقلداً.

وقد اخترت لهذا كتابي : المخصص لابن سيده^(١) (٤٥٨ هـ) ومع الهوامع شرح جمع الجوامع للسيوطي^(٢) (٩١١) .

ويستنتج من إحصائية المخصص والجمع ما يلي :

١ - أننا نستطيع أن نستشف من هذين المصدرين (المخصص والجمع) ظلاً لمصنفات هؤلاء الرواة - المفقودة - في لغات القرآن ، ولغات القبائل .

٢ - أن رواة اللهجات في هذين الكتابين لم يكونوا من مدرسة واحدة ، بل منهم البصريون النحويون كأبي زيد ، والخليل ، وسيبويه ، وابن جني ، ويونس ، وأبي حاتم ، والسيرافي ، وقطرب ، وأبي الخطاب ، وأبي العباس المبرد .

والبصريون اللغويون : كابن دريد ، والأصمعي .

كما كان منهم الكوفيون النحويون : كالغراء .

والكوفيون اللغويون : كأبي عبيد ، وابن السكيت ، واللحياني ، والمفضل الضبي .

كما كان من رواة اللهجات - من خلط بين مذهب البصريين والكوفيين : كأبي حنيفة^(٣) ، وابن مالك^(٤) .

(١) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ك)

(٢) انظر اللوحة الإحصائية رقم (ل)

(٣) قال عنه ابن التديم (وهو من خلط المذهبين : الفهرست : ١٢٢ ، وانباء الرواة : ٤١/١) .

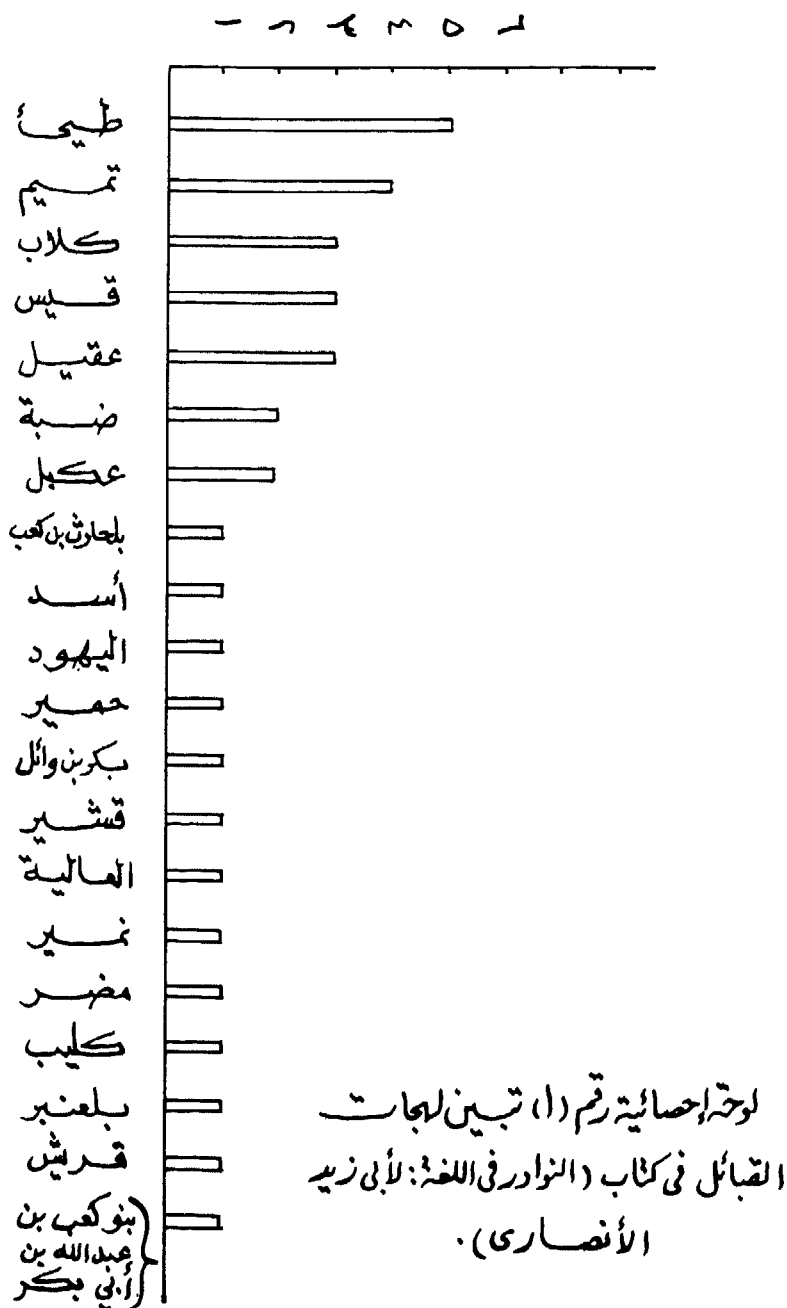
(٤) قال عنه السيوطي (وقد سلك طريقاً وسطاً بين البصريين والكوفيين : الاقتراح : ٨٦) .

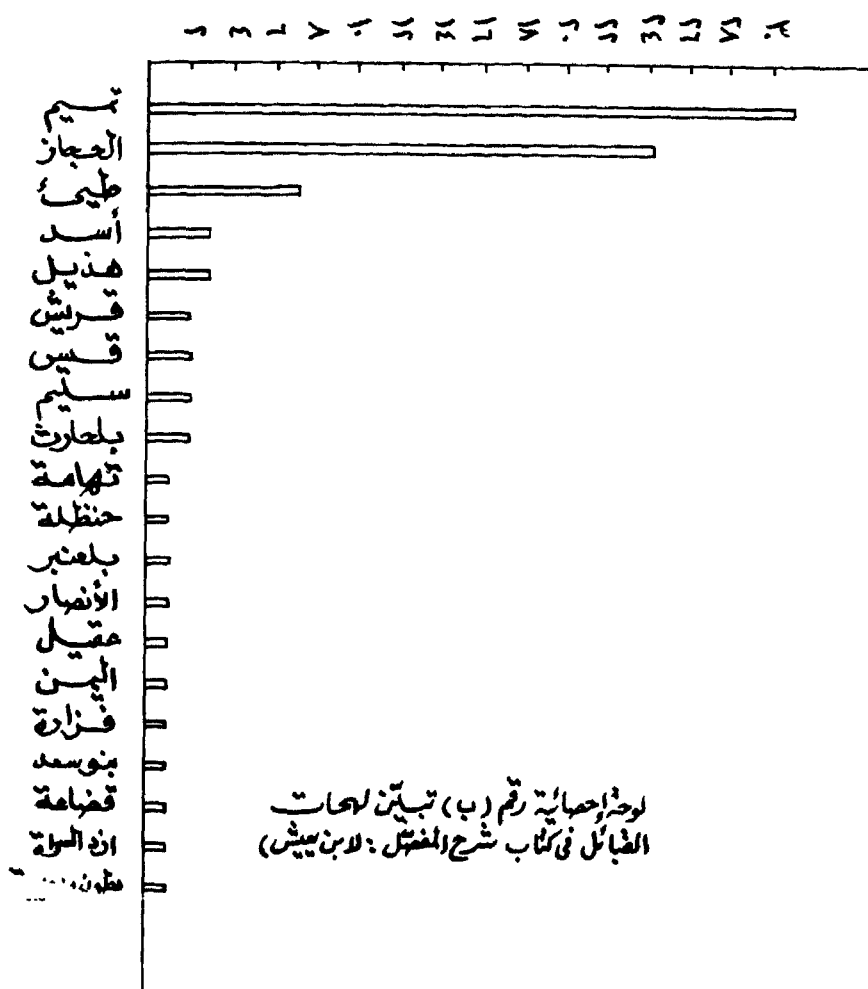
كما كان من رواة اللهجات أيضاً قراء كوفيون : كالكسائي ، وأبي بكر بن مقسم^(١) . وقراء بصريون : كأبي عمرو بن العلاء .

ولم يكن الأمر مقصوراً على رواة اللهجات من المشارقة ، بل شاركهم في ذلك المغاربة .

٣ - بمقارنة أسماء هؤلاء الرواة في المرجعين السابقين - نجد أن أسماءهم تتفق مع أسماء الذين ألفوا في لغات القرآن ، ولغات القبائل ، وكتب النوادر تقريباً - مما يؤكد بأن جميع هذه المؤلفات كانت تدور في فلك واحد ، بل يكاد منهجها أيضاً يكون واحداً - وقد سبقت نقول منها تشير الى ذلك .

(١) قال عنه ابن النديم « أحد القراء بمدينة السلام توفي سنة ٣٦٢ هـ : الفهرست : ٥٥ » ، وقال عنه السيوطي « وكان أحفظهم لنحو الكوفيين : البنية : ٣٦ » .



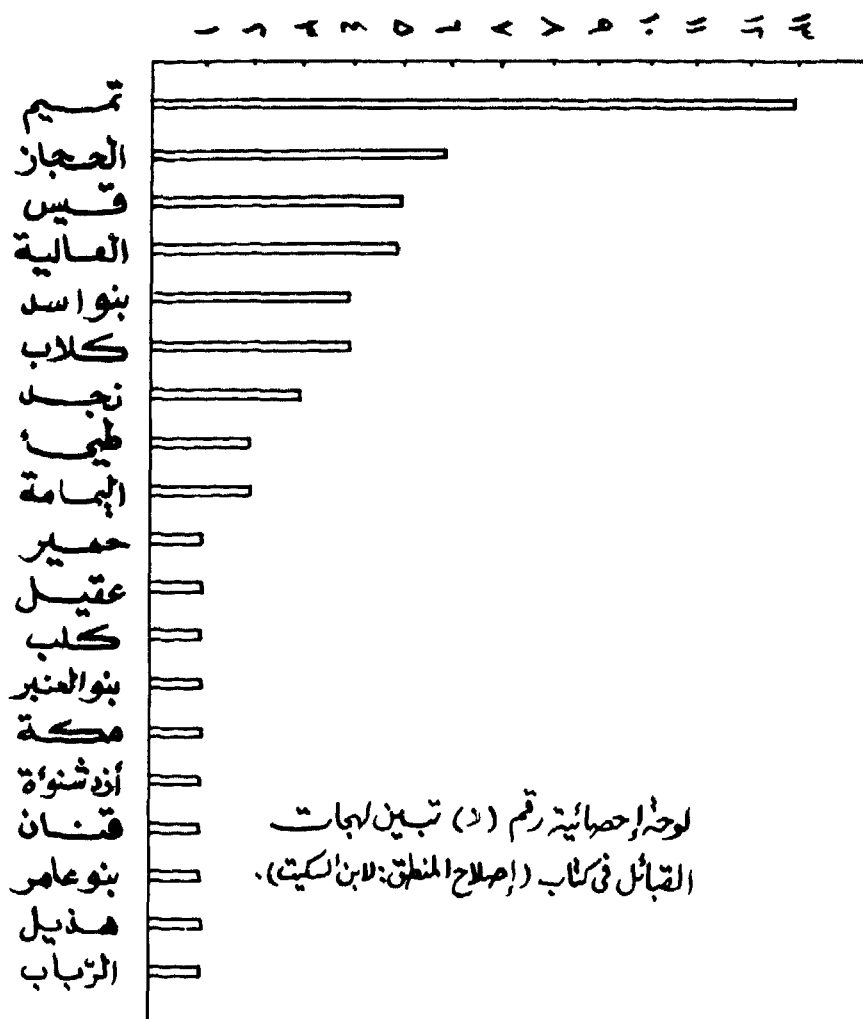


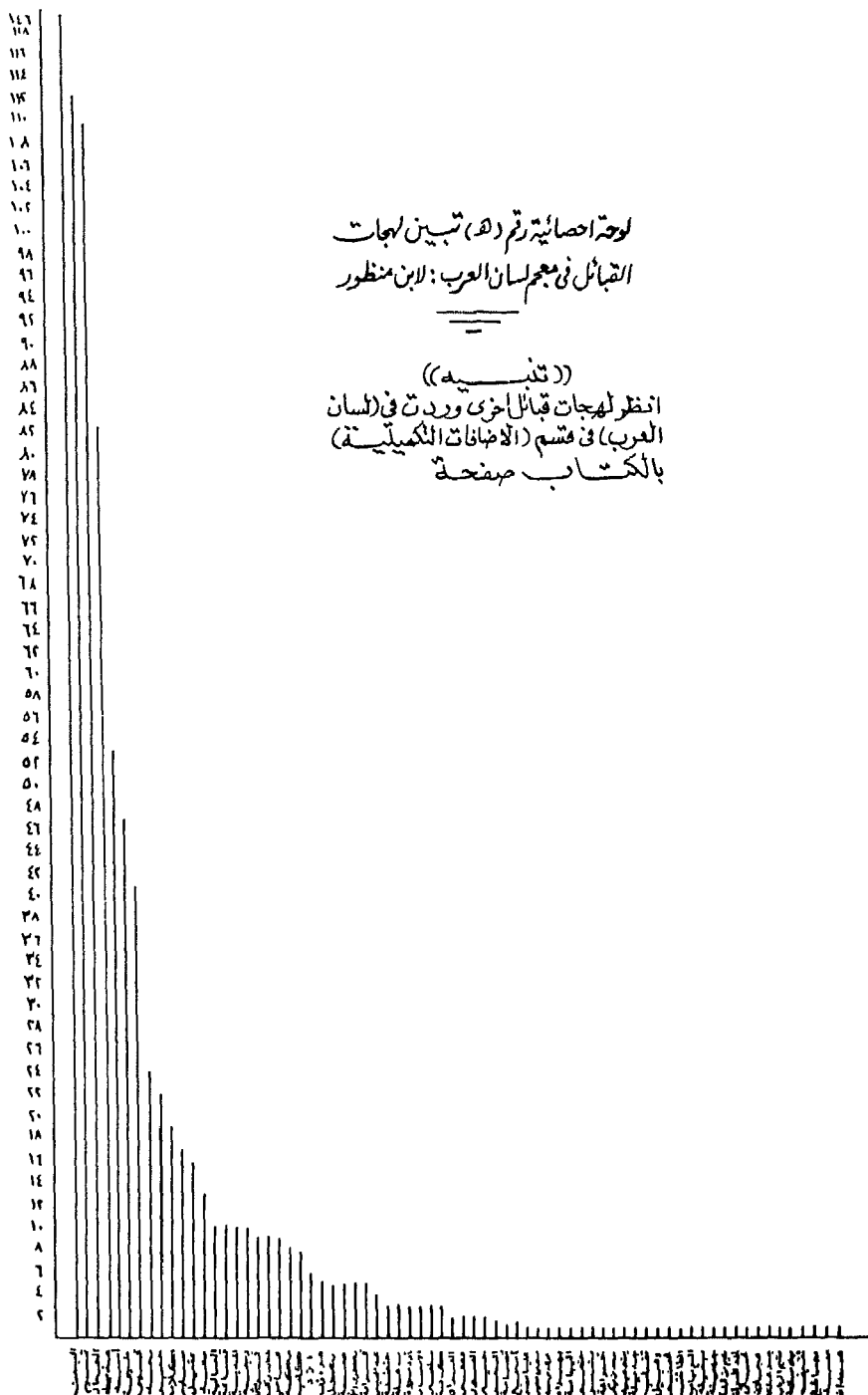
لوحة إحصائية رقم (ب) تبين لحات
القبائل في كتاب شرح المغيرة : لابن عيش

5 3 2 1 . 5 3 1 1 1 1 5

[illegible]

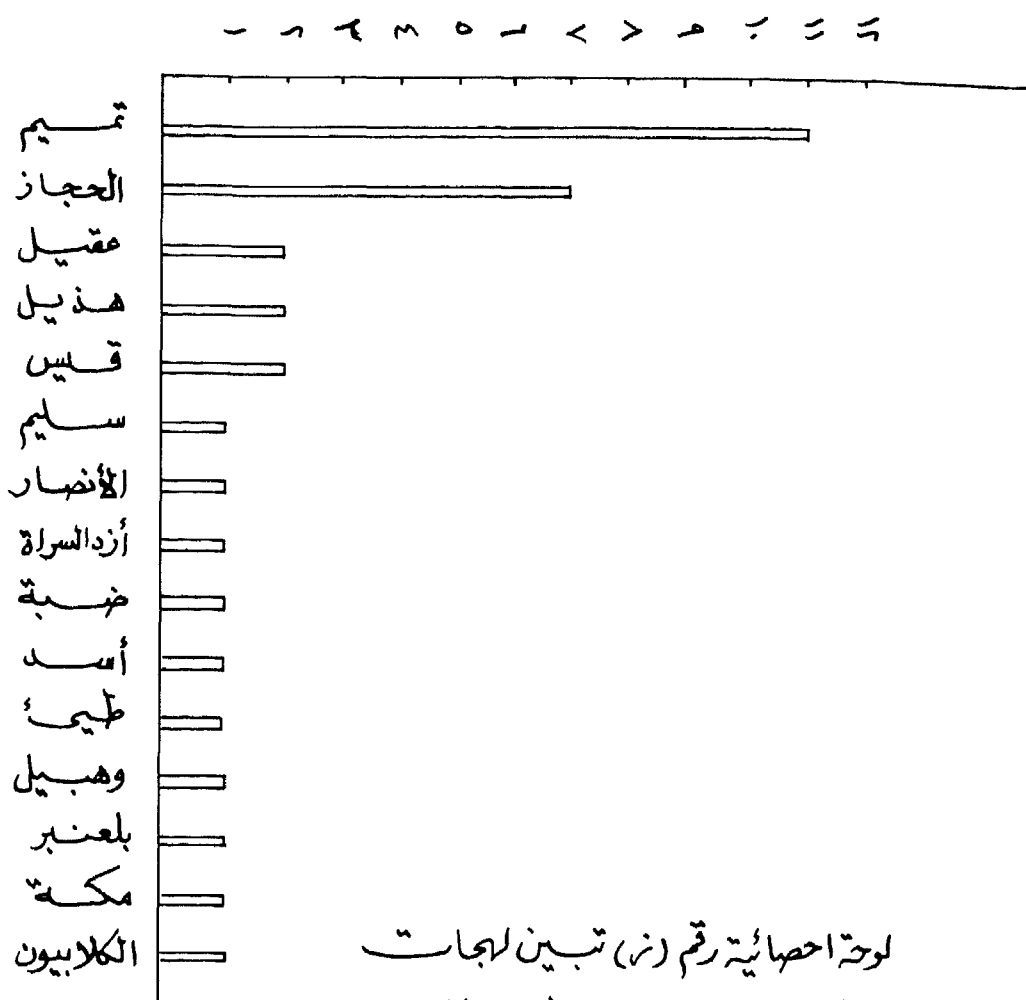
لوحة اسمائے رقم (ج) تہیں لہجہ
القبائل فی کتاب (خزانۃ الأدب: لہجہ)



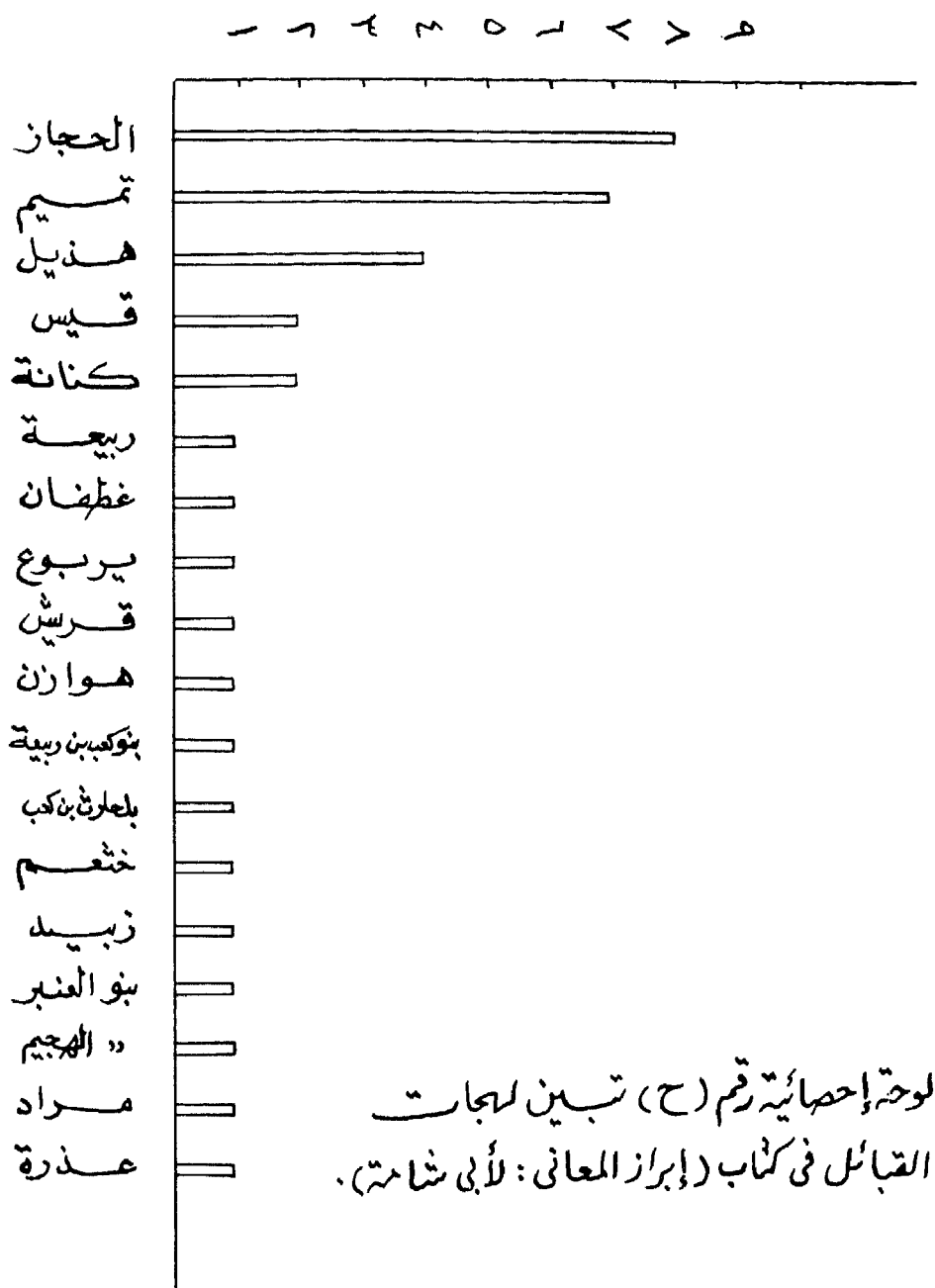




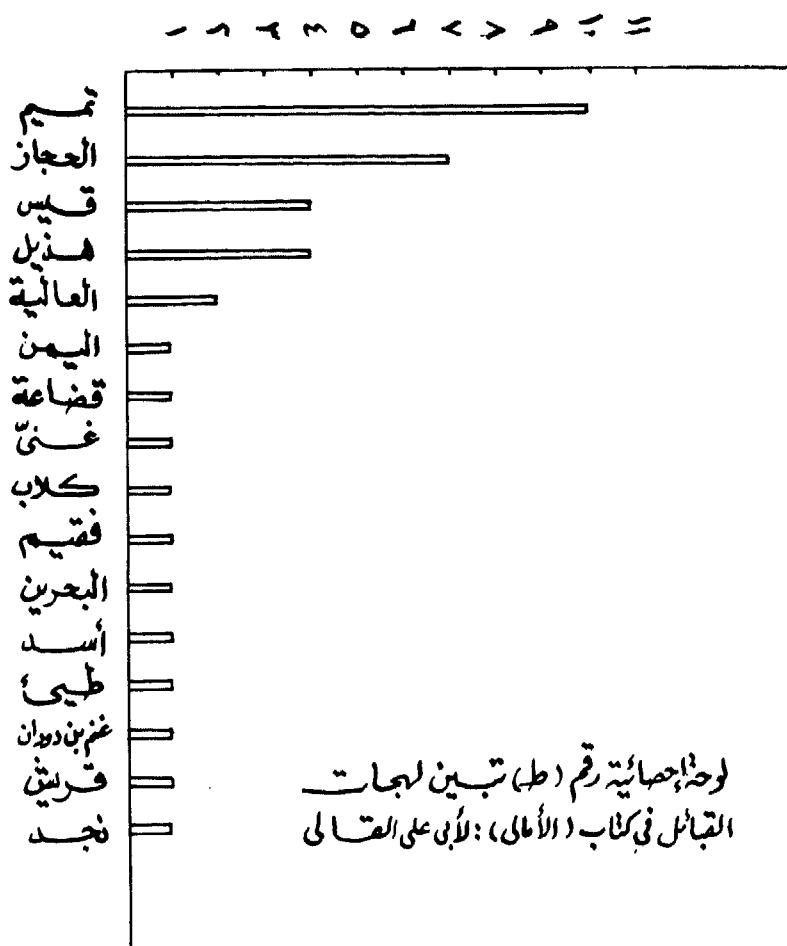
لوحة إحصائية رقم (و) تبين لهجات
القبائل في كتاب (مختصر شواذ القرآن: لابن خالويه).



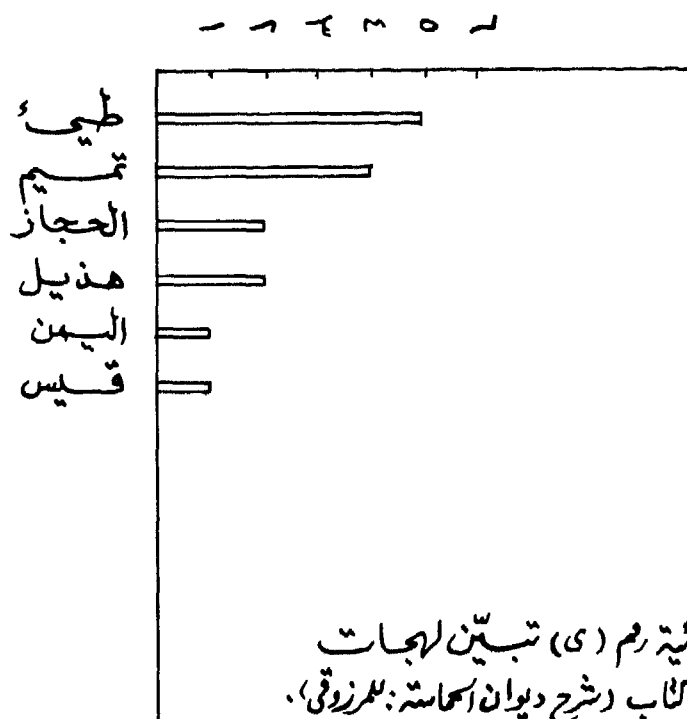
لوحة احصائية رقم (نر) تبين لهجات
القبائل في كتاب د المحتسب في شواذ القراءات :
لا بن جنى .

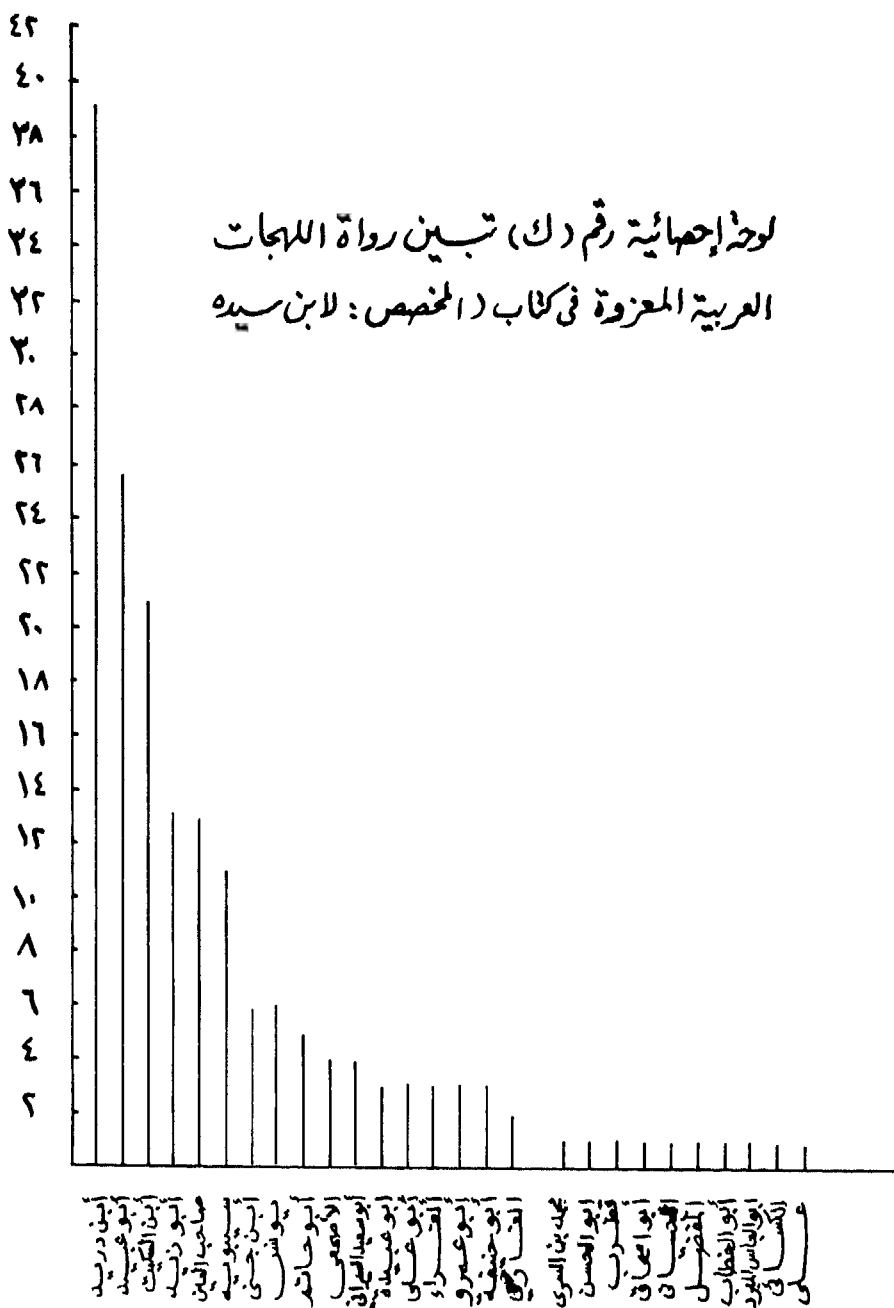


لوحة إحصائية رقم (ح) تبين لهجات القبائل في كتاب (إبراز المعاني: لأبي شامة).



لوحة إحصائية رقم (ط) تبين لهجات
القبائل في كتاب (الأمازي): لأبي علي القتالي







ملاحظات ونقد :

وتشمل ملاحظات على المصنفات العربية السابقة والموضحة باللوحات الإحصائية في كتب النحو واللغة والقراءات ، وكتب الأدب العامة ، وكتب شروح الأشعار ، وهي :

١ - أن هذه المصنفات تعزو لهجات القبائل الى بيئات جغرافية شاسعة : كاليمن ، والحجاز ، واليامة ، ونجد ، والعالية ، وأحياناً كانت تنكش الرقعة الجغرافية حتى تتحدد معالمها كالعزو الى عالية تميم^(١) ، أو سفلى قيس^(٢) ، أو عليا مضر وسفلاها ، أو لغة أهل الغور^(٣) ، أو لغة أهل الجوف^(٤) .

٢ - كما تعزوها حيناً الى مجموعات قبلية وأحلاف مثل : الرباب ، فقد كونوا حلفاً يشتمل على خمس قبائل وهي : ضبة ونور وعكل وتيم وعدي - وسما جميعاً باسم الرباب^(٥) ، لأنهم أدخلوا أيديهم في رب وتحالفوا عليه^(٦) . وهوازن التي يرجح أنها كانت في الأصل حلفاً ضم جملة قبائل^(٧) .

وكما عزيت اللهجات الى الرباب وهوازن عزيت كذلك الى «خشم» وقد ذهب (ليني ديلافيدا) في المعلة الإسلامية الى أن خشمماً ليست قبيلة في الأصل وإنما هي حلف تألف من قبائل متعددة تجمعها مصالح مشتركة^(٨) .

٣ - كما كان العزو يشمل حيناً آخر أكبر وحدة سياسية في اصطلاح النسابين كالعزو الى مضر أو عدنان ، وأحياناً أخرى يشمل أصغر وحدة سياسية كالعزو للهجات البطون والفروع والأحياء : كلهجات بني الهجيم ، وزبيد ، وحيدان وكلب وهما بطنان من قضاة ، ونهبان وهي بطن من طيء ، وكعب بن ربيعة وهي بطن من عامر بن صعصعة .

(١) عالية تيم : فيها بنو عمرو بن تيم ، وم بنو الهجيم والعنبر ومازن : اللسان : ٣٢٦/١٩ .

(٢) سفلى قيس : هم بطونها المتفرعة منها والتي تسكن نجداً مجاورة لتيم : كعقيل وغنى .

(٣) انظر : الفائق للزخشري : ١٩٨/٣ - ١٩٩ .

(٤) الجمهرة : ٣٠٢/٣ .

(٥) معجم كحالة : ٤١٥/٢ .

(٦) اللسان : ٣٨٨/١ .

(٧) تاريخ العرب : ٣٢١/٤ جواد علي .

(٨) المرجع السابق : ٢٦٣/٤ .

٤- وقد وجدت بعض هذه الكتب يعزو لهجات القبائل الى الحواضر - كلهجة مكة ، والمدينة ، والطائف وخيبر والعراق .

٥- كما شاهدنا بعض المصادر قد تفردت بأسماء لهجات عربية لم تشاركها فيها مصادر أخرى ، فابن دريد قد تفرد بذكر « لغة زهران »^(١) وهم بطن من شوء^(٢) ، ولغة الشرى^(٣) ، وهم بطن من زهران بن كعب^(٤) ، كما تفرد أبو حيان بلغة بني الصعداء^(٥) ، والفراء بلغة (بني إنسان) في معانيه ١٠٧/٢ وهي قبيلة عربية . انظر (نهاية الأرب ص ٨٨) .

وتفرد ابن السكيت بنقله عن الفراء لغة القناني^(٦) - وهو منسوب الى قنات بطن من بلحارث بن كعب^(٧) ، كما تفرد الخليل بذكر لهجة الخفاجيين^(٨) ، والخفاجيون من بني عقيل^(٩) ، كما تفرد ابن منظور بذكر لهجة أهل بئنة^(١٠) ، وكانوا يسكنون هضبة على طريق السفر بين البحرين والبصرة^(١١) .

٦- يكثر عدد اللهجات كثرة غامرة - إذا عزيت الى القبائل المشهورة كالحجاز وتميم ، بينما تخبو وتضعف إذا عزيت الى القبائل المغمورة .

٧- كما لوحظ أن بعض أجزاء الجزيرة العربية كان مستودعاً للشعر لهجات من نوع خاص ، ويظهر ذلك في كثرة ما جاء عن أهل المدينة والطائف من مفردات لهجية وافرة اختصت بها النخل والكرم ، وعللت هذا باشتهار هذين المكانين بهذين النوعين ، ولهذا رأينا صورة النخلة على عملتهم النقدية (تاريخ العرب ١٨٥/٨ جواد علي) . كما سجل القرآن ذلك في

(١) اشتقاق ابن دريد : ٢٩٧ وستفد .

(٢) معجم كحالة : ٤٨٢/٢ ، نهاية الأرب للقلقشندي : ٢٧٤ .

(٣) اشتقاق ابن دريد : ٣٩٩ وستفد .

(٤) معجم كحالة : ٥٩٠/٢ .

(٥) البحر المحيط : ٢١٨/١ ، ٢٢٥ .

(٦) إصلاح المنطق : ٨٩ .

(٧) اللسان : ٢٢٩/١٧ ، معجم كحالة : ٩٦٦/٣ .

(٨) العين للخليل : ١١٦ بغداد .

(٩) نهاية الأرب للقلقشندي : ٢٤٦ .

(١٠) اللسان : ٣١٨/١٨ .

(١١) انظر معجم البلدان ، والتاج في تلك المادة .

قوله تعالى « ما قطعتم من لينة أو تركتموها » [الحشر آية ٥] وهي النخلة بلفة الأوس (كتاب اللغات في القرآن ص ٤٨) . كما لوحظ أن هذه المفردات لما هاجرت من أماكنها الأصلية أصابها المحراق صوتي ودلالي ؛ لأنها انتقلت الى بيئة جديدة . انظر : اللسان ٩٨/١٩ . كتاب النخل للأصمعي ٦٥ - ٧١ . وكتاب الكرم للأصمعي ٧٥ - ٧٦ .

٨ - يلاحظ على ديوان الحماسة شرح المرزوقي أن لهجات طيء قد زادت عن غيرها بل فاقت الحجاز وتيم وذلك حدث عجيب ، وأعلل هذا بأن أبا تمام قد اختار أكثر شعراء الحماسة من طيء ، ولهذا كانت لهجاتها أكثر من غيرها من القبائل .

٩ - على أن الرقعة الجغرافية والمناخ الفكري كثيراً ما يحددان اللهجات كما وكيفا ، ومن ذلك أن لهجات اليمن بلغ عددها ٣١ لهجة ، وحير ١١ لهجة وذلك في كتاب « منتخبات في أخبار اليمن من كتاب شمس العلوم ... » الذي ألفه نشوان الحميري . على حين لم يسجل للحجاز إلا لهجة واحدة ، كما لم يسجل لقبيلة قيم شيئاً ، على الرغم من المكانة السامية لكل من الحجاز وقيم ، والسبب أن المؤلف يمني حميري متأثر بالماطفة القبلية ، وما قيل عن نشوان الحميري يقال عن : الهمداني في : إكليله ، وابن دريد في : جهرته ، حيث فاقت لهجات اليمن عندهما غيرها من اللهجات ؛ لأنها من اليمن أيضاً .

١٠ - لغات القبائل والأماكن الآتية إلى الرسم البياني في (لسان العرب)

وهي :

لغات : نجران — هجر (اللسان ٧٩/١١) . أهل السّود (سودانية) . عُمانية . بنو مُضَرَّس (اللسان ٧٦/١) . عَمَّان . دبير (الديريون) . لغة أهل الغرب . وادي القرى . خفاجة . بخرانية (البحرانيون) . حوران . يربوع . الصّمان . الجوف . مدين . التَّجَع . اليهود (اللسان ٤١/١٧) . البصرة . الكوفة . الشام . بغداد . هذا : ولم نذكر في الأحصاء كثيراً من لغات المدن الأخرى . كلغة مصر التي وردت (باللسان ٣/٤٩٠ ، ٣٨/١٥ ، ٢٢٤/١٧ ، ٣٤٧) ولغة إفريقية (اللسان ١٥/١٦٠) . أو لغة النبط (اللسان ١٥/٣٧٥) واللغات غير العربية كلغات : القبط (اللسان ١٧/٢٢٠) أو لغات اليونان (اللسان ٨/٨١) . أو اللغات العبرانية (اللسان ٨/١٠٨) . وهراة (اللسان ٨/٣٦١) . والبربر (اللسان ٦/٤٣١) . ونخراسان (اللسان ٤/٧) . وحوران . لأن مثل هذا يحتاج إلى دراسة خاصة . نرجو أن نقوم بها إن شاء الله .

ثانياً : نظرة علماء العربية إلى اللهجات من خلال مؤلفاتهم ورواياتهم

أولاً : اللهجات بين البصريين والكوفيين :

نقل السيوطي عن أبي نصر الفارابي ما يفيد أن الرواة لم يأخذوا في الاعتبار لهجات قبائل كثيرة ثم أخذ يعدد هذه القبائل فيقول « وبالجملة^(١) فإنه لم يؤخذ عن حضري قط ، ولا عن سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم ، فإنه لم يؤخذ :

- ١- لا من لحم ولا من جذام ، لأنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقيبط .
- ٢- ولا من قضاة ولا من غسان ولا من إباد ، فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ، وأكثرهم نصارى يقرءون في صلاتهم بغير العربية .
- ٣- ولا من تغلب ولا النمر ، فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية .
- ٤- ولا من بكر ، لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس .
- ٥- ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مغالطين للهند والفرس .
- ٦- ولا من أزد عمان لأنهم كانوا مغالطين للهند والفرس .
- ٧- ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة .
- ٨- ولا من بني حنيفة وسكان البامة .
- ٩- ولا من ثقيف وسكان الطائف لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم .
- ١٠- ولا من حاضرة الحجاز ...

وبهذا يكون علماء العربية قد ضيقوا المنافذ حين حصروا أخذ اللغة عن « قيس وقيم وأسد ،

(١) الاقتراح : ١٩ - ٢٠ ، الزمر : ٢١١/١ - ٢١٢ .

فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه ، وعليهم اتكل في الغريب وفي الأعراب والتصريف ثم هذيل ، وبعض كنانة ، وبعض الطائيين^(١) . وهذه القبائل التي اعتمد عليها في الأخذ هي قل من كثر وغيض من فيض ، وهي لا تمثل العربية تمثيلاً كاملاً ، وإلا فأن هي من العرب المنتشرة في أرجاء الجزيرة العربية ؟ قد تكون حجتهم الحرص الشديد على سلامة اللغة وخوفهم من تسرب اللحن إليها ولكن يقف في سبيل ذلك أن اللحن وجد بين قبائل العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ثم إننا إذا اعتبرنا كل تعبير لهجي عن اللغة المتكلمة لحناً - فما كان أكثر اللحن الذي دخل على العربية الفصحى قبل الإسلام وبعده ، لأن العرب ، وإن كان لهم قبيل الإسلام لغة أدبية موحدة - فقد كانت لهم لهجات للتخاطب ، ومن العبث أن يظن أن الفصحى ظلت بعيدة عن آثار هذه اللهجات ، فهي مختلطة بها ، مؤثرة ومتأثرة أخذة منها ومعطية ، ولهذا خانهم التوفيق عندما بتروا هذه اللهجات بحجة أنها لهجات سوقية ، مع أنها كثيراً ما تفيدنا في حل مشكلات الفصحى وتساعدنا في فهم العربية ، وعندما حددوا الأخذ عن قبائل معينة ، كان استقراؤهم محصوراً في نطاق ضيق ، وملاحظتهم في فهم العربية محدودة ، ولو أنهم وسعوا الأخذ عن القبائل العربية - لتفتحت أمامنا طرق جديدة في تاريخ عربيتنا ولكان منهمجهم منهجاً تسجيلياً يسجل الظواهر اللهجية المختلفة .

وإذا كان أحد أئمة العربية^(٢) يعترف في صراحة بأننا لم يصلنا من العربية إلا النزر اليسير « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير »^(٣) فماذا يبقى من هذه العربية إذن بعد ما عزلوا وبتروا جميع القبائل التي رفضوا الأخذ عنها .

قد تكون حجتهم أن لهجات تلك القبائل غير فصيحة ، لأنهم كانوا يجاورون الأمم حولهم ، فهم مختلطون بالأجانب . ولكن يقف في سبيلهم أيضاً أنهم اعتبروا أن قريشاً « أجود العرب انتقاداً للأفصح وأسهلها على اللسان عند النطق ، وأحسنها مسموعاً ، وأبينها إبانة عما في النفس »^(٤) كما يرى ابن فارس « أن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة »^(٥) مع أن قريشاً هذه كانت لها جولات خارجية اتصلت فيها بالقبائل المختلفة ، وبالأمم الأجنبية ، يدل

(١) الاقتراح : ١٩ .

(٢) هو أبو عمرو بن العلاء المازني التميمي : أحد القراء السبعة : توفي ١٥٤ هـ : طبقات القراء : ٢٨٨/١ .

(٣) الاقتراح : ٢٣ .

(٤) الزهر : ٢١١/١ ، الاقتراح : ١٩ .

(٥) الصاحبي : ٢٣ ، الزهر : ٢١٠/١ .

على هذا رحلاتهم التجارية في الشتاء والصيف كما في القرآن ، فاتصال قریش بالأمم المجاورة لم يمنع أن تكون لهجتها فصيحة - بل أفصح العرب كما يقولون ، ولهذا لا أقبل رفض لهجات هذه القبائل لهذا السبب ، ولسببين آخرين :

أولهما : أن لغات هذه القبائل التي رفض الرواة الأخذ عنها أراها متمثلة في القرآن الكريم فلفظة غسان وردت في القرآن أربع مرات^(١) ، ولفظة أزد عثمان^(٢) ، ولفظة بني حنيفة ثلاث مرات^(٣) ، ولفظة خزاعة مرتين^(٤) ، ولفظة لخم مرتين أيضاً^(٥) كما ورد عن ابن عباس أن من القبائل التي ورد القرآن بلغتها - لغة ثقيف^(٦) وعن عمر « لا يملن في مصاحفنا إلا غلمان قریش وثقيف » وقول عثمان « اجعلوا المصلى من هذيل ، والكاتب من ثقيف »^(٧) كما ثبت أن القرآن بعضه بلغة جذام^(٨) ، وبعضه بلغة اليمن^(٩) ، وبعضه بلغة قضاة^(١٠) ، وبعضه بلغة اليمامة^(١١) ، وبعضه بلغة النمر^(١٢) ، كل ما في الأمر أن بعض اللهجات أسعد به من بعض وأكثر نصيباً. ومن هذه الروايات أرى أن لهجات هذه القبائل فصيحة - على عكس ما رأى علماء العربية لأنها موجودة في القرآن ، ولهذا أظن في مقياس الفصاحة الذي وضعه رواة العربية ووزنوا به لهجات العرب جميعاً .

ثانيها : أن بعضاً من أئمة العربية قد استشهد بلهجات هذه القبائل ، ومنهم ابن مالك حيث اعتمد على لغات لخم وخزاعة وقضاة^(١٣) .

(١) كتاب اللغات في القرآن الصفحات : ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٤٨ وانظر الإتيان ١/ ١٣٦ .

(٢) كتاب اللغات : ٤٢ .

(٣) كتاب اللغات ٢٥ ، ٤٠ ، ٤٤ وانظر الإتيان : ١/ ١٣٦ .

(٤) كتاب اللغات : ٢١ ، ٣٤ وانظر الإتيان : ١/ ١٣٦ .

(٥) كتاب اللغات : ٢٧ ، ٣٤ وانظر الإتيان : ١/ ١٣٦ .

(٦) الإتيان : ٤٨/١ ، كتاب اللغات : ٢٨ .

(٧) المزهر : ١/ ٢١١ .

(٨) إتيان : ١/ ١٣٦ .

(٩) إتيان : ١/ ٤٩ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ، المزهر : ١/ ٢١١ .

(١٠) إتيان : ١/ ٥٠ .

(١١) إتيان : ١/ ١٣٦ .

(١٢) إتيان : ١/ ١٣٦ .

(١٣) اقتراح : ٢٠ .

وقد يكون اعتماد علماء العربية على القبائل التي أخذوا عنها - أنها بدوية وهم دائماً يربطون بين الفصاحة والبدواة . ولكنني أرى أن بدواة اللهجة لا يعني أنها هي الفصحى دون غيرها ، لأن سمة الفصاحة لم يستأثر بها البدو وحدهم فقد قرر ابن بسام أنه كثيراً ما سمع من الاعراب ألفاظاً مستكرهة قبيحة^(١) .

كما ان النظرة تغيرت كثيراً بالنسبة الى لغة البدو « حيث لم تعد تحوط البدواة بذلك الإطار البديع من الكلف والشف «^(٢) .

والدليل على ذلك ما رواه ابن جنى « وقد كان طراً علينا أحد من يدعي الفصاحة البدوية » ... فتلقينا أكثر كلامه بالقبول له ، وميزناه تمييزاً حسن في النفوس موقعه الى أن أنشدني يوماً شعراً لنفسه يقول في بمض قوافيه « أشئوها وأدأوها بوزن أشعها وأدعها - فجمع بين الهمزتين كما ترى » ويعقب ابن جنى على رواية هذا الأعراي البدوي بقوله « وهذا ما لا يبيحه قياس ، ولا ورد بمثله سماع »^(٣) فمع أن هذا الرجل أعراي بدوي ، إلا أن هذا لم يشفع له حيث امتنع ابن جنى عن التلقي عنه ، بعد أن نال من فصاحته ، فالفصاحة إذن ليست مقصورة على البدو وحدهم بدليل قول ابن جنى ولو علم أن أهل مدينة باقون على فصاحتهم ، ولم يعترض شيء من الفساد للفتهم - لوجب الأخذ عنهم كما يؤخذ عن أهل الربر «^(٤) فالقول بأن لغة البدو أفصح من غيرها من لهجات الحضرة قول ينقص البرهان ، ولا يثبت أمام الواقع « ومن العبث أن نبحت عن المثل الأعلى للكمال اللغوي في نوع من اللغات دون سواها ، فما قصرت لغة عن خدمة من لديه فكرة يريد التعبير عنها «^(٥) .

ومقياس الفصاحة كما أراه لا يتصل بالبدواة والحضارة ، لأننا رأينا فيما تقدم بدواً فسدت لهجاتهم ، وإنما يجب أن يكون المقياس هو الوثوق من سلامة لغة المحتج به بدوياً كان أم حضرياً ، وإذا كان ابن جنى أجاز الأخذ عن العربي لو انفرد بشيء لا تعرفه قبيلته ولا غيرها ما دام غير

(١) العربية : ١٦٣ فوك .

(٢) العربية : ١٦٣ فوك .

(٣) الخصائص : ٦/٢ دار الكتب .

(٤) الخصائص : ٥/٢ دار الكتب ، الاقتراح ٢٤ .

(٥) دلالة الألفاظ : ١٥ دكتور مراد كامل .

منهم فلنا أن نقبله منه ، لأنه إما أن يكون شيئاً أخذه عن ينطق بلغة قديمة لم يشارك في سماع ذلك منه ... وإما أن يكون شيئاً ارتجله ^(١) .

فما بالك بلهجة قبيلة بأسرها أو جمع من القبائل ، ولو قد سمعوا ما يراه ابن جنى من حديثه عن « اختلاف اللغات وكلها حجة » ^(٢) أو قوله « وكيف تصرفت الحال » فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء ، ^(٣) وهتاف أبي حيان « كل ما كان لغة لقبيلة قيس عليه » ^(٤) - لسجلوا لهجات القبائل جميعها حفاظاً على تاريخ أمة ، ومجد شعب ، ومستودع حضارة .

وربما كان اختيارهم لتلك القائمة التي احتجوا بكلامها على أساس أنها القبائل الفصيحة ، أو الأدخل في الفصاحة ، أو التي بنيت عليها الفصحى ، ولكنني ألمح خلافاً عريضاً قد حدث بين الرواة بشأن أي القبائل أفصح ، ومن ذلك :

- ١ - أن « جرماً » فصحاء العرب ^(٥) . وقد ساق لها المبرد قصة تؤيد أنها أفصح الناس ^(٦) .
- ٢ - وعن الخليل : أفصح العرب نصر قعين أو قعين نصر ^(٧) .
- ٣ - ما رواه أبو عمرو « من أن أفصح الشعراء ألسناً وأعربهم - أهل السروات ، وهن ثلاث وهي الجبال المطلة على تهامة مماليك اليمن ، فأولها : هذيل ... ثم سراة الأزد - أزد شتوة » ^(٨) .
- ٤ - أفصح الناس علياً تميم وسفلى قيس ^(٩) .

(١) الخصائص : ٢٤/٢ دار الكتب .

(٢) الخصائص : ١٠/٢ دار الكتب ، الاقتراح : ٢٤ .

(٣) الخصائص : ١٢/٢ دار الكتب ، الاقتراح : ٧٨ .

(٤) المزهو : ٢٥٨/١ .

(٥) الفائق للزخشري : ٤٥٩/٢ .

(٦) كامل المبرد : ٣٧١/١ ، مفصل الزخشري : ٣٣٣ ، شرح السيرافي : ٤٦٨/٥ وقارن بما ورد في الحزاة :

٥٩٥/٤ - ٥٩٦ ، ودرة الفواص : ١١٤ ط الجوائب .

(٧) كتاب العين : ٨٨ ط بغداد ، اللسان : ٣٦٥/١٧ .

(٨) المزهو : ٤٨٣/٢ .

(٩) المزهو : ٤٨٣/٢ .

- ٥ - أفصح الناس سافلة العالية ، وعالية السافلة ، يعني عجز هوازن^(١) .
- ٦ - ثقيف ، وذلك لما سمع من عمر بن الخطاب « لا يملين في مصاحفنا إلا غلمان قريش وثقيف »^(٢) .
- ٧ - وخزاعة أعرب الناس^(٣) .
- ٨ - وهذيل - حيث يرى المقدسي أن هذيل^(٤) أفصح لغات العرب .

ومثل هذا الخلاف الشديد في أي اللهجات أفصح - لا يطمئنا على قائمة الفارابي لأنها تتعارض مع هذه الروايات ، على أن قائمة الفارابي تحمل في ثناياها تعصباً للقبائل المشهورة ذائعة الصيت في المجتمع العربي ، بدليل أن القبائل المغمورة والتي لم ترزق حظاً من الشهرة لم يأخذوا عنها ، والدنيا إذا أقبلت على قوم أعطتهم محاسن غيرهم .

وأرجح أن علماء البصرة كانت عندهم حساسية لغير قائمة الفارابي ، وتلك الحساسية تجلت واضحة في عقول البصريين عندما رأوا بعض الدوائر العلمية الممثلة في رجال الكوفة أن تتوسع في الأخذ فأدخلت قبائل استنكفت الدوائر البصرية أن تأخذ عنها ، فقد أورد ابن النديم في أخبار الرياشي البصري أنه قال « إنما أخذنا اللغة من حرشة الضباب وأكلة اليرابيع ، وهؤلاء (يقصد الكوفيين) أخذوا اللغة من أهل السواد أكلة الكواميخ والشواريز »^(٥) كما وجدنا تلك الحساسية تظهر بوضوح وتتحول إلى هجوم عنيف في وجه الكسائي زعيم المدرسة الكوفية ، فقد ذكر محمد بن يزيد عن المازني عن أبي زيد قوله « قدم الكسائي البصرة ، فأخذ عن أبي عمرو ويونس وعيسى بن عمر علماء كثيراً صحيحاً ثم خرج إلى بغداد فقدم أعراب الحطمة فأخذ عنهم شيئاً فاسداً فخلط هذا بذلك فأفسده »^(٦) وهذه التهم التي يوجهها البصريون إلى علماء الكوفة لاسيما الكسائي لا دليل عليها ، لأن الكسائي رأى أن تلك القبائل لا يصح إغفالها ، لأن أصحابها عرب

(١) الزهر : ٤٨٣/٢ .

(٢) الصاحبي : ٢٨ .

(٣) اللسان : ١٠٤/١٢ .

(٤) أحسن التقاسيم : ٩٧/١ .

(٥) الفهرست : ٩٢ ، أخبار النحويين البصريين : ٦٨ (الكامخ : آدم يؤكل لتشي الطعام والشواريز جمع شيراز وهو اللبن الرائب .

(٦) أخبار النحويين البصريين : ٤٤ ترجمة أبي زيد . معجم الأدباء : ترجمة الكسائي .

يعيشون على أرض عربية ، ويتكلمون لغة عربية ، والله در ابن منظور حيث قال « كل من سكن بلاد العرب وجزيرتها ونطق بلسان أهلها ، فهم عرب بينهم ومعدم »^(١) وقد ثبت أن الكسائي لم يقصر جمعه على تلك القبائل ، بل جاء في البغية أنه « خرج الى البصرة فلقي الخليل وجلس في حلقتة ... ثم قال للخليل : من أين أخذت علمك هذا ؟ فقال : من بوادي الحجاز ونجد وتهامة فخرج ورجع وقد أنفذ خمس عشرة قنينة حبر في الكتابة عن العرب سوى ما حفظ ، فقدم البصرة فوجد الخليل قد مات وفي موضعه يونس فجرت بينها مسائل أقر له فيها يونس وصدوره في موضعه »^(٢) ويقول أبو زيد الأنصاري « ما جربت على الكسائي كذبة قط »^(٣) وهذه الحساسية السديدة والتهم الموجهة الى رجال الكوفة من علماء البصرة منشؤها العصبية – قاتلها الله ! فإنها تعمي البصائر وتعصب الأنظار .

والحق أن الكوفيين أشد احتراماً لما ورد عن لهجات القبائل فلم يهملوا شيئاً ، ولهذا كان رجال الكوفة لما حين لطبيعة اللغة وفهمها فهماً أصيلاً ، لأن كل لهجة تمثل حقلاً لغوياً لا يصح إهداره أو الخيف عليه ، ولا شك أن أي لهجة من تلك اللهجات المغمورة قد أمدت الفصحى بروافد غنية أضافت الى منتها إضافات في الدلالة والمستوى الصرفي والصوتي ، ولهذا انتصر الكسائي على سبويه في المناظرة التي وقعت بينها وشابت قبائل العرب الكسائي ، لأن الكوفيين وعلى رأسهم زعيم مدرستهم قد توسعوا في الأخذ عن مصادر أسقطها البصريون . يوضح هذا ما جاء عن الأزهري من أن « الغالب على الكسائي اللغات »^(٤) كما وصف الكسائي بأنه « أعلم من أبي زيد بكثير – بالعربية واللغات »^(٥) ولن يضير هذه القبائل التي لم يأخذ عنها البصريون مخالفة لهجاتها للهجة قريش ، لأن « الناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطيء »^(٦) ولهذا أرجح أن أخذ العربية عن تلك القبائل التي استحقها العرب أولى من تلك الزيادات التي زيدت في لغة العرب وحملت عليها حملاً – وهي منها براء^(٧) .

(١) اللسان : ٧٧/٢ .

(٢) البغية : ٣٣٦ .

(٣) ضحى الإسلام : ٣٠٧/٢ .

(٤) مقدمة تهذيب اللغة : ٥٢ .

(٥) معجم الأدباء : ١٨٩/١٢ .

(٦) الخصائص : ١٢/٢ .

(٧) انظر : صيفاً في كتاب « الأيام والليالي والشهور » للفراء : ٣ ، ١٠ .

والحق أن موقف الكوفيين هذا قد دفعهم الى الاعتداد بالقراءات ، لأن القراءات ما هي إلا وجوه من الخلاف بين لهجات القبائل ، بعكس البصريين الذين أخضعوها لأصولهم ، وصنعهم ، حتى رموا كثيراً منها بالشذوذ والغلط واللحن « بل ربما حكموا على القراءة بالوهى ، وعلى القارئ بالوهم »^(١) .

هذا وقد ظهرت معارضات النحاة البصريين للهجات القبائل في عدة أضرب منها :

١ - طعنهم في القراءات القرآنية - والتي تمثل لهجات عربية :

(أ) ففي قوله تعالى « ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتموني من قبل »^(٢) قرأ حمزة بكسر الياء ، ووافقه الأعشى كما أجازها الفراء ، وأبو عمرو بن العلاء^(٣) ، وهي لغة بني يربوع^(٤) ، إذ الكسر عندهم مطرد في الياء المضاف إليها جمع المذكر السالم في حالة الوصل ، وقد قال القاسم بن معن عن هذه القراءة (إنها صواب)^(٥) ، (وكان معن هذا ثقة بصيراً)^(٦) ، وقال عنها الأخفش « ما سمعت هذا من أحد من العرب ولا من النحويين »^(٧) ، كما وصفها الزجاج بأنها « عند جميع النحويين رديئة مرذولة »^(٨) ، وأنكرها كذلك^(٩) أبو حاتم ، ورمأها الزنجشري بالضعف^(١٠) ، وزاد في إضعافها وتوهينها بأن الشاهد الشعري عليها لرجل مجهول ، والحق أن الشاهد للأغلب المجلى وراءه أبو شامة في أول ديوانه^(١١) ، ويرى المعري (لإجماع أصحاب العربية على كراهة هذه القراءة)^(١٢) ، كما يرى أن أبا عمرو ما أجاز هذه

(١) الإنصاف : المسألة : ٦٠ .

(٢) إبراهيم : آية ٢٢ .

(٣) النشر : ٢٩٨/٢ ، الإنحاف : ٢٧٢ .

(٤) الخزانة : ٢٥٨/٢ .

(٥) النشر : ٢٩٩/٢ .

(٦) إيراد المعاني : ٣٦٩ .

(٧) البحر : ٤١٩/٥ .

(٨) الخزانة : ٢٥٩/٢ ، إيراد المعاني : ٣٦٩ ، البحر : ٤١٩/٥ .

(٩) البحر : ٤٢٠/٥ ، الدر اللقيط : ٤١٩/٥ .

(١٠) الخزانة : ٢٥٩/٢ .

(١١) حاشية زين الدين على التصريح : ٦٠/٢ .

(١٢) التصريح : ٦٠/٢ .

القراءة إلا متهزناً^(١)، وكأنه يشير بذلك الى ما جاء عن أبي عمرو عندما سئل « إن أصحاب النحو يلحنوننا فيها ، فقال : هي جائزة »^(٢) .

وأستنبط من هذا العرض أن البصريين أنكروا هذه القراءة ، إذ أن الأخفش والزجاج ، وأبا حاتم والمبرد ، والزخشي على مذهب البصريين ، أما القاسم بن معن فهو من رؤساء النحويين الكوفيين^(٣) ، ولهذا أجاز القراءة بها ، كما أجازها أبو عمرو بن العلاء ، لأنه إمام في القراءة ، والمهزون على حق لأن هذه القراءة صحت سماعاً ، كما أنها صحت قياساً ، إذ الياء كسرت اتباعاً للكسرة التي بعدها في (بمصرخي^٤ إني) واللسان فيها يعمل من موضع واحد ، ووجه واحد ، ففيها الانسجام وتقريب الأصوات بعضها من بعض ، وذلك ما يميل إليه البدو أمثال بني يربوع .

ب (كما قرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع وغيره قوله تعالى « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا »^(٥) بضم التاء - (وحكى أنها لغة أزد شنوءة)^(٦) . وقال عنها الزجاج « هذا غلط من أبي جعفر »^(٧) كما خطأها الفارسي^(٨) ، ولم يميزها الزخشي^(٩) ، ولأن حركة الإعراب عنده لا يصح أن تستهلك لحركة الإعراب^(١٠) . ولكن أرجح أن العربية تحرص على الانسجام الصوتي والإتباع حرصاً على الإعراب ، ولهذا « رواها الكسائي »^(١١) ووجهها أن التاء ضمت إتباعاً لحركة الجسم ، ولولم يتبعوا الخرج اللسان من كسر الى ضم ، والعرب تكره ذلك .

وأرى من ذلك أن الزجاج ، والفارسي ، والزخشي وكلهم بصريون - قد غلطوا أبا جعفر - أحد القراء المشاهير الذين أخذوا القرآن عرضاً عن عبد الله بن عباس ، ثم هو شيخ نافع

(١) الفجران للمعري دار المعارف : ٢٣٩ - ٢٤٠ .

(٢) إبراز المعاني : ٣٧٠ .

(٣) البحر : ٤٢٠/٥ .

(٤) سورة البقرة : آية ٣٤ .

(٥) النشر : ٢١٠/٢ - ٢١١ .

(٦) البحر : ١٥٢/١ .

(٧) المرجع السابق .

(٨) النشر : ٢١١/٢ .

(٩) البحر : ١٥٢/١ .

(١٠) النشر : ٢١١/٢ .

ابن أبي نعيم أحد القراء السبعة ، ثم هو لم ينفرد بهذه القراءة ، بل قرأ بها غيره ، وشاركه فيها الكسائي الكوفي ، وإذا ثبتت لهجة عربية فلا ينبغي أن يخطأ القارئ بها أو يغلط .

ومما يتصل بحركة الانسجام هذه قراءة الحسن (الحمد لله) بكسر الدال واللام ، وقراءة ابن أبي عبلة (الحمد لله) بضم الدال واللام^(١) ، وهما قراءتان لأهل البدو^(٢) ، وقد عزيت القراءة الأولى لتميم وبعض غطفان^(٣) ، كما عزيت الثانية لربيعة^(٤) وقد ذهب البصريون إلى أنها قراءتان شاذتان في الاستعمال ضعيفتان في القياس^(٥) كما وسعها الزجاج (البصري) بقوله « ولا يلتفت إلى هذه اللغة ولا يعبأ بها »^(٦) .

كما حكى الصفار عن علي بن سليمان (الأخفش) أنه عقب على تلك القراءة بقوله « لا يجوز من هذين شيء عند البصريين » يقصد « الحمد لله » و « الحمد لله »^(٧) .

والحق أن هذه الحركات المنسجمة وإن تعارضت مع الإعراب في حالة كسر الدال إلا أن لها وجهاً مقبولاً ، إذ إن هذا التركيب لما كثر تداوله عند العرب جعل هذا التركيب مثل الكلمة الواحدة ، ولا شك أن الكلمة الواحدة يستثقل فيها الانتقال من ضمة يتلوها كسرة أو العكس ، فأثروا الكسرتين حينئذ ، مع أن الحمد مبتدأ مرفوع ، كما ضموا اللام إتباعاً للدال في القراءة الثانية .

وقد اجتهد الكوفيون في توثيق هاتين القراءتين ، لاسيما وقد نسبتا لهجة لبعض القبائل .

ج (وردت عدة قراءات لآيات كريمة ، وكلها تفيد التقاء الساكنين على غير حدّه ، منها :

١ - « أمتن لا يهدي إلا أن يُهدي »^(٨) .

(١) الإنصاف مسألة : ١٠٧ .

(٢) معاني القرآن : للغراء : ٣/١ دار الكتب .

(٣) الإنحاف : ٢٢ .

(٤) نزعة الألباء : ٣٦٤ .

(٥) المحتسب : ١٠/١ تيمور ، الإنصاف : ٣٣٨/٢ .

(٦) اللسان : ١٣٣/٤ .

(٧) نزعة الألباء : ٣٦٤ .

(٨) سورة يونس : آية ٣٥ .

٢ - « إِنَّ اللَّهَ نِعْمًا يَعِظُكُمْ بِهِ »^(١) .

٣ - « إِنَّ تَبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَسَعِيمًا هِيَ »^(٢) .

٤ - « تَتَّخِذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ »^(٣) .

٥ - « لَا تَتَّعَدُوا فِي السَّبْتِ »^(٤) .

٦ - كما ورد في الأثر « نِعْمَا الْمَالُ الصَّالِحُ »^(٥) .

فقد قرأ أهل المدينة «بتسكين الهاء وتشديد الدال، فجمعوا بين ساكنين» في الآية الأولى^(٦)، كما ذكر الشمس بن الجزري أن العراقيين والمشرقيين قد رَووا الإسكان؛ أي إسكان^(٧) العين مع تشديد الميم في الآيتين الثانية والثالثة والأثر، وبهذا قرأ أبو جعفر وشيبة، ونافع وعاصم، وأبو عمرو^(٨)، كما قرأ أبو جعفر أيضاً في الآية الرابعة بإسكان الحاء وتشديد الصاد^(٩)، وبإسكان العين مع تشديد الدال^(١٠) في الآية الخامسة .

ولقد ساق أبو شامة ما يفيد بأن التقاء الساكنين في مثل ذلك إنما هو لغة النبي ﷺ^(١١)، كما أيد ذلك صاحب البحر^(١٢) . « والتقاء الساكنين على غير حده أجازه الكوفيون »^(١٣) ومن

(١) سورة النساء : آية ٥٨ .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٧١ .

(٣) سورة يس : آية ٤٩ .

(٤) سورة النساء : آية ١٥٤ .

(٥) اللسان : ٦٧/١٦ ، الإتحاف : ٢٧ ، النشر : ٢٣٦/٢ .

(٦) تفسير الطبري : ٨٧/١٥ .

(٧) النشر : ٢٣٦/٢ .

(٨) اللسان : ٦٧/١٦ .

(٩) الإتحاف : ٣٦٥ .

(١٠) النشر : ٢٥٣/٢ .

(١١) إبراز المعاني : ٢٦٢ .

(١٢) البحر : ٣٢٤/٢ .

(١٣) القراءات واللهجات : ١٧٦ .

الواضح أن تلك القراءات التي تثبت التقاء الساكنين إنما وردت عن طريق القراء موصولة بسندها ، فإذا نظرنا إلى جانب النحاة البصريين فسنرى اتهامات شنيعة لتلك القراءة منها .

١ - ما ساقه ابن منظور من أن الزجاج اتهم القراءة مرة بقوله « ليست بمضبوطة »^(١) وأخرى بأنها « شاذة »^(٢) ، وقال عنها ثالثة بأنها ردية^(٣) .

٢ - وعقب أبو علي على من قرأ بها بقوله « بأن قوله لم يكن مستقيماً عند النحويين ، لأنه جمع بين ساكنين ، الأول منها ليس بمد ولين »^(٤) .

٣ - كما وصف محمد بن يزيد أحد مؤيديها بقوله « وهو من عجيب اختياراته »^(٥) وجميع هؤلاء الطاعنين فيها من نحوي البصرة ، أما الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام فقد أيدها^(٦) . وهو كوفي ، كما أيدها القراء ومنهم الداني بقوله « إن الإخفاء أقيس ، والإسكان آثر »^(٧) .

وإنما آثرت لهجة النبي ﷺ وقريش التقاء الساكنين ، لأن التقاءهما دليل على الأداء الكامل ، وإعطاء الصوت حقه دون أن يطغى عليه مجاوره بالحذف أو التأثير وتلك صفة من صفات الحضر الممثلين في قريش .

والحق أن تتبع كتب القراءات^(٨) توقفنا على كثير من القراءات القرآنية - التي تمثل لهجات عربية - تلك التي تجهل لها البصريون ، ووقفوا منها موقف المعارضة لأنها خالفت أصولهم وقواعدهم ، فحاولوا تأويلها أو رفضها ، ولهذا كان استقراؤهم ناقصاً حين اعتمدوا في الأخذ عن القبائل المشهورة فقط واصطدمت قواعدهم بقراءات القرآن تلك التي تمثل لهجات عربية مشهورة ومغمورة . وموقف البصريين هذا الموقف من القراءات - وهي تستند على ما بين اللهجات من

(١) اللسان : ٦٧/١٦ .

(٢) اللسان : ٢٣٠/٢٠ .

(٣) البحر : ٣٢٤/٢ .

(٤) إرباز الماني : ٢٦٢ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) المرجع السابق نفسه .

(٧) الإتحاف : ١٩٦ ، النشر : ٢٥٣/٢ .

(٨) انظر في ذلك البحر : ٤٩٥/٧ ، حاشية الحضري على ابن عليل : ٧٢/١ ، إرباز الماني : ٢٣١ ، الخصائص : ٧٥/١ ط الهلال ، البحر : ٢٠٦/١ ، شرح درة الفواص : ٦٤ ، البحر : ٩٩/٢ ، وانظر هذا الكتاب « باب الوقف » ، وكذلك باب « الإعراب في الأفعال » .

خلاف - المخراف عن المنهج السليم ، لأنهم ضيعوا علينا كثيراً من الدراسات في الجانب اللغوي ، وحجروا واسعاً وضيقوا ، وماذا عليهم لو جعلوا قواعدهم مرنة تتقبل المسأثور المروى من القراءات ، أو عدلوا واتخذوا شواهد لها من القراءات ، على أن إجماع النحاة البصريين ليس حجة - مع مخالفة القراء لهم ، لأن من القراء جماعة من أكابر النحويين ، ثم ولو قدر أن القراء ليس فيهم نحوي ، فإنهم ناقلون لهذه اللغة ، وهم مشاركون للنحويين في نقل اللغة ، فلا يكون إجماع النحويين حجة دونهم ، والقراء أولى ، لأن القراءة متواترة وما نقله النحويون آحاداً^(١) .

وكان أبو حيان على حق عندما أعلن كلمته ثائراً «ولسنا متعبدون بقول نحاة البصرة!»^(٢) ، وإن لسان العرب ليس محصوراً فيما نقله البصريون فقط ، والقراءات لا تنجي على ما علمه البصريون ونقلوه^(٣) ، بل «القراءة سنة متبعة»^(٤) ولا مدخل للقياس فيها . وعلى عكس هذا نجد مدرسة الكوفة ، فقد اعتبرت القراءات مصدراً للتشريع اللغوي ، إذ عنيت الكوفة منذ تمصيرها برواية القراءات ، لأنها كانت مهبط القراء ، ودراساتهم تعتمد على النقل ، وتعتز بالرواية والتلقين ، وكان بعض الأئمة يرى أن اختلاف القراءات ينبغي على ما بين لهجات القبائل من خلاف فرأى أن كلا من القراء «قد ذهب في إعراب ما انفرد به من حرفه مذهباً من مذاهب العربية لا يدفع ، وقصد من القياس وجهاً لا يمنع ، فوافق باللفظ والحكاية ، طريقتي النقل والرواية»^(٥) .

٢ - إنكارهم روايات تمثل لهجات عربية :

أ (فقد أنكر الأصمعي (البصري) أوقفت الدار والدابة بالألف ، وذكر أن الكلام (وقفت) بغير ألف ، وما أنكره لهجة تميمية^٦ ، كما أنكر (أفتن) ، مع أنها جاءت في قراءة قرآنية ، وشاهد للأعشى ، وأنها لهجة تميمية^٧ أيضاً ، كما رفض (أباع) مع ورودها

(١) الإتحاف : ٢٧ .

(٢) البحر المحيط : ١٥٩/٣ .

(٣) البحر : ٣٦٢/٢ - ٣٦٣ .

(٤) إبراز المعاني : ٣٨٣ .

(٥) الحجة في قراءات الأئمة السبعة لابن خالويه : ورقة رقم ١ مخطوط .

(٦) المصباح : ١٠٣٨/٢ .

(٧) اللسان : ١٩٤/١٧ .

لهجة لجماعة من جرم فصحاء^١ . ورفض (زوجة) وقال هي زوج^٢ ، وما أنكره لهجة تميمية^٣ . كما أنكر صيفاً لهجية كثيرة^٤ ، وقد يرجع هذا التزمت والتشدد الى فقره في حياته من جهة ، ومن جهة أخرى أنه كان من المضيقيين في الأخذ عن القبائل فحجر واسماً ، ولهذا كثيراً ما نسمع صيفاً لهجية يعقب عليها بقولهم « ولم يعرفها الأصمعي »^٥ ولو أن البصريين كانت عندهم حاسة علمية تاريخية ، فجمعوا لهجات القبائل كلها - ولم يضيّقوا الأخذ عن لهجات القبائل مع صحة عربيتها وثبوت روايتها - لوقفنا على الخطوط الكبرى ، والمعالم البارزة في نشأة اللهجات وتاريخها من جهة ، ولما غلطوا العرب^٦ في قولهم من جهة أخرى ، وغاب عنهم أن للعربي مذاهب كثيرة في القول .

ب (وحكى الكسائي^٧ والفراء^٨) (ومما كوفيان) لهجتين لعبد القيس في المضعف (أرد) وفي غيره (اسل زيدا) مع أن أحداً من البصريين^٩ لم يحك عنهم ذلك .

ج (كما حكى الفراء عن الكسائي أن بني يربوع وبني عقيل يقولون : حلى مصووغ ، ومسك مدووف ، وثوب مصوون ، وفرس مقوود ، وقول مقوول - وأما البصريون فلا يعرفون هذا^{١٠} .

د (ورفض الحريري (البصري) قولهم « فلان يستاهل الإكرام » وهو مستاهل للإنعام ، ثم عقب على الرفض بقوله « ولم تسمع هاتان اللفظتان في كلام العرب ، ولا صوب التلفظ بهما

(١) الجهرة : ٤٣٦/٣ .

(٢) الخصائص : ٢٩٥/٣ .

(٣) كتاب التذكير والتأنيث للسجستاني : خط تيمور .

(٤) الاقتضاب : ٤٣ ، معجم مقاييس اللغة : ٢٢٢/١ وما بعدها .

(٥) الخصص : ٥٨/١٥ .

(٦) انظر : الخصائص : ٢٧٣/٣ .

(٧) التصريح : ٤٠١/٢ .

(٨) ليس في كلام العرب : ١٢ .

(٩) التصريح : ٤٠١/٢ .

(١٠) الاقتضاب : ٢٧٥ ابن السيد .

أحد من أعلام الأدب ،^١ لكن جاء في اللسان عن الأزهرى أنه سمع ما أنكره الحريري من أعرابي فصيح من أسد^٢ .

كما خطأ كلمة (أرياح) وصوابها عنده (هبت الأرواح)^٣ لكن حكاهما اللحياني (وهو كوفي) ، كما عزاها السهيلي لغة لبني أسد^٤ .

وكثيراً ما كان يرفض الحريري (البصري) كثيراً من لهجات القبائل لتزمتها ولهذارد الحفاجي كثيراً من تخطئة الحريري .

فقد خطأ ولحن (فلان أشرّ من فلان) والصواب (شرّ) ،^٥ مع أن (أشر) وردت في الكلام الفصيح ، وفي صحيح البخاري^٦ ، وجاءت عليها قراءة قرآنية^٧ ، كما حكيت (أي الصيغة المرفوضة عند الحريري) لغة بني عامر^٨ .

٨ (وقد يقف في سبيلنا أن الكسائي (الكوفي) قد خطأ ولحن صيفاً وردت في كتابه « ما تلحن فيه العوام »^٩ ، وهذه الصيغ التي رماها باللحن تمثل لغات قبائل عربية، وأسوق من كتابه السابق بعض الأمثلة :

١ - يرى الكسائي أن « عجزت عن الشيء » بفتح الجيم ،^{١٠} هي الاستعمال اللغوي الصحيح . لكن حكى ابن القطاع الصقلي (٥١٠ هـ) أن الفراء عزاها بكسر الجيم لغة لبعض قيس^{١١} .

-
- (١) درة الفواص : ٧ .
 - (٢) اللسان : ٣٠/١٣ .
 - (٣) الدرة : ٢٣ .
 - (٤) شرح الدرة : ٦٦ .
 - (٥) الدرة : ٢٣ .
 - (٦) شرح الدرة : ٦٤ .
 - (٧) شواذ القرآن لابن خالويه : ١٤٧ .
 - (٨) المصباح : ٢٨٦/١ .
 - (٩) ومنها نسختان مخطوطتان : الأولى في برلين ونشرها بروكلمان . والثانية في خزانة جامع بومباي نشرها عبد العزيز اليمني الراجكوتي الأثري الهندي وطبعت بالسلفية : ١٣٤٤ .
 - (١٠) ما تلحن فيه العوام : ٢٤ .
 - (١١) كتاب الأفعال : ٣٤٠/٢ .

٢- كما يرى الكسائي أيضاً أن الصواب « غصصت بالطعام » بكسر الصاد^١ ، بينما ثبت الفتح لغة في الرباب^٢ .

٣- ويرى الصواب أن « تقول : عندي منادهن ومنوان وأمناء^٣ كثيرة » ويقول ابن سيده « ويقال : مَنْ والجمع أمنان تميمية »^٤ وفي اللسان « وبنو تميم يقولون : هو مَنْ ومنات وأمنان »^٥ .

٤- ويرى الصواب أن يقال : « عليّ ثياب جدد بضم الدال »^٦ مع أنها وردت بالفتح لغة لبعض تميم وكلب^٧ ، وعلل الأشموني للفتح فقال « واستثقل بعض التميميين والكلبين ضم عين فعل في المضاعف وجعلوا مكانها فتحة فقالوا : جدد وذلل^٨ . وقد سمع أبو زيد صيغ الفتح من ضبة^٩ . ولا أدري كيف لحنها الكسائي مع أن أبا السمال قرأ بها^{١٠} .

فكما سبق يتضح أن الكوفيين كانوا يتجهمون للهجات القبائل العربية كالبصريين وهذا يخالف ما نسير عليه ويقف في سبيلنا ، ولكن تزول هذه الشبهة سريعاً عندما يظهر أن (كتاب ما تلحن فيه العوام المنسوب للكسائي) ذلك الذي سقت منه موقف الكسائي من اللهجات لم تصح نسبته إليه ، لأن ما في الكتاب لا يلائم ما رواه اللغويون عن الكسائي في معاجم اللغة ، ولهذا أثار الأستاذ الميمني شكاً في نسمة هذا الكتاب الى الكسائي^{١١} .

فإذا أضفنا الى ما تقدم ما جاء عن الأزهري من أن « الغالب على الكسائي اللغات^{١٢} » وأنه

(١) ما تلحن فيه العوام : ٢٨ .

(٢) أفعال ابن القطاع : ٤٣٣/٢ .

(٣) ما تلحن فيه العوام : ٥٦ .

(٤) المخصص : ١٧٤/١٥ .

(٥) اللسان : ١٦٧/٢٠ .

(٦) ما تلحن فيه العوام : ٤٤ .

(٧) البحر : ٣٥٩/٧ .

(٨) الأشموني : ١٣٠/٤ .

(٩) فوادر أبي زيد مسائية : ٢٤٠ .

(١٠) البحر : ٣٥٩/٧ .

(١١) مقدمة الميمني لكتاب الكسائي : ٢٢ .

(١٢) مقدمة تهذيب اللغة للأزهري : ٥٢ .

« أعلم من أبي زيد بكثير - بالعربية واللغات »^١ ازدادنا يقيناً بأنه لا يتجههم اللهجات القبائل ، ولا يقف منها هذا الموقف .

٣ - تصنيف للأحكام التي يصدرونها على اللهجات :

فقد نعت البصريون لهجات القبائل بأوصاف مختلفة ، فسيبويه (١٨٣ هـ) نعت كسر الكاف في (فيكم وبكا) « بأنها رديئة جداً »^٢ وهي لناس من بكر بن وائل ، وأرى أنه يتمثل فيها التجانس الصوتي كاملاً . كما نقل سيبويه عن الخليل واصفاً لهجة عربية بقوله « وهذه لغة ضعيفة »^٣ ولكن سيبويه إذا اتجه الى لهجة الحجاز - نجده يتعصب لها ويخلع عليها أوصاف المدح والاطراء كقوله « والإدغام أحسن ، والبيان عربي حجازي »^٤ ، أو « عربي حسن »^٥ أو « وهي الحجازية الجيدة »^٦ أو « اللغة الحجازية هي اللغة الأولى القدمى »^٧ ، كما نسمع منه مدحاً للهجتهم ولكن من نوع آخر كقوله « العرب الذين ترضى عربيتهم ، أو الموثوق بعربيتهم ، أو فصحاء العرب »^٨ ، كما نعت الأخفش (٢٢١ هـ) لهجة عربية بقوله « وهي خبيثة »^٩ وكذلك السيرافي (٣٨٥ هـ) نعت بقوله « وهي لغة رديئة »^{١٠} وأبو الفتح ابن جنى (٣٩٢ هـ) يصف بقوله « وهي لغة مردولة »^{١١} كما سموا بعض اللهجات بأنها « شر اللغات »^{١٢} ، أو أنها لغة

-
- (١) معجم الأدباء : ١٨٩/١٢ .
 - (٢) المصح : ٥٩/١ .
 - (٣) شرح التصريح : ٤٠٢/٢ .
 - (٤) الكتاب : ٤٠٧/٢ .
 - (٥) الكتاب : ٤١٢/٢ .
 - (٦) الكتاب : ٤٢٩/٢ .
 - (٧) اللسان : ٢٧٦/٥ .
 - (٨) العربية يوهان فك : ٥١ .
 - (٩) شرح الشافية : ٢٤٧/٢ .
 - (١٠) شرح الشافية : ٢٤٦/٢ .
 - (١١) المقتضب : ١١٠/١ خط تيمور .
 - (١٢) الخزائن : ٢٣٥/١ .

سوء^١، أو تميمية فبيحة^٢، أو لا خير فيها^٣.

ويصف الهمداني (٣٣٤ هـ) بعض اللهجات - عند حديثه عن العلاقات اللغوية في جنوبي الجزيرة العربية ، كلهجة « عدن » بأنها مولدة رديئة ، وفي بعضهم نوّك وحقاقة^٤ ، كما يصف بعض أصحاب اللهجات بأنهم غتم يشاركون المعجم^٥ . وأحياناً يصف اللهجة بأن فيها تعقداً ، أو قحة متعقدة^٦ . كما يصف المقدسي (٣٧٥ هـ) لسان الأحقاف بأنه (وحش)^٧ ويسم عربية المراق بأنها حسنة فاسدة^٨ ، أو أن لسان هراة لا يصلح إلا للكفيف^٩ ، كما يصف اللهجة أحياناً بأن فيها انغلاقاً^{١٠} ، أو لسانهم فيه حلاوة أو عجلة^{١١} ، أو في كلامهم طنين^{١٢} .

كما أن الحريري (٥١٦ هـ) يسم أسلوباً يمثل لهجة عربية بقوله « وهو ما لا يعجب به ولا يقاس عليه »^{١٣} .

كما أن أبا شامة (٦٦٥ هـ) يقول معقلاً على إحدى اللغات « لا تمجيني تلك اللغة ، لأنها ليست لغة أهل الحجاز »^{١٤} كما نجد بعض المحدثين يصف لهجة يمنية صحيحة بقوله « وهذه لغة لا ينبغي أن يلتفت إليها ، فإن اللغة اليمنية فيها أشياء منكورة خارجة عن المقاييس »^{١٥} .

(١) الزهر : ٢٢٥/١ .

(٢) الزهر : ٢٢٤/١ .

(٣) الزهر : ٢٢٥/١ .

(٤) صفة جزيرة العرب : الهمداني : ١٣٤ تحقيق بليهد النجدي .

(٥) صفة جزيرة العرب : ١٣٥ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) أحسن التقاسيم للمقدسي : ٩٧ .

(٨) المرجع السابق : ١٢٨ .

(٩) المرجع السابق : ٣٣٥/٢ .

(١٠) المرجع السابق .

(١١) المرجع السابق : ٣٦٨/٢ .

(١٢) المرجع السابق : ٤١٨/٢ .

(١٣) الدرة : ٣٥ .

(١٤) إبراز المعاني : ٤٨٨ .

(١٥) ما تلعن فيه العامة للكسائي : ٣٥ هامش .

ونظرة هؤلاء الضيقة لآسيا رجال البصرة منهم، جعلتهم يقيسون هذه اللهجات التي وصفوها بمقياس اللغة الفصحى ، ولهذا حكموا عليها بهذه الأحكام القاسية ونعتوها بتلك الأوصاف ، وغاب عنهم أن كل لهجة عربية ، لها مقاييسها الخاصة ، ومنطقها الخاص ، كما أن الأصل في اللهجات هو الرواية والنقل ، لا القياس والعقل ، ولكنهم لجوا في القياس ، واتباع التأويلات البعيدة ، والتوجيهات المتكلفة ، وفي هذا يقول دي بور « ولهذا سمي نحاة البصرة » أهمل المنطق ، تمييزاً لهم عن نحاة الكوفة »^١ .

على أننا نرفض الأحكام القاسية السابقة تلك التي أصدرها النحاة على اللهجات، ولعل السبب في خلع الأوصاف السابقة اللاذعة على اللهجات أن النحاة - وهم أصحاب هذه الأوصاف - كانوا أصحاب معايير ومقاييس ، حاولوا إخضاع اللهجات مع اختلاف مشاربها ومنازلها لها ، فلما فلتت هذه اللهجات من أحكامهم وموازينهم وتقنينهم ، رموها بما سبق من رداءة ، وسوء ، وخبث ، وقحة .

والمفروض أن أصحاب كل لهجة عربية كانوا يراعون مستوى صوابياً اجتماعياً عندما يتكلمون ، وهذا المستوى يختلف باختلاف المجتمعات ، وعلى أساس هذا المستوى يكون الحكم بالصحة والخطأ ، والمجتمع وحده هو الذي يصدر مثل هذه الأحكام ، أو يخلع هذه الصفات على أفرادها ، وهذا المستوى الصوابي « فكرة لا تتصل باللغة فحسب ، وإنما تتناول كل ناحية من نواحي النشاط الاجتماعي »^٢ .

وكان الأولون من علماء العربية عندما يثيرون أمثلة يسيرة من اللهجات يخلعون عليها أوصافاً وأحكاماً لا تخضع لمقياس اجتماعي - بل لمجموعة من القوانين الموضوعية والنظم .

والسبب في اضطراب مقياس الخطأ والصواب في أيدي النحاة يرجع إلى الاختلاف في تحديد هذا المقياس ، ففي الأخذ عن القبائل مثلاً أخذ البصريون عن قيس وقيم وأسد ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين فقط ، لكن الكوفيين وسعوا الدائرة وأخذوا عن قبائل لم يرض البصريون أن يأخذوا عنها - ولهذا اختلف المقياس في يدهم واختلف الحكم لهذا بالصحة والخطأ ، ورأينا البصريين يسمون لهجات عربية بالضعف والشذوذ ، بينما الكوفيون ارتضوها وتوسعوا في قبول كثير مما أنكره غيرهم ، حتى رأينا فريقين - فريق متشدد متعصب ، وفريق موسع غير

(١) تاريخ الفلسفة في الإسلام : ٣٨ ترجمة أبي ريدة .

(٢) اللغة بين المياريّة والوصفيّة : ٥٧ ، دكتور تمام حسان .

مضيق ، ولهذا نجد إنكار كثير من البصريين للهجات العربية كالأصمعي^١ فإنه كان يشدد ، ويفسر مثل هذا قول الجواليقي في صدر التكملة : « واعتمدت الفصح من اللغات دون غيره ، فإن ورد شيء مما منعته في بعض النوادر فطرح لقلته وردائه »^٢ ، والجواليقي في مذهبه هذا كالحري البصري المتزمت ، حيث كان ينقد ما خرج عن الفصاحة ويصفه باللحن – مع أن له وجهاً من الصواب والصحة ، وأنه لغة جماعة من العرب .

وكما أهمل البصريون الاعتداد بلهجات القبائل العربية كما سبق ، سار على نهجهم أكثر علماء العربية ممن خلط بين المذهبين البصري والكوفي ، وسأشير الآن إلى شيء من ذلك .

ثانياً : مدى ظهور لهجات القبائل في مؤلفات البغداديين :

وسأتناول بالبحث عالين من علماء العربية ممن خلط بين المذهبين الكوفي والبصري وموقفهما من لهجات القبائل .

أولهما : أبو محمد عبدالله بن مسلم بن قتيبة (٢١٣ – ٢٧٦) .

وثانيهما : أحمد بن فارس (٨٣٩٥) .

أما الأول وهو ابن قتيبة فقد كان ممن خلط بين المذهبين كما رأى ابن النديم^٣ ، ويرى المستشرق هاوول Howell في كتابه النحو العربي أن ابن قتيبة هو الذي حمل عبء مزج المذهبين وإنشاء المدرسة البغدادية^٤ . وقد كان متشدداً متزمتاً في اللغة ، وما يؤكد ذلك أنه احتضن مذهب الأصمعي المتطرف في تنقية اللغة^٥ . بل جعل نفسه مدافعاً عن هذا المذهب ، وكان يؤرقه ما يسمعه من انحرافات لغوية في المجتمع العربي – ولهذا ألف كتابه (أدب الكاتب) ليقوم الألسنة ، ويعيد العربية إلى سالف عهدها . وهذا المنهج يفرض عليه أن يهمل لهجات القبائل في كتابه السالف إذ إن لهجات القبائل – وهي طرق منحرفة عن الفصحى – يجب عليه أن يتحاشاها ، لأنها تتعارض مع غرضه وهدفه ، ولهذا رأيناه يلحن صيغاً ، ويحكم عليها بالعامية ، بينما هي لهجات لقبائل عربية :

(١) الأخطاء اللغوية : ٧/١ .

(٢) تكملة إصلاح ما تغلط فيه العالمة : ٥ .

(٣) الفهرست : ١٢١ .

(٤) ابن قتيبة : ١٦٩ في أعلام العرب : ٢٢ .

(٥) يوهان فك : ٩١ .

١ - فلكة المفزل - بفتح الفاء « لا غير » والعامية تكسر ذلك ^١ ، لكن ورد الكسر في نوادر يونس وأنه لغة الحجاز ^٢ .

٢ - ما جاء في باب (ما لا يهز والعوام تهزه) ، « وتدت الوتد أئده ^٣ وتدا » ، بينما ورد عن ابن دريد أن الصيغة السابقة لتميم ، وما أنكره وهو : « أوتده ابتاداً » لهجسة لأهل الحجاز ^٤ !

٣ - كما أنكر صيفاً كثيرة ورماما باللحن ، وما أنكر استعماله وارد صحيح ^٥ .

كما نراه كثيراً ما يهمل عزو الصيغ الى قبائلها ، ومن ذلك :

١ - عرضت له القول تعرض عرضاً - (بوزن علم يعلم) ، وغيرها عرض يعرض عرضاً (بوزن ضرب يضرب) ^٦ بينما التحقيق أثبت أن الصيغة الأولى للحجاز ، والثانية لتميم ^٧ .

٢ - « إسوة وأسوة » ورمية ورمية ، وغلظة وغلظة - بالكسر والضم ^٨ ، والتحقيق أثبت أن الكسر للحجاز ، والضم لتميم ^٩ .

٣ - « أتيته وأقرته أتياً وأقوا » ^{١٠} والتحقيق أثبت أن الواوية لهذيل ^{١١} .

(١) أدب الكاتب : ٣٠٠ .

(٢) الاقنصاب : ٢٠٥ .

(٣) أدب الكاتب : ٢٨٨ .

(٤) الاشتقاق : ٦٨ ط وستنفلك .

(٥) انظر أدب الكاتب : ٢٩٣ وقارنه بالاقنصاب : ١٩٧ - ١٩٨ ، أدب الكاتب : ٢٩٣ ، وقارنه بالاقنصاب : ١٩٧ .

(٦) أدب الكاتب : ٢٦٢ .

(٧) المزهر : ٢٧٦/٢ ، الاقنصاب : ١٨١ .

(٨) أدب الكاتب : ٤٢٤ .

(٩) المزهر : ٢٧٦/٢ ، ٢٧٧ .

(١٠) أدب الكاتب : ٣٦٤ .

(١١) ديوان الهذليين : ١٦٥/١ .

٤ - « عدوة الوادي وعدوته بالكسر والضم »^١ والتحقيق أن الضم لقريش والكسر لقيس^٢ .
وفي كل باب من أبواب كتابه نجد إهمال العزو في كل صفحة من صفحاته بل في كل كلمة من
كلماته^٣ .

أما الثاني فهو أحمد بن فارس (متوفي ٣٩٥ هـ) وهو ممن خلط المذهبين^٤ كسابقه ، ولم يعن
بلهجات القبائل أيضاً ، ومما يؤكد ذلك أنه أهمل عزو الصيغ الى قبائلها ، فمن ذلك :

١ - « الففغاني : القصاب »^٥ . والتحقيق أثبت أنها لغة لهذيل^٦ .

٢ - الهدى والهدى - بالتخفيف والتشديد - ما أهدى من النعم الى الحرم^٧ . والتحقيق أن
التشديد لغة تميم^٨ . والتخفيف لغة قريش^٩ .

٣ - تفكهون ، وتفككون^{١٠} والتحقيق أنه بالهاء لغة أزد شنؤة ، والنون لبني تميم^{١١} .

٤ - ذوى العود يذوى . . . وربما قالوا ذأى يذأى^{١٢} . والتحقيق أثبت أن الأولى لأهل نجد

(١) أدب الكاتب : ٤٣٤ .

(٢) المصباح : ٦٠٧/٢ .

(٣) انظر أدب الكاتب : ٣٣٥ ، ٣٧٦ ، ٤١٩ ، ٤٦٤ ، وانظر باب البدل من هذا الكتاب

(٤) الفهرست : ١٢٥ .

(٥) معجم مقاييس اللغة : ٤٤١/٤ .

(٦) كتاب العين : ٣٢ ، الجمهرة : ١٥٩/١ ، اللسان : ١٢٦/١٠ وفي هذه المصادر وردت بالعين لا بالفاء
المعجمة ، وفي ديوان الهذليين : ٥/٢ هـ وردت « الففغمي » في شعر صخر الفبي ، ومعناها : الحفيف - وهذا
مثال لما أصاب اللهجات من تصحيف وتشويه .

(٧) معجم مقاييس اللغة : ٤٣/٦ .

(٨) البحر : ٦٠/٢ .

(٩) البحر : ٩٨/٨ .

(١٠) المقاييس : ٤٤٦/٤ .

(١١) إبدال أبي الطيب : ٤٥٩/٢ .

(١٢) المقاييس : ٣٦٣/٢ .

والثانية لغة الحجاز^١، كما أهمل العزوفى كتابه الصحابي أيضاً^٢ وقد ظهرت معارضته
لللهجات القبائل في صور منها :

١ - الشك في كثير منها^٣ .

٢ - رميه ابن دريد بالتدليس عندما يعزو لليمن ، وقوله يسخر من ذلك : « ولا نقول لأئمتنا إلا
جميلاً »^٤ .

٣ - وقد يسم بعض اللهجات العربية تارة بالقبح^٥ ، وأخرى بأنها شيء لا يعول^٦ عليه ، أو يثير
حول اللهجة جوّاً من الشك كقوله « على أنهم يقولون « الصنارة بلغة اليمن : الأذن »^٧ ،
أو « الشبص : الحشونة ، وليس هو بشيء »^٨ على أن الكلمة وردت في الجهرة منسوبة
لهجة لليمن^٩ ، أو قوله بعد أن ذكر المعجزة « فهذا لا وجه للشغل به ، وما لا يدري ما
هو »^{١٠} وقوله بعد أن ذكر الغمضة أيضاً « ان هذه الحكايات لا تكاد يكون لها قياس »^{١١} .

وهكذا نرى علماء بغداد يتجهمون للهجات القبائل حتى إن الأزهرى (٢٨٢ - ٣٧٠)
أنكر لهجة هذلية ، وطعن في نصر بن سيار^{١٢} ، ووسمه بأنه ليس حجة^{١٣} لأنه رواها .

وقد يعمل موقف الأزهرى هذا بأنه لما وقع أسيراً لبث أكثر من خمس عشرة سنة في قبيلة
هوازن ، وفيها جماعة من أسد وتميم - أخذ خلالها اللغة من أفواه العرب الأقحاح .

(١) المزمر : ٢١٥/١ .

(٢) انظر الصحابي : ١٩ ، ٢٠ ، ٨٠ ، ١٧٢ .

(٣) المقاييس : ٢٨٥/٢ .

(٤) المقاييس : ٣٠٧/٤ .

(٥) المقاييس : ٥١/١ .

(٦) المقاييس : ٣٥٣/١ .

(٧) المقاييس : ٣١٣/٣ .

(٨) المقاييس : ٢٤١/٣ .

(٩) الجهرة : ٢٩١/١ .

(١٠) المقاييس : ٢٩/٤ .

(١١) المقاييس : ٣٧٨/٤ .

(١٢) اللسان : ٤٠٠/١ .

(١٣) كتاب السماع والقياس لأحمد تيمور : ٤٣ .

وإذا كنا قد أشرنا الى موقف بعض علماء العربية من لهجات القبائل في المشرق ، فأجدر بنا أن نتوجه الى المغرب الإسلامي — لنرى موقف علمائه منها .

ثالثاً : نظرة علماء العربية في المغرب الاسلامي الى لهجات القبائل :

وسأشير الى موقف رجلين في دوائر الأندلس :

أولهما : جمال الدين أبو عبدالله الطائي الجياني الأندلسي (٦٠٠ - ٦٧٢)^١ ويقول عنه السيموطي « وأما اللغة فكان إليه المنتهى في الإكثار من نقل غريبها والاطلاع على وحشيها ... وأما النحو والتصريف فكان فيهما بحراً لا يجاري ، وحبراً لا يباري ، وأما أشعار العرب التي يستشهد بها على اللغة والنحو — فكانت الأئمة الأعلام يتحبرون فيه ويتمتعون من أين يأتي بها »^٢ وسأتناول من مؤلفاته الكثيرة التي عددها له العلماء مؤلفاً واحداً أبين فيه مدى ظهور لهجات القبائل ، والمنهج الذي اختطه لذلك ، والمؤلف مخطوط منظوم يسمى :

الكافية الشافية — وتقع في ثلاثة وسبعين وسبعائة وألفي بيت من بحر الرّجز وقد حشد ابن مالك فيها إشارات لهجية هامة ، كما أثر غالباً أن يذكر اسم القبيلة مع ذكر السمة اللهجية لها — على الرغم من صعوبة ذلك في النظم وقد تتبععت إحصائياً ما ورد فيها من لهجات القبائل ويتبين أنه قد عزا لهذيل كقوله :

وما كبيضة وجوزة فمن هذيل افتح ولغيرهم سكن^٣

وإلى سليم كقوله :

والقول مطلقاً كظن عملا عند سليم وعلى ذا حملا^٤

وإلى طيء كقوله :

بنحو راضى وبنّت في راضى وبُنيت لطىء تراضى^٥

(١) البغية : ٥٣ .

(٢) البغية : ٥٣ .

(٣) الكافية : ورقة ١١٦ مخطوط بدار الكتب ٢٣٩ نحو .

(٤) الكافية ورقة : ٣٨ .

(٥) الكافية ورقة : ١٥٠ .

وإلى خشم كقوله :

عن خشم فذو وذات صرفاً في عرفهم كبعض ذى يوم رقفاً^١
وإلى قيس وفقص كقوله :

وأعربت قيس لدن وفقص اعراب حيث عنهم مقتبس^٢
وإلى ربيعة والأزد كقوله :

كذا لدى ربيعة المنون في نصب أو في غيره يسكن^٣
والأزد مدأ تبدل التنوين من جنس التحرك الذي به قرن^٤
كما عزا إلى الحجاز : وقيم ، ونجد^٥ . وإلى لخم كقوله :

وصح وقف لخم بالنقل الى محرك وغيرها لن ينقلا^٦
ويظهر منهجه من أنه كثيراً ما يحدد اسم القبيلة كما سبق ، وأحياناً أخرى لا يذكرها بل
يستعاض عنها بما يأتي :

أ (« ببعض الفصحاء » كقوله :

رواوا أو همزا أو اليا من ألف أبدال بعض الفصحاء إذ يقف^٧
ب (أو بالندرة كقوله :

ونادر تثليث ميم مغزل^٨

ج (أو بعض العرب كقوله :

(١) الكافية ورقة : ٣٨ .

(٢) الكافية ورقة : ٥٤ .

(٣) المرجع السابق : ١٣٧ .

(٤) انظر الكافية ورقة : ١٢ ، ٢٠ ، ٤٠ ، ٥٧ ، ٧٣ ، ٨٩ ، ١٠٥ .

(٥) الكافية ورقة : ١٠٩ .

(٦) المرجع السابق : ١٣٨ .

(٧) المرجع السابق : ١٣٧ .

(٨) المرجع السابق : ١٦٢ .

وكيف كي صارت لدى بعض العرب والفعل بعدهما ارتفاعه وجب^١

د (أويكتفي بشاهد يوضح لهجة القبيلة كقوله :

وبان الذين مع عبادا أمثالكم تلفي لذا اعتضادا^٢

فإنه يشير الى ما جاء في المحتسب من قراءة سعيد بن جبير « إن الذين تدعون من دون الله عباداً أمثالكم » بنصب عبادا « حيث علمت إن - النافية عمل ليس في لغة أهل العالية^٣ .

هـ (أويذكر كلمة (لغة) كقوله :

وقد تلى علامة كمضمر في لغة كانطلقوا بنو السري^٤

ويبدو أن ابن مالك كان يتوسع أيضاً في الأخذ عن القبائل، لاسيما تلك التي رفض البصريون أن يأخذوا عنها ، فقد اعتمد على لغات لخم وجذام وغسان^٥ . وهذه القبائل لم يأخذ عنها البصريون بينما أخذ الكوفيون بلهجاتهم ، وهذا ما يجعل ابن مالك يسير في ركاب الكوفيين، إذ أن لغات القبائل عندهم كلها حجة ، وما دامت هذه القبائل عربية فهي حجة في الاستشهاد والأخذ بلهجاتها ، وما يؤكد نظرة ابن مالك السابقة أنه كان يأخذ بالقراءات ويحتج بها ولها فقد جوز تشديد النون من « اللذان واللذان » كما جوز التشديد مع الياء أيضاً حيث قال « والنون إن تشدد فلا ملامة^٦ » .

والتشديد مذهب الكوفيين بينما رفضه البصريون^٧ ، وابن مالك يركز على جواز ذلك بقراءة « ربنا أرنا الذين » بتشديد النون وقد ورد التشديد لهجة تميم وقيس^٨ . وكان ابن مالك،

(١) المرجع السابق : ٩٣ .

(٢) الكافية ورقة : ٢٠ .

(٣) المصحح : ١٢٤/١ وما بعدها .

(٤) الكافية ورقة : ٣٨ .

(٥) الاقتراح : ٢٤ .

(٦) الألفية : باب الموصول .

(٧) البحر المحيط : ١٩٥/٧ .

(٨) التصريح : ١٣٢/١ .

في أخذه بالقراءات التي تمثل لهجات عربية ، يؤمن بأن اللهجات تمثل حقلاً خصيباً - لا يمكن إغفاله ما دام ينبض بالحركة والحياة ، يوضح هذا ما جاء في البغية من أنه « كان إماماً في القراءات وعلماً » ، كما رد على النحويين المتقدمين الذين يعيبون على حمزة وابن عامر قراءات بعيدة في العربية ^٢ . ووثق بعض اللهجات العربية - بما جاء في الحديث كلهجة طيء وأزد شنؤة حيث ألحقنا بالفعل علامة التثنية والجمع مع ذكر الفاعل الظاهر بعده ، فعضدها ابن مالك بقوله عليه السلام « يتعاقبون فيكم ملائكة » ^٣ وكان ابن مالك على حـق أيضاً عندما استشهد بالحديث على الرغم من معارضة كثير من رجال العربية في ذلك ^٤ . ومثل كافية ابن مالك نجد ألفية أخرى في النحو للمختار ابن بونة (ط أولى الحسينية المصرية ١٣٢٧ هـ) كمل بها ألفية ابن مالك ، وابن بونة يمثل المغرب الإسلامي (موريتاني) ، وقد ظهرت لهجات القبائل في ألفيته ظهوراً غامراً ، ومنهجه في إيرادها يتضح فيما يلي :

١ - أحياناً يذكر اسم القبيلة كقوله ص ٣٦٥ :

وإن ترنم التميميونا فمدة الروى يثبتونا

٢ - وأحياناً يذكر لهجة القبيلة ثم يمثل لها كقوله ص ٨١ :

لفعلها عند تميم ترك في نحو ليس الطيب إلا المسك

٣ - وقد لا يذكر اسم القبيلة صراحة ، لكنه يستعير عنها بإشارة :

أ (كقوله (بعضهم) ص ٣٩٨ وهي إشارة الى لهجة تميم ، أو الى لهجة الحجاز ص ٣٦٣ .

ب (أو (نادراً) ص ٣٨٨ .

ج (أو (عند بعض العرب) ص ٣٩٣ .

د (أو (فيه وجهان) ص ٣٢٤ ، أو (وقد يقال) ص ٣٠٣ ، أو (ربما) ص ٤٦ ، أو

(وقد روى) ص ٤١ .

(١) البغية : ٥٣ .

(٢) الاقتراح : ٧ .

(٣) شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح : ١٩٢ .

(٤) انظر خزانة الأدب : المقدمة .

٤ - أو يحدد اللهجة عن طريق وضعها من غير تصريح بها ، كماشارته الى لهجة كلب وعذرة وكعب ص ٤٠٢ ، وهذيل ص ٣٨٢ ، وسُلَيْم ص ٢٨٩ ، ويروبوع ص ١٩٦ ، وعقيل وكلاب ص ٢٥ .

٥ - أو يعبر أحياناً عن اللهجة بالضرورة والاختيار ص ٢٨ .

ثانيهما : الإمام أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ) نحوي عصره ، ولغوي ومفسره ومحدثه ومقرئه ومؤرخه وأديبه ، وقد عدد له السيوطي كتباً كثيرة^١ اخترت منها كتاباً واحداً لأستشف منه موقفه من اللهجات ومنهج فيه وهو « البحر المحيط » وقد آثرت عقد موازنة ثلاثية بين كتاب البحر المحيط لأبي حيان ، وكتاب الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل للزمخشري ، وجامع البيان عن تأويل آي القرآن لمحمد بن جرير الطبري - وهذه الكتب الثلاثة تتحد في الموضوع وهي أنها تدور في فلك تفسير القرآن الكريم ، وكتب التفسير تمثل مصادر أولى للهجات القبائل ، ومكان الموازنة في هذه الكتب تشمل سورة فاتحة الكتاب والبقرة الى قوله تعالى « تلك الرسل » وإليك عرض هذه الموازنة :

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	المحيط بالمعاني
الفاتحة	مالك يوم الدين آية ٤	الضبط الحركي	لم ينسبها	لم ينسبها	عزاها الى بكر بن وائل ٢٠/١
«	نستعين آية ٥	«	« ٥٣/١	« ١٠/١	بفتح النون للحجاز، وبكسرهما لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وهذيل ٢٤ - ٢٣/١
«	الصراط المستقيم آية ٦	اختلاف الحروف	« ٥٧/١	لغة قريش ١٢/١	الصاد لغة قريش ولشامها زائياً لغة قيس - والزاي لغة عذرة وكعب وبني القين ٢٥/١
«	«	التذكير والتأنيث	« ٥٧/١	لم ينسبها ١٢/١	أهل الحجاز يؤنثون الصراط ، وبنو تميم يذكرون : ٢٥/١
البقرة	هدى للمتقين آية ٢	التذكير والتأنيث	لم ينسبها ٧٦/١	لم ينسبها ٢٨/١	بنو أسد يؤنثونه ٣٣/١
البقرة	لا ريب فيه	الذكر والحذف	«	حذف الخبر كثير إذا علم خبر « لا » عند أهل الحجاز لم تلفظ به بنو تميم ، وكثر حذفه عند الحجاز ٣٧/١	«
البقرة	سواء عليهم أ أنذرتهم/آية ٦	التسهيل والهمز	لم ينسبها ٨٦/١	لم ينسبها ٣٦/١	تخفيف الهمزة وجعلها واواً لغة الحجاز : ٤٥/١
«	«	«	« ٨٦/١	« ٣٧/١	تم تخفف الهمزتين ، أهل الحجاز

اسم السورة	آية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	المعبر المخطط
					لا يجمعون بينها للتخفيف ٤٧/١ ، « فيدخلون ألفاً بين الهمزتين ثم يلينون الثانية »
البقرة	وما هم بمؤمنين آية ٨	الزيادة والحذف	لم ينسبها ٩١/١	لم ينسبها ٤٢/١	أكثر لسان أهل الحجاز جر الخبر بالباء ، وتزاد الباء أيضاً في لغة تميم خلافاً لمن منع ذلك ٥٥/١
البقرة	وإذا قيل لهم آية ١١	اختلاف الحروف	لم ينسبها ٩٧/١	لم ينسبها ٤٧/١	قيل - لغة قريش ومجاورهم من بني كنانة . 'قول - لغة كثير من قيس وعقيل ومن جاورهم وعامة بني أسد . 'قول - لغة لهذيل وبني دُبَيْر :
البقرة	إنا معكم آية ١٤	الضبط الحركي	لم ينسبها ١٠١/١	لم ينسبها ٥٠/١	٦١ - ٦٠/١ مع تسكينها قبل حركة لغة ربيعة وغتم ، وإذا قلت مع الرجل أو مع ابنه ، فالفتح لغة عامة العرب . والكسر لغة ربيعة : ٦٢/١

اسم السورة	الآية	نوع اللغة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
					البحر ، ٦٩/١ النهر الماد .
البقرة	أولئك الذين اشترؤا الضلالة	الإمالة والفتح	« ١٠٦/١ »	« ٥٢/١ »	الإمالة في تميم ، والفتح لغة قريش : ٧١/١
البقرة	بالهدى . آية ١٦ أو كصيّب من السماء . آية ١٩	التذكير والتأنيث	« ١١٤/١ »	« ٥٩/١ »	الجنس الذي ميز واحدته بتاء يؤنثه الحجازيون ، ويذكره التميميون وأهل نجد . ٨٣/١
البقرة	يحملون أصابعهم في آذانهم	التأنيث والتذكير	« ١١٩/١ »	« ٦١/١ »	بعض بني أسد يقولون « هذا إلهام » والتأنيث أجود . ٨٤/١
	من الصواعق . آية ١٩	التقديم والتأخير	« ١١٩/١ »	« ٦٤/١ »	الصاقعة - لغة بني تميم : ٨٤/١ - ٨٦
البقرة	يَكَادُ البرق يخطف أبصارهم آية ٢٠	الضبط الحركي	« ١٢٣/١ »	« ٦٥/١ »	الكسر في طاء الماضي لغة قريش ، وقرأ بعض أهل المدينة يَخْطُفُ . ٨٩/١ - ٩٠ .
البقرة	يا أيها الناس آية ٢١	الضبط الحركي	« ١٢٤/١ »	« ٦٨/١ »	ضم الهاء لغة بني مالك من بني أسد . ٩٣/١ .
البقرة	لعلكم تتقون . آية ٢١	الإعراب	لم ينسبها « ١٢٥/١ »	لم ينسبها « ٧٠/١ »	الجر « لعل » لغة عقيل : ٩٣/١

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
البقرة	وبشّر الذين آمنوا . آية ٢٥	التشديد والتخفيف	١٣٢/١	٧٨/١	التشديد وهي اللغة العليا ، ولغة أهل تهامة التخفيف ١٠٩/١
البقرة	ولهم فيها أزواج . آية ٢٥	التذكير والتأنيث	١٣٦/١	٨٢/١	زوج لغة الحجاز وزوجة لغة تميم وكثير من قيس وأهل نجد/ البحر ١٠٩/١
البقرة	لا يستحي أن يضرب. آية ٢٦	الحذف والزيادة	١٣٧/١	٨٥/١	بياء لغة الحجاز والماضي استعيا ، بياء واحدة لغة تميم والماضي استحي . ١٢٠/١ - ١٢١/١
البقرة	« «	الإعراب	١٣٧/١	٨٥/١	الجزم « بأن » لغة لبنى صباح ١١٨/١
البقرة	فأما الذين ... فيعلمون ... وأما الذين. آية ٢٦	اختلاف الحروف	١٤٠/١	٨٨/١	« أما » أبدل بنو تميم الميم الأولى ياء « أيما » ١١٩/١
البقرة	هو الذي خلق لكم ، آية ٢٩	التشديد والتخفيف	١٤٥/١	٩١/١	هو - شددتها همدان وسكنتها أسد وقيس : ١٣٣/١
البقرة	أنبتوني بأسماء هؤلاء . آية ٣١	الممدود والمقصور	١٥٩/١	٩٤/١	المد في أولاء لغة الحجاز ، والقصر لغة تميم ، وبعض قيس وأسد : ١٣٨/١

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
البقرة	وإذ قال ربك للملائكة إني جاءلٌ. آية ٣٠	الضبط الحركي	لم ينسبها	لم ينسبها	أنتى : بنو سليم يفتحونها بعد القول بدون شرط ١٤٠/١
البقرة	وإذ قلنا للملائكة استجدوا. آية ٣٤	« «	« ١٧٧/١	« ٩٥/١	بضم التاء نقل أنها لغة أزد شنوة/البحر ١٥٢/١ والنهر ١٥٢/١
البقرة	وَكُلًّا مِنْهَا رَغَدًا. آية ٣٥	« «	« ١٨٢/١	« ٩٥/١	تم تسكن العين . ١٥٥/١ ، النهر الماد ١٥٦/١
البقرة	حيثُ شئنا آية ٣٥	الإعراب	« ١٨٢/١	« ٩٥/١	إعرابها لغة بني فقمس ١٥٥/١
البقرة	فمن تبع هدايَ آية ٣٨	التصحيح والإعلال	« ١٩٥/١	« ٩٧/١	لغة هذيل البحر : ١٦٩/١
البقرة	وأوفوا بعهدي أوفٍ بعهدي . آية ٤٠	فعل وأفعل	« ١٩٨/١	« ٩٧/١	أهل الحجاز « أوفيت » وأهل نجد يقولون «وفيت» ١٧٢/١
البقرة	حتى نَرَى الله جهره . آية ٥٥	اختلاف الحروف	« ٢٢٩/١	« ١٠٥/١	« عى » لغة هذيل ٢٠٤/١
البقرة	نَرَى الله جهره . آية ٥٥	«	« ٢٢٩/١	« ١٠٥/١	لغة تميم يرأى وأرني ٢٠٤/١
البقرة	المنّ والسّوى : آية ٥٧	الدلالة	« ٢٣٣/١ - ٢٣٤	« ١٠٦/١	السوى : العسل بلغه كنانة ٢٠٥/١
البقرة	فتوبوا الى بارئكم . آية ٥٤	الضبط الحركي	« ٢٢٦/١	« ١٠٥/١	لغة تميم تسكين بارئكم ٢٠٦/١

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان الطبري	الكشاف	المعبر المحيط
البقرة	فأنزلنا على الذين ظلموا رجلاً من السماء ، آية ٥٩	الضبط الحركي	« ٢٤٢/١ »	« ١٠٧/١ »	الرجز بضم الراء لغة بني الصمعات ، وقرىء بها : ٢١٨/١
البقرة	فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا . آية ٦٠	الضبط الحركي	لم ينسبها « ٢٤٣/١ »	لم ينسبها « ١٠٨/١ »	إسكان الشين لغة الحجاز ، وبكسرها لغة تميم : ٢١٨/١ ، ٢٢٩
البقرة	مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصْلِهَا . آية ٦١	الدلالة	الفوم الخنطة بلسان بني هاشم « ٢٤٧/١ »	« ١٠٨/١ »	الفوم : السنبلة بلغة أسد : ٢١٩/١
البقرة	فادّٰع لنا آية ٦١	الضبط الحركي	لم ينسبها « ٢٤٥/١ »	« ١٠٨/١ »	لغة بني عامر - فادع - بكسر العين ٢٣٢/١
البقرة	خذوا ما آتيناكم بقوة . آية ٦٣	التصحیح والإعلال	« ٢٥٨/١ »	« ١١٠/١ »	طيء تقول « قوى » يفتحون العين والفاء مفتوحة فتقلب ألفاً : ٢٣٩/١ - ٢٤٠
البقرة	خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا . آية ٨٥	اختلاف الحروف	« ٣١٨/١ »	« ١٢٠/١ »	الدنيا مؤنثة مقصورة تكتب بالالف لغة نجد وتميم خاصة . إلا أن أهل الحجاز وبني أسد يلحقونها ونظائرهما بالمصادر ذوات الواو فيقولون - دنوى - ٢٨٢/١
البقرة	وقفينا من بعده	الضبط الحركي	« ٣١٩/١ »	« ١٢٠/١ »	تسكين عينه لفظة

اسم السورة	آية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
	بالرّسل. آية ٨٧				الحجّاز والتحرّيك لغة تميم ٢٩٩/١ ^(١)
البقرة	من كان عدوّاً لله وجبريل وميكال آية ٩٨	اختلاف الحروف	جبريل كقنديل لغة الحجّاز . جبرئيل كعنتريس لغة	لم ينسبها ١٢٦/١	جبريل كقنديل لغة جبرئيل كعنتريس لغة
			تميم وقيس وكثير من نجد .	تميم وقيس وكثير من نجد .	
	من كان عدوّاً لله .. وجبريل وميكال. آية ٩٨	الضبط الحركي	جبرين وجبرين لغة أسد . ميكال لغة الحجّاز ٣٤٦/١	جبرين وجبرين لغة أسد . ميكال لغة الحجّاز : ٣١٨/١	
البقرة	وما الله بغافل عما تعملون . آية ٧٤	الزيادة والحذف	لم ينسبها ١٥/٢	لم ينسبها ١١٦/١	قول بأن الباء لا تدخل في خبر المبتدأ بعد ما التميمية وهو مذهب الفارسي في أحد قوليّه والزخشي وقول يجواز جره بالباء وهو الصحيح . أما دخول الباء في خبر ما الحجازية فكثير : ٢٦٧/١
البقرة	فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ آية ١٨٥	الضبط الحركي	لم ينسبها ٨٥/٢	لم ينسبها ١٧٢/١	فتح لام الأمر لغة بني سليم ٤١/٢

(١) أخطأ أبو حيان في هذا ، كما أخطأ الأترسي في تفسيره : ٢٨٦/١ ، والعكس هو الصحيح .

اسم السورة	الآية	نوع اللهجة	جامع البيان للطبري	الكشاف	البحر المحيط
البقرة	لا تضار والددة بولدها. آية ٢٣٣	الادغام والاظهار	« ٣٠٦/٢ »	« ٢١٢/١ »	الإظهار لغة أهل الحجاز ، والادغام لغة تميم : ٣٥٣/٢
البقرة	فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى .. حتى يبلغ الهدى مَحِلّه. آية ١٩٦	التخفيف والتشديد	« ١٢٣/٢ » ١٢٨	« ١٨١/١ »	الهدى بالتشديد لغة تميم . البحر : ٦٠/٢ ، والتخفيف لغة قريش : البحر ٩٨/٨ .
البقرة	وبعولتهن أحق بردّهن/آية ٢٢٨	الضبط الحركي	« ٢٧٣/٢ »	« ٢٠٧/١ »	بسكون التاء لغة تميم : ١٨٨/٢
البقرة	هل عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ . آية ٢٤٦	الضبط الحركي	« ٣٧٦/٢ »	« ٢٢٢/١ »	أهل الحجاز يكسرون السين من عسى مع المضمر خاصة : ٢٥٥/٢

واستنتج من هذه المقارنة ،

١ - كثرة اللهجات المعزوة الى قبائلها في البحر المحيط كثرة غامرة ، بينما أهمل أمر اللهجات في كتابي الطبري والزخشي .

٢ - أرجح أن منهج كل كتاب من هذه الكتب هو الذي حدد ظهور اللهجات في كتاب واختلافها في آخر - فالطبري سلفي يهتم بالإفاضة في الروايات في تفسيره ، ولهذا لم تترك له فراغاً لظهور لهجات القبائل .

أما منهج الزخشي في كتابه فيهدف الى إثبات الإعجاز القرآني عن طريق بيان أوجه البلاغة ، وهذا المنهج متسلط عليه ، ولهذا عنى بالبلاغة فلم تترك له فراغاً لظهور لهجات القبائل أيضاً .

أما أبو حيان فكان يقصد في كتابه الى القراءات والنحو ، واللهجات وثيقة الصلة بكل منها ، إذ القراءات تعتمد في أوجه خلافها على ما بين اللهجات من فروق وخلاف ، كما أن لهجات القبائل ما هي إلا نحو من نحو اللغة الفصحى وطريق منه .

٣ - كما نعلل ظهور اللهجات عند أبي حيان بأن الرجل كان معنياً بالتأليف في اللغات الأخرى غير العربية ، يؤيد ذلك ما جاء في البغية من أنه ألف في « منطق الخرس في لسان الفرس » و « الإدراك للسان الأتراك » و « نور الغبش في لسان الحبش » و « زهو الملك في نحو الترك »^(١) وأرجح أن اللسان في تأليفه معناه اللغة ، والقرآن الكريم لم يستعمل غير كلمة اللسان ، « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه »^(٢) ، واختلاف ألسنتكم^(٣) فالرجل له كلف بالتأليف في اللغات واللهجات بدليل أنه تحدث عن أداة التعريف في بعض الألسنة واللغات الأخرى^(٤) ، وقد نضح هذا الكلف في تفسيره حين عقب على ما روي عن ابن عباس والحسن أن معنى (طه) يارجل - عقب فقال معناها « بالنبطية وقيل بالحبشية ، وقيل بالعبرانية ، وقيل لغة يمنية في عك ، وقيل في عكل ، كما نقل عن الكلبي :

(١) البغية ٣٢٢

(٢) سورة إبراهيم : آية ٤ .

(٣) سورة الروم : آية ٢٢ .

(٤) ارتشاف الضرب : ورقة : ١٣٣ خط ١١٠٦ دار الكتب .

« لو قلت في عك يا رجل ، لم تجب حتى تقول : طه »^(١١) . واحتفظ انفسى بالشك في تعقيب أبي حيان السابق لاسيما إسناده ذلك الى اللغة العبرية ، كما يخالفني الشك أيضاً عندما نقل ابن الأنباري^(١٢) عن بعض المفسرين أن (طه) معناها (يا رجل) بالسريانية ، إذ لم يرد في العبرية ولا في السريانية ما يؤيد كلام أبي حيان .

٤ - وكان أبو حيان يحتج للهجات العربية فمن ذلك :

أ (ما روى عن أبي عمرو من جواز حذف حركة الإعراب مستنداً بقراءة (بارئكم) ، (وبعولتهم) بالتسكين ، وقد طعن في هذا القراءة النحاة : سيدييه وابن جنى والمبرد ، وقالوا بأن قراءة أبي عمرو لحن - ويرى أبو حيان أن ما ذهب إليه المبرد وأعوانه من النحاة ليس بشيء ، لأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بأثر عن الرسول ﷺ ، وقد ثبت نقل أبي عمرو وأن الإسكان منقول محكى عن تميم^(١٣) ، وإذا ثبتت لهجة عربية فلا ينبغي أن يخطأ بها القارئ ، أو يغلط ، ولهذا يرى أبو حيان أن القراءات جاءت على لغة العرب قياساً وشاذها^(١٤) .

ب (وردت عدة قراءات قرآنية أجازت حذف الحركة أو اختلاصها في حالة الوصل منها « يؤذّه إليك »^(١٥) ، « نؤته منها »^(١٦) ، « ونحشره يوم القيامة »^(١٧) .

فقد قرئت باختلاس حركة الهاء وإسكانها^(١٨) ، وقد عزي السكون والاختلاس الى عقيل وکلاب^(١٩) - ولم يعترف البصريون كعادتهم بهذه القراءات التي صورت لهجات عربية ، فزعم

(١) البحر : ٢٢٤/٦٠ .

(٢) الأضداد : ٣٥٤ .

(٣) انظر البحر : ١٨٨/٢ - ٢٠٦ ، الخصائص : ٧٥/١ ط الهلال ، الجمع : ٥٤/١ .

(٤) البحر : ٤٩٣/٨ .

(٥) سورة آل عمران : آية ٧٥ .

(٦) سورة آل عمران : ١٤٥ .

(٧) سورة طه : آية ١٢٤ .

(٨) البحر : ٤٩٩/٢ .

(٩) البحر : ٥٠٢/٨ .

الزجاج وابن السراج أن القراءة غلط بين ، ورأى سيبويه أنها ضرورة^(١) . وزكى أبو حيان القراءة وأن ما ذهب إليه أبو إسحق من أن الإسكان غلط ليس بشيء ، إذ هي قراءة في السبعة وهي متواترة وكفى أنها منقولة عن إمام البصريين أبي عمرو بن العلاء فإنه عربي صريح وسامع لغة وإمام في النحو ، ثم أراد أن يدعم القراءة فنقل أنها صورت لهجة عقيل وكلاب^(٢) .

٥ - أما الزنجشري فكان دائب الطعن في القراءات القرآنية - والتي تمثل لهجات عربية . ويرمىها بالملحّن تارة^(٣) ، وبالغلط أخرى^(٤) ، وبالخطأ الفاحش أحياناً^(٥) ، وقد يرجع طعنه هذا الى أنه كان معتزلياً ، والمعتزلة تنجح للقياس والعقل لا للرواية والنقل ، ولهذا لم تظهر اللهجات في مؤلفه ، لأن اللهجات سماع ونقل ، ولهذا طالما ضاق به أبو حيان وعلق على تجهمه للقراءات بقوله « وهذا على عادته في نسبته الخطأ الى القراء^(٦) » وقوله وجسارته هذه « أي ابن عطية » لا تليق إلا بالمعتزلة كالزنجشري فإنه كثيراً ما يطعن في نقل القراء وقراءتهم^(٧) . كما وصفه بالضعف في العربية وسوء ظنه بالأئمة (وأعجب لعجمي ضعيف في النحو يرد على عربي صريح محض (ابن عامر) قراءة متواترة ، وأعجب لسوء ظن هذا الرجل بالقراء الأئمة الذين تخيرتهم هذه الأمة لنقل كتاب الله شرقاً وغرباً^(٨)) .

٦ - أن الغرب الإسلامي كان لا يطعن في اللهجات بل يرويها وينقلها كما رأينا عند ابن مالك وأبي حيان ، لأنها كثيراً ما تعتمد على قراءات قرآنية « والمدرسة الأندلسية تميل الى النزعة الأثرية في الاحتجاج للقراء^(٩) » تلك التي تمثل لهجات عربية ، وطريقها طريق النقل والأثر ، لا القياس والنظر .

(١) المرجع السابق .

(٢) البحر : ٤٩٩/٢ .

(٣) القراءات واللهجات : ١٧٥ .

(٤) المرجع السابق : ١٣٤ .

(٥) البحر : ٣٦١/٢ .

(٦) البحر : ٣١٤/٥ .

(٧) البحر : ١٥٩/٣ .

(٨) البحر : ٢٢٩/٤ .

(٩) أبو علي الفارسي : ٣٠ ؛ دكتور عبد الفتاح شلي .

ولهذا كان بالأندلس أئمة في القراءة كمكي بن أبي طالب القيسي (٣٥٥ - ٤٣٧ هـ) والداني (٣٧٠ - ٤٤٤ هـ) والشاطبي (٥٣٨ هـ) وابن مالك (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ) وأبي حيان (٦٥٤ - ٧٥٤ هـ) ولهذا اهتموا بكل ما يحيط بالقرآن الكريم ، من قراءات وغيرها ، وكانت من هذا الاهتمام أيضاً بيان مصادر القرآن اللغوية ، ونسبة ما أخذ القرآن من ألفاظ كل قبيلة . ولعل السبب أيضاً في أن علماء الأندلس اهتموا باللهجات أكثر من المشاركة حيث ظهرت اللهجات في مؤلفاتهم ظهوراً غامراً ، أنه لما كانت ثقافة الأندلس مصدرها من الشرق جعل الأندلسيون يحسون بما يسمى (مركب النقص) فحاولوا أن يعوضوا ذلك بتأكيد تفوقهم ونبوغهم ، ولهذا رد الأندلس جيله في موجات موجهة الى الشرق مفعمة بتفكير جديد مصبوغ بالصبغة الأندلسية ، وليس أدل على هذا من أن ابن سيده الأندلسي قد بلغ عدد القبائل التي عزا إليها في معجمه بعد إحصائية قمت بها في « المخصص » بأسفاره كلها بلغت تسعاً وثلاثين قبيلة^(١) ، بينما بلغت القبائل في معجم « الجهرة » لابن دريد - واحداً وثلاثين قبيلة^(٢) . وفي « لسان العرب » بأجزائه العشرين بلغ عدد القبائل العربية المعزوة إليها واحداً وسبعين قبيلة^(٣) ، وابن منظور ولد ونشأ في طرابلس الغرب وولى القضاء فيها^(٤) فهو يمثل الغرب الإسلامي . كما بلغ عدد اللهجات التي عزا إليها أبو حيان الأندلسي في تفسيره كله بأجزائه الثمانية - أربعاً وستين قبيلة^(٥) ، ومن هذه المقارنات نضع يدنا على كثرة لهجات القبائل وظهورها ظهوراً كثراً في مؤلفات الغرب الإسلامي .

ويحذر الآن أن نلقي ضوءاً على عصر النحاة المتأخرين المشهورين بالجمع لنرى موقفهم من اللهجات أيضاً .

رابعاً - عصر النحاة المتأخرين :

وأقصد بهم هؤلاء الذين جمعوا وألموا بأطراف المباحث النحوية وأوجه الخلاف في مسائلها ،

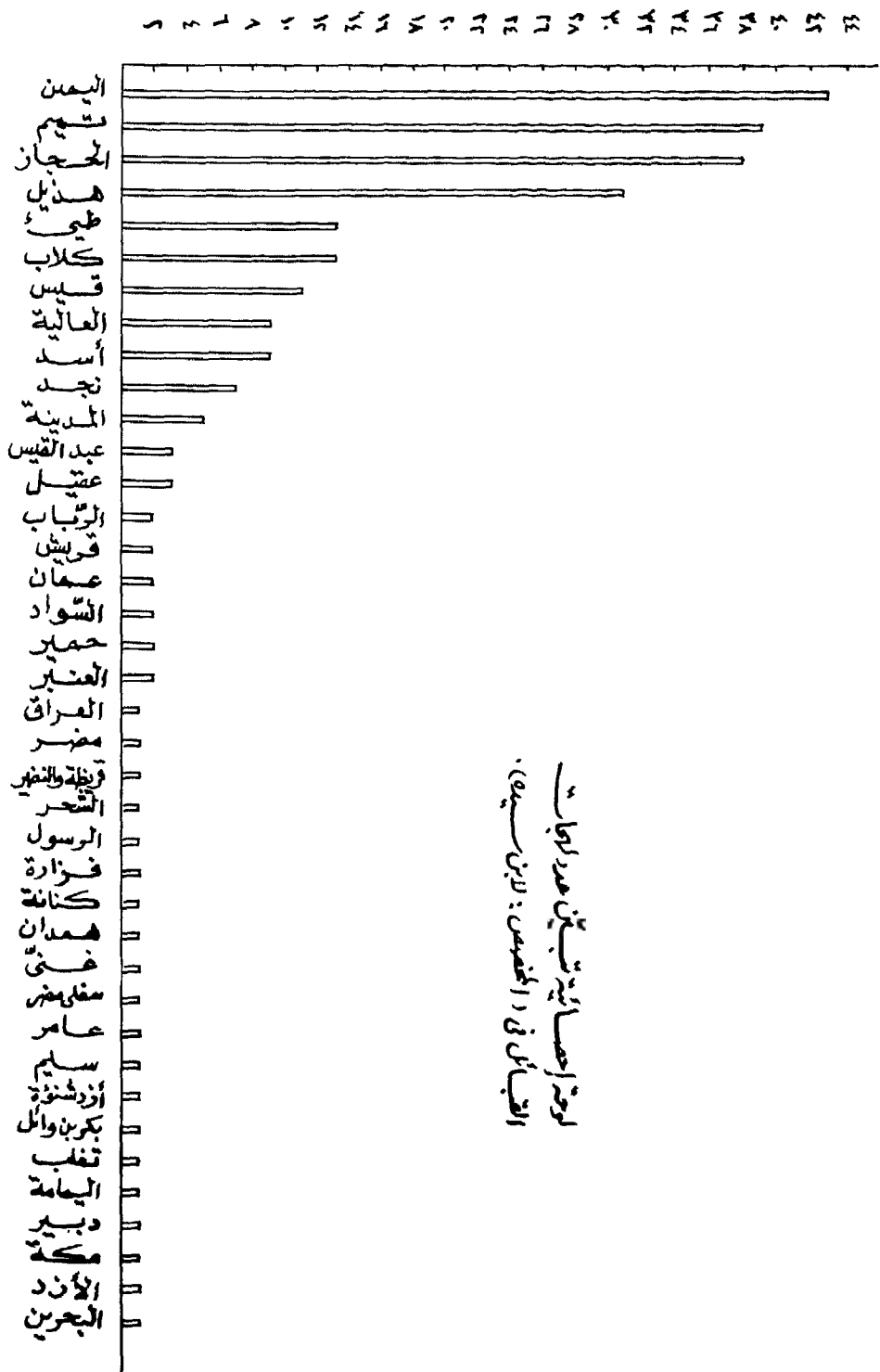
(١) انظر اللوحة الإحصائية .

(٢) أضفت على إحصائية الجهرة : لهجة ضبة وجرم لم يحصها محقق الجهرة ، كما حذف من إحصائيته ما لا يتصل باللهجات القبائل العربية .

(٣) انظر فيما تقدم لوحة إحصائية رقم ٨ .

(٤) الأعلام : ٣٢٩/٧ ط ٢ ، البقية : ٩٠٦ .

(٥) انظر : إحصائية لكتاب البحر المحيط « الباب الثاني الفصل الأول من هذا الكتاب



لوحه إحصائية تبين عدد لجان
القبائل في (المفرد): لابن سبيح.

وحشدوا الآراء اللغوية ، ولم يكن لهم من فضل إلا أنهم جمعوا المادة العلمية التي تضمنتها الكتب التحوية في مراحلها المختلفة .

وسيتناول الحديث ثلاثة من هؤلاء المتأخرين المشهورين بالجمع اللغوي :

أولهما : خالد زين الدين الأزهري . وثانيهما : عبد الرحمن جلال الدين السيوطي . وثالثهما : علي نور الدين الأشموني .

أ (الشيخ خالد الأزهري « متوفي ٨٩٥ هـ » وكان وقاداً بالأزهر ، وصنف مؤلفات كثيرة منها : التصريح على التوضيح ، وشرح الأزهري ، والأجرومية ، وشرح قواعد الاعراب لابن هشام ، وسأشير الى اللهجات في مؤلف واحد منها وهو : شرح التصريح .

وقد قمت بإحصائية في الكتاب باحثاً عن لهجات القبائل فوجدته ذكر واحداً وثلاثين قبيلة جمعها ورتبتها حسب إسناد أكثر اللهجات إليها : تميم^(١) . الحجاز^(٢) . أسد^(٣) . قيس^(٤) . طيء^(٥) . ربيعة^(٦) . هذيل^(٧) . عُقَيْل^(٨) . بَلْحَارِث بن كعب^(٩) . عامر^(١٠) . العالية^(١١) . فَزَارَة^(١٢) . سُلَيْم^(١٣) . أسد شنؤة^(١٤) . قُضَاعَة^(١٥) . خُثَعَم^(١٦) . بكر بن

(١) التصريح : ٦٨/١ ، ٧٧/١ ، ١٩٩/١ ، ٢٠٩/١ .

(٢) المرجع السابق : ٢٨٥/٢ ، ٣٤٢ ، ٤٠١ .

(٣) التصريح : ١٩٦/٢ ، ٢٥٨/١ .

(٤) المرجع السابق : ٣٦/١ ، ١٣٢ .

(٥) المرجع السابق : ١٣٧/١ .

(٦) المرجع السابق : ٤٨/٢ ، ٢٠٨ .

(٧) المرجع السابق : ٢/٢ .

(٨) المرجع السابق : ٢١٣/١ .

(٩) المرجع السابق : ١٣٢/١ .

(١٠) المرجع السابق : ٧٧/١ .

(١١) المرجع السابق : ٢٠١/١ .

(١٢) المرجع السابق : ٢٥٨/١ .

(١٣) المرجع السابق : ٢٦٢/١ .

(١٤) المرجع السابق : ٢٧٥/١ .

(١٥) التصريح : ٣٦١/١ .

(١٦) المرجع السابق : ١٢٧/١ .

وائل^(١) . قریش^(٢) . ضَبَّة^(٣) . كنانة^(٤) . حَمِير^(٥) . فَتَقُصَس^(٦) « من أسد » . دُبَيْر^(٧)
« من أسد » . غَنِي^(٨) . غَتَم^(٩) . بنو مالك^(١٠) « من أسد » . سعد^(١١) . كعب^(١٢) .
نَمِير^(١٣) . يَرْبُوع^(١٤) . زُبَيْد^(١٥) .

ويلاحظ على منهجه :

١ - أن تسجيل اللهجات عنده كان ثانويًا ، كأن يتكلم عن لام الابتداء بعد « ان » المكسورة
ثم يقول : « وتسمى اللام المزحلقة بالقاف والفاء » ، وبنو تميم يقولون « زحلوقة بالقاف »
وأهل العالية زحلوقة بالفاء^(١٦) .

٢ - أنه كثيرًا ما يهمل عزو اللهجات كقوله « ومن العرب »^(١٧) أو ينقل ما حكاه سيديويه عن
بعض العرب^(١٨) أو عن يونس « بعض العرب الموثوق بهم »^(١٩) .

-
- (١) المرجع السابق : ٤٠٢/٢ .
 - (٢) المرجع السابق : ٢٩٤/١ .
 - (٣) المرجع السابق : ٢٩٥/١ .
 - (٤) ٦٨/١ .
 - (٥) المرجع السابق : ١٤٩/١ .
 - (٦) المرجع السابق : ٢٩٥/١ .
 - (٧) المرجع السابق : ٢٩٥/١ .
 - (٨) المرجع السابق : ٢١/٢ .
 - (٩) المرجع السابق : ٤٨/٢ .
 - (١٠) المرجع السابق : ١٧٤/٢ .
 - (١١) ٣٤١/٢ .
 - (١٢) ٤٠٢/٢ .
 - (١٣) المرجع السابق .
 - (١٤) ٦٠/٢ .
 - (١٥) ٢٩/٢ .
 - (١٦) ٢٢١/١ .
 - (١٧) ٦٧/١ .
 - (١٨) ١١٠/١ .
 - (١٩) ٣٥٥/١ .

٣- أن اللهجات عنده لم تخضع لتنظيم أو دراسة فهي مبعثرة في أمكنة مختلفة من مؤلفه .

ب) جلال الدين السيوطي (متوفي ٩١١ هـ) وقد عد له بروكلمان ٤١٥ مصنفاً بين مطبوع ومخطوط ، وعدد له الشعراني في ذيل طبقاته ٤٦٠ مؤلفاً^(١) ، وكتبه مفخرة من مفاخر التأليف والتصنيف منها : الاتقان في علوم القرآن ، والمزهر في علوم اللغة ، ومع الهوامع ، والأشباه والنظائر ، والاقتراح في أصول النحو .

وسأشير إلى اللهجات في مؤلفين مختلفين من مؤلفاته أولهما : نحوي وهو مع الهوامع ، وثانيهما : لغوي وهو « المزهر » .

١- مع الهوامع شرح جمع الجوامع ، وهو من الكتب الجامعة قال عنه السيوطي في المقدمة « وبعد فإن لنا مؤلفاً في العربية جمع أدناها وأقصاها ، وكتاباً لم يغادر من وسائلها صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » . وقد قمت بإحصائية لهذا الكتاب الجامع فوجدته عزافيه لهجات لست وثلاثين قبيلة جمعتها ورتبتها على حسب ورود أكثر القبائل وهي .

تميم^(٢) ، والحجاز^(٣) ، وطى^(٤) ، وأسد^(٥) ، وسليم^(٦) ، وقيس^(٧) ، وهذيل^(٨) ، وكنانة^(٩) ، وربيع^(١٠) ، وفزارة^(١١) ، وعامر^(١٢) ، وعقيل^(١٣) ، وخثعم^(١٤) ، وبكر بن

(١) المزهر : ٦٥٩/٢ .

(٢) مع الهوامع : ٦٠/١ ، ٢٢٥ .

(٣) الجمع : ١٤٦/١ ، ٢٢٧/٢ .

(٤) الجمع : ١٦٤/٢ .

(٥) الجمع : ٦١/١ ، ١٢٥ .

(٦) الجمع : ١٥٨/١ .

(٧) الجمع : ٢٠٠/٢ .

(٨) الجمع : ٢٣/٢ ، ٣٤ .

(٩) الجمع : ٤٠/١ .

(١٠) ٢١٧/١ .

(١١) الجمع : ٧٩/٢ .

(١٢) الجمع : ٤٧/١ .

(١٣) الجمع : ٣٣/٢ .

(١٤) ١٩٧/١ .

والثل (١)، وهَمْدَان (٢)، وعُكْل (٣)، واليمن (٤)، والعنبر (٥)، وبلحارث (٦) بن كعب،
وعلياء (٧) قيس، والمهجم (٨)، واليامة (٩)، وحير (١٠)، والعمالية (١١)، وأسد (١٢) شنوة،
وقضاعة (١٣)، وفَقْعَس (١٤)، ومرادة (١٥)، وعذرة (١٦)، ولغة القرآن (١٧)، وخزاعة (١٨)،
وصباح (١٩)، ونجد (٢٠)، وأسد الشرى (٢١)، ولخم (٢٢)، وزبيطة (٢٣).

ويلاحظ على منهجه:

١ - أنه كثيراً ما يمزو اللهجات لقبيل مبهم من العرب كقوله « لغة عن بعض العرب » (٢٤)

(١) الجمع : ٤٠/١ .

(٢) ٤٠/١ .

(٣) الجمع : ٢١٦/١ .

(٤) ٢٣/٢ .

(٥) ٤٠/٢ .

(٦) ٤٠/١ .

(٧) ٤٧/١ .

(٨) ٤٠/١ .

(٩) ٤٠/٢ .

(١٠) ٧٩/١ .

(١١) ١٢٤/١ .

(١٢) ١٦٠/١ .

(١٣) ٢٣١/١ .

(١٤) ٢١٢/١ .

(١٥) ٤٠/١ .

(١٦) ٤٠/١ .

(١٧) ٨٥/٢ .

(١٨) ٣٣/٢ .

(١٩) ٣/٢ .

(٢٠) ٢٠٤/٢ .

(٢١) ٢٠٥/٢ .

(٢٢) ٢٠٨/٢ .

(٢٣) ٤٠/١ .

(٢٤) ٤٦/١ .

- أو «لقوم من العرب»^(١) وهو ينهج منهج المتقدمين في ذلك كسيبويه^(٢) والسيرافي^(٣).
- ٢- وأحياناً يعزوا إلى جزء القبيلة كقوله «أكثر بني تميم»^(٤)، «وأكثر أهل اليمن»^(٥)، «وبطون من ربيعة»^(٦).
- ٣- كما يصدر أحكاماً على بعض اللهجات كقوله: «وهي رديئة جداً»^(٧) أو «نادرة جداً»^(٨) أو «فصيحة»^(٩) أو «أغرب اللغات»^(١٠) أو «أشهرها»^(١١) أو «لغية»^(١٢).
- ٤- وأحياناً يذكر ما في الكلمة الواحدة من لغات حتى تبلغ أربعين لغة^(١٣).
- ٥- كما أن لهجات القبائل عنده تتبعثر على هامش البحث، ولا يتبع فيها نظاماً موحداً.
- ٦- أما كتابه الآخر المزهري فقد قلّ فيه ذكر القبائل المعزوة إليها عن الجمع فبلغت أربعاً وعشرين قبيلة، بينما في الجمع وصلت ستاً وثلاثين قبيلة.
- ويلاحظ على الجمع أنه وردت به قبائل لم ترد في المزهري:
- كنانة، والعنبر، وبلحارث بن كعب، وعلباء قيس، والهجيم، واليامسة، وربيعه، وفزاره، وخثعم، وبكر بن وائل، وفقمس، وزبيد، وهمدان، ومزادة، وعذرة، وعكل، ولغة القرآن، وخزاعة، وصباح، وأزد الشري، ولختم.

(١) ١٣١/١.

(٢) انظر: ابن يعيش: ١٤٠/١٠.

(٣) شرح السيرافي: ٤١٣/٥ خط.

(٤) الجمع: ٢٩/١.

(٥) الجمع: ٢٠٤/٢.

(٦) الجمع: ٤٠/١.

(٧) ٥٩/١.

(٨) ٧/٢.

(٩) ٥٣/١.

(١٠) ٤٠/٢.

(١١) ٥٣/٢.

(١٢) الجمع: ١٩٧/١.

(١٣) الجمع: ١٠٦/٢.

كما أن الزهر وردت به قبائل لم ترد في الجمع وهي :

قريش ، ضبة ، كلاب ، البحرين ، نزار ، عبد القيس ، هوازن ، الأنصار ، مكة .

ويلاحظ على منهج المزهرة بصفة عامة :

١ - أنه يهتم بإيراد الكلمات المفردة وعزوها إلى قبائلها كقوله :

السبب بلغة هذيل : الحبل^(١) . والسكر يسمى المهرت بلغة أهل اليمن^(٢) . والبل ، المباح لغة يمانية^(٣) . والكاويل - الكر ، الذي يصعد به على النخل لغة أسدية^(٤) ، والخزومة : البقرة بلغة هذيل^(٥) ، ويلاحظ على هذه الكلمات أنها منمثلة عن السياق الذي يوضحها ، وهو في هذا كالمدرسة اللغوية فإن اهتمامها كان بالكلمات المفردة ، أما في كتابه الجمع فكان جـل اهتمامه موجهاً إلى أبيات الشواهد لاسيما تلك التي حلت بذوراً لهجية .

٢ - وأنه كثيراً ما يكتفي بأن الكلمة وردت في « بعض اللغات »^(٦) وهو في هذا ينقل عن ابن دريد وابن سيده وابن منظور^(٧) .

٣ - كما نسمع أحكاماً على بعض اللغات كقوله :

لغة ضعيفة^(٨) أو رديئة^(٩) ، أو رديئة مذمومة^(١٠) ، أو لغة متروكة^(١١) . وهو ينقل هذه الأحكام عن قدامى اللغويين كأبي زيد والأصمعي وأصحاب الموسوعات والمعاجم .

(١) المزهرة : ٢٥١/١ .

(٢) المزهرة : ٢٨٤/١ .

(٣) المزهرة : ٤١٩/١ .

(٤) المزهرة : ١٢٤/٢ .

(٥) المزهرة : ١٢٩/٢ .

(٦) المزهرة : ٢١٦/١ وما بعدها .

(٧) انظر : اشتقاق ابن دريد : ١٠٥ وستيفل ، والمخصص من ١٥ من ٢٥ ، من ٥ من ٣٠ ، ١٠٦ ، اللسان : ٢٨٣/١٩ ، ٤٠٦/١٠ ، ٢٤٧/٧ .

(٨) المزهرة : ٢١٤/١ .

(٩) المزهرة : ٢٦٦/١ .

(١٠) المزهرة : ٢٢١/١ - ٢٢٦ .

(١١) المزهرة : ٢١٩/٢ .

٤ - كما أن أكثر لهجات الحجاز وتميم قد نقلها عن يونس بن حبيب وأبي محمد يحيى بن المبارك اليزيدي^١ ، وهذا يؤكد أن السيوطي كان متبعاً لا مبتدعاً في جمع اللهجات .

ج (هو أبو الحسن علي نور الدين بن محمد الأشموني (توفي ٩٣٩ هـ) وله مؤلفات كثيرة أشهرها شرحه على ألفية ابن مالك ، وهو أغزر شروح الألفية كما أنه حشد فيه آراء المتقدمين من علماء العربية وسألتاول ما ورد في كتابه من لهجات القبائل العربية .

وقد قمت بإحصائية لهذا الكتاب فوجدته عزا فيه لهجات خمس وعشرين قبيلة جمعتها ورتبتها على حسب ورود أكثر القبائل وهي :

تميم^٢ . الحجاز^٣ . طيء^٤ . ربيعة^٥ . قيس^٦ . أسد^٧ . هذيل^٨ . سليم^٩ . أسد شنؤة^{١٠} . بكر بن وائل^{١١} . بلنحارث بن كعب^{١٢} . عامر^{١٣} . عقييل^{١٤} . فزارة^{١٥} . قريش^{١٦} .

(١) الزهر : ٢٧٥/٢ - ٢٧٧ .

(٢) الأشموني : ٧٨/١ ، ٢٦٧ .

(٣) الأشموني : ٢٤٧/١ ، ٢٦٨/٣ .

(٤) ٢١٤/٤ .

(٥) ١٠١/١ .

(٦) ٢٦٤/٢ .

(٧) ٢٣٤/٣ .

(٨) ١١٨/٤ .

(٩) ١٢/٤ .

(١٠) ٤٨/٢ .

(١١) ٣٥١/٤ .

(١٢) ٧٩/١ .

(١٣) ٣٤١/٤ .

(١٤) ٢٠٤/٢ .

(١٥) ١١٤/٤ .

(١٦) ٨٤/١ .

لغيم^١ . ففقمس^٢ . دبَيْر^٣ . غم^٤ . كعب^٥ . نَمِير^٦ . اليمن^٧ . صُبَاح^٨ . كلب^٩ .
قَضَاعَة^{١٠} .

والمشج الذي اتبعه في اثاره الى اللهجات هو كمنهج السابقين له تقريباً :

- ١ - فيعزو عن ابن مالك لغة لبعض العرب^{١١} .
- ٢ - أو يعزو لجزء من القبيلة (كبعض طيء)^{١٢} أو (بعض بني صباح)^{١٣} .
- ٣ - أو يعزو اللغة لكثير من العرب ثم يحدد بعض قبائلهم^{١٤} .
- ٤ - وكثيراً ما يحكى عن الخليل^{١٥} ، وسيبويه^{١٦} والفراء ، والحياتي^{١٧} ، ويونس^{١٨} ، وابن سيدة^{١٩} .

-
- (١) ٢١١/٤ .
 - (٢) ٦٣/٢ .
 - (٣) ٦٣/٢ .
 - (٤) ٢٦٥/٢ .
 - (٥) ٣٥٣/٤ .
 - (٦) ٣٥٣/٤ .
 - (٧) ٢٧٧/٤ .
 - (٨) ٢٨٤/٣ .
 - (٩) ١٣٠/٤ .
 - (١٠) ٢٨٢/٤ .
 - (١١) الأشموني : ٣٣٣/٤ ، ١١٧ ، ٢٨٦/٣ .
 - (١٢) الأشموني : ١٥٨/١ ، ٢٠٦/٤ .
 - (١٣) الأشموني : ٢٨٤/٣ .
 - (١٤) المرجع السابق : ٢١٢/٤ .
 - (١٥) الأشموني : ١٥٨/٣ .
 - (١٦) الأشموني : ٧١/٤ ، ٢٢٧ .
 - (١٧) المرجع السابق : ٨/٤ .
 - (١٨) المرجع السابق : ١٥٦/٣ .
 - (١٩) المرجع السابق : ١٢٩/٤ .

٥- كما أنه قد يحكي نقل اللغات ولا يسند الحكاية الى مصدرها بل يكتفي بقوله: «ونقل بعضهم أنها لغة طيء» لم وأحياناً يحددها بسماع الراوي الحكاية عن قبيلة عربية كقوله «وسمع الأخفش من ناس من عقيل»^٢.

٦- كما نسمع منه أحكاماً على بعض اللهجات ، بالرداءة حيناً والفصاحة حيناً آخر ، وهو في ذلك يحكي آراء السابقين ويقدم .

٧- كما أن اللهجات عنده كانت تظهر على هامش الدراسة ولهذا لم تخضع للدراسة أو تنظيم .

٨- وكان يأخذ اللهجات حيناً من مصدر مكتوب ، وحيناً آخر من مصدر شفوي .

تعقيب :

يتضح مما سبق أن السيوطي قد عزا في الهمع الى ست وثلاثين قبيلة ، وأن الأزهرى قد عزا في تصريحه الى واحد وثلاثين قبيلة ، وأن الأشموني قد عزا الى خمس وعشرين قبيلة ، كما أن السيوطي في المزهر عزا الى أربع وعشرين قبيلة ، فيكون الهمع أكثرها عزوا ثم التصريح فالأشموني ثم المزهر .

وقد أدت هذه الإحصائية على وجه آخر فحاولت حصر ورود عدد ما جاء معزواً الى القبيلة الواحدة في هذه الكتب ، وأخذت منها لهجة تميم والحجاز ، وأزد شؤة وغنى . وكانت الإحصائية كما يأتي :

(١) المرجع السابق : ٢١٤/٤ .

(٢) المرجع السابق : ٢٥٢/٤ .

اسم الكتاب	اسم القبيلة	عدد ورودها	اسم القبيلة	عدد ورودها	اسم القبيلة	عدد ورودها	اسم القبيلة	عدد ورودها
المع	تميم	٢٨	الحجاز	٢٤	أزد شؤفة	١	غني	—
شرح التصريح	—	٢٧	—	٢٠	—	٢	—	١
المزهر	—	٥٨	—	٤٩	—	٢	—	—
الأشموني	—	٢٧	—	٢٠	—	٢	—	—

وفي ضوء هذه الإحصائية يتضح ما يلي :

١- أن ورود لهجات القبائل عند المتأخرين الجامعين لأطراف المباحث النحوية قد قفزت عندهم الى حد أنها زادت على ما جاء به سيبويه ، لأن عدد القبائل التي عزا إليها سيبويه في كتابه بلغت ١٥ قبيلة^١ ، بينما في المع ٣٦ قبيلة ، وفي التصريح ٣١ قبيلة ، وفي الأشموني ٢٥ قبيلة .

٢- كما تشير المقارنة الى قوة اللغة التميمية في الكتب السابقة ، حتى كادت تفوق اللغة الحجازية ، مما يدل على قوتها في المجتمع العربي الجاهلي ، وما يؤكد هذا ما جاء عن ابن حزم في وصف تميم من أنهم « قاعدة من أكبر قواعد العرب »^٢ ، « وأمنع قبائل العرب »^٣ ، إذ كانت الوحدات الحربية التي تحركت شرقاً نحو فارس ثم خراسان ثم الى افريقية غرباً - يغلب عليها النسب التميمي - فلذا أضفنا الى ذلك أن تيمماً - لما لها من نفوذ وصولاً - كانت تتولى القضاء في الأسواق العربية^٤ - عرفنا سرّ بروز لهجاتها في المحيط العربي ، وما يقوي

(١) انظر إحصائية لهجات القبائل في كتاب سيبويه في الفصل الأول من الباب الثاني من هذا الكتاب

(٢) جبرية أنساب العرب : ١٩٦ .

(٣) معجم كعالة : ١٣٠/١ .

(٤) نهاية الأرب للعلفشندي : ٤٦٤ .

هذا ما جاء في حديث^١ رسول الله ﷺ من أنه ورد عليه الوفود فأقرّ الأخماس^٢ كل خمس على لفته ، فكان أعرب القوم تميم .

٣- أن القبائل المغمورة لم تحظ من علماء العربية بتسجيل كلماتها ولكنهم أهدروا حقها في الحياة فأهلوها ! والكلمات كالإنسان تشقى وتُسعد ، يؤيد هذا ما سجلوه لغني وأزد شنوة .

٤- أنهم لم يستقرئوا جميع لهجات القبائل ، بل فلتت منهم أكثر القبائل وربما تركوها عامدين ... لأنها في نظرهم أقل من أن يحسب لها حساب أو تقدير .

(١) الفاضل للمبرد ١١٣ دار الكتب .

(٢) يريد أخماس البصرة : وهي : العالية . وبكر بن وائل ، وقيم وعبد القيس ، والأزد .

الباب الثالث

المستوى الصوتي ويشمل :

علم الأصوات العام (Phonetics)

وعلم الأصوات التنظيمي ، أو علم

التشكيل الصوتي (Phonology)

الفصل الأول

دراسة حركية الكلمة

وتشمل :

أولاً : دراسة حركات عين الكلمة في لهجات القبائل :

معلوم أن الثلاثي المجرد له الأوزان الآتية : فَعْل ، فِعْل ، فُعْل ، فُعْل بفتح العين وكسرها وضمة ، ولكن لاحظ أن الصيغتين الأخيرتين تعتمدهما تغيرات عدة لاسيما في الأوزان الصرفية ، والقصد من هذه التغيرات هو التخفيف وتوفير الجهد الذي تنزع إليه القبائل العربية في أثناء كلامها ، وأمثال ذلك ما نجد في :

١ - فَعِل : بكسر العين سواء كانت اسماً أو فعلاً حيث ينطق بها (فَعِل) بتسكين العين مثل : عِلِم تقول فيها : عِلِم ، وفي كَتَف : كَتَف ، وفي فَخَذ : فَخَذ ويظهر أن هذه التغيرات أو التفرعات تختص بلهجة تميم ، على حين أبقتهما لهجة الحجاز على حالها بدون تفرع ، يقول الرضي « وجب هذه التفرعات في كلام بني تميم ، وأما أهل الحجاز فلا يغيرون البناء ولا يفرعون »^(١) وعزاه سيديويه « إلى بكر بن وائل وأناس كثير من تميم »^(٢) وبالأستقراء وجد أن صيغة : (فَعِل) بكسر العين يتفرع عنها ما يلي :

أ (تسكين العين : مثل فَعِل .

ب (تسكينها بعد نقل حركتها إلى الفاء فتصير (فِعِل) نحو : شهد ، فخذ في حلقى العين ، وكتف ، وكبر في غير الحلقى .

ج (التفرع الثالث : فَعِل : بكسرتين وهذا التفرع يختص بما كان حلقى العين نحو ضَعِكَ . هذه هي تفرعات (فَعِل) بكسر العين .

ونبدأ ب (أ) فَعِل : بكسر العين وتفرعها إلى فَعِل بسكون العين :

(١) شرح الشافعية : ابن الحاجب : ١/٤ ط حجازي .

(٢) سيديويه : ٢٥٧/٢ .

ولما كانت النصوص القرآنية ، وغيرها هي سبيلنا في إثبات كل قضية فلإليك ما يلي :

- ١ - كلمة على وزن نبتة وهي الفصحى وهي لغة الحجاز ، وبها جاء التنزيل ، وكلمة على وزن (سدره) ، وعلى وزن (تمرة) وهما لغتا تميم^(١) . ويقول المصباح بأن « الكلمة » تخفف على لغة بني تميم^(٢) . وفي قوله تعالى : « قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء »^(٣) قرئت كلمة - على وزن ضربة ، وكلمة على وزن (سدره)^(٤) .
- ٢ - وفي الآية « وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير ، فما وهنوا^(٥) لما أصابهم » . قرأ عكرمة وأبو السمال : وهنوا بإسكان الهاء^(٦) .
- ٣ - يرى الأزهري أن (الوسعة) بكسر السين وهو كلام العرب - وعزى كسر السين الى لغة الحجاز^(٧) ، وقال الجوهري تسكينها لغة^(٨) . ولا شك أن التسكين تفريع عن الكسر وأرجح أن التسكين لتمييم .
- ٤ - في قوله تعالى : « وإن كان ذو عسرة فنظرة الى ميسرة »^(٩) قرأ أبو رجاء ومجاهد والحسن وغيرهم بسكون الظاء - وهي لغة تميمية^(١٠) - كما عزاها في المحتسب الى تميم^(١١) . ولا شك أن هذا التسكين في الظاء للتخفيف من نظرة - بكسر الظاء .
- ٥ - وما رواه ابن السكيت من أنه سمع أعرابياً من بني تميم يقول : « نَعَم »^(١٢) وقرأ ابن

(١) ابن هشام : شذور الذهب : ١٣/١ ، وحاشية عبادة على الشذور : ١٣/١ .

(٢) المصباح : ٨٣١/٢ ، شرح المفصل : ابن يعيش : ١٩/١ ، اللسان : ٤٢٨/١٥ .

(٣) سورة آل عمران : آية ٦٤ .

(٤) البحر : ٤٤٧/٢ : ٤٨٢ .

(٥) آل عمران : آية ١٤٦ .

(٦) البحر : ٧٤/٣ .

(٧) المصباح : ١٠٢٤/٢ .

(٨) اللسان : ١٢٣/١٦ .

(٩) سورة البقرة : آية ٢٨٠ .

(١٠) ٣٤٠/٢ من البحر المحيط . ، ومختصر شواذ القرآن لابن خالويه : ١٧ .

(١١) المحتسب : ابن جني : ١٦٤/١ مخطوطة بالتميمية رقم ٣٧٩ تفسير تيمور .

(١٢) إصلاح المنطق : ١٠٥ .

وثاب قوله تعالى « سلامٌ عليكم بما صبرتم فننعم عقبى الدار »^(١) بفتح النون وسكون العين ، قال أبو حيان « وتخفيف فعل لغة تميمية »^(٢) .

ويظهر أن هذا التخفيف لم يكن خاصاً بتميم بل شمل كثيراً من المناطق العربية ، فكانت بكر بن وائل تخفف مثل هذا فقد ذكر سيديويه في كتابه « أن من العرب من يقول : نَعِم الرجل - في نَعِم - كان أصله : نَعِم ثم خفف بإسكان الكسرة على لغة بكر بن وائل »^(٣) ، وما يزيد هذا الدليل قوة ما روي عن أبي هريرة وعاصم الجحدري في قراءتها « مَلِك يوم الدين »^(٤) في مالك يوم الدين^(٥) على الصفة المشبهة ، وقد قرأ بها أيضاً عبد الوارث عن أبي عمرو^(٦) ، كما عزيت هذه القراءة في مكان آخر لربيعة ، واستشهد لها بقول الأعشى :

فقال للملِك أطلق منهم مائة وسلاً من القول مخفوضاً وما رفعاً^(٧)

وإذا كانت الظاهرة واحدة في بكر بن وائل وربيعة ، فذلك لأن العلاقة النسبية بينها قائمة ، إذ إن بكراً هذه كما رأت كتب الأنساب - بطن من ربيعة^(٨) .

والأمثلة السابقة فيها تفرعت الصيغة (فَعِيل) الى (فَعَل) بسكون العين .

ب) فَعِيل : بكسر العين وتفرعها الى فَعَل بكسر الفاء ، وسكون العين : - وقد تنفرع صيغة (فَعِيل) بكسر العين الى (فَعَل) بسكونها ، وذلك في لهجة تميم ، ومن ذلك :

١ - وذلك قوله تعالى « بثسما اشتروا به أنفسهم »^(٩) فأصل بَيْئَس : بَيْئَس من البؤس ، سكنت همزتها ، ثم نقلت حركتها الى الباء ، كما قيل : لكبد : كَيْبَد .

(١) سورة الرعد : آية ٢٤ .

(٢) البحر المحيط : ٣٨٧/٥ .

(٣) اللسان : ٦٦/١٦ .

(٤) البحر : ٢٠/١ .

(٥) سورة الفاتحة : آية ٤ .

(٦) مختصر شواذ القرآن لابن خالويه : ١ .

(٧) الاشتقاق : ١٧ ، وستنفذ .

(٨) نهاية الأرب : القلشندي : ١٧٨ .

(٩) سورة البقرة : آية ٩٠ .

قال الطبري في تفسيره « وهي من لغة الذين ينقلون حركة العين من فَعِلَ الى الفاء إذا كانت عين الفعل أحد حروف الحلق الستة - وذلك فيما يقال لغة فاشية في تميم »^(١) .

٢ - وقرأ الجمهور قوله تعالى « سلامٌ عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار »^(٢) بكسر النون وسكون العين وهي أكثر استعمالاً^(٣) ، وأصلها : نَعِم ، فسكنت العين ثم نقلت حركتها الى النون قبلها فصارت (نِعَم) .

٣ - وفي المخصص أنه سمع من العرب من يقول « وِرِك ، وورِك ، وكَتِف و كِتِف »^(٤) ، ولَعِب و لِعِب^(٥) .

والفرض من هذا التفريع المعزى الى تميم هو كراهة الانتقال من الأخف الى الأثقل ، ولهذا أثرت تميم تسكين العين في هذا كله ، والسكون أخف من الحركة .

وقد تتفرع صيغة : فَعِلَ الى فِعِلَ ، بكسر الفاء والعين وهذا التفريع لا يكون إلا في الحلقى العين .

ج (فَعِلَ : بفتح الفاء وكسر العين وتفرعها الى فِعِلَ : بكسر الفاء والعين .

وهذا التفريع لا يكون إلا في الحلقى العين كنعيم وبنيس : فتقول فيها على التفريع نعيم وبنس ، بكسر الفاء والعين في كل منها والأصل فيها ، نَعِم وبنيس ، بفتح فكسر ، وقد عزا صاحب التوضيح الصيغتين نعيم وبنس ، بكسر الحرفين الأولين الى تميم حيث قال « وكسرهما عند بني تميم ، ولا يميز الحجازيون فيها إلا الأصل »^(٦) ، وقد ساق سيبويه عدة صيغ على فِعِلَ : بكسر الفاء والعين منها : رجل لِعِب : بكسر الفاء والعين ، ورجل مَحِك ، وهو ما ضغ لهم : بكسر الفاء والعين ، وهذا رجل وِعِك^(٧) .

(١) تفسير الطبري : ٢/٢٣٨ دار المعارف .

(٢) سورة الرعد : آية ٢٤ .

(٣) البحر : ٥/٣٨٧ .

(٤) المخصص : سفر ١٤ : ص ٢٢١ .

(٥) تفسير الطبري : ٢/٣٣٨ دار المعارف .

(٦) التصريح والتوضيح : ٢/٩٥ .

(٧) كتاب سيبويه : ٢/٢٥٥ ، شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣١٣ مخطوط بالتيمورية .

ولقد علل الرضى هذا التفريع في تلك الصيغة فقال « وإنما جعلوا ما قبل الحلقى تابعاً له في الحركة ، مع أن حق الحلقى أن يفتح نفسه أو ما قبله كما في « يدمع » لثقل الحلقى وخفة الفتحة ، فأتبع فاؤه لعينه في الكسر^(١) . وعلل سيبويه لهذا التفريع بأن حرف الحلق لا يناسبه إلا الفتح ، ولم تفتح العين الحلقية هنا خوفاً من أن تلتبس صيغة (فعل) بفتح العين مع صيغة (فعل) بكسرها ، فلما لزمت العين الكسر ، وهي حرف حلق ، وفي ذلك شيء من الثقل أتبعوا الفاء العين ليحدث نوع من التخفيف بالميل من كسرة الى كسرة ، وذلك لأن اللسان يعمل في جهة واحدة ، فيكون العمل من وجه واحد^(٢) .

٢- فَعَلٌ : بفتح الفاء وضم العين وتفرعها الى فَعَلٌ : بفتح الفاء وسكون العين :

وقد جاء التفريع فيها بسكون العين تخفيفاً ولا يكون ذلك إلا عند بني تميم . وأمثلة ذلك : . ما قرئ به في قوله تعالى : « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ »^(٣) بسكون الباء في (كبر) - وعزاها أبو حيان الى تميم^(٤) كما قرأ أبو السمال قوله تعالى : « وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا »^(٥) بسكون السين - وعزاها أبو حيان الى تميم كذلك^(٦) ، ونسب ابن خالويه في البديع هذه القراءة الى قنعب^(٧) .

على حين أن لغة الحجاز لا تفرع في تلك الصيغة ، فقد قرأ الجمهور الآية السابقة « وَحَسَنَ » بفتح الفاء وضم العين وهي الأصل ، قال أبو حيان : وهي لغة الحجاز^(٨) ، ويظهر أن التفريع في تلك الصيغة لم يكن خاصاً بتميم وحدها - فقد شمل بقاعاً أخرى من الجزيرة العربية ، وما يؤيد هذا ما جاء عن سيبويه من أن التمسكين في العين لغة بكر بن وائل ، وأناس كثير من تميم ،

(١) شرح الشافية : ٤٠/١ .

(٢) كتاب سيبويه : ٢/٥٥ ، وانظر : المحمص لابن سيده : سفر ١٤ ص ٢١٣ .

(٣) الكهف : ٥ .

(٤) البحر : ٩٧/٦ .

(٥) النساء : ٦٩ .

(٦) البحر : ٢٨٩/٣ .

(٧) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٢٧ .

(٨) البحر : ٢٨٩/٣ ، الدر اللقيط : ٢٩٠/٣ .

ومثّل لذلك بقوله : « عَضُدٌ فِي عَضُدٍ وَفِي كَرْمٍ الرَّجُلُ : كَرَمٌ »^(١) بفتح فسكون ، وقد وجدنا صدى للهجة بكر بن وائل في كتاب الله أذكر منها :

أ (قال تعالى « حَقٌّ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْنِهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ »^(٢) .

قرأ زيد بن علي « بما رحبت » بسكون الحاء^(٣) .

ب (وقال تعالى « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ »^(٤) .

فقد قرئ (كَبُرَتْ) بسكون الباء - وهي لغة تميم^(٥) .

ويجوز في هذا التفريع أي صيغة « فَعَلَّ » أن تنقل ضمة عينه إلى فائه فيكون على وزن (فَعَلَّ) بضم الفاء وتسكين العين - وعليها قرئ قوله تعالى : « وَحَسَنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا »^(٦) « وحسن » بضم الحاء وسكون السين ، والذي حدث في تلك الصيغة : أن حركة السين وهي الضمة ، نقلت إلى الحاء قبلها - وقد عزى هذه الصيغة المنقولة حركتها - أبو حيان « إلى لغة بعض قيس »^(٧) - ويظهر أن النقل في الحركة هنا لا يصح إلا إذا لحنا معنى التعجب فيها ، لأن التفسير في اللفظ بالنقل صحبه معنى آخر زائد وهو التعجب ، وهذا معنى كلام الرضى « من أن فَعَلَّ - الذي فيه معنى التعجب يقال فيه فعل »^(٨) بسكون العين وضم الفاء .

واستشهد لذلك بقول الأخطل :

« وَحُبَّ بِهَا مَقْتُولَةٌ حِينَ تُقْتَلُ »

ولعل ذلك دلالة على نقله إلى معنى التعجب^(٩) .

(١) الكتاب : ٢٥٧/٢

(٢) التوبة : آية ١١٨ .

(٣) البحر : ٢٤/٥ .

(٤) الكهف : ٥ .

(٥) البحر : ٩٧/٦ .

(٦) النساء : ٦٩ .

(٧) البحر : ٢٨٩/٣ .

(٨) شرح الشافية لابن الحاجب : ٤٣/١ .

(٩) شرح الشافية : ٤٣/١ .

وأصل: «حَبَّ»: حَبَّبَ - بفتح العين، ثم حول إلى فَعَّلَ: بضم العين لإرادة المدح والتعجب فصار «حَبَّبَ» بضم العين، ثم نقلت العين إلى الغاء بعد حذف حركتها فصار: «حُبَّ» بضم ففتح.

وفي نسبة البيت السابق إلى الأخطل دليل يفيدنا في قضيتنا، وهو أن هذا التفریع في الصيغ لم يكن في تميم فقط، ولكنه شمل أجزاء كبرى من الجزيرة العربية - فالأخطل هذا من تغلب، وتغلب وبكر ابنا وائل من ربيعة. وفي الكامل للمبرد نجد شيئاً من التفریع في صيغة فعل بضم العين، وتحويلها إلى فَعَّلَ بسكونها.

من ذلك قول عمران بن حطان:

مِنَ الْأَزْدِ إِنْ الْأَزْدُ أَكْرَمَ مَعْشَرَ يَمَانِيَةٍ طَابُوا إِذَا نُسِبَ الْبَشَرُ^(١)

ويعقب المبرد على البيت السابق بقوله: وينشد:

(يَمَانِيَةٍ قُرُبُوا إِذَا نُسِبَ الْبَشَرُ) بسكون الراء.

يريد: قُرُبُوا - بضم الراء. قال المبرد: «وهذا جائز في كل شيء مضموم أو مكسور إذا لم يكن من حركات الإعراب: تقول في الأسماء: في فَحَجَدَ: فخَجَدَ وفي عَضُدَ: عضُدَ بسكون العين، وتقول في الأفعال: كرم عبد الله بسكون العين أي كرم»^(٢)، وقول المبرد «وهذا جائز...» دليل على أن هذا ليس بابه الضرورة، بل يكون في سعة الكلام.

وإنما كان القصد من هذا التفریع - هو التخفيف، لأن النطق بصيغة: فَعَّلَ بسكون العين أخف من صيغة فعل: أي بضم العين، ولا شك أن السكون أخف من الضم، ولو لم يسكنوا العين وتركوها على الضم، لترتب عليه أن اللسان ينتقل من الأخف وهي الفتحة - إلى الأثقل منه - وهي الضمة، ولهذا سكنت الضمة في تفريعه، لأن السكون أخف. ويظهر أن التسكين كما كان في الكلمة الواحدة عند تميم، شمل الكلمتين أيضاً، ويظهر هذا في غير المتصل بأن تكون الكسرة أو الضمة ليست في وسط الكلمة - كما تقدم من الأمثلة - بل ينظر إليها بجانب كلمة أخرى، ومن هذا أنهم يسكنون هاء - هو وهي، إذا سبقها واو، أو فاء، أو لام، وقد وردت بعض القراءات على ذلك: منها قوله تعالى «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ»^(٣)، «وَأَمَّا

(١) الكامل: ١١١/٢ ط حجازي ١٣٦٥ هـ.

(٢) الكامل للمبرد: ١١٤/٢.

(٣) البقرة: ٢٩.

« وإنْ تُخَفُّوْهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ »^(١) ، « وإن الدار الآخرةَ لَهِيبِي »
فقد قرأ قراء عديدون بسكون الهاء من الآيات السابقة ، منهم أبو عمرو وا
جعفر^(٢) ، وعزا صاحب الإتحاف هذا التسكين الى نجد ، كما نسب التحريك فيها ا
والسبب في هذا التسكين عند نجد أو تميم أن (فَيَهْوَوْ) على وزن (فعل) فَهَـ
نسكن عَضُدَ - فتكون (عَضُدَ) ، جاز تسكين الهاء من (فهو) التي يوزن (
العين فتصير (فهو) ، (وهو) ، بسكونها وهذا إن دل فإنما يدل على أن التسك
شاملاً في تميم في الأسماء والأفعال .

وبما جاء من التفريع على تلك الصيغة قوله تعالى « فَسَخَّرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ »^(٣)
القاف وهي قراءة الجمهور ، وقد عزاها أبو حيان الى تميم^(٤) وهي مخففة من « ال
العين ، كما عزا صاحب البحر صيغة « عَضُدَا » في قوله تعالى : « وما كنت مُتَمَتِّ
عَضُدَا »^(٥) الى تميم^(٦) ، وبهذه اللغة قرأ عيسى^(٧) ، وفي المصباح عزيت الى ت
وائل^(٨) على حين وقد عزا ابن منظور ناقلاً عن أبي زيد أن صيغة « العَضُدُ والعَجُزُ
في لغة تهامة »^(٩) وفي المصباح أن تلك الصيغة السابقة معزوة الى الحجاز^(١٠) ، وهذا
التفريع لم يكن في الحجاز ، ويشير الى معنى آخر وهو أن اللهجات كان بعضها يحل
في نظر اللغويين والرواة ، فالصيغة عزيت في كتاب الى تهامة ، وفي كتاب آخر الى

(١) البقرة : ٢٧١ .

(٢) العنكبوت : ٦٤ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٢ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) النحل : آية ٢٦ .

(٦) البحر : ٥ / ٤٨٥ .

(٧) الكهف : آية ٥١ .

(٨) البحر : ٦ / ١٣٧ .

(٩) مختصر شواذ القرآن ابن خالويه : ٨٠ .

(١٠) المصباح : ٢ / ٦٣٥ .

(١١) اللسان : ٤ / ٢٨٣ .

(١٢) المصباح : ٢ / ٦٣٥ .

شك أن الصيغة الأصلية هي : عُضْد - بفتح فضم - ثم حدث فيها التخفيف فسكنت الضاد ، فصارت : عَضْد : بسكون الضاد - وأما نطقها في تهامة عَضْد : بضمين فهي صورة متطورة عن الأصل ، ولأنها أخف من عَضْد - واللغة في سيرها تميل إلى السهولة ، وقد سبق أن جاءت القراءات في تلك الكلمة في لهجة تميم وبكر بن وائل ، أما لهجة تهامة أو الحجاز فقد قرأ بها الحسن في قوله تعالى « وما كنت متخذ المضلين عضداً » بضمين^(١) .

٣- تفريع : « فُعِل » بضم الفاء وكسر العين إلى « فُعِل » بسكون العين :

وهذا الضرب خاص بالفعل المبني للمجهول ، ومن المعلوم أن الفعل في الماضي يضم أوله ويكسر ما قبل آخره في البناء للمجهول ، لكنه يحول إلى صيغة تفرعية أخرى عند تميم وبكر بن وائل وتغلب - وهي صيغة : « فُعِل » بضم الفاء وسكون العين ويمكن أن نورد الشواهد الآتية لهذه الظاهرة :

١ - عزرا سيديوي : إلى أبي النجم قوله : (لو عُضِرُ منه الثُبَانُ والمُسْكُ انصهر)^(٢) . بضم العين وسكون الصاد - وأصلها : عُصِر - بالبناء للمجهول .

٢ - ورد في كتاب الخصاص استشهاده بقول الشاعر : (وَنَفَخُوا فِي مَدَائِنِهِمْ فَطَارُوا)^(٣) . بسكون الفاء ، ولم يمز البيت إلى قائل ، وفي نسخة السيرا في المخطوطة^(٤) على سيديوي عرى هذا البيت إلى القطامي ، وكذلك في اللسان مادة (ن ف خ)^(٥) .

٣ - جاء في كتاب « العققة والبررة » ما نسب إلى معبد بن قرط العبدي في هجاء أمه من قوله :
تلتهم الرسقَ مشدوداً أشطته كأنثا وجْهها قد سفنَع بالنار^(٦)

بسكون الفاء - في « سفنَع » .

(١) المصباح : ٦٣٥/٢ .

(٢) الكتاب لسيديوي : ٢٥٨/٢ ، شرح الشافية : ٤٣/١ ، التصريح على التوضيح : ١٩٤/١ ، الخصاص : من ١٤ ص ٢٢٠ .

(٣) الخصاص : س ١٤ ص ٢٢٠ .

(٤) السيرا على سيديوي : ٣٢٤/٥ تيمور خط .

(٥) وفي ديوان القطامي المطبوع سنة ١٩٦٠ ص ١٤٣ « ونُسَحُوا » .

(٦) كتاب العققة والبررة : لأبي عبيد معمر بن المثنى : ٣٦٥ من نوادر المخطوطات رقم ٧ ط أولى ، لجنة التأليف والترجمة : ١٣٧٣ - ١٩٥٤ تحقيق عبد السلام هارون .

وإذا بحثنا في كتب الطبقات والأنساب وجدنا أن أبا النجم صاحب البيت الأول من بكر ابن وائل^(١) من بني عجل . وأن القطامي : هو عمير بن شيم من بني تغلب^(٢) ، فيكون هذا التفرع من «فعل» الى «فعل» في بكر بن وائل ، وفي «تغلب» الذي هو أخو بكر ، كما يطرد هذا التفرع عند تميم أيضاً^(٣) .

وعلى الرغم من أن التفرع هذا في تميم إلا أن الرضى المحقق - أخطأ عندما نسب أبا النجم - الى تميم^(٤) في بيته السالف - ولعل هذا النسب الخاطئ جاء له من شبهة مؤداها : أن هذا التفرع عند تميم أيضاً .

ويمكن أن تعلل صيغة التفرع السابقة بأنهم كرهوا في «فعل» الكسرة بعد الضمة ، فسكنوا هذه الكسرة حتى لا ينتقل اللسان الى الثقل ، ولعل صاحب المخصص هذا ناقلاً عن سيبويه قوله «كرهوا في «مُعَصِر» الكسرة بعد الضمة ، كما يكرهون الواو مع الياء في مواضع ، ومع هذا انه بناء ليس من كلامهم إلا في هذا الموضع من الفعل فكروها أن يحولوا ألسنتهم الى الاستفقال^(٥) .

وإذا التفتنا الى كتاب الله - التمسنا في قراءته شواهد لهذا التفرع الذي جاء على لهجة تميم ، وبكر ، وتغلب :

١ - قرأ أبو السَّهْلِ قوله تعالى «وَلَعْنُوا بما قالوا»^(٦) بسكون العين ، ولقد حسنت قراءة أبي السَّهْلِ لأن الكسرة وقعت بين ضمتين^(٧) .

٢ - كما قرأ مسلمة بن محارب «جزاء لمن كان كُفِير»^(٨) بإسكان العين في «كفر» .

(١) الشعر والشعراء : ٢٣٢ ط المعاهد ، المخصص : س ١٤ ص ٢٢٠ .

(٢) الشعر والشعراء : ٢٧٧ ط المعاهد .

(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٢٣/٥ ، كتاب سيبويه : ٢/٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٤) شرح الشافعية ٤٣/١ ، وانظر الهامش .

(٥) المخصص : س ١٤ ص ٢٢٠ .

(٦) المائدة : ٦٧ .

(٧) البحر : ٥٢٣/٣ .

(٨) سورة القمر : آية ١٤ .

٣- وجاء في شرح السيرافي مثل من أمثال العرب وهو : لم يُجرّم من فُصدّله^(١) . بإسكان الصاد وأصلها : فُصدَ - بالبناء للمجهول ، ولكن جاءت صورتها بالسكون في المثل - وهي ولا شك صيغة تفريعية من المبنى للمجهول .

تلك هي أم التفرعات وكلها في تميم ومن لف لفهم من بكر بن وائل وتغلب وربيعه ، أما صيغة (فَعَلَّ) بفتح الفاء والعين فلا تفريع فيها ، لأن الفتح خفيف فلا داعي للخروج عنه ، قال سيبويه « وأما ما توالى فيه الفتحان ، فإنهم لا يسكنون منه ، فلا يقولون في جبل (بفتح الميم) (بسكونها)^(٢) . وأرى أن سيبويه والسيرافي قد جانبا الصواب^(٣) .

إسكان حركة الاعراب :

وتسكين حركة الإعراب للتخفيف ظاهرة تيمية ، وقد نقلها القراء عن أبي عمرو بن العلاء ، ولها شواهد عدة في القراءات ، والمنثور من كلام العرب ، والشعر ، فمن ذلك قوله تعالى « فتوبوا إلى بارئكم »^(٤) فقد قرأ الجمهور بظهور حركة الإعراب في « بارئكم » كما روي عن بعضهم اختلاس تلك الحركة^(٥) ، وروي عن أبي عمرو الإسكان ، وذلك إجراء للنفصل من كلمتين مجرى المتصل من كلمة ، فإنه يجوز تسكين مثل « إبل » فأجرى المكسوران في « بارئكم » مجرى (إبل)^(٦) بكسرتين .

وكقوله تعالى « وبعلوثهن أحق بردهن »^(٧) فقرأ مسلمة بن محارب بسكون التاء^(٨) . وربما كان ذلك فراراً من كثرة الحركات . وبما جاء من إسكان حركة الإعراب قوله تعالى : « ينصركم »

(١) شرح السيرافي : ٣٢٣/٥ مخطوط .

(٢) شرح السيرافي على سيبويه : ٤١٦/٥ خط بالتميمورية ، الكتاب : ٢٥٨/٢ ، ٢٨١/٢ .

(٣) فقد خفف المفتوح بعض القراء : انظر : المحتسب : ٣٠٧/١ أقول : وهم على حق إذ السكون أخف من الفتح ، ولأن السكون يختصر المقاطع ، وبذلك يوفر الجهد . وط ذلك قراءة أبي السبّال وأبي التوكل وأبي الجوزاء « الجبل » بفتح الجيم وإسكان الميم وذلك في قوله تعالى « حتى يبلغ الجبل » الأعراف : ٤٠ .

(٤) البقرة : آية ٥٤ .

(٥) البحر : ٢٠٦/١ .

(٦) النشر : ٢١٢/٢ - ٢١٣ .

(٧) البقرة : آية ٢٢٨ .

(٨) البحر : ١٨٨/٢ ، ويختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ١٤ .

في آل عمران والملك ، « ويأمرهم » ، « ويأمرهم » ، « وتأمروهم » ، « ويشعروهم »^(١) ، « ويعلمهم »^(٢) فهذه الآيات جميعها قرئت بالإسكان على حذف حركة الإعراب ، « وذكر أبو عمرو أن ذلك لا يتم »^(٣) كما أن ظهور حركة الإعراب فيما سبق لغة أهل الحجاز ، ذكر ذلك في المحتسب^(٤) ابن جنى .

تعقيب :

- ١ - أرى مما سبق في إسكان حركة البنية ، وحركة الإعراب - أنه من خصائص تميم ، و جاورها كبكر بن وائل ، وتغلب ومن لف لفها .
- ٢ - وأن لهجات الحجاز تحتفظ بالصيغ دون حذف أو تغيير ، فالصيغ ثابتة .
- ٣ - أن هذا التفريع في قبائل تميم وغيرها - تطور عن الصيغ الحجازية الثابتة .
- ٤ - أن ظاهرة حذف الحركات تتلاءم وتقيم البدوية ، حيث إنهم يميلون إلى السرعة في النطق الذي ينتهي إلى الاقتصاد في الجهد العضلي ، ولا شك أن حذف الحركات فيه تيسير واقتصاد وهو ما يهدف إليه البدوي - بعكس الحجاز المتحضرة التي تهدف إلى إعطاء كل صوت حقه من الوضوح والبيان .

ودليل ذلك ما جاء في الخبر « نزل القرآن بالتفخيم » وقد اختلفت الأئمة في معنى الحديث ، فبعضهم يرى أنه نزل بذلك^(٥) ، ثم رخص في الإمالة وبعضهم شرحه بأن المقصود : أن يقرأ على قراءة الرجال ، لا يخضع الصوت فيه ككلام النساء ، وآخرون بأن المقصود منه : أن نزل بالشدة والغلظة على المشركين ، وبعضهم يرى أن المراد بالتفخيم : تحريك أو ساط الك بالضم والكسر دون إسكانها^(٦) ، وأرجح أن هذا المعنى الأخير هو المقصود دون غيره ، لأن من يرى أن معنى التفخيم نزوله بالشدة والغلظة على المشركين - مردود ، لأن القرآن الكريم كما قرئ

(١) سورة الأنعام : آية ١٠٩ .

(٢) سورة آل عمران : آية ١٦٤ .

(٣) البحر : ١٨٨/٢ .

(٤) المحتسب : ابن جنى : ١١٤/١ مخطوط بالتميمورية .

(٥) لعله يقصد « الفتحة الصريحة » .

(٦) الإتقان : للسيوطي : ٩٥/١ .

بالفظة نزل كذلك بالرحمة والرأفة ، والذي يؤيد ما أرجحه ما ورد عن أبي عبيدة من قوله « أهل الحجاز يفخمون الكلام كله »^(١) ، وكان المقصود هو نطق الحركات كاملة دون الجور عليها بالتسكين ، وتلك سمة حجازية .

وهناك استثناء من تلك القاعدة العامة ، وهو أن أهل الحجاز يسكنون الشين من (عشرة) فيقولون « إحدى عشرة » بينما تميم تقول ذلك بالكسر . وهذا عكس ما نعرفه عنها ، لأن المعروف أن تيمماً تسكن العين من فَعِلَ وفَعَلَة ، والحجاز يحركون ذلك ، ووردت نصوص تؤيد ذلك ، منها :

قوله تعالى : « فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا »^(٢) فقد نسب أبو حيان إسكان الشين إلى الحجاز ، وكسرها إلى تميم^(٣) . وعن ابن خالويه - أن كسر الشين قراءة الأعشى^(٤) . كما قرأ ابن وثاب قوله تعالى « وقطعتاهم اثنتي عشرة أسباطاً أمماً »^(٥) بكسر الشين وهي في تميم ، والجمهور بالإسكان وهي لغة الحجاز^(٦) ، وفي نوادر يونس « أن تيمماً تثقل عشرة ، وتكسر الشين . وأهل الحجاز لا يحركون »^(٧) .

وقد يعمل لكل من اللهجتين حيث خالفتا معتاد لغيرها ، وذلك أن المشهور عن الحجازيين تحريك الثاني من الثلاثي إذا كان مضموماً أو مكسوراً - وأما تميم فتسكن ذلك - وسبب المخالفة في العدد أنه قد نقضت في كثير منه العادات من ذلك قولهم في الواحد : واحد وأحد ، فلما صاروا منه إلى العدد قالوا : إحدى عشرة - فبنوه على فعلی ، ومنه اقتصرهم من ثلثائة إلى تسعمائة على أن أضافوه إلى الواحد ، ولم يقولوا ثلاث مئات ولا أربع مئتين^(٨) . ويرى ابن جنى « أن العدد موضع يحدث معه ترك الأصول »^(٩) ولهذا تركت كل من اللهجتين لهجتها إلى لهجة

(١) الإتيان : ٩٥/١ .

(٢) سورة البقرة : آية ٦٠ .

(٣) البحر : ٢١٨/١ .

(٤) مختصر شواذ القرآن : ٥ - ٦ .

(٥) سورة الأعراف : آية ١٦٠ .

(٦) البحر : ٤٠٦/٤ .

(٧) المزه : ٢٧٥/٢ .

(٨) شرح المفصل لابن يمين : ٢٧/٦ .

(٩) المتهب : ابن جنى : ٣٢٥/١ - ٣٢٦ . مخذوط بالتيمورية .

أخرى ، فأسكن من كان يحرك ، وحرك من كان يسكن . والمقارنة مع بقية اللغات السامية في هذا اللفظ تثبت أن اللفظ في السامية الأم لم يكن فيه حركة بعد العين، ففي العبرية هو ومعنى هذا أن لهجة الحجاز على الأصل ، بينما (عشرة) بالكسر في تميم من قبيل اجتلاب الحركة ، وهو ما يسمى بالقلقلة^(١) .

٥ - يلاحظ أن هذا التحول الداخلي الحركي في الكلمة في ضوء ما سبق من الأمثلة كان سبباً في ثراء لهجات القبائل فأتاح لها فضلاً غامراً من كثرة الوجوه ، وتولد الصيغ ، ومرونة الانتقال من صيغة إلى أخرى . فقراءة حفص « مالك يوم الدين » الفاتحة ٤ ، غير قراءة أبي هريرة وعاصم الجحدري « ملك » بسكون اللام ، وهما غير قراءة الحسن وابن يعمر وعلي بن أبي طالب « ملك يوم الدين » فعلاً ماضياً ونصب ما بعده (البحر ١/٢٠ وانظر : ابن خالويه ١) إذ الأولى : اسم فاعل ، والثانية صفة مشبهة والثالثة فعل ماضٍ .

وقفة :

ولكن يظهر أن القبائل الشرقية - كتميم وبكر وربيعة وأسد وقيس وعقيل وغيرها من قبائل الشرق - لم تكن على درجة واحدة من الميل إلى تسكين البنية ، بل تفاوتت كل قبيلة عن الأخرى في ميلها إلى تسكين وسط الكلمة - تفاوتاً قليلاً - أمكنني أن ألاحظه ، وأن أسجل تفاوته بين هذه القبائل الشرقية ، وإن كانت السمة الغالبة عليهم جميعاً هي ميلهم إلى التسكين .

١ - فأسد وإن كانت تجنح إلى إسكان البنية - إلا أنها في بعض الأحيان تخالف ذلك ، فمن ذلك ما جاء في شرح السيرافي على سيبويه من أن « فعل » بضم الفاء وسكون العين تضم بنو أسد عينه إقباعاً لأول ، فإذا كان بضميتين « فعل » تسكنه تميم^(٢) . وفي قوله تعالى « ويأخرون الناس بالبخل »^(٣) فقد عزا الفراء : التشكيل في « البخل » إلى أسد^(٤) ، ومراده التشكيل أي النطق بالحركات كاملة ، أي أن أسداً تنطق بالصيغة مكتملة ، على حين عزا التخفيف إلى تميم ، والمراد بالتخفيف التسكين ، لأن التسكين أخف على اللسان من غيره على حين

(١) رابن : ٩٨ .

(٢) شرح السيرافي على سيبويه : ٦/٥ .

(٣) النساء : آية ٣٧ .

(٤) البحر : ٣/٢٤٧ .

نطقت الحجاز كأسد^(١) : أي باكتمال الحركات ، وأما بكر بن وائل فسارت سير تميم في التسكين ، قال ابن خالويه : بالبخل - (بفتح فسكون) لغة بكر بن وائل^(٢) ، وعلى هذه اللغات جميعاً قرأ القراء كما في البحر^(٣) .

٢ - وفي كنز الحفاظ أن الفراء حكى عن بني أسد قولهم : هل رأيت عُيْنًا^(٤) ؟ بفتح العين والياء في معنى : أحداً . وبعض العرب يقول : ما بها عَيْنٌ بسكون الياء .

٣ - وجاء في اللسان أن بني أسد تقول : في أسنانه حَفَرٌ^(٥) . بفتح العين ، والحفر ما يلزق بالأسنان ، بينما غيرهم يقول : حفر . بسكون العين .

فالسمة الغالبة في هذه النصوص لبني أسد أنها آثرت الحركات على السكون ، وإنما قلت في هذه النصوص فقط ، لأن المأثور عنها حذف الحركة مثل قراءة « نذراً » في المرسلات ، « وعرفاً » فيها أيضاً ، « وخبراً » في الكهف ، فالإسكان كما ذكر صاحب الإتحاف لغة تميم وأسد وعامة قيس ، والضم لغة الحجاز^(٦) ، وأرجح أن الأصل الضم في هذه الأمثلة ، وأسكن تخفيفاً . فمن النصوص نرى أن أسداً كانت تتردد في حذف الحركات ، أي أنها كانت حيناً تحذف ، وأحياناً لا تحذف . وليس هذا اضطراباً في الظاهرة - بل يسهل علينا تعليل ذلك : أن أسداً من القبائل الكبرى ذات البطون الكثيرة ، والعمائر المتعددة ، فيمكن أن نعزو صيغ حذف الحركات إلى قبائلها المتاخمة لتيميم ، كما أن الصيغ المكتملة الحركات إلى قبائلها التي تنحدر إلى ما يقارب البيئات الحجازية ، تلك التي كانت تحصر على اكتمال الحركات ، إلا أن حذف الحركات في أسد أكثر من اكتمال الحركات ، لأن قبائلها كانت أكثرها في المنطقة الشرقية والوسطى من الجزيرة العربية تلك التي كانت تؤثر حذف الحركات .

٢ - أما قيس فقد تقدم أنها أحياناً تسير في ركاب تميم وبكر بن وائل في حذف الحركات القصيرة ، ولكن لا نعدم أن نرى بعض الروايات التي تنسب إليها اكتمال الحركات ، مثل ما

(١) البحر : ٢٤٧/٣ .

(٢) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٢٦ .

(٣) البحر : ٢٤٦/٣ .

(٤) كنز الحفاظ : ٢٧٣ .

(٥) اللسان : ٢٨١/٥ .

(٦) الإتحاف : ١٤٣ .

بضميتين ، وعزا الأصمعي هذه الصيغة الى الحجاز وهذيل^(١) ، وفي معجم البلدان أنها لغة هذيل خاصة^(٢) . وعلى أي حال فسواء كانت اللهجة هي لهجة الحجاز وهذيل ، أم هذيل وحدها فإنها تؤيد ما نذهب إليه من أن الحجاز وما جاورها من هذيل وبطون قيس - كانت لا تحذف الحركات القصيرة .

وأما تميم وبكر بن وائل وقبائل ربيعة ، وأكثر قبائل أسد ، وعامة قبائل قيس المتاخمة لتميم - فإنها كانت جميعاً تنجح الى حذف الحركات القصيرة ، ولعل هذا يتفق مع طبيعة البدو في السرعة في نطق الكلمة ، ولهذا جانب الصواب الأستاذ عبد الوهاب حمودة في كتابه « القراءات واللهجات »^(٣) حيث ذكر أن تسكين العين في «رسل» لغة أهل الحجاز ، والتحريك لغة بني تميم ، ويبدو أن الدكتور شوقي ضيف مال الى ما رآه الأستاذ عبد الوهاب حمودة أيضاً^(٤) .

وقد وقع أبو حيان نفسه في هذا الخطأ عند تفسيره لقوله تعالى « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل »^(٥) حيث ذكر أن قراءة الجمهور - بالرسل - بضم السين ، كما قرأ الحسن ويحيى بن يعمر بتسكينها^(٦) . ثم قال أبو حيان « وتسكين عينه لغة أهل الحجاز - والتحريك لغة بني تميم »^(٧) .

وقد نرى حذف الحركات تارة واكتناها تارة أخرى في اللغات السامية أيضاً ، كما رأينا في لهجات القبائل ، ففي الأكادية UZNU بينما هي في العبرية 'Ozen'^(٨) باكتال الحركة ، على حين نجدتها في العربية : أدُنْ - باكتال الحركة تارة وبحذفها تارة أخرى ، وذلك في قراءة نافع (والأذن بالأذن) المائدة ٤٥ . ونافع حجازي وقد خالف بيئته التي لا تسكن .

(١) اللسان : ٤٢٥/٤ .

(٢) معجم البلدان : ٢٥٢/٨ ياقوت .

(٣) ص ٣٧ ، ط أولى .

(٤) تاريخ الأدب العربي : ١٢٦/١ دكتور شوقي ضيف ط أولى المعارف .

(٥) سورة البقرة : آية ٨٧ .

(٦) البحر : ٢٩١/١ .

(٧) البحر : ٢٩٧/١ .

(٨) برجشتامر : ٤٤ التطور النحوي .

ثانياً : دراسة الحركات في فاء الكلمة بين لهجات القبائل العربية :

أ (بين الضم في البدو والكسر في الحضرة :

مالت اللهجة التميمية والبيثات البدوية الأخرى كأسد وبكر بن وائل وقيس عيلان الى إشار الضم ، بينما آثرت الحجازية وغيرها من الحضرة كقريش الكسر ، وأدلة ذلك :

أ (ما جاء عن اليزيدي في المزه من أن تميماً تضم أوائل : عُدوة، عَشوة، أُسوة ، قُدوة^(١) .
وقرأ أبو عمرو وابن كثير « بالعدوة الدنيا » ، بكسر العين ، والباقون بضمها^(٢) . والضم أعرب اللغتين عن أبي عبيد^(٣) . وذكر اليزيدي أن الكسر لغة الحجاز^(٤) . وقرأ عاصم والأعشى « أسوة » في الأحزاب وموضعي المتحنة - بضم الهمزة وهي لغة قيس وتميم ، والباقون بكسرها لغة الحجاز^(٥) .

ب (وقال يونس في نوادره « أهل الحجاز يقولون : مِرية ، وتميم بالضم »^(٦) . وقرأ الجمهور « مِرية »^(٧) - بكسر الميم لغة الحجاز - وقرأ السلي والحسن بضمها - وهي لغة تميم^(٨) ، وأسد .

ج (وفي (رُضوان) بضم الراء لغة قيس وتميم^(٩) ، وذكر أبو شامة « أن الضم لبني تميم ، والكسر لأهل الحجاز »^(١٠) ، وقرئ « ورضوان من الله »^(١١) بضم الراء وهي لغة تميم

(١) المزه : ٢٧٧/٢ .

(٢) إرشاد المريد عل لإبراز المعاني : ٣٣٤ .

(٣) إبراز المعاني : ٣٣٤ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) الإتحاف : ٣٥٤ .

(٦) المزه : ٢٧٦/٢ .

(٧) سورة هود : آية ١٢ .

(٨) البحر : ٢١١/٥ ، مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ٥٩ ، الإتحاف : ٢٥٥ .

(٩) المصباح : ٣٥٢/١ .

(١٠) إبراز المعاني : ٢٦٧ .

(١١) آل عمران : آية ١٥ .

وبكر وفيس عيلان^(١) . وقد تكون حجة من كسر أنه مصدر، والأصل فيه رضى
رضى ، ثم زيدت الألف والنون فردت الياء الى أصلها ، وحجة من ضم أنه فرق بين
الاسم والمصدر . وقد نرى أن بعض من قرأ في هذه الآية الكريمة بالضمه - قرأ بالكسر
في قوله تعالى « من اتبع رضوانه » وقد تكفل بالرد عن هذا ابن خالويه حيث قال « إنما
أتى باللغتين ليعلمك جوازهما »^(٢) .

د (ضنوان) بالضم لتمييم وقيس ، وبالكسر لأهل الحجاز^(٣) . وفي المحتسب أن عبد الرحمن
السلي : قرأ بالضم ، وقراءة الناس ضنوان - بالكسر^(٤) .

هـ (وعزيت (سخرية) بالكسر الى قريش ، وبالضم الى تميم^(٥) ، في قوله تعالى : « اتخذناهم
سخرية »^(٦) .

و (كما عزيت (قنوان) بالكسر للحجاز ، وبالضم لقيس^(٧) ، كما عزا اللسان ، و قنيان « بالضم
الى تميم وضبة^(٨) - ونسب الى كلب : قنيان - بالكسر^(٩) . ويلاحظ أن قبيلة كلب آثرت
الكسر لأنها قبيلة حضرية ، إذ انها عاشت على حدود الشام على الطريق الذي كان يسلكه
الحجازيون في تجارتهم مع بلاد الشام ، فبيئتهم ليست إلا امتداداً طبيعياً للبيئة
الحجازية^(١٠) .

ز (ما روي عن ابن السكيت عن أبي زيد أنه ذكر أن الكلابيين يقولون : شواظ من نار -

(١) البحر : ٣٩٨/٢ .

(٢) الحجة لابن خالويه : ورقة ٢٣ خط .

(٣) البحر : ٣٥٧/٥ .

(٤) المحتسب : ٢/٢ مخطوط بالتميمورية .

(٥) كتاب اللغات في القرآن : ٤٣ .

(٦) سورة ص : آية ٦٣ .

(٧) المصباح : ٢٩٨/٢ .

(٨) اللسان : ٦٧/٢٠ .

(٩) اللسان : ٦٧/٢٠ .

(١٠) اللهجات العربية : ٨٥ ط ٢ ، تاريخ العرب : ١٦٩/٤ جواد علي .

بالكسر ، وغيرهم يقول : « شواظ بالضم »^(١) . كما ذكر ابن سيده في مخصصه^(٢) هذا النص نفسه عن ابن السكيت .

والكلابيوت جزء منهم متأثر بالحجاز - وهم الذين سكنوا في جهات المدينة المنورة ، ثم كانت لهم حضارة وملك الشام - فهم حضر^(٣) ، ولهذا أثروا الكسر ، بينما غيرهم من البدو آثروا الضم ، ولهذا نرى ابن كثير وابن محيصن يقرأن - بكسر الشين ، والباقون بضمها^(٤) ، ومحدثنا كتب الطبقات أن ابن كثير - مكي^(٥) ، وأن ابن محيصن^(٦) من قریش ، ولهذا لا نعجب إذا قرأ بالكسر - فهم يمثلون لهجتهم الحضرية التي تجنب إلى الكسر .

ح (نقل ابن السكيت عن الفراء أنه قال : رفقة ورفقة - لغة قيس وتميم)^(٧) . وفي المخصص : قالوا : رفقة ورفقة لغة قيس^(٨) ، وربما يوضح النصوص السابقة ما جاء في اللسان^(٩) من أن قيساً تقول : رفقة : بالكسر ، وتميم : رفقة : بالضم^(١٠) . كما يؤيد ذلك ما جاء في الصباح^(١١) ، وما استشهد به البغدادي من قول عمرو بن أحر :

أنشأت أسأله عن حال رفقتي فقال حي فإن الركب قد ذهب^(١٢)

وصاحب البيت من باهلة ، ومحدثنا كتب الأنساب أنها باهلة من أعصر ، وأعصر هذه من قيس عيلان^(١٣) لذلك أرجح أن « رفقتي » في البيت السابق يجب أن تكون مكسورة الراء - استناداً لما سبق من أن قيساً : تكسر . ويرى ابن بري أن جمع رفقة : بالضم رفقاء كعلبة

(١) إصلاح المنطق : ١٠٦ .

(٢) المخصص : سفر ١٥ ص ٨٦ .

(٣) في اللهجات العربية : ٨٧ ط ٢ .

(٤) الإنحاف : ٤٠٦ .

(٥) طبقات الفراء لابن الجزري : ٤٤٣/١ .

(٦) طبقات الفراء : ١٦٧/٢ .

(٧) إصلاح المنطق : ١١٥ .

(٨) المخصص : ص ١٥ ص ٩٢ .

(٩) اللسان : ٤١٠/١١ .

(١٠) ٣٥٩/١ .

(١١) خزائن الأدب : ٣٦/٣ .

(١٢) نهاية الأرب : الغلغندي : ١٧٠ .

وعلاب^(١) . وأن جمع رفقة : بالكسر رفق مثل سدره وسدر^(٢) . وقد أشار الكسائي الى الصيغتين المكسورة والمضمومة ولكنه أهمل عزوها^(٣) : وربما يقف في طريقنا أن قيساً من القبائل البدوية ، فكيف آثرت الكسر هنا ، مع أن حقها أن تنطق ذلك بالضم - ورد تلك الشبهة أننا لا نعلم أن قيساً - التي عزی إليها الكسر هنا بدوية كلها ، ولا حضرية كلها كذلك ، لأنها شعب عظيم بدليل أن اسمها غلب على سائر العدنانية « حتى جعل في المثل في مقابل عرب اليمن قاطبة : فيقال : قيس ويمن »^(٤) . وإذا كان كذلك فأرجح أن الكسر المنسوب إليها في تلك الكلمة - يجب أن يحمل على بعض قبائلها المتحضرة التي جاورت الحجاز ، وهي قبائل كثيرة كبعض هوازن وفزارة وغطفان ، وأما بقية قبائل قيس الضاربة في بوادي نجد فلأنها تنطقها بالضم - كتميم .

ط (كما وردت « قبلًا » بضم القاف والباء من قوله تعالى « وحشرنا^(٥) عليهم كل شيء قبلًا » ، « أو يأتيهم العذاب قبلًا »^(٦) وعزی الضم لتميم ، والكسر لكتانة^(٧) . وكتانة حضرية ، ولقد قرأ بلهجة تميم عاصم ، وحزرة والكسائي^(٨) ، وجميعهم كوفيون - متأثرون بلهجات تميم تلك التي كانت عن كتب من ديارهم .

ي (والحق أن أمثلة كثيرة مما تحت يدينا مؤداها أن الكسر معزو لقبائل الحضر منها :

أ (أن سليماً تكسر همزة إيان - وتكسرهما على أنها لغتهم - جاء عن أبي حيان « وما يشعرون إيان يبعثون » قرأ السلمي : إيان بكسر الهمزة^(٩) . وجاءت مثل هذه القراءة عنه في المحتسب^(١٠) . كما أنهم كسروا الهمزة في قوله تعالى : « يسألونك عن الساعة »

-
- (١) اللسان : ٤١٠/١١ .
 - (٢) المصباح : ٣٥٩/١ .
 - (٣) ما تلحن فيه العامة للكسائي : ٢٣ .
 - (٤) معجم كحاله : ٩٧١/٣ .
 - (٥) الأنعام : آية ١١١ .
 - (٦) الكهف : آية ٥٥ .
 - (٧) كتاب اللغات في القرآن : ٢٦ .
 - (٨) الإنحاف : ٢٩٢ .
 - (٩) البحر : ٩٢/٧ .
 - (١٠) المحتسب لابن جنى : ٣٣٥/١ خط .

أَيَّانُ مُرُشَّاهَا^١، وقد قرأ بالكسر السلمي^٢، كما جاءت قراءة له مشابهة لذلك في شواذ القرآن^٣، والقاريء الذي قرأ بالكسر هو أبو عبد الرحمن السلمي - وهو من قبيلة سليم، قرأ على لهجة قومه، ومما يؤيد ذلك ما جاء في الجمع^٤ وكسر همزة (إيان) لغة لسليم^٥، وقال عنها الأشموني^٦ وهي شاذة^٧.

(ب) كما أثر الكسر عن سليم أيضاً وذلك فيما رواه ابن مالك عنهم من أنهم يكسرون ميم مذ ومنذ^٨. وجاء في اللسان^٩ حكى عن بني سليم: ما رأيت منه منذ ست، بكسر الميم^{١٠}.

وسلِّم هذه كانت تسكن عن كتب من خيبر^{١١}، ويقع بعض ديارها في منطقة الحجاز ويثرّب كما كانت صلاتها وثيقة بقريش^{١٢} - فهي حضرية لذلك؛ ولأن ديارها كانت في منطقة تهيمن على طرق التجارة.

تعقيب :

وليس القول بأن هذه القبيلة تؤثر الضم مثلاً، وأن أخرى تؤثر الكسر بالأمر السهل، بل لا بد لذلك من قوانين صوتية غالبية تسير عليها كثيراً، وتشذ عنها قليلاً كما سنرى - وكما رأينا، لأنه كثيراً ما يعترض بحثنا روايات مضطربة متنافرة في كثير من الأحوال، ويجد الانسان صعوبات جمة في استخلاص الحقيقة فمن ذلك :

أ (ما جاء في المصباح في كلمة « الور » إذ قال : « الور » الفرد، والور : التحل -

(١) الأعراف : آية ١٨٧ .

(٢) البحر : ٤/٤٣٤ .

(٣) شواذ القرآن : ابن خالويه : ٤٨ .

(٤) الجمع : ٥٧/٢ .

(٥) الأشموني : ١٢/٤ .

(٦) الجمع : ٢١٦/١ .

(٧) اللسان : ٤٧/٥ .

(٨) نهاية الأرب : الفلكندي : ٢٩٥ .

(٩) تاريخ العرب : ١٧٦/٤ جواد علي .

بالكسر فيها لتتميم ، وبفتح العدد ، وكسر الذحل لأهل العالية ، وبالعكس وهو فتح الذحل ، وكسر العدد لأهل الحجاز ،^(١) .

(ب) وجاء في المزهر عن اليزيدي في نوادره : الحجاز : الشفع والوتر (بفتح الواو) ، وتميم : الوتر ، بكسر الواو^(٢) .

(ج) وجاء في اللسان عدة روايات أخصها فيما يأتي :

١ - رواية عن اللحياني : أهل الحجاز يسمون الفرد : الوتر (بفتح الواو) وأهل نجد يكسرون . وفي رواية أخرى عنه (وتميم وأهل نجد يكسرون)^(٣) .

٢ - رواية عن يونس : أهل العالية يقولون : الوتر في العدد ، والوتر (بالفتح) في الذحل . وقال أيضاً وتميم تقول : وتر (بالكسر) في العدد والذحل^(٤) .

٣ - رواية عن الجوهري : الوتر بالكسر : الفرد ، والوتر بالفتح الذحل - هذه لغة أهل العالية ، فأما لغة الحجاز ، فبالضد منهم ، وأما تميم فبالكسر فيها^(٥) .

(د) وجاءت هذه الكلمة في مكانين من أمالي القاضي .

أ (الوتر : بمعنى الفرد ، يفتح في لغة الحجاز ، ويكسر في لغة تميم وأسد وقيس - وفي الذحل ، بكسر الواو لا غير^(٦) .

(ب) جاء عن الأصمعي : أن أهل الحجاز يفتحون الواو في الوتر - بمعنى الفرد ويكسرونها في الذحل ، ومن تحتهم من قيس وتميم - يسوونها في الكسر^(٧) .

(هـ) وفي جمهرة ابن دريد : أن كسر الواو في الوتر - بمعنى الفرد لغة حجازية ، وفتحها نجدية ،

(١) المصباح : ١٠٠٢/٢ .

(٢) المزهر : ٢٧٧/٢ .

(٣) اللسان : ١٣٥/٧ - ١٣٦ .

(٤) اللسان : ١٣٥/٧ - ١٣٦ .

(٥) المرجع السابق .

(٦) أمالي القاضي : ١٣/١ .

(٧) أمالي القاضي : ٢٣٤/١ .

والوتر الترة - بكسر الواو لا غير^(١) . وعلق مصصح الجهرة على الوتر بمعنى الترة بقوله « وقد أجاز الفتح قوم وهو لغة ، فلا معنى للإنكار »^(٢) . ونظراً لأن هذه المادة وردت في القرآن الكريم ، فلا بد من استشارة كتب القراء فيها ، وقد اخترت لهذا ، كتاب الحجة لابن خالويه ، ومفردة قراءة أبي عمرو ، وإبراز المعاني لأبي شامة ، والبحر المحيط لأبي حيان .

(أ) فبرى ابن خالويه أن الوتر بمعنى الفرد - يفتح عند أهل الحجاز ، ويكسر عند تميم ، فأما من الترة والذحل - فبالكسر لا غير^(٣) .

(ب) ذكر صاحب إبراز المعاني ناقلاً عن مكي وغيره : أن الفتح لغة أهل الحجاز ، والكسر لغة تميم في الوتر بمعنى الفرد^(٤) .

(ج) وفي البحر المحيط ذكر أن الوتر في العدد - بفتح الواو لغة قريش^(٥) .

(د) وفي مفردة قراءة أبي عمرو : إذا كانت الوتر - بمعنى الفرد - فلهاجة قريش تنجح الى فتح الواو^(٦) . وبمقارنة هذه الروايات في الكتب المختلفة يتضح :

١ - أن لهجة قريش كلهاجة الحجاز (وذلك بمقارنة ما جاء في مفردة أبي عمرو ، والبحر المحيط بما جاء في الحجة لابن خالويه واللسان) فكلتا اللهجتين القرشية والحجازية أثرتا الفتح في الوتر إذا كان بمعنى العدد ، كما أثرتا الكسر في الوتر - إذا كان بمعنى الذحل ، ولهذا يظهر لنا خطأ رواية المصباح حيث جعلت الكسر في العدد ، والفتح في الذحل ، لأهل الحجاز ، كما أخطأ صاحب الجهرة حين نسب الكسر في العدد لأهل الحجاز ، لأنهم يفتحون فيه .

٢ - أن تميمًا أثرت الكسر في الوتر - إذا كان بمعنى العدد والذحل جميعاً (ويظهر ذلك بمقارنة ما جاء في اللسان في رواية يونس ، وبما جاء فيه في رواية الجوهري ، وبما جاء في الحجة عن

(١) الجهرة : ١٤/٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الحجة لابن خالويه : ورقة ١٦٥ مخطوط بدار الكتب .

(٤) إبراز المعاني : ٤٩٥ .

(٥) البحر : ٤٦٧/٨ .

(٦) مفردة قراءة أبي عمرو - خط ورقة : ٧٩ .

ابن خالويه) ، ولهذا يظهر لنا خطأ الجمهرة حيث عزت الفتح في العدد - لأهل نجد ، لأن نجداً تكسر في العدد والذحل جميعاً .

٣- أن رواية « كتاب القالي » أفادتنا أن قيساً وأسدأ سارتا مع تميم في إثارة الكسر في الوتر بمعنى الذحل والعدد جميعاً .

٤- أن أهل العالية سارت في طريق مخالف لأهل الحجاز ، لأنها أثرت : الكسر في العدد ، والفتح في الذحل ، وذلك بمقارنة ما جاء عن يونس والجهري في اللسان ، ويظهر أيضاً خطأ صاحب المصباح حيث عكس : فنسب الفتح في العدد ، والكسر في الذحل لأهل العالية .

٥- وتكون الخلاصة الصحيحة لهذه الروايات المضطربة المتنافرة في ضوء المقارنات السابقة هي :

- أ) أن تميم وأسدأ وقيساً - يكسرون الوتر : إذا كان بمعنى العدد والذحل جميعاً .
- ب) أهل الحجاز ومعهم قريش يفتحون الوتر : إذا كان بمعنى العدد ، ويكسرون في الذحل .
- ج) أهل العالية على عكس الحجاز ، يكسرون الوتر : إذا كان بمعنى العدد ، ويفتحونه في الذحل .

ومما يؤيدني في هذه الخلاصة أن حمزة والكسائي^(١) قرءا قوله تعالى : « والشفع والوتر » بكسر الواو ، بينما قرأ نافع وابن كثير بالفتح^(٢) ، وهذه القراءة تعتبر سنداً كبيراً فسيما ذهبت إليه من إثارة تميم : الكسر ، وإثارة الحجاز الفتح في العدد ، وذلك لأن حمزة والكسائي كلاما كوفي ، والقراء الكوفيون استمدوا نماذج قراءتهم من بيتهم العراقية ، وكانت قبائل تميم تلاصق هذه البيئات ، لأن البيئة العراقية تأثرت بقبائل وسط الجزيرة وشرقيها^(٣) ، ولا شك أن تميم كانت تتناثر ديارها في شرق الجزيرة ، لهذا ظهرت لهجتها على لسان حمزة والكسائي .

كما ظهرت لهجة الحجاز على لسان نافع وابن كثير وكلاما حجازي - إذ أن نافعاً كان قارئاً

(١) الإتحاف : ٤٣٨ .

(٢) اللسان : ١٣٥/٧ - ١٣٦ .

(٣) في اللهجات العربية : ٦٣ ط ٢ .

المدينة^(١) ، وابن كثير كان قارئ مكة^(٢) ، ولهذا استندنا الى تخطيط رواية المصباح تلك التي عزت الى الحجاز الكسر في الفرد ، وخطأ رواية الجهرة تلك التي عزت فيها الكسر في الفرد للحجاز ، والفتح في العدد لنجد ، ونجد - كانت تسكنها تميم وأسد وقيس - تلك التي آثرت الكسر في تلك الصيغة .

والآن وبعد أن فحصت هذه الروايات ، ورجعت بعضها - أعود فأعمل لها :

فلهجة الحجاز اختارت الفتح في العدد مثل « الشفع والوتر » ، لأنها أرادت أن تطابق بين لفظ الشفع ولفظ الوتر ، ولو نطقنا اللهجة الحجازية بالكسر في الوتر ما حصل التطابق بينه وبين كلمة « الشفع » . وأما تميم فسبب إشارها بالكسر - أنها نظرت الى المعنى ، فالشفع معناه الزوج والوتر معناه : الفرد ، فمعنى الكلمتين مختلف ، فأثرت اختلافهما في الحركات - فجاءت الكلمة الوتر مكسورة مخالفة الفتح في الشفع لاختلافهما في المعنى ، ويمكن أن نعلل أيضاً لإيثار تميم وأسد وقيس الكسر في الوتر بأن الواو من الحروف المستقلة ، وتلك الحروف تؤثر الكسرة على غيرها من الحركات .

هذا ويلاحظ أن الحجاز فرق بين الوتر بمعنى الفرد ، والوتر في الذحل ، وكذلك لهجة العالية حيث سارت على عكس الحجاز - بالحركة ، ففي الحجاز الواو مفتوحة في الفرد ، ومكسورة في الذحل ، وفي العالية مكسورة في العدد ، مفتوحة في الذحل - فالتزمت كل من اللهجتين المغايرة في الشكل تبعاً للمغايرة في المعنى ، ولا شك أننا نلحس ذلك في اللغة العربية ، فكلمة « الضعف » إذا كانت الضاد مضمومة ، تختلف معناها عنها لو كانت مفتوحة ، ولهذا يقول صاحب المصباح « المفتوح » في الرأي ، والمضموم في الجسد^(٣) ، ولا شك أن المغايرة لعبت دوراً كبيراً في تاريخ الحياة العربية اللغوية .

ب - بين الضم في البدو والفتح في الحضر^(٤) :

كما نجد أن اللهجات التيممية مالت الى الضم في مقابل الحجازية التي تنجح الى الفتح ، ومن

(١) طبقات القراء : ٣٣٠/٢ .

(٢) طبقات القراء : ٤٤٣/١ .

(٣) المصباح : ٥٢٢/١ .

(٤) مما يحسن عرضه للتقابل بين حركتي الضم والفتح - أن أبا عمرو بن العلاء كان يلتزم خروفاً من الحجاج أن يبطش به ، قال أبو عمرو : فخرجت في الغلس أريد التنقل من الموضع الذي كنت فيه الى غيره ، فسمعت منشداً يبطش :

ذلك : القرع : بالفتح بلغة الحجاز ، وبالضم : لغة تميم ^١ ، وذلك في قوله تعالى « إن يَمْسَسْكُمْ قرع » ^٢ فقُرئت بالوجهين . كما نسب صاحب المصباح « المفتوح للحجاز » ^٣ ، وكما ورد أن (مثلة) بالفتح لغة الحجاز ، وبالضم لغة تميم ^٤ ، ولهذا قرأ ابن وثاب بضم الميم وسكون الشاء ، وابن مصرف بفتح الميم وسكون الشاء ^٥ ، وعزيت (غلظة) بالفتح لغة الحجاز ، وبالضم لغة تميم ^٦ ، وبهذا قرأ (وليجدوا فيكم غلظة) ^٧ بالفتح - الأعمش والمفضل عن عاصم ، وعزاها أبو حيان للحجاز ، كما قرأ السلمي وابن أبي عبلة بضمها ، وعزاها أبو حيان لتمييم ^٨ ، ونسب المصباح (الزعم) بالفتح للحجاز ^٩ ، وفي ابن خالويه « فقالوا هذا الله يزعمهم » بضم الزاي ^{١٠} ، وقيل الفتح في المصدر ، والضم في الاسم ^{١١} ، وعزى الضم لأسد ^{١٢} ، وجاء في سورة الأنعام « انظروا الى ثمره » ^{١٣} الفتح بلغة كنانة ، وبالضم لغة تميم ^{١٤} ، والرواة كثيراً ما يخلطون بين لهجتي الحجاز وكنانة ، كما خلطوا بين الحجاز وقريش .

وباستعراض ما سبق عنّا أن تميماً والبيئات البدوية تؤثر الضم ، لأنها بدوية « ولأن

ربما تكره النفوس من الأمر له فترجى كحلّ العقال

وسمعت عجوزاً تقول : مات الحجاج ، فما أدري بأيهما كنت أمرّ ، أقول المنشد « فرجة » بالفتح ، أم بقول المعجوز : مات الحجاج ؟ طبقات الزبيدي : ٢٩ .

(١) كتاب اللغات في القرآن : ٢٣ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٠ .

(٣) المصباح : ٧٦٣/٢ .

(٤) البحر : ٣٥٨/٥ .

(٥) البحر : ٣٦٦/٥ ، وانظر المحتسب لابن جنى : ٦/٢ - ٨ مخطوط بالتميمورية .

(٦) البحر : ١١٥/٥ .

(٧) سورة التوبة : آية ١٢٣ .

(٨) البحر : ١١٥/٥ ، مختصر شواذ القرآن : ٥٥ - ٥٦ .

(٩) المصباح : ٣٨٧/١ مادة « زعم » .

(١٠) مختصر شواذ القرآن : ٤١ .

(١١) أبو حيان : ٢٢٧/٤ .

(١٢) المصباح : ٣٨٧/١ .

(١٣) سورة الأنعام : آية ٩٩ .

(١٤) كتاب اللغات في القرآن : ٢٦ .

الضم مظهر من مظاهر الحشونة البدوية ^١ ، كما رجح الدكتور أنيس « أن الصيغة المشتملة على الضم تنتمي الى بيئة بدوية ، وأن المشتملة على الكسر تنتمي الى بيئة حضرية » ^٢ ولكن يقف في سبيل ذلك بعض الروايات التي عزى الضم فيها الى الحجاز مقابل الفتح التي جنحت إليه تميم .

ج - بين الضم للحجاز ، والفتح لتييم :

وتلك أهم الروايات :

١ - الضعف - بالفتح لغة تميم ، وبالضم لغة الحجاز ^٣ ، وفي قوله تعالى « آلاَن خَفَّتُ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فَيْكُمْ ضَعْفًا » ^٤ قرأ الحرميان والعربيان والكسائي ... ضعفاً بالضم . وحزمة وعاصم بفتح الضاد وسكون العين ^٥ .

٢ - وعضد بضمين - لغة الحجاز ، وعضد : بسكون الضاد - لغة تميم وبكر ^٦ ، وجاءت عليها القراءات في قوله تعالى « وما كنتُ مُتَّخِذُ الْمُضِلِّينَ عَضْدًا » ^٧ .

٣ - وفي ديوان الأدب المخطوط للفارابي : أن الزُّهُو - بالضم لغة الحجاز ، في الزُّهُو ^٨ . ويقال ذلك : للبلح إذا ظهرت فيه الحمرة ^٩ ، كما عزيت صيغة الضم للحجاز في اللسان ^{١٠} .

٤ - وفي معاني القرآن أن الجهد - والوجد - بالضم لغة الحجاز ، ولغة غيرهم بالفتح ^{١١} ، وفي شواذ القرآن أن الأعرج وعطاء ومجاهد قرءوا (لا يَجِدُونَ جهداً) بالفتح ^{١٢} .

(١) في اللهجات العربية ٨١٠ ط ٢ .

(٢) في اللهجات العربية : ٨٢ .

(٣) البحر : ٥١٨/٤ .

(٤) سورة الأنفال : آية ٦٦ .

(٥) البحر المحيط : ٥١٨ .

(٦) المصباح : ٦٣٥/٢ .

(٧) الكهف : آية ٥١ .

(٨) ديوان الأدب للفارابي : ورقة ٣٥٢ مخطوط لغة تيمور ٣٨٣ .

(٩) البلغة في شذور اللغة : ٦٧ بيروت .

(١٠) لسان العرب : ٨٢/١٩ .

(١١) معاني القرآن للفراء : ٤٤٧/١ ط دار الكتب .

(١٢) شواذ القرآن : ابن خالويه : ٥٤ .

٥ - وفي الأضداد أن : العقر - بالضم لغة الحجاز ، ولجد تقول ذلك : بالفتح ولا شك أن نجداً - تشمل تيمناً وغيرها من قبائل البدو .

وقال مالك الهذلي :

كرهت العقر عقر بني شليل إذا هبت لقارنها الرياح^١

والعقر : أصل الدار ، كما عزيت الصيغة مثل ذلك في كتاب الرجل^٢ .

واستدل لها ابن منظور بقول النبي ﷺ « خير المال العقر »^٣ . وهي هنا لا بد أن تكون بالضم ، لأن الرسول حجازي .

وربما أن السبب في أن تيمناً وغيرها من البدو خالفت عاداتها فنطقت مثل ذلك : بالفتح ؛ لأن الأمثلة السابقة بها حرف حلق ، وحروف الحلق تؤثر الفتحة ، وقد لاحظ ذلك سيبويه^٤ ، والسر في ذلك أن كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها الحلق ، تحتاج الى إتساع في مجراها بالفم ، فليس هناك ما يعوق هذا المجرى في زوايا الفم ، ولهذا ناسبها من أصوات اللين أكثرها اتساعاً ، وتلك هي الفتحة^٥ ، ولهذا إذا التفتنا الى القرآن العظيم أمكننا أن نعثر على قراءات تؤيد هذا المذهب وسأعرض جانباً منها :

١ - قرأ سهل بن شعيب النهمي قوله تعالى « أَرَأَيْتَ إِذْ أَرْنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ »^٦ وقوله تعالى : « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا »^٧ بفتح الهاء في الآيتين^٨ .

٢ - جاء في البديع أن أبا السَّمال قرأ « إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ »^٩ بفتحتين^{١٠} .

(١) الأضداد : ابن الأنباري : ٢٣ الحسينية .

(٢) البلغة في شذور اللغة : ١٢٨ بيروت .

(٣) اللسان : ٢٧٥/٦ .

(٤) الكتاب : ٢٥٥/٢ .

(٥) في اللهجات العربية : ١٥٨ ، النصف : ١١٥/١ .

(٦) النساء : ١٥٣ ، البقرة : ٥٥ .

(٧) سورة طه : آية ١٣١ .

(٨) المحتسب لابن جنى : ٧٧/١ خط بمكتبة أحمد تيمور .

(٩) سن ٣ : ١٤٠ .

(١٠) مختصر شواذ القرآن : ٢٢ لابن خالويه .

٣- كما وردت قراءة في المحتسب وهي : « ومن الضَّانَّ اثْنين »^١ بفتح الهمزة . وقر
« كدأب آل فرعون » بفتح الهمزة أيضاً^٢ .

وإذا ما حققنا النظر في هذه القراءات وجدنا أن حرف . الحلق بها جاء مفتوحاً
الترتيب في الآيات :

الهاء ، والحاء ، والهمزة ، فدل هذا على أن حرف الحلق يؤثر الفتحه - أما في
فقد آثر حرف الحلق وهو الحاء - فتح الحرف الذي يليه وهو « الراء » - كما أن حر
فتح الحرف الذي قبله في مثل : يَسْنَحْ ، يَسْفَحْ ، يَسْمَحْ .

والبصريون يذهبون أن مثل هذا لغات : قرْنَحْ وقرَحْ : كَالْحَلَبِّ وَالْحَلَبِّ ، ولا
الحلق في هذا الفتح ، ولا شك أن الصواب جانبهم ، ولهذا نرى ابن جنبي يخالفهم مع
بصري - ونحاز الى المذهب البغدادي ذلك الذي يرى أن حرف الحلق هو الذي جـ
- وقال ابن جنبي في ذلك « ولا قرابة بيني وبين البصريين لكننا بيني وبين الحق -
لله »^٣ . ومخالفة ابن جنبي مذهب البصريين كما سبق ؛ سببها أنه كان معتزلياً ، والمعتز
الجانب التحرري في الفكر الإسلامي ، وهو في العربية أشبه بأبي حنيفة في الفقه .

ونرى أن « عَقِيلًا » كانت دائماً تؤثر الفتح مع حرف الحلق قال ابن جنبي « رأ
من عقيل لا أحصيهم يحرك ذلك وهو قول بعضهم : نَحَوَه - بفتح الحاء - يريد : ن
وكان الشجري^٥ يقول : أنا مَحْمُوم : بفتح الحاء ، وقال مرة : وقد رسم له الطبيب
التفاح ويرمي بثقله ، فلم يفعل ذلك وأنكره الطبيب عليه فقال : والله لقد كنت أ
وعليَّته تَغْدُو - بفتح الغين ، وقال ابن جنبي : سمعت جماعة منهم : وقد قيل لهم
أقيمت لكم أنزالكم من الخبز قالوا : فاللحم : يريدون : اللحم^٦ . وما جاء عن

(١) سورة الأنعام : آية ١٤٣ ، والمحتسب : ٢٨٥/١ تيمور .

(٢) البعر : ٣٨٩/٢ .

(٣) المحتسب : ١٩٧/١ خط في مكتبة تيمور .

(٤) المحتسب : ١٩٧/١ .

(٥) هو أبو عبدالله محمد بن العساف العقيلي : الخصائص : ١٥/١ هامش .

(٦) المحتسب : ٢٧/١ خط في مكتبة تيمور .

قولهم (الطعم) وهو ما يشتهي من الطعام ، وليس للفتح طعم (والطعم) بفتحين لفة كلابية ^١ .

ومثل ما رأيناه في تلك القبائل من أن حروف الحلق عندهم تؤثر الفتح - نرى مثله في العبرية ، فالفعل פָּתַח بمعنى قوّى - كان ينبغي أن يكون مضارعه - قياساً على مضارع الثلاثي الصحيح פָּתַח بتسكين الحاء ، ولكنها تؤثر الفتح لحرف الحلق وهو الحاء فيقولون : פָּתַח

ولنا من كلام « عقيل » وغيرهم ما يؤيد قضيتنا - فعقيل - التي تفتح لحرف الحلق - مثلها مثل تميم في البدو - وهي الأخرى فتحت لحرف الحلق - فكأن البيئات البدوية تلتزم هذا النمط من الفتح في حرف الحلق .

وكما يفتح لحرف الحلق يفتح كذلك لحروف الاستعلاء وهي : (ص ض ط ظ غ خ ق) ولا شك أن الحروف المستعلية لها صفة القوة ، إذ فيها يعلو اللسان إلى الحنك أطبقت أو لم تطبق ، ولهذا آثرت الفتحة لخفتها ، ويمكن أن نجد ما يؤيد ذلك من اللهجات القديمة جاء عن أبي زيد « أنه سمع بعض المجانين يقول : هذا سطر - بفتح موضع الفاء والعين » ^٢ - بينما تنطق تلك الصيغة بسكون الطاء في لغة الجمهور . وجاء ما يشبه هذا النص في المصباح إلا أنه قال : « في لغة بني عجل » ^٣ واستشهد ابن السكيت للصيغة المفتوحة بقول جرير :

من شاء بايعته مالي وخلعته ما تكل التيم في ديوانهم سطرًا ^٤

بفتح الطاء .

تعقيب :

١ - وما يزيدني تمسكاً بهذا ما ورد في إصلاح المنطق من أن اللحد واللحد « والرفع والرفع »

(١) المصباح : ٥٦٩/٢ .

(٢) نوادر أبي زيد : ٨٥ .

(٣) المصباح : ٤٢٢/١ .

(٤) إصلاح المنطق : ابن السكيت : ٩٥ - ٩٦ .

لتميم الفتح ، والضم لأهل العالية ١ ، (والمراد بها هنا الحجاز) ، بدليل أن المصباح عزى
الضم للحجاز ٢ . كما ذكر صاحب المخصص ما يفيد هذا ٣ .

٢- وفي مخطوطة أبي القاسم بن سلام : أنه عزى الصرع : بالفتح لتمييم ٤ ، كما عزى ابن سيده :
الكسر لقيس ، والفتح لتمييم ٥ .

وكل هذا يشير إلى أن تميماً ومن لف لفها من قبائل البدو تؤثر الفتح إذا ما وجد حرف
الحلق . والأمثلة السابقة :

مثل : اللحد ، الرفع ، الصرع - اشتملت على حرف الحلق ، كما أنه يلاحظ أن لهجة تميم
وغيرها من البدو تتأثر بجواررة الأصوات - إذ أنها تأثرت بوجود حرف الحلق في تلك الأمثلة ،
بمعكس لهجة الحجاز ولهجات الحضر ، كما أرجح أن كلتا الصيغتين الحضرية والبدوية كانتا تستعملان
في زمن واحد ، ولكن في بيئتين مختلفتين .

٣- وكما ورد الإسكان في عين الكلمة ولا مهاب ، وفتح في فائها نادراً ، وذلك في قراءة مسلمة
« هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ » بفتح اللام وسكون الهمزة . ويرى بعض المحدثين أن الروايات
لم تعطنا سوى هذا المثال لهذه الظاهرة ، ومن أجل هذا لا ينهض أن يكون أساساً لبحث
واضح المعالم . (أنظر دراسة صوتية في القراءات الشاذة للدكتور عبد الصبور شاهين) .

ثالثاً : المماثلة في الحركات - Vowel - Harmony :

قبل أن ننسبه إلى أي قبيلة يحسن أن نعرض بعضاً من النصوص حتى نتعرف على القبائل التي
تميل إليه أو التي لا تميل . والانسجام ظاهرة عامة في جميع اللغات ، ولقد لاحظته المتقدمون
وعلى رأسهم سيديوي ت ١٨٠ هـ ، وكان يسمى هذه الظاهرة بـ (المضارعة) ويقصد بها تقريب
الأصوات المتجاورة : الكتاب ٢/٤٢٦ . ومنهم ابن جني ت ٣٩٢ هـ حيث ذكره بأنه « تقريب

(١) إصلاح المنطق : ٩٠ .

(٢) المصباح : ٣٥٧/١ مادة « الرفع » :

(٣) المخصص : سفر ١٥ ص ٧٦ .

(٤) الغريب المصنف : لأبي عبيد القاسم : ص ٢٣١ مخطوطة بدار الكتب رقم ١٢١ .

(٥) المخصص : سفر ١٥ ص ٧٤ .

صوت من صوت «^١ وسماه مرة أخرى في كتابه (المنصف) « بالتجنيس » . وكانت ابن جنى بارعاً في خلق هذا الاسم لظاهرة الانسجام ، بل هو في نظرنا أصبح من غيره ، وقد ضرب ابن جنى عدة أمثلة يلمح فيها هذا التقريب فمن ذلك :

« الحمد لله ، والمحمد لله »^٢ بتغليب الحرف المتقدم على المتأخر كما في المثال الأول ، أو العكس كما في المثال الثاني ، كما عدّ تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو « شعير ، وبِيعير ، ورغيف »^٣ ومن التقريب ما ذكره الشجري « زئير الأسد يريد : الزئير »^٤ ، كما أن من التقريب أو الانسجام في الحركات قولهم « منتن - بكسر الميم والتاء »^٥ وأصلها منتن - بضم الميم وكسر التاء ، وحكى أبو زيد عن العرب أنه قيل « الجنة لمن خاف وعبد الله »^٦ بكسر الواو والعين . وفي جميع تلك الأمثلة غلب الحرف المتأخر على المتقدم .

ويظهر أن السر في ميل العربية الى هذا التقريب أو الانسجام أو المائلة : Assimilation وكلها أسماء متقاربة - أن اللغة نشأت شفوية - لم تقيد بقيود الكتابة ، واكتفى فيها أول الأمر - بالسمع والنطق ، ومتى اقتصر أمر اللغة على السماع وعلى النطق وعلى الانشاد - فلا بد أن تعنى كل العناية بهذا الانسجام^٧ ، أو التقريب الصوتي الذي ظهر في الأمثلة السابقة ، وعلى كثير من أبواب العربية كالإدغام ، والإبدال ، والإمالة ، والقواري^٨ .

ويمكن أن ندرس ظاهرة المائلة على المستويات الآتية :

أولاً : الانسجام في كلمة :

١ - ويكون في الأسماء ، ويمكن أن نرى أمثلة لذلك فيما يأتي :

أ (ما روي عن أهل الحجاز من أنهم يقولون : سكارى وكسالى وغيارى - بالضم ، وبنو تميم

(١) الخصائص : ٥٣١/١ ط الهلال .

(٢) الخصائص : ٥٣٥/١ ط الهلال .

(٣) المحصص : ص ١٤ ص ٢١٣ ، شرح السيراني : ٣١٢/٥ خطوط بالتميمورية .

(٤) الخصائص : ٥٣٥/١ ط الهلال .

(٥) المحصص : ص ١١ ص ٢٠٦ ، الخصائص : ٥٣٥/١ ط الهلال .

(٦) الخصائص : ٥٣٥/١ ط الهلال .

(٧) في الدراسات القرآنية : ٢٦٧ دكتور شابي ط نهضة مصر .

(٨) من أوائل من أشار الى ظاهرة المائلة أو التقريب من المحدثين « دانيال جونز » اللغوي الإنجليزي في كتابه An out Line of english Phonetics ومن علماء العرب : الدكتور أنيس في كتابه : الأصوات اللغوية .

يفتحون^١ . وفي شواذ القرآن : أن عيسى قرأ : « وإذا قاموا الى الصلوة قاموا كسالى ، بالفتح ، وعزيت لتميم وأسد^٢ ، كما عزا أبو حيان الضم للحجاء وبها قرأ الجمهور^٣ .

ب (ما روي عن عامة قيس وتميم وأسد يقولون للناقاة حين الوضع « مخضت » بكسر الميم والحاء^٤ . بينما غيرهم يقولونها بفتح الميم .

ج (وفي كتاب التذكير والتأنيث للسجستاني : أنه يقال في الضأن : الضئ - وفي لغة تميم : الضئ - بكسر الضاد^٥ .

د (ما ذكره الزبيدي في نوادره من أن أهل الحجاء يقولون : ولدته لتمام - بفتح التاء^٦ ، وتميم تكسر .

هـ (كما عزيت صيغة (منن) بالكسر الى تميم ، وبالضم في الحجاء حكاه ابن سيده^٧ . وقد جاءت في الخصائص مهمة العزو^٨ .

و (وقرأ أبو عمرو « مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا » بكسر الميم^٩ . والذي يظهر من هذا العرض أن تيمماً وقيساً وأسداً مالت الى ظاهرة الانسجام ، وعلى العكس منها لهجة الحجاء ، وأرجح أن القبائل التي تشبه تيمماً في البداوة مالت هي الأخرى الى ظاهرة الانسجام بدليل :

أ (ما جاء عن طيء من أنها تقول : « السؤد »^{١٠} بضم الدال الأولى في السؤد - بفتحها -

(١) إصلاح المنطق : ١٣٢ .

(٢) مختصر شواذ القرآن : ٢٦ ابن خالويه .

(٣) البحر : ٣٧٧/٣ .

(٤) اللسان : ٩ : ٩٥ .

(٥) التذكير والتأنيث : ص ١٢ رقم ٢٦٤ السجستاني .

(٦) المزهر : ٢٧٧/٢ .

(٧) المحصن : ابن سيده : ص ١١ ص ٢٠٦ .

(٨) الخصائص : ١ : ٥٣٥ ط الهلال .

(٩) مفردة قراءة أبي عمرو : ٥٨ خط .

(١٠) اشتقاق ابن دريد : ١٣٠ وستفلد .

حقن تلسجع الضمة مع الضمة . وقد جاءت رواية مشابهة عن الأزهري^١ ، وابن منظور^٢ .

ب (روي عن عامري أنه يقول : عنقر - بضم القاف - وغيره يقولها : بفتح القاف^٣ .

ج (ما جاء عن أعرابي من عقيل من أنه يقول « فكاك الرقبة » بفتح الفاء وغيره يقولها : بكسرهما .

د (التذنوب واحده تذنية - وجاء عن الفراء أن بني أسد تقول : تذنوب . بضم التاء والنون - وغير بني أسد : بفتح التاء^٤ .

فالسمة الغالبة على تلك القبائل - هي السمة البدوية ، ولهذا آثرت الانسجام في الصيغ السابقة كما أثر عن تميم كذلك ، لاشتراكهم في البيئة البدوية .

٢ - أو يكون في الأفعال :

أ (جاء في الكامل أن تميماً تقول : فرغ يفرغ - بوزن فعل يفعل - بفتح العين فيها ، بينما قرئش تقول على وزن : فعل يفعل - بفتح العين في الماضي وضمها في المضارع^٥ .

ب (والمشهور في قبائل الحجاز أن أسماء الأفعال التي على وزن فعال - تبنى على الكسر، وعن أبي حيان : أن أسداً تبنيتها على الفتح^٦ .

وأرجح أن أسداً آثرت البناء على الفتح للانسجام مع ما قبلها ، كما أرجح أن لهجة أسد التي حدث فيها مراعاة الانسجام أحدث من لهجة الحجاز .

فتميم وأسد - وهما بدويتان آثرتا الانسجام - دون قرئش - وهي في بيئة متحضرة .

٣ - أو يكون في الظروف :

(١) اللسان : ٢١٣/٤ .

(٢) اللسان : ٢٨٩/٦ .

(٣) اللسان : ٢٨٩/٦ .

(٤) اللسان : ٣٧٦/١ .

(٥) الكامل للبهر : ١٦/١ .

(٦) التذييل والتكميل : ٢٩/٥ مصور بجامعة القاهرة .

فقد جاء في اللسان عن الكسائي أنه سمع في بني يربوع ، وطهية من يقول « حيث » ينصب
 الثاء على كل حال في الخفض والنصب والرفع ^١ وأرجح أن النصب على الثاء جاء لينسجم مع
 فتحة الحاء قبلها .

فإذا ورد أن تيمماً تقول « حوث » ^٢ بضم الثاء ، فأرجح أنها آثرت الانسجام ؛ لأن الواو
 أصلها امتداد للضم ، فكأنهم جانسوا بين الواو والضمة .

وهذه القبائل التي آثرت الانسجام - كطهية ويربوع جميعهم من البدو .

٤- أو يكون الانسجام في الضمائر :

وذلك كقراءة ابن عامر « وتوبوا الى الله جميعاً أيته المؤمنون » ^٣ بضم الهاء ^٤ ، وقد عزا أبو
 حيان هذه اللهجة الى بني مالك ^٥ ، كما عزاها الفراء الى بني أسد ^٦ . ولا منافاة ، إذ أن بني
 مالك من بني أسد ^٧ ولا أرى وجهاً لهذه اللهجة إلا أن بني مالك - وهم بدو - حركوا الهاء
 بالضم لتنسجم مع حركة ما قبلها .

أما قبائل الحضر فكانت لا تميل الى الانسجام في مثل هذه الضمائر وذلك :

أ (قراءة سلام قوله تعالى ('نُؤْتِيهِ مِنْهَا') ^٨ بضم الهاء ، وعزاها أبو الفتح الى لغة الحجاز ^٩ ،
 كما عزاها أبو حيان الى الحجاز ^{١٠} .

(١) اللسان : ٤٤٥/٢ .

(٢) اللسان : ٤٤٦/٢ .

(٣) سورة النور : آية ٣١ .

(٤) البحر : ٤٥٠/٦ ، النهر الماد : ٤٤٥/٦ .

(٥) البحر : ٩٣/١ .

(٦) إبراز المعاني : ٢٠٠ .

(٧) التصريح : ١٧٤/٢ .

(٨) سورة الشورى : آية ٢٠ .

(٩) المحقق : ٣١٢/٢ مخطوط بالتيمورية .

(١٠) البحر : ٥١٤/٧ .

ب (وقرأ حفص « وما أنسانيه إلا الشيطان » و « بما عاهد عليه الله » و « قال لأهله امكثوا »^١ .

وكان ابن شهاب الزهري يضم تلك الهاء في جميع القرآن ، وما ذاك إلا لأنه مدني حجازي^٢ .

ج (وسمع الكسائي شيخاً من هوازن يقول : « عليه مال » وكان يقول « عليهم وفيهم »^٣ .

وهوازن وإن كانت قيسية — إلا أن بعضها قد سكن^٤ منطقة الحجاز ، وكانت لها صلات بمكة والطائف^٥ ؛ ولهذا سارت في ركب الحجاز ، في عدم الانسجام .

وأصل هاء الغائب الضم : كضربه ، وله ، وعنده . وتكسر بعد الكسرة نحو « مرّبه » وبعد الياء الساكنة نحو « فيه وعليه » ، ويقول السيوطي « وكسرها في صورتين المذكورتين لغة غير الحجاز ، أما الحجازيون فلفغتهم ضم هاء الغائب مطلقاً »^٦ ويظهر أن الحجازيين نطقوا بالضمير مضموماً ، لأن هذا الضمير الجورور في الأصل هو المرفوع المنفصل ، فأصل : به : به هو فأبقتة الحجاز على أصله ، ولذلك قال سيبويه « وأهل الحجاز يقولون : مررت بهو قبل ، ولد هو مال — ويقراءون « فحسفننا بهو وبادار هو الأرض »^٧ . وتشعب في لهجات الجزيرة بالسودان هذه الظاهرة الحجازية^٨ ، مما يؤكد أن أصلهم قد هاجر إليها من الجزيرة العربية — لاسيما المنطقة الحجازية . على أننا نشاهد أحياناً أن بعض لهجات القبائل قطعت مرحلة طويلة على طريق (المماثلة) أكثر مما قطعتة الفصحى . وذلك أن لهجة ناس من ربيعة وهم بنو كلب — كانوا يكسرون ضمير الغائب الجمع فيقولون « منهم . بينهم . بينهم » بكسر الهاء ؛

(١) الجمع : للسيوطي : ٥٨/١ - ٥٩ .

(٢) كتاب سيبويه : ٢٩٤/٢ .

(٣) اللسان : ٣٦٨/٢ .

(٤) تاريخ العرب : ٣٢١/٤ جواد علي .

(٥) معجم كحالة : ١٢٣١/٣ .

(٦) الجمع : ٥٨/١ .

(٧) الكتاب : ٢٩٤/٢ .

(٨) من لهجات الجزيرة بالسودان : ٩٨ خط .

(انظر : المزمهر ٢٢٢/١ . والكتاب ٢٩٤/٢ لسيبويه . وشرح السيرافي على سيبويه ٤٦٢/٥ ، مقدمة شرح القاموس) فإذا كانت لهجة هؤلاء (منهم) بكسر الميم والهاء والميم فهي أكثر تطوراً من الفصحى التي تقول (منهم) بكسر الميم وضمّ الهاء .

ثانياً : الانسجام في كلمتين :

١ - ويكون في : التقاء الساكنين :

أ (ويمكن أن نلمح ذلك في الروايات العربية ، إذ جاء عن بعض العرب أنهم يقولون « اخشوا القوم » بفتح الواو ، فأرجح أن تلك الفتحة إنما جاءت لتنسجم مع الفتحة قبلها ، وعليها قراءة « أولئك الذين اشتروا الضلالة » بفتح الواو ^١ .

كما يمكن أن نلمح هذا الانسجام فيما إذا وقعت الميم بعد ضم كقوله تعالى: « أولئك يَلْعَنُهُمُ اللهُ » ^٢ ، وقوله « وأنتم الأعلون » ^٣ بضم الميم للانسجام مع ما قبلها وذلك تأثر تقدمي ، وقد يكون تأثر رجعي كما إذا وقع بعد ثاني الساكنين ما كان مضموماً في الأصل ، كقراءة بعضهم « وقالت اخرج عليهن » ^٤ - فالقارئ أتبع ضمة التاء في قالت - ضمة الراء في - اخرج ^٥ ، إذ ليس بينها حاجز إلا حرف ساكن .

ب (كما حكى اللحياني عن طيء أنهم يقولون « اطلبوا من الرحمن » ^٦ بكسر الميم والنون ، وتعمل لهجتهم بكسر النون على أصل التقاء الساكنين وإتباعاً لكسرة الميم .

وعلى لهجتهم في الانسجام حكى أبو عمرو عن أهل نجران « براءةٌ من الله » بكسر النون ^٧ .

٢ - كما جاء في غير التقاء الساكنين ، فمن ذلك :

-
- (١) الجمع : ٢٠٠/٢ .
 - (٢) سورة البقرة : ١٥٩ .
 - (٣) آل عمران : ١٣٩ .
 - (٤) سورة يوسف : آية ٣١ .
 - (٥) ابن عيش : ١٢٧/٩ ، سيبويه : ٢٧٥/٢ .
 - (٦) اللسان : ٣١١/١٧ .
 - (٧) مختصر شواذ القرآن : ١ ، لابن خالويه ، المختب : ٣٥٢/١ مخطوط .

أ (ما جاء عن العرب « أخذوا ما حدث وما قدم »^١ وإنما ضمت الدال من حدث حين قرن بقديم ، لأجل انسجام النسق الصوتي ، حفاظاً على الموازنة ، وأصل حدث - على وزن فعل بفتح العين ، ومن ذلك قراءة النخعي « وحير عين » بقلب الواو ياء وجزمها ، في « وحوير عين » (البحر ٢٠٦/٨) وقد جاءت الصيغة نتيجة كسر الحاء .

ب (وقد حكى الأخفش أن بعض أسد يقولون « فإنهم لا يُكَدِّبونك »^٢ بكسر الفاء والهمزة^٣ - كما أنهم يقرءون « وإنا ظننا »^٤ بكسر الواو والهمزة^٥ ، كما كانوا يقرءون « وإذا حللكنم فاصطادوا »^٦ بكسر الفاء .

والذي يلاحظ في هذه القراءات عامل الانسجام القوي - الذي آثرت لهجة أسد - وهي بدوية - ففي الآية الأخيرة - تأثرت الفاء بكسرة همزة الوصل - فكسرت مثلها مراعاة لتام النسق الصوتي .

ومن هذا العرض نلمح ميل القبائل البدوية الى تقريب الأصوات بعضها من بعض ، لضرب من التشاكل ومراعاة لظاهرة الانسجام ، وكأن الملة في الانسجام عندهم أن اللسان يعمل في الحرفين عملاً واحداً فللهجة البدو متطورة وفي تطورها تجنح الى الانسجام ، بينما نجد القبائل المتحضرة كالحجاز ومن سار سيرها قد بالغوا مبالغة شديدة في عدم تقريب الحركات بعضها من بعض ، لأن لهجتهم محافظة وعوامل التطور عندهم ليست لها نفس القوة عند البدويين .

(١) درة الغوامص : ٣٠ .

(٢) سورة الأنعام : آية ٣٣ .

(٣) مختصر شواذ القرآن : ٣٠ .

(٤) سورة الجن : آية ١٢٠ .

(٥) مختصر شواذ القرآن : ٣٠ ابن خالويه .

(٦) سورة المائدة : آية ٢ ، وهي قراءة أبي واقد وأبي الجراح . انظر مختصر شواذ القرآن : ٣٠ .

الفصل الثاني

ظاهرة التقريب في الأصوات وتشمل : أولاً : الامالة ، ثانياً : الادغام

أولاً : الامالة والفتح بين لهجات القبائل :

تعريفها : هو تقريب الألف نحو الياء ، والفتحة التي قبلها نحو الكسرة ، ولهذا فهي من المظاهر الصوتية التي يدعو إليها تقريب الصوت من الصوت .

وقد أشار ابن جني إليها عند حديثه عن الحركات والتقريب إشارة عابرة حيث قال : واعلم أنك قد تجد هذه المضاربة وهذا التقارب بين الحروف ، فقد تجده أيضاً بين الحركات ، حتى إنك تجد الفتحة مشوبة بشيء من الكسرة أو الضمة منحواً بها إليها ، وتجد الكسرة أيضاً مشوبة بشيء من الضمة ، والضمة مشوبة بطرف من الكسرة^(١) ، أما القسم الأول في حديث ابن جني فهو المشهور عند إطلاق الإمالة ، وقد مثل ابن جني لتلك الإمالة « بفتحة عين عابد ، وعارف ، وذلك أن الإمالة إنما هي أن تنحو بالفتحة نحو الكسرة ، فتتميل الألف التي بعدها نحو الياء ، والعلة لذلك كما رآها ابن جني « لضرب من تجانس الصوت »^(٢) .

ويفهم من نص ابن جني السابق أنواع الإمالة ، وهي ولا شك كانت شائعة على ألسنة القبائل العربية ، ولكن ابن جني أهمل عزوها كمادته ، فترك ثغرة كبيرة في المحيط اللهجي ، وما ذكره ابن جني في نصه السابق يشير إلى الحركات المتفرعة عن الحركات الأصلية التي هي الفتحة والكسرة والضمة .

الامالة والانسجام الصوتي :

ظاهرة الانسجام الصوتي من الظواهر البارزة في فقه اللغة العربية ، وفي غيرها من لغات

(١) سر الصناعة : ٨/١ ط الحلبي .

(٢) سر الصناعة : ٨/١ ط الحلبي .

العالم ، فإذا ما اشتملت كلمة ما على بعض الحركات المتباعدة نراها تتطور ، وفي أثناء هذا التطور تحاول تقريب تلك الحركات المختلفة فيها وكثيراً ما يكون هذا الانسجام الصوتي على حساب الإعراب نفسه ، ومن ذلك :

(وقال اضرب الساقين إِمَّكَ هَابِل) (١) .

فقد كسر الميم في أَمَّكَ إِتباعاً لكسر الهمزة وهذا إخلال بإعراب المبتدأ في سبيل الانسجام الصوتي ، وروى : « وقال اضرب الساقين أَمَّكَ هَابِل » .

بضم النون في (الساقين) إِتباعاً لهمزة أَمَّكَ - وفي تلك الرواية أخلّ بالإعراب أيضاً لتقريب الصوت من الصوت . وجميع هذا يسمى بالانسجام الصوتي ، ولا شك أن الانسجام الصوتي فيه اقتصاد للجهد العضلي ، وهذا الاقتصاد يميل الإنسان إليه من غير تعمد ، فإذا ما ذكر ابن خالويه أن عيسى قرأ : « وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى » بالفتح (٢) ، وأن ابن قتيبة تحدث عن « رثي » بكسر الأول والثاني في « رثي » بفتح الأول وكسر الثاني (٣) . وأن أبا السمال قرأ « أحلت لكم بهيمة الأنعام » بكسر الباء في بهيمة (٤) ، علمنا أن الصيغ السابقة قد مالَت الى الانسجام الصوتي ، فالانسجام ظاهر في « كسالى » بالفتح ، وفي « رثي » بكسر الأول والثاني ، وفي « بهيمة » بكسر الأول والثاني ، ويترتب على هذا الانسجام الاقتصاد في الجهد العضلي ، وقد لمح ذلك سيبويه وعلمه بقوله « ليكون عمل اللسان من وجه واحد » (٥) كما لحظ ذلك بعض المحدثين واستشهد بما قاله سيبويه على تلك الظاهرة ، فقد عقد والترجمان Walter Ripman لذلك فصلاً ذكر فيه الانسجام ، وكثيراً من وجوه تأثير الحروف على بعضها (٦) . وما الإمالة إلا من هذا الضرب من الانسجام والتقريب ، لأن الهدف منها كما يقول ابن يعيش « تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل » (٧) ففي الإمالة تقريب الألف من الياء ، لأن الألف تطلب من الفم أعلاه ، والكسرة تطلب أسفله ، فتنافرا ، ولهذا جنحت

(١) الخصائص : ١٤٥/٢ ط دار الكتب .

(٢) مختصر شواذ القرآن : ٢٦ .

(٣) أدب الكاتب : ٢٩٠ .

(٤) مختصر شواذ القرآن : ٣١ .

(٥) كتاب سيبويه : ١٥٩/٢ ، شرح السيرافي على سيبويه : ٣٢٨/٥ خطوط بالتميمورية .

(٦) الحليل الفراهيدي : ١٣٩ .

(٧) شرح المفصل : ٥٤/٩ .

الفتحة نحو الكسرة ، والألف نحو الياء ، وبهذا زال الثقل وحلَّ محله الانسجام والتأثيل . وكان ابن جنبي يرى شبيهاً بين الإدغام والإمالة ، من ناحية تقريب الأصوات فهو يقول : « وأما الإدغام الأصغر ، فهو تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه - وهو ضروب ، فمن ذلك الإمالة »^(١) وما الإمالة إلا تقريب الصوت من الصوت ، وقد ضرب سيويوه مثلاً لهذا التقريب في الإدغام حيث ذكر أنهم قربوا في الإدغام - الصاد من الزاي حين قالوا : « صدر » فجعلوها بين الصاد والزاي لالتباس الخفة »^(٢) ويقول أبو سعيد في تعليل هذا التقارب في هذا المثال « أن الصاد مهموسة ، والدال مجهورة ، والصاد مطبقة مستعملية ، وليست الدال كذلك والصاد رخوة ، والدال شديدة ، والصاد من حروف الصغير ، وليست الدال منها ، فلهذا التباين استثقلوا تحقيق الصاد وبمدها الدال ، فاختاروا حرفاً من مخرج الصاد يوافق الدال في بعض ما خالفتها الصاد فيه ، وذلك الحرف الزاي ، لأن الزاي مجهورة مثل الدال ، وليست بمستعملية ولا مطبقة كما أن الدال كذلك »^(٣) .

وكان أبو سعيد يرى هذا الشبه بين الإدغام والإمالة حيث يقول « وكذلك (أي مثل التقريب في الإدغام) قربوا الألف من الياء في الإمالة »^(٤) .

وفي الأمثلة الثلاثة التي سقتها سابقاً وهي : كسالى : بالفتح ، ورثي : بكسرتين ، وبهيمه بكسرتين في أولها كذلك - قد عزيت إلى تميم . بل كثير جداً من الصيغ المنسجمة قد عزيت إلى تميم أيضاً ، فكان الانسجام أولى بتميم ومن لف لفها من قبائل البدو ، وإذا كانت الإمالة هي نوع من الانسجام كما قررنا - فلا غرابة في أن عزت كتب القراءات واللغة الإمالة إلى تميم وأمثالها ، وأدلة ذلك .

القبائل المميلة :

١ - في شرح الشافية أن الإمالة ليست لغة جميع العرب ، وأهل الحجاز ، لا يميلون وأشدهم حرصاً عليها بنو تميم »^(٥) .

(١) الخصائص : ٥٣٣/١ ط الهلال .

(٢) سيويوه : ٢٥٩/٢ .

(٣) شرح السيرافي على سيويوه : ٣٢٨/٥ غطوط : تيمور .

(٤) شرح السيرافي على سيويوه : ٣٢٨/٥ غطوط في تيمور .

(٥) شرح الشافية : ٤/٣ .

٢- وفي شرح المفصل « وعامة أهل نجد من تميم وأسد وقيس يسرون إلى الكسر »^(١) ولم يله يريد بالكسر : الإمالة ، وكانوا يطلقون عليها أيضاً : الترخيم ، والروم ، والبطح ، والاضجاع^(٢) . ومثل ذلك العزو : جاء عن الأشموني^(٣) ، والبحر المحيط ، لكنه زاد « والتفخيم للحجّاز »^(٤) ، وكانوا يطلقون التفخيم والفتح والنصب^(٥) - على ما خالف الإمالة ، كما عزاها السيوطي إلى تلك القبائل السالفة^(٦) ، وكذلك ابن الجزري^(٧) ، وصاحب مقدمة المباني^(٨) . كما عزي الفتح إلى الحجّاز^(٩) تارة ، وإلى قریش تارة أخرى ، وذلك عند أبي حيان حيث نسب « الهدى » في قوله تعالى : « اشتروا الضلالة بالهدى » بالإمالة لتميم ، والفتح لقریش^(١٠) ، أما القرآن الكريم فكان يراود بين الفتح والإمالة ، وقد ذكرت كتب القراءات في أصولها وفرشها شيئاً كثيراً من ذلك^(١١) . بل كل من أمال أو فخم له وجه في العربية لا يدفع ، وقصد لا ينكر لأن كل من أمال أو فتح له طريق واضح في النقل والرواية ، فالحجة لمن فخم - أنه أتى بالكلام على أصله ووجهه الذي كان له ، لأن الأصل التفخيم ، والإمالة فرع عليه^(١٢) ، وقد أمال بعض القراء أفعالاً فخمها غيرهم ، والحجة في ذلك : أنه أتى باللغتين ليعلم أن القاريء بها غير خارج عن ألفاظ العرب ، وليس التفخيم والإمالة اختلافاً في نفس اللغة ، وإنما ذلك اختلاف في اللحن وتقدير الصوت وتزيينه ، وقد اختار كل فريق من العرب ما رآه وفق طباعه^(١٣) .

(١) شرح المفصل : ٩ : ٥٤ .

(٢) مجلة كلية الآداب : ص ٣٢ م ١٠ ج ١ .

(٣) الأشموني : ٢٢١/٤ .

(٤) البحر : ٥٩/١ .

(٥) إبراز المعاني : ١٥٢ .

(٦) الجمع : ٢٠١/٢ .

(٧) النشر : ٣٠/٢ .

(٨) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٧ - ٢٢٨ .

(٩) الأشموني : ٢٢١/٤ .

(١٠) البحر : ٧١/١ .

(١١) الإنحاف : ٧٤ .

(١٢) الحجة لابن خالويه : ورقة ٣ خلف خط بدار الكتب رقم ١٩٥٢٣ .

(١٣) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٧ - ٢٢٨ تحقيق الدكتور جفري .

موقف الحجاز من الفتح والامالة :

ومن هذا العرض عرفنا أن البيئة الحجازية لا تميل ، بل تجنح الى الفتح ، وقد روي عن زيد ابن ثابت أنه قال « نزل القرآن بالتفخيم »^(١) والمعلوم عند رجال السلف أنه نزل بلغة الحجاز - فكان الحجاز يفخمون ، ومما يؤيد ذلك ما جاء عن أبي حيان في قوله « نحت هذه الألفات نحو الواو على لغة أهل الحجاز »^(٢) وقد عد أبو حيان في ارتشاف الضرب من الحروف المتفرعة المستعسنة في ألسنة العرب « حرف بين الألف والواو ويسمى ألف التفخيم كما في الصلاة والزكاة والحياة - في لغة الحجاز وكذلك رسموها بالواو في الكتابة »^(٣) .

وجاء في المحتسب في تحليل كتابة (الربا) بالواو في قوله تعالى « الذين يأكلون الربا »^(٤) أنه فخم الألف انتحاء بها الى الواو التي الألف بدل منها على حد قولهم :

« الصلوة والزكوة ... وكان القارىء بين التفخيم فقوي الصوت »^(٥) . وفي شرح الشافية « أن كتبهم لهذه الكلمات بالواو على هذه اللغة »^(٦) أي لغة الحجاز . وهذا يدل على الفتح والتفخيم عند أهل الحجاز ، فقد تأثرت الكتابة بلهجتهم وأصبحت مرآة لها ، ومن ذلك ما جاء في كتاب المصاحف عن نائل بن مطرف بن رزين بن أنس السلمي عن أبيه عن جده قال : لما ظهر الإسلام أتيت النبي ﷺ فقلت يا رسول الله : ان لنا بيراً بالذئينة قال : فكتب لي كتاباً « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ، أما بعد : فإن لهم بيراً إن كان صادقاً ، ولهم دارهم إن كان صادقاً ، قال : وهجاء ، « كان » ك « ون »^(٧) . ومن هذا النص نلمح صلة قوية بين لهجة النبي ﷺ ، وما أملاه في الكتاب ، وأرى أنه لشدة تفخيم الألف في (كان) كتب واواً ، فالحجازيون كما ورد في الروايات السالفة يفتحون ولا يميلون ، وأهل تميم وأسد وقيس يميلون ولا يفتحون ، ولكن عثرنا على بعض نصوص تقف في سبيل تلك القضية وتلك هي :

(١) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٧ - ٢٢٨ تحقيق الدكتور جفري .

(٢) البحر : ١٧٢/٦ .

(٣) شرح الشافية : ٢٥٥/٣ ، سر الصناعة : ٥٦/١ ط الحلبي ، تاريخ الأدب : حفي ناصف : ١٣ ط الثانية .

(٤) البقرة : آية ٧٥ .

(٥) المحتسب : ١٦٢/١ - ١٦٣ غطوط تيمور .

(٦) شرح الشافية : ٢٥٥/٣ .

(٧) المصاحف للسجستاني : ١٠٥ .

- أ (جاء في البحر المحيط في قوله تعالى « لا تقصص رؤياك على إخوتك »^(١) أن الكسائي قرأ بالإمالة ويغير الهمز - وهي لغة أهل الحجاز^(٢) .
- ب (قال السيوطي « ومنهم من لم يمل إلا في مواضع قليلة - وهم أهل الحجاز »^(٣) فكان أهل الحجاز أصحاب إمالة أيضاً .
- ج (قال صاحب أسرار العربية « والإمالة تختص بلغة أهل الحجاز ومن جاورهم من بني تميم وغيرهم »^(٤) .
- د (وفي شرح السيرافي على سيبويه « ومما يميلون ألفه - كل شيء كان من بنات الياض والواو مما مما فيه عين ، إذا كان أول فعلت منه مكسوراً نحو نحو الكسرة - كما نحو نحو الياض فيما كانت ألفه في موضع الياض - وهي لغة لبعض الحجاز . ومثل السيرافي لذلك بالفعل « خاف » وأنها أمالته لأنه على وزن فَعَلَ ، وأصله خَوِفَ فلأجل الكسرة المقدرة في الألف جازت إمالته »^(٥) .
- فكان أهل الحجاز على شيء من الإمالة في مثل هذا .

هـ (عن زر بن حبیش قال : قرأ رجل على عبدالله بن مسعود (طه) ولم يكسر : فقال عبدالله (طه) وكسر الطاء والهاء ، فقال الرجل (طه) ولم يكسر ، فقال : عبدالله : (طه) وكسر الطاء والهاء ، فقال الرجل (طه) ولم يكسر ، فقال عبدالله (طه) وكسر - ثم قال : والله لكذا علمني رسول الله ﷺ^(٦) فكان النبي ﷺ - وهو القرشي الحجازي علم ابن مسعود القراءة بالإمالة .

تردد القبال المائلة بين الإمالة والفتح :

وإذا رأينا أن البيئة الحجازية قد أمالت - فإننا نجد عكس ذلك ، أي أن البيئة التميمية وما يحيط بها من قبائل قيس وأسد - قد فتحت ، وأدلة ذلك :

-
- (١) يوسف : آية ٥ .
- (٢) البحر المحيط : ٢٨٠/٥ .
- (٣) الجمع : ٢٠٠/٢ .
- (٤) أسرار العربية : ابن الأنباري : ٤٠٦ ط دمشق .
- (٥) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٣٤/٥ مخطوط بالتميمية .
- (٦) اللشر : ٣١/٢ ، الإتقان : ٩٣/١ .

أ (في شرح السيرافي على سيبويه عند حديثه عن الأفعال الثلاثية الواوية يقول : إذا بلغت الأسماء أربعة أحرف – أو جاوزت من بنات الواو فالإمالة مستتبّة لأنها قد خرجت الى الياء – وجميع هذا لا يميله ناس كثير من تميم وغيرهم^(١) .

ب (عزا الفراء – « الفتح لعامة نجد من تميم وأسد وقيس في مثل قال وجال »^(٢) . أي أنهم لا يميلون في ذلك .

ج (والدليل على أن أصحاب الإمالة وهم (تميم وأسد وقيس) يختلفون فيها ما جاء في مخطوطة السيرافي على شرح سيبويه « اعلم أنه ليس كل من أمال الألف ، وافق غيره من العرب من يميل ، ولكنه قد يخالف كل واحد من الفريقين صاحبه ، فينصب بعض ما يميل صاحبه ، ويميل بعض ما ينصب صاحبه ، وكذلك من كان النصب من لفته ، لا يوافق غيره ممن ينصب ، ولكن أمره وأمر صاحبه كأمر الأول في الكسر »^(٣) وهكذا الشأن في لهجاتنا الحديثة المصرية ، فأهل (القاهرة) يقولون : جري ، مشي ، نسي بالإمالة ، وأهل (البحيرة) يفتحون هذا الضرب من الأفعال ، وترى الأمر بعكس هذا في الأسماء ، فأهل الإمالة في الأفعال (القاهرة) يفتحون في الأسماء نحو : العمى ، والسّمَا ، ويميله أهل (البحيرة) ، كما نرى (القاهرة) تقول : تعلمت الإنشا ، والصيف والشتا – بالفتح ، بينما أقاليم (البحيرة) تميل مثل هذا^(٤) .

اتساع جغرافية الامالة :

على أن الإمالة لم تكن مقصورة على تلك القبائل التي أشار إليها الأقدمون – وهي تميم وأسد وقيس – وإنما كانت ظاهرة أكثر شيوعاً مما ذكره ، فقد كانت تنتظم معظم القبائل العربية ، وإن تفاوتت قلة وكثرة^(٥) ودليل ذلك ما يأتي :

١ – ما جاء في شرح ابن يعيش معزواً الى هدبة بن الحشرم :

(١) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٣٣/٥ مخطوط .

(٢) ابن يعيش : ٥٤/٩ .

(٣) مخطوطة السيرافي على سيبويه : ٣٤١/٥ .

(٤) عن الشيخ محمد النجار .

(٥) في الدراسات القرآنية واللغوية : ٩٥ . دكتور شلي .

عسى الله يغني عن بلاد بن قادر بنهمر جوّن الرباب سكوب^(١)

واستشهد به على أن الراء المكسورة - وهي من دواعي الإمالة - غلبت حرف الاستعلاء وهو القاف فأميل « قادر » وأميل على الرغم من وجود فاصل بين الراء والألف^(٢) ، وذلك ما يمنع الإمالة .

وهذبة بن خشرم صاحب هذا البيت يتصل نسبه كما في ديوان الحماسة الى سعد بن هذيم^(٣) ، وسعد هذه من قضاة من القحطانية بدليل ما رواه صاحب الحماسة لهذبة بن خشرم من قوله :
إني من قضاة من يكدها أكده وهني مني في أمان^(٤)

فالشاعر لا يريد أن ينسب نفسه الى قضاة فقط ، وإنما هو يختص بها يحميها ، ويدافع عنها ، ويرد كيد من يكدها من أعدائها ، فكأن قضاة كانت تميل ، وقضاة كانت ديارها في الشعر ، ثم في نجران ، ثم في الحجاز ، ثم في الشام^(٥) ، وكان لهم ملك ما بين الشام والحجاز ، الى العراق الى مشارف الشام ، ويظهر أن هذه الإمالة كانت تنتقل معهم كلما ساروا وحيثما حلّوا . ففي الحجاز نرى إمالة^(٦) ، وفي الشام نرى إمالة^(٧) .

٢ - وهناك شاهد آخر يمكن أن نلتبس منه تحديداً لبعض القبائل المميلة جاء في الكتاب «بلغنا عن ابن أبي إسحق أنه سمع كثير عزة يقول « صار بمكان كذا وكذا أي بإمالة الألف في صار »^(٨) . فإذا رجعنا الى كتب الطبقات وجدنا كُتِبَ هذا من خزاعة^(٩) ، وخرزاعة قبيلة من الأزد من القحطانية^(١٠) ، وكانت منازلهم بأنحاء مكة في مر الظهران وما يليه . فكأن خزاعة هذه تميل ، وإذا كانت قد حدثت خلاف بين علماء الأنساب في أصل خزاعة

(١) ابن يعيش : ٦٢/٩ .

(٢) شرح الأشموني : ٢٢٩/٤ .

(٣) مختصر شرح التبريزي : ١٨٧/١ وقد أخطأ المحقق حيث نسبته الى سعد بن هذيل باللام .

(٤) مختصر شرح التبريزي : ١٨٨/١ .

(٥) معجم كعالة : ٩٥٧/٣ .

(٦) شرح السيرافي على سيبويه : ٣٣٤/٥ .

(٧) المقتطف : يناير سنة ١٩٣٢ : ص ٤٠ .

(٨) الكتاب لسبويه : ٢٦١/٢ .

(٩) الشعر والشعراء : ١٩٨ ط المعاهد .

(١٠) معجم كعالة : ٢٣٨/١ .

أعدانية هي أم قحطانية^(١) ؟ فإن أخذنا بقحطانيتها - كان ذلك دليلاً على أن الإمالة منتشرة في بلاد اليمن والدليل على ذلك ما قاله أبو بكر بن مقسم : من أن أكثر أهل اليمن يملون ألف حتى لأن الإمالة غالبية على ألسنتهم في أكثر الكلام^(٢) ، وإن أخذنا بعدانيتها كما يرى مصعب الزبيري - كان هذا دليلاً على أن الإمالة في بلاد الحجاز موجودة ، ولعل أهل الإمالة في الحجاز هم أهل البادية منهم ، وأهل الفتح فيهم هم أهل قاربه .

٣ - على أننا نجد نوعاً آخر من الإمالة يختلف عما سبق ، فكما رأينا فيما سبق إمالة الفتح إلى الكسر ، فإننا نرى إمالة الفتح إلى الضم فيما يقوله ابن جني « وأما ألف التفعيم فهي التي تجدها بين الألف وبين الواو ، نحو قولهم : سلام عليك ، وقام زيد ، وعلى هذا كتبوا الصلوة ، والزكوة ، والحيوة - بالواو ، لأن الألف مالت نحو الواو^(٣) . وهي كحرف ه في اللغة الفرنسية ، وحكى ابن جني عن قطرب : « أن أهل اليمن يقولون : الحيوة - فهذه الواو بدل من ألف حياة ، وليست بلام الفعل من حيوت - وكذلك يفعل أهل اليمن بكل ألف منقلبة عن واو كالصلوة^(٤) ، والزكوة ويظهر أن هذا النوع من إمالة الفتح إلى الضمة كان موجوداً في الحجاز أيضاً بدليل ما جاء في الشافية أن كتبهم لهذه الكلمات بالواو على هذه اللغة - أي لغة الحجاز^(٥) . ومن المعروف أيضاً أن الكتابة العربية قد أخذت من النبطية التي كانت تكتب فيها بالواو - وكذلك في الكتابات العربية الجنوبية . وقد كتبت هذه الكلمات في المصحف بالواو - والذين كتبوه من قريش ، والكتابة مرآة للهجات كاتبيه ، وهذا ما جعل الداني يقول « رسموا في كل المصاحف الألف واواً في أربعة أصول مطردة ، وأربعة أحرف متفرقة ، فالأربعة الأصول هي « الصلوة » ، « الزكوة » ، « والحيوة » ، « والربوا » حيث وقعن ، والأربعة الأحرف هي قوله : « بالعدوة »^(٦) و « كشكوة »^(٧) و « النجوة »^(٨) و « منوة »^(٩) . فكأنهم

-
- (١) معجم كعالة : ٢٣٨/١ .
 - (٢) معجم الهوامع : للسيوطي : ٢٠٤/٣ .
 - (٣) سر الصناعة : ٥٦/١ ط ١ .
 - (٤) اللسان : ٢٣٠/١٨ .
 - (٥) شرح الشافية : ٢٥٥/٣ .
 - (٦) سورة الأنعام : ٥٢ ، الكهف : ٢٨ .
 - (٧) سورة النور : آية ٣٥ والشكاة هي الكوة بلغة فوافق الحبشية « كتاب اللغات في القرآن / ٣٨ » .
 - (٨) سورة غافر : ٤١ .
 - (٩) سورة النجم : ٢٠ .

توهموا لشدة التفخيم عندهم أنها واو ، فرسموها كذلك ، وأرجح أن هذا النطق كان موجوداً أيام النبي عليه السلام ، لذلك كتبت بالواو في المصحف ثم أصابها بعض التطور فتحولت من واو الى فتحة ممدودة à .

ومما يدل على وجود مثل هذا في لهجات اليمن أيضاً ما يذكره بعض المستشرقين من أن الأسماء العربية المنتهية بـ « وُن » ، مثل ابن خلدون ، وزيدون ، وهي كلها لأشخاص يمنيّين الأصل يرجح أنها أسماء منتهية بأداة التعريف اليمنية (آن) ، ثم أمالها اليمنيون على طريقتهم ، وكتبها العرب الشباليون بطبيعة الحال (ون) في إمالتهم نحو الواو^(١) .

٤- وعند هذا البيان نجد كتب العربية تصمت بعد هذا ، ولا تعطي الباحث أي بيان عن القبائل المميلة ، ولهذا أدير البحث - في جانب آخر ونجول جولة في كتب علوم القرآن عليها تضيء مداخل هذا البحث ، فقد جاء في الإتيقان « وفي جمال القراء عن صفوان بن عسال أنه سمع رسول الله ﷺ يقرأ : « يا يحيى » فقيل له يا رسول الله ، تميل وليس هي لغة قريس ، فقال : هي لغة الأخوال بني سعد »^(٢) ، وبنو سعد هم حضنة الرسول ﷺ ، وينتهي نسبهم الى قيس^(٣) ، وثبت قبل ذلك أن قيساً من القبائل المميلة ، لهذا كانت سعد ابن بكر تؤثر الإمالة ، ومما يؤيد ذلك ما ذكره الإمام أبو القاسم الهذلي في كتابه « الكامل » : من أن الإمالة في سعد بن بكر^(٤) ، وهذه الأدلة تخالف ما ذكره الدكتور ابراهيم أنيس في كتابه « في اللهجات العربية » من أن سعد بن بكر مالت الى الفتح^(٥) . وذكر الشمس بن الجزري في كتابه منجد المقرئين عن أبي القاسم الهذلي : أن الإمالة أيضاً لغة هوازن ، وبكر بن وائل^(٦) ، وهذا يناقض أيضاً رأي الدكتور ابراهيم أنيس حيث نسب الفتح الى هوازن^(٧) ، ويمكن أن نلتبس نماذج للإمالة والفتح في قراءات القراء للقرآن الكريم - تهدينا الى تحديد مناطق الإمالة والفتح في الجزيرة العربية ، ونظرة

(١) راين : ٢٩ .

(٢) الإتيقان في علوم القرآن : ١/٩٣ مطبعة حجازي .

(٣) نهاية الأرب : ٢٩٠ .

(٤) منجد المقرئين لابن الجزري : ٥٩ - ٦٠ .

(٥) في اللهجات العربية : ٥٠ ط ٢ .

(٦) منجد المقرئين : ٦٠ .

(٧) في اللهجات العربية : ٥٠ ط ٢ .

واحدة في « كتاب النشر في القراءات العشر » ترينا تردد اسم الكسائي (١٨٩ هـ) ،
تردداً كثيراً في باب الإمالة ، وأنه كان مكثرأً فيها ، فقد تردد اسمه في أكثر باب الإمالة
من كتاب النشر^(١) ، وكذلك حمزة (١٥٦ هـ) فقد عدّه صاحب الإضاءة من المكثرين في
الإمالة^(٢) ، فإذا عرفنا أن هذين الشيخين عاشا في الكوفة^(٣) ، والكوفة كانت مهبطاً
لعدد كثير من قبائل أسد ، تلك التي أثر عنها الإمالة^(٤) ، فإذا أضفنا إلى ذلك أن الكسائي
كان مولى بني أسد^(٥) ، عرفنا أننا أمام هذان الشيخان لتأثير البيئة فيها ، وبينما الكوفة
متأثرة بقبائل شرق الجزيرة العربية كتميم وأسد ، وبكر بن وائل - تلك التي أثر عنها
الإمالة ، فكان هذين القارئين مثلاً لهجتها في قراءتها خير تمثيل ، وليس أدل على ذلك من
أن الكسائي قد اختص بإمالة ما قبل هاء التأنيث ، « حتى قيل للكسائي : إنك تميل ما
قبل هاء التأنيث ، فقال : هذا طباع العربية »^(٦) قال الحافظ أبو عمرو الداني : يعني بذلك
أن الإمالة هنا لغة أهل الكوفة وهي باقية فيهم إلى الآن ، وهم بقية أبناء العرب^(٧) ،
وإمالة ما قبل هاء التأنيث التي اختص بها الكسائي هي ما عبر عنها سيويو بقوله : « سمعت
العرب يقولون : ضربته ضربة ، وأخذته أخذة - شبه الهاء بالالف ، فأمال ما قبلها كما
يميل ما قبل الألف »^(٨) فإذا أدير الحديث تجاه قراء القرآن في البيئة الحجازية رأينا ابن
كثير المكي (١٢٠ هـ) ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم (١٥٧ هـ) ، أما ابن كثير ، فكان
إمام القراءة القرآنية^(٩) في مكة ، وقرأ على عبدالله بن السائب الخزومي قارئ مكة^(١٠) ،
فكان البيئة التي عاش فيها ابن كثير بيئة حجازية مكية ، وشيوخه الذين لقنوه أصول
القراءة كانوا حجازيين كذلك . فإذا روى عنه صاحب الإضاءة « بأن ابن كثير لم يمل

(١) النشر : ٣/٣٥ ، ٥٤ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧١ ، ٨٢ .

(٢) - الإضاءة في بيان أصول القراءة : ٣٨ .

(٣) طبقات القراء : ١/٥٣٥ ، ١/٢٦١ .

(٤) شرح المفصل : ٩/٥٤ .

(٥) طبقات القراء : ١/٥٣٥ .

(٦) النشر : ٢/٨٢ .

(٧) النشر : ٢/٨٢ .

(٨) الكتاب : ٢/٢٧٠ .

(٩) طبقات القراء : ١/٤٤٣ وما بعدها .

(١٠) إبراز المعاني : ٢١ .

شيئا^(١) أي أنه كان ينحو نحو الفتح - كان معنى ذلك أنه تأثر ببيئته الحجازية التي تميل إلى الفتح ، كما تأثر بشيخه الحجازي الذي قرأ عليه ، فكأن ابن كثير تمثلت لهجته التي تميل للفتح - في قراءته ، أي أن قراءته في الفتح كانت صدى لهجته .

وليس معنى هذا أن القراء يلتزمون في قراءتهم - السمات اللهجية الشائعة في بيئتهم - فبعضهم خالفت قراءته تلك السمات اللهجية الشائعة في بيئته ، فتسهل الهمز مثلاً من صفات اللهجات الحجازية ، ولكن ابن كثير - وهو القارئ الحجازي - حققها^(٢) . كما أن نافعاً المدني وهو في بيئة تسهل الهمز كان يقرأ « النبيين » ، « والنبين » ، « والأنبياء » ، « والنبي » ، « والنبوة » بالهمزة^(٣) ، ومعنى هذا أنه لا يمكن أن تتخذ دائماً - قراءات القراء - بمثابة اللهجات بياتهم ، لأنه كثيراً ما يتأثر القارئ بشيخه ، فيتبعه في أداء قراءته - ويترك القراءات الدائرة في بيئته . فأبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ) تميمي^(٤) النسب ، وكان من شيوخه أيضاً عبد الله بن كثير المكي ، وعكرمة بن خالد الخزومي^(٥) ، كما أخذ عن شيوخ آخرين من بقاع مختلفة ، لهذا كان أبو عمرو يختار قراءته من تميم تارة ، لأنها قبيلته ، وتارة أخرى يختار قراءته على سميت شيوخه ، فهو متأثر بالبيئة والنسب حيناً ، وبالشيوخ حيناً آخر ، وإذا كانت أبو عمرو تميمي النسب - فهل سار على نهج قومه تميم في الإمامة ؟ إذا نظرنا إلى أصول قراءته : وجدنا أنه : أمال كل ألف رسمت في المصحف ياء وكان قبلها راء نحو : « اشترى » ، « وبشري » ، « وأسرى » ، « والنصاري » ، ولكنه اختلف عنه في « يا بشراي » بيوسف بين الفتح والإمالة والتقليل ، كما اختلف عنه أيضاً في تترى « بين الفتح والإمالة » ورجح المحقق ابن الجزري فيه الفتح^(٦) . فهذا المثال يمكن أن يوضح لنا اتجاه أبي عمرو - والمثال يتذبذب بين اتجاهين - الأول منها : الإمامة - وهي لا شك لهجة قومه ، فهو متأثر بهم ، والاتجاه الثاني : الفتح - والفتح لهجة شيوخه ومن أخذ عنهم من مكة والحجاز .

ومن هذا العرض يظهر أن القراء الكوفيين تمثلت في قراءتهم - الإمامة ، وهم متأثرون في

(١) الإضاءة في بيان أصول القراءة : ٣٧ .

(٢) الإضاءة في أصول القراءة : ١٥٦ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(٤) إرباز اللعاني : ٢١ .

(٥) القراءات واللهجات : ٢١٦ .

(٦) الإضاءة في بيان أصول القراءة : ١١١ .

ذلك ببيتهم - تلك التي تأثرت بلهجات تميم وأسد وبكر بن وائل ، وأما قراء الحجاز - لاسيما ابن كثير فقد جنح الى الفتح متأثراً ببيئته وشيوخه معاً ، ولا شك أن بيئته ظهر فيها الفتح أكثر من الإمالة وإنما قلت ذلك ، لأن الإمالة ظهرت في البيئة الحجازية أيضاً في قراءة نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم : ١٥٧ هـ^(١) ، إذ كان له راويان : أحدهما : أبو موسى عيسى بن ميناء المدني ويلقب بقالون ، والثاني : عثمان بن سعيد الملقب بورش^(٢) ، وبين راوييه تخالف : إذ قالون يروي عن نافع الإقلال في الإمالة ، بينما ورش يروي عنه مكثراً منها^(٣) وعلى أي حال فالإمالة سواء أكانت قليلة أم كثيرة تردد صداها في قراءة نافع بن أبي نعيم - وهو قارئ حجازي مدني . وهذا يتفق ونقل بعض اللغويين والنحاة من أن من الحجاز من كان يميل^(٤) . ومن هذا العرض يتضح أن :

فصل شرق الجزيرة عن غربها في الظواهر اللفظية ، وأن لغربها خصائص مستقلة عن شرقها ، وهو ما نادى به « رابين » وغيره ، نظرية لا تثبت أمام تلك الظواهر التي تتداخل بعضها ببعض ، فالشرق والغرب كلاهما مؤثر في الآخر ، ومتأثر به ، وليست هناك حواجز فاصلة حاسمة بين الكتلتين بدليل ما تقدم من أن الميادين يفتحون ، وأن الذين يفتحون الى الفتح يميلون .

(١) طبقات القراء : ٣٣٠/٢ .

(٢) الإضاءة : ١٢٨ .

(٣) في الدراسات القرآنية واللغوية : ١٣٠ .

(٤) أسرار العربية : لابن الأنباري : ٤٠٦ ط ١٩٦٠ .

الإمالة تربط بين القبائل في داخل الجزيرة العربية وخارجها

سبق فيما تقدم أن أشرت إلى أن قضاة كانت تميل، وقد ترددت منازلها بين الشجر ونجران والحجاز، والشام، فهل يمكن أن تربط بين الإمالة الغامرة في سوريا وغيرها من بلاد الشام، وبين قضاة المميلة، والتي كان لها يوماً من الأيام سلطان على الشام؟

ويمكن أن يكون هذا الربط سبباً من أسباب الإمالة في الشام، كما أرجح سبباً آخر لهذه الإمالة، وهو العلاقة القوية التي كانت بين إقليم نجد، وإقليم الشام، لذلك تكون لهجة نجد لها تأثير قوي في لغات القبائل التي انتجعت الشام، «ونجد أصحاب إمالة»^(١) والوطن الشامي نزلت فيه قبائل نجدية كثيرة، يقول شكيب أرسلان: «وتحار عندما ترى جميع الشام تقريباً تلفظ بالإمالة»^(٢)، وضرب أمثلة لذلك^(٣).

كما نجد إمالة غامرة في بلاد الأندلس، فأهل غرناطة يقولون «كيتيب» بدلاً من «كتاب»، و«البيب» بدلاً من (الباب) وكان «كوند» المؤرخ الأسباني يكتب «هشام» هكذا «Hixem» ولا يكتبها «Hixam». وقد أشار إلى هذا ابن الخطيب^(٤).

وسافر شكيب إلى الأندلس مرة، وطلب قطع ورقة السفر إلى «دانية» وتلفظ بها Dania بدون إمالة، فلم يفهموا ماذا يريد، حتى رده أحدهم: هي Dénia لا Dania^(٥).

وقد يسهل الربط بين الشام والأندلس عندما كانوا «يسمّون» غرناطة «دمشق» لا لشبهها الجغرافي الشديد بدمشق - وهي بالفعل أشبه البلاد بدمشق، بل لأن العنصر الدمشقي كان فيها غالباً^(٦)، وما يؤكد الصلة بين القطرين أن العرب في أسبانيا كانوا على مذهب الإمام

(١) الجمع: ٢٠٤/٢.

(٢) المقتطف: يناير: ص ٤٠ سنة ١٩٣٢.

(٣) المقتطف: فبراير: ١٤٠ - ١٤١: سنة ١٩٣٢.

(٤) الإحاطة: ٣٥/١.

(٥) المقتطف: يناير: ٤٢ - ٤٣: سنة ١٩٣٢.

(٦) المقتطف: يناير: ٤٣: سنة ١٩٣٢.

الأوزاعي - إمام أهل الشام ، مما يشير الى أن السواد الأعظم من العرب الذين فتحوا أسبانيا - كانوا من أهل الشام^(١) .

وإذا نظرنا الى الإمالة في وطن جديد ، كالبدو القاطنين على ساحل مربوط ، وجدناهم يميلون الى الإمالة^(٢) ، ويرى القلقشندي : أن هؤلاء من بني سليم بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان^(٣) ، ويقول الحمداني : مساكنهم ببرقة مما يلي المغرب ، ومما يلي مصر^(٤) ، فعالم الجغرافيا أفادنا أن بني سليم جاءوا الى مصر وبرقة ، وتاريخ النسب أفادنا أنهم من قيس عيلان ، ومصادر العربية على أن من أصحاب الامالة في القبائل العربية « قيسا »^(٥) ، ولهذا لا نعجب إذا رأينا البدو القاطنين في الصحراء الغربية مما يلي مصر وبرقة - أصحاب إمالة .

ولهذا تتميز اللهجة اللبكية بالامالة - وهي أشد في طرابلس « لأن قبائل سليم أقامت في جهات طرابلس زمناً »^(٦) .

أما الامالة في عامية مصر فهي نادرة في لغة بني سويف ، وبعض الفيوم ، والحلة ، وسائر البلاد التي يتكلم أهلها بالعامية المصرية ، كما نجدتها كثيرة في لغة بقية العوام في الديار المصرية^(٧) .

وقد أجرى الدكتور عبد الفتاح شلبي استفتاء عاماً لمعرفة وجود الامالة أو عدمها في بلاد القطر المصري خلص من هذا الاستفتاء « بأن مدينة بلبيس من الشرقية تظهر فيها الإمالة ظهوراً غالباً ، كما أن مديرتي المنوفية والبحيرة ، وبعض أجزاء الفيوم كذلك »^(٨) .

ولتعميل الامالة في هذه الأماكن - يرى صاحب البيان والإعراب : أن بطون قيس مثل نصر بن معاوية ، وبني عامر - نزلوا بلبيس ، كما نزلها مائة أهل بيت من سليم^(٩) .

(١) المقتطف : مارس : ٣٢٣ سنة ١٩٣٢ .

(٢) دراسة لغوية في لهجات البدو في مصر : ٣٢٨ خط بمكتبة دار العلوم .

(٣) نهاية الأرب للقلقشندي : ٢٩٤ .

(٤) معجم كحالة : ٥٤٣/٢ .

(٥) الجمع : ٢٠٤/٢ .

(٦) معجم كحالة : ٥٤٦/٢ .

(٧) مميزات لغات العرب : ٣٦ .

(٨) في الدراسات القرآنية واللغوية : ٣٠٠ د : شلبي .

(٩) البيان والإعراب : ٦٧ .

وفي صبح الأعشى « أن لوائه » - وهم من قيس على رأي - لهم بمصر بطون كثيرة ، كما قال الحمداني ... والمنوفية : منهم - بنو يحيى ، والسوة ... ومنهم جماعة بالبحيرة ، وجماعة بالمنوفية^(١) ، وفي معجم قبائل العرب : أن اللواتين - من أعراب الفيوم^(٢) بمصر .

والنصوص السالفة تشير الى أن بطون قيس بما فيها سليم ولوائه^(٣) وغيرهم نزلوا أيام الفتح في بلييس والمنوفية ، والبحيرة ، وبعض أجزاء الفيوم - ومن المعروف أن قيساً من القبائل المميلة - لذلك احتفظت بطونها في المنازل الجديدة التي هاجرت إليها بعد الفتح العربي - بالإمالة .

وبهذه الطريقة نستطيع أن نرد العرب في الأقطار المختلفة - الى أصلهم ما دامت طريقتهم واحدة في النطق ، ومقارنة لهجاتهم بما كانت عليها أيام سكنهم في الجزيرة العربية ، لأن لهجاتهم الحديثة تحمل بذوراً أصيلة للهجات القبائل في الجزيرة العربية .

صعوبتان تعترضان دراسة الإمالة :

أ (أولاهما :

أن أكثر النصوص التي جاءت لتدل على الإمالة عند العرب مهمة الغزو الى قبائلها إمالاً يكاد يكون تاماً : وسنقتصر على إيراد بعض تلك الشواهد :

١ - نقل سيويه إمالة نحو « مناشيط » عن قوم من العرب لتراخي حرف الاستعلاء ... وبعض العرب : غلب حرف الاستعلاء وإن بعد^(٤) .

٢ - ويقول السيوطي : ومتى اتصلت بالألف راء مفتوحة أو مضمومة - منعت الإمالة نحو : راشد ، وبعض العرب يميل^(٥) ... وبعض العرب يجعل الراء المكسورة مانعة من الإمالة كالفتوحة والمضمومة^(٦) .

(١) صبح الأعشى : ٣٦٤/١ - ٣٦٦ .

(٢) معجم كحالة : ١٠١٧/٣ .

(٣) في صبح الأعشى : ٣٦٤/١ بالثاء المثلثة ، وفي نهاية الأرب للعقشندي : ٤١١ بالثاء المثناة « لوائه » .

(٤) الجمع : ٢٠٢/٢ .

(٥) الجمع : ٢٠٢/٢ .

(٦) الجمع : ٢٠٢/٢ .

٣- قال سيبويه : « وقال ناس يوثق بعربيتهم : هذا باب ، وهذا مال^(١) . ولم يبين من هؤلاء العرب الذين يوثق بعربيتهم . ويقول سيبويه : « وقد قال قوم : المناشط^(٢) (بالامالة) ، وبعضهم يقول^(٣) ، و « سمعناهم يقولون^(٤) ، و « قوم أمالوا أشياء ليست فيها علة مما ذكرنا^(٥) » و « قال ناس : رأيت عماداً - فأمالوا للإمالة^(٦) ، وأكثر سيبويه من كلمة « قالوا^(٧) » يقصد بعض العرب ، و « كثير من العرب^(٨) » و « نقل عن بعض الحجازيين^(٩) » ولم يحدد من هذا البعض ، والقبائل الحجازية كثيرة ، ونظرة واحدة الى باب الامالة في مخطوطة السيرافي على سيبويه^(١٠) ، أو في كتاب سيبويه نفسه^(١١) ، أو شرح ابن يعيش^(١٢) ، وتظهر كثرة غامرة من إهمال صيغ الامالة في هذه الكتب وغيرها ، كما يظهر منها أن المؤلفين كانوا يهتمون بالسك لا الكيف ، لأن هدفهم من هذا الجمع اللغوي هو خدمة القرآن والسنة ولم يكن - في عزو اللهجات ما يخدم تلك الناحية في نظرهم .

ب (ثانياً) :

وذلك فيما إذا أردنا أن ندرس تاريخ الامالة في مجموعة من الأشعار القديمة لتتعرف على مقدار الفتح والامالة وأنواعها - فتصدمنا حقيقة مرة ، وهي أن هذه الكتابات خالية من علامات الامالة الخطية ، وبذلك تضع ثروة كبيرة ، والسبب في ذلك أن هذه اللهجات وصلتنا مكتوبة لا منطوقة ، ولا شك « أن الخط الذي كتبت به المصاحف في القرن الأول الهجري كان خالياً

(١) الكتاب : ٢/٢٦٤ .

(٢) الكتاب : ٢/٢٦٥ .

(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣٤٨ - ٣٤٩ ، وسيبويه : ٢/٢٦٦ .

(٤) شرح السيرافي على سيبويه : ٥/٣٤٨ - ٣٤٩ ، وسيبويه : ٢/٢٦٦ .

(٥) الكتاب : ٢/٢٦٣ .

(٦) الكتاب : ٢/٢٦٢ .

(٧) الكتاب : ٢/٢٦١ ، والسيرافي : ٥/٣٣٦ .

(٨) شرح السيرافي : ٥/٣٣٦ .

(٩) الأشوني : ٤/٢٢٤ .

(١٠) ٥/٣٣٤ - ٣٦٤ خط بالتميمورية .

(١١) ٢/٢٦١ وما بعدها .

(١٢) ٩/٥٣ - ٦٥ .

من النقط والشكل وعلامات الامالة^(١) ثم هذا التاريخ الطويل لعلامات الامالة فقد كانت ترسم ياء في آخر الكلمة ، أو ألفاً تحت الحرف الممال ، أو نقطة حمراء ، أو كسرة كلامة للإمالة ، أو هذه الإشارة (١) ، (٢) ، أو نقطة خالية الوسط كما في المصحف المصري (١٣٣٧ هـ) ، أو كتابة كلمة (مل) فوق الحرف الممال^(٢) - فهذا الاختلاف في رسم علامة الامالة - مما يزيد دراستها تعقيداً .

ثانياً : الادغام والاضهار بين القبائل العربية :

ظاهرة الإدغام ، هي ظاهرة التقريب عند ابن جنى ، وفي ذلك يقول : « قد ثبت أن الإدغام المألوف المعتاد - إنما هو تقرب صوت من صوت »^(٣) ، ويطلق عليه المحدثون من علماء اللغات المماثلة Assimilation ، وفي هذه المماثلة أو التقريب كما يراه ابن جنى ، يحدث التشابه بين الأصوات من ناحية المخرج أو الصفة لأن التماثل أو التقارب لا بد أن يشتمل على جهتين : جهة المخرج ، وجهة الصفة والادغام لا يحدث إلا بهذا ، وكان الادغام بهذا شبيهة بالامالة - إذ الامالة تقرب الفتحة نحو الكسرة ، والألف نحو الياء ، وشبيهة بالإبدال أيضاً ، لأن الإبدال لا يحدث إلا إذا وجدت بين الحرفين البديل والمبدل منه علاقة صوتية - كما في الادغام ، وابن جنى يذكر أمثلة للإدغام الأصغر - وهو عنده : « تقريب الحرف من الحرف وإدناؤه منه من غير إدغام يكون هناك »^(٤) منها :

(أ) أن تقع السين قبل الحرف المستعمل فيقرب منه بقلبها صاداً... وذلك كقولهم في «سُقت» - صقت ، وفي السوق - الصوق ، وفي سبقت - صبقت ، وفي سملق وسويق : صملق وصويق ، وفي سقر - صقر^(٥) .

(ب) ومن التقريب قولهم «سِت» أصلها «سَدَس»^(٦) فقرأوا السين من الدال بآت قلبوها تاء ، فصارت : سَدَت ، فهذا تقريب لغير إدغام ، ثم إنهم فيما بعد أبدلوا الدال تاء لقربها

(١) في الدراسات القرآنية واللغوية : ٢٨٣ دكتور عبد الفتاح شلي .

(٢) انظر في هذا : في الدراسات القرآنية : ٢٨٣ : دكتور شلي .

(٣) الخصائص : ١٣٩/٢ دار الكتب .

(٤) الخصائص : ١٤١/٢ دار الكتب .

(٥) الخصائص : ١٤٢/٢ - ١٤٣ دار الكتب ، سر الصناعة : ٢٠١/١ : ٢٢٠ .

(٦) سر الصناعة : ٢٠٩/١ .

منها إرادة للإدغام الآن ، فقالوا : ست^(١) . فالتغيير الأول للتقريب من غير إدغام ، والتغيير الثاني مقصود به الادغام .

ج (ومن التقريب ما جاء من قول العرب في المثل : « لَمْ يُحْرَمَ مَنْ فَرَّذَلَهُ » أصله 'فَصِيدَلَهُ' ، ثم أسكنت العين فصار تقديره « فصنّده » فلما سكنت الصاد فضعفت به ، وجاورت الصاد وهي مهموسة - الدال وهي مجهورة - قربت منها بأن أشمت شيئاً من لفظ الزاي المقاربة للدال بالجهر^(٢) .

وجميع هذه الأمثلة يلاحظ فيها تقريب الصوت من الصوت ، وهي تشبه الادغام لأن الادغام فيه تقريب صوت من صوت .

أ (بأن يتفق الحرفان مخرجاً وصفة وذلك هو التماثل كقوله تعالى : « ما سلككم في سقر »^(٣) فالكاف حرف مائل لمثله ، وكان الادغام لتكرير الكافات ، فتدغم الحرفين المتماثلين في بعضها ، والفرض من هذا ، التخفيف ، لأن التكرير ثقیل فحاولوا تخفيفه بأن يدغموا أحدهما في الآخر ، « فيضعوا ألسنتهم على مخرج الحرف المكرر وضعة واحدة ويرفعوها بالحرفين رفعة واحدة » ، لئلا ينطقوا بالحرف ثم يعودوا إليه ،^(٤) كما أتت الادغام في الآية الكريمة يوافق المعنى ، لأن السلك معناه الادخال والادغام ، وإدغام الحرفين يشاكل هذا ، وفي لغة النقوش اللحيانية ما يشبه هذا^(٥) .

ب (أو أن يتفق الحرفان مخرجاً ويختلفا صفة وذلك هو التجانس : كالدال في التاء ، والتاء في الطاء ، والتاء في الذال . فمثال إدغام التاء في الذال إدغاماً صغيراً قوله تعالى : « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا »^(٦) فلا فرق بين التاء والذال في « يلهث ذلك » إلا أن الأولى مهموسة ، والثانية نظيرها المجهور ، فتى

(١) الخصائص : ١٤٣/٢ دار الكتب .

(٢) الخصائص : ٥٣٦/١ الهلال : ١٤٤/٢ دار الكتب .

(٣) المدر : آية ٤٢ .

(٤) ابن يعيش : ١٢١/١٠ .

(٥) لغات النقوش العربية السبالية : ص ١٠ للدكتور مراد كامل .

(٦) الأعراف : آية ١٧٦ .

جهر « بالثاء » أصبحت « ذالاً » ، فيحدث الإدغام في صوتين متماثلين^(١) . وقراءة الآية الكريمة بالإدغام بين الثاء والذال - فيها اقتصاد الجهد العضلي ، إذ يكون عمل اللسان من وجه واحد ، أو كما يقول ابن يعيش « يصيران لشدة اتصالهما كحرف واحد يرتفع اللسان عنها رفعة واحدة »^(٢) وغير ذلك فالقراءة على الإدغام في الآية تحقق الانسجام الصوتي .

ج (أو أن يتقارب الحرفان مخرجاً أو صفة : كالذال مع السين والشين ، واللام مع الراء . فمثال إدغام الدال في السين : قوله تعالى « في الأصفاذ »^(٣) سربيلهم من قَطْران ، ويتم الإدغام هنا بأن تفقد الدال جهرها ، ثم ينتقل مخرجها نحو الثنايا حتى تصبح مهموسة كالسين ، وهنا يتم الإدغام الكبير . ونحو قوله تعالى : « قد سألها قوم من قبلكم »^(٤) وهنا لا بد من همس الدال والسماح للهواء معها بالمرور لتصبح رخوة ، وبذلك تماثل السين في الهمس والرخاوة ، والإدغام هنا صغير ، لأنه لا فاصل من أصوات اللين بين الحرفين ، وملأ ظاهرة الإدغام أنه إذا اجتمع صوتان أحدهما مجهور والآخر مهموس ، أقر أحدهما في الآخر بحيث يصبحان مجهورين ، أو مهموسين تحقيقاً للانسجام بين الأصوات ، وتوفيراً للجهد العضلي ، إذ يغني الصوت الأول في الثاني بحيث ينطق بالصوتين صوتاً واحداً فيكون عمل اللسان من وجه واحد . والآن نعرض بعض النصوص لتتعرف على مدى شيوع الظاهرة الإدغامية في مواطن القبائل العربية :

١ - ذكر المبرد أن أبا رجاء العطاردي قرأ « فاتبعوني يَحِبِّكُمْ الله » ويلاحظ على هذه القراءة أمران :

أولاً : أنه جاء به من « حَبِبتُ » . ثانياً : أنه أدغم في موضع الجزم ، وهو مذهب تميم وقيس وأسد وجماعة من العرب^(٥) ، وعلى مذهب هؤلاء نقول « ردّ يافقي » عض يافقي بالإدغام .

(١) الأصوات اللغوية : ١٢٩ ط ٢ .

(٢) ابن يعيش : ١٢١/١٠ .

(٣) سورة إبراهيم : آية ٤٩ ، ٥٠ .

(٤) المائدة : آية ١٠٢ .

(٥) الكامل المبرد : ١٩٩/١ ، ٢٠٩/٢ .

أما عند الحجازيين فيجرونه على القياس الأصلي فيقولون : ارددْ واغضض . لكن لهجة عبد القيس تتخذ لها نمطاً مغايراً للحجازيين والتميميين - إذ أنها وإن كانت تدغم كالتميميين - إلا أنها تزيد همزة وصل في أول فعل الأمر - فهم يقولون : أرْدْ ، أغْضْ . ولعل بني عبد القيس قد قاسوا فعل الأمر في المضعف على الأمر من الفعل الثلاثي الصحيح الذي يلتزم فيه البدء بهمزة الوصل^(١) . وما يؤكد ذلك ما جاء عن ابن خالويه حيث يقول : ليس في كلام العرب ألف وصل دخلت على متحرك إلا في حرف واحد ، وذلك لغة عبد القيس في قولهم : « اسِلْ زيدا »^(٢) . والمعروف في الفصحى أن همزة الوصل لا تدخل إلا على ساكن ليتوصل بها إلى النطق بالساكن . لكن عبد القيس اتخذت سمة لهجية مخالفة ، ويرجح الدكتور أنيس أن صيغة عبد القيس في الادغام « أرْدْ » مردها إلى القياس الخاطيء^(٣) ، وليس ذلك ببعيد فالقياس الخاطيء لعب دوراً كبيراً في صيغ العربية وتراكيبها . وما يجب الإشارة إليه : أن رواية عبد القيس السابقة في المضعف « أرْدْ » ، وفي غيره مثل « اسل زيدا » جاءت عن الكسائي^(٤) ، والفراء^(٥) . وهذا يؤكد أن رواية الكوفيين عن العرب في اللهجات أشمل وأوسع ، يدل على ذلك قول صاحب التصريح بعد أن ذكر رواية الكسائي عن العرب في المضعف « ولم يحك ذلك أحد من البصريين »^(٦) .

٢ - قرأ أبيّ « وإن تصبّروا وتتقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً »^(٧) - يضرركم - بفك الادغام ، وهي لغة أهل الحجاز ، ولغة سائر العرب الادغام في هذا كله^(٨) .

وفي قوله تعالى : « لا تضارّ والدته »^(٩) قرأ ابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وغيرهم لا تضارّ - وباقي السبعة « لا تضارّ » وروى عن ابن عباس « لا تضارِرْ » بفك الادغام وكسر

(١) في اللهجات العربية : ١٣٩ .

(٢) ليس في كلام العرب : ٦٨ ابن خالويه .

(٣) في اللهجات العربية : ١٣٩ .

(٤) التصريح : ٤٠١/٢ .

(٥) ليس في كلام العرب : ١٢ .

(٦) التصريح : ٤٠١/٢ .

(٧) آل عمران : آية ١٢٠ .

(٨) البحر : ٤٣/٣ .

(٩) البقرة : آية ٢٣٣ .

الراء الأولى وسكون الثانية^(١) . وفي مصحف ابن مسعود « لا تضارُرُ » بفك الادغام وفتح الراء الأولى وسكون الثانية^(٢) . وعزا أبو حيان : الفك للحجاز ، والادغام لتميم^(٣) . وفي قوله تعالى « ولا يضار كاتب ولا شهيد »^(٤) نسب ابن جنبي في المحتسب الفك للحجاز ، والادغام لتميم^(٥) . وجاء ابن خالويه بالقراءات في الآية وأهمّل عزو اللهجات فيها^(٦) .

٣ - وجاء في النهر الماد أن الفك لغة الحجاز^(٧) في قوله تعالى « وَلَيْسَتَّعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ^(٨) نِكَاحاً » .

٤ - وجاءت قراءات عديدة بالفك - لغة الحجاز ، وبالادغام لغة تميم أقتبس منها ما يلي :
أ (قوله تعالى « واغضض من صوتك »^(٩) وأهل نجد على الادغام (كما يقول القدامى)^(*) : قال جرير : (فغض الطرف إنك من نمير)^(١٠) .

ب (وقرأ الجمهور : « فلا يغررُّكَ تقلبهم في البلاد »^(١١) بالفك على لغة الحجاز ، وقرأ زيد بن علي وعبيد بن عمير : فلا يغررُّك - بالادغام مفتوح الراء - وهي لغة تميم^(١٢) ، وكان القراء يحتجون للإدغام والإظهار في القراءات القرآنية - فابن خالويه يحتاج لمن قرأ بالإظهار في قوله تعالى (ثم اتَّخَذْتُمْ) أنه أتى بالكلمة على أصلها واغتم الثواب على كل حرف

(١) البحر : ٢١٤/٢ - ٢١٥ .

(٢) مصحف ابن مسعود : Suro. II . Materials. For ...

(٣) البحر : ٢١٥/٢ ، ٣٥٤ .

(٤) البقرة : آية ٢٨٢ .

(٥) المحتسب : ١٧١/١ خط بالميمورية .

(٦) مختصر شواذ القرآن : ١٤ .

(٧) النهر الماد من البحر : ٤٥٠/٦ .

(٨) سورة النور : آية ٣٣ .

(٩) سورة لقمان : آية ١٩ .

(*) والنظرية الحديثة لا تقول بالإدغام في مثل هذا .

(١٠) اللسان : ٦١/٩ ، والكامل : ١٩٩/١ .

(١١) سورة غافر : آية ٤ .

(١٢) البحر : ٤٤٩/٧ .

منها^(١)، وأرى أن الادغام في هذا أوجه وأولى، لأن الذال مخرجها من بين طرف اللسان وأطراف الثنايا العليا، وكذلك التاء مخرجها من اللسان وأصول الثنايا العليا مصعداً إلى جهة الحنك، والذي حدث أن مخرج الذال قد انتقل إلى الراء قليلاً، فصادف نطق التاء، وتم الادغام، ففي الادغام اقتصاد في الجهد العضلي؛ لأن اللسان فيه يعمل من وجه واحد إذ عمله في الحرفين واحد بخلاف الإظهار، فإن اللسان فيه ينتقل متصعداً مرة متسفلًا مرة أخرى. وإنما مال ابن خالويه في تعليل ما سبق من الإظهار، لأن رسم المصحف على الإظهار، فهو محتج برسم المصحف، وابن خالويه حينئذ سلفي يتبع طريق أهل الأثر، ألا ترى إلى قوله: «واغتم الثواب على كل حرف منها» فكأنه صاد عصفورين بجحر واحد: اتباعه رسم المصحف، وطمعه في الثواب، إذ أن قارئ القرآن له بكل حرف - عشر حسنات، ولا شك أن الذي يظهر في قراءته يكون أكثر حروفاً من المدغم فيها.

ج («وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ»^(٢)، وقوله: «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب»^(٣)، وقوله: «ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله»^(٤). فالقرآن في تلك الآيات يراود بين الفك والادغام، أو بين لغة الحجاز وتيم.

د (قرأ زيد بن علي: «لا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ»^(٥) لا تقص - مدغماً وهي لغة تيم، وقرأ الجمهور: بالفك على لغة الحجاز^(٦).

ه (قرأ نافع وابن عامر: «من يرتد منكم عن دينه»^(٧) - من يرتد - بدالين، وهي لغة الحجاز، والباقون بواحدة مشددة - وهي لغة تيم^(٨). ويظهر والله أعلم - أن رسم

(١) الحجة لابن خالويه: ورقة ٨ مخطوط بدار الكتب.

(٢) سورة النساء: ١١٥.

(٣) سورة الأنفال: ١٣.

(٤) سورة الحشر: ٤.

(٥) يوسف: آية ٥٠.

(٦) البحر: ٢٨٠/٥.

(٧) سورة المائدة: آية ٥٤.

(٨) البحر: ٥١١/٣.

المصاحف كانت تحمل آثاراً للإظهار والإدغام ، فمصحف مكة والعراق كانت تكتبها دالاً^(١) واحدة ، وأما المصاحف المدنية والشامية فكانت ترسم ذلك دالين^(٢) .

وفي كتاب المصاحف : أن في إمام أهل الشام وأهل الحجاز « من يرتدد منكم عن دينه » وفي إمام أهل العراق (من يرتد)^(٣) . وربما كان السر في ذلك أن يتحمل رسم المصحف - اللهجات العربية على اختلافها ، وإذا تقرر أن البيئة التميمية تؤثر الإدغام ، والحجازية تهدف إلى فك الإدغام تبين أن المرزوقي جانبه الصواب حيث استشهد بقول أبي كبير الهذلي :

حملت به في ليسة مزوودة كَرَّها وعَقَّد نطاقها لم يُحْلَلْ

حيث علق على البيت السابق فقال : « وأظهر التضعيف في قوله : « لم يحلل » وهو لغة تميم »^(٤) .

فإظهار التضعيف هو في لغة الحجاز لا لغة تميم كما قال المرزوقي ، والخطأ الذي تردى فيه المرزوقي - وقع فيه التبريزي^(٥) حيث نقل في شرح حماسة أبي تمام - مثل ما سبق أن قرره المرزوقي ، والفكرة في عرض تلك النصوص القرآنية - هو أن القرآن كان يراود بين اللهجتين الحجازية والتميمية في الإظهار - والإدغام حتى يكون الكتاب الكريم صفحة لغوية تجدد فيه كل قبيلة من ألفاظها الخاصة بها ، فتبرز تلك اللغة الموحدة الرسمية التي تجدها في القرآن - وهي للعرب جميعاً . وهاك نصوصاً في الفك والإدغام من غير القرآن الكريم :

١ - ذكرت المعاجم أن : « الوتد » بكسر التاء لغة الحجاز - وهي الفصحى ، بينما أهل نجد يقولون فيها : « وَدَّة »^(٦) وجاءت رواية أخرى مثلها في كتاب الجمل^(٧) . وشرح

(١) إرشاد المريد على إبراز المعاني : ٢٥٧ .

(٢) إبراز المعاني : ٢٩٧ .

(٣) كتاب المصاحف : ٤٥ ، للسجستاني .

(٤) شرح الحماسة للمرزوقي : ٨٨/١ .

(٥) شرح الحماسة للتبريزي : ٨٦/١ .

(٦) المصباح : ١٠٠١/٢ .

(٧) الجمل : للزجاجي : ٣٨٠ .

الشافية^(١) ، وابن يعيش^(٢) ، ومخطوطة السيرافي على سيديوه^(٣) ، بدون عزو للصيفتين ،
والجمهرة^(٤) ، واللسان^(٥) .

وقد وردت رواية مختلفة العزو عن السابقة إذ عزت صيغة (الودّ) لأبي النجم وفيها يقول :

سبّني الحماة وابنتي عليها فإن أتت فازدلفي إليها
ثم اقرعي بالودّ مرفقيها وركبتيها واقترعي كمنبيها^(٦)

وباستشارة كتب الطبقات نجد أن أبا النجم - هو الفضل بن قدامة من عجل ، وهو بطن
من بكر بن وائل^(٧) ، وكان هذا الشاعر ينزل بسواد الكوفة في موضع يقال له الفرك^(٨) .
وهذا يؤكد أن الادغام كان يسيطر على مناطق شاسعة من شرق الجزيرة حتى امتد إلى مشارف
الكوفة وتفسير تلك الظاهرة أن تيمناً أسكنت التاء ، كما أسكنوا في فخذ وعضد ثم أدغموا ،
ولم يحز أن يقولوا : وقد - بسكون التاء مظهرة - لكثرة استعمال هذه اللفظة ودورانها عند
العرب ، فعلم ابن جنى لتسكين حرف التاء بقوله : (ألا ترى أنك إنما أسكنته لتخلطه
بالثاني ، وتجذبه إلى مضامته ومماسه لفظه بلفظه بزوال الحركة التي كانت حاجزة بينه
وبينه)^(٩) ، ولكن هذا الادغام في (ودّ) غير مطرد لأنه ربما التبس بالمضاعف ، ولهذا تردد في
كتب العربية مدح الصيغة الحجازية وهي (وتد)^(١٠) فيقول عنها سيديوه « بأنها الحجازية
الجيدة »^(١١) ويقول عنها المصباح « هي الفصحى »^(١٢) .

(١) شرح الشافية : ٢٦٨/٣ .

(٢) شرح ابن يعيش : ١٥٢/١٠ .

(٣) السيرافي : ٥٣٧/٦ مخطوط .

(٤) ابن دريد : ٧٧/١ .

(٥) ٤٧٠/٤ .

(٦) الشعر والشعراء : ٥٨٩/٢ شاكر .

(٧) نهاية الأرب للقلقشندي : ٣٥٠ ، معجم كحالة : ٧٥٧/٢ .

(٨) الشعر والشعراء : ٢٣٢ تحقيق السقا .

(٩) الخصائص : ٥٣٢/١ ط الهلال ، ١٤٠/٢ دار الكتب .

(١٠) الجمل للزجاجي : ٣٨٠ والمصباح : ١٠٠١/٢ .

(١١) الكتاب : ٤٢٩/٢ .

(١٢) ١٠٠١/٢ .

٢ - لام « هل » ولام « بل »

تعرضت كتب القراءات والعربية للحديث عن إدغام لام « هل » ولام « بل » في حروف الهجاء، ولا يعني كثيراً هذا الحديث - إلا بقدر ما نستهدي منه إلى لهجات القبائل وإبرازها. فإدغام هذه اللام قسماً بعدها جرى على منازل ومراتب، وبعضها منها أقوى من بعض في الإدغام.

أ (إدغام لام « هل وبل » في الراء :

ذكر سيبويه في كتابه : أن إدغام اللام في الراء أحسن^(١) . وعلل ذلك بقوله : لأن الراء أقرب الحروف إلى السلام ، وأشبهها بها فصارعتا الحرفين اللذين يكونان من مخرج واحد^(٢) . فالراء كاللام في أن كلا منهما من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، وأن كلا منهما مجهور ، ويظهر أن أكثر القبائل مالت لإدغام اللام في حروف : التاء - والثاء - والراء - والزاي - والسين - والضاد - والطاء - والظاء - والنون . وإنما مالت اللام إلى فنائها وذوبانها فيما بعدها ، لأن اللام أكثر الأصوات الساكنة شيوعاً في العربية ، لأن نسبة شيوعها حسب إحصائية ذكرها الدكتور أنيس - للقرآن الكريم ١٢٧ مرة في كل ألف من الأصوات الساكنة ، بينما حرف كالزاي والطاء ٤ مرات في كل ألف ، ولا شك أن الصوت الذي يكثر استعماله وتداوله يكون أكثر تطوراً من غيره ، وقد نادى بهذه النظرية Vilhelm Thomsen^(٣) . ولإني ألمح هذه النظرية فيما يراه أحد علماء العربية وهو الفراء حيث رأى : أن الكلمة قد تحذف بعض حروفها في الرسم ، ونسب الفراء هذا الحذف إلى كثرة استعمال الكلمة وتداولها ، فهو يعمل لحذف الألف من (بسم الله الرحمن الرحيم) وعدم حذفها من (باسم ربك) : لأنها لا تلزم هذا الاسم ، ولا تكثر معه ككثرتها مع الله تبارك وتعالى ، ثم يوضح رأيه معللاً فيقول « ألا ترى أنك تقول (بسم الله) عند ابتداء كل فعل تأخذ فيه » (معاني القرآن للفراء ٢/١ دار الكتب) .

ومما سبق يظهر أن إدغام اللام في الراء أحسن من الاظهار ، لما سبق بيانه ، وأما أهل الحجاز فيميلون إلى الاظهار ، وقد نقل ابن يعيش عن سيبويه قوله « فإن لم تدغم (اللام في الراء) جاز ، وهي لغة لأهل الحجاز ، عربية جيدة »^(٤) ، وسيبويه كثيراً ما يفضل لهجة

(١) الكتاب : ١٦/٢ .

(٢) ابن يعيش : ١٠/١٤٠ .

(٣) الأصوات اللغوية : ١٧٢ ط ٢ .

(٤) ابن يعيش : ١٠/١٤٠ .

الحجازيين على لهجة غيرهم ، فمع أن الادغام هنا أحسن من الاظهار إلا أن سيبويه يسم لهجة الاظهار بأنها « عربية جيدة » .

أما الزنجشري : فقد وصف الادغام بأنه « حسن »^(١) وإذا اتجهنا الى كتاب الله نلتبس فيه سمات تلك الظاهرة نجد أن حفصاً سكت على لام (بل) سكتة لطيفة بلا تنفس وصلاً ، ويبتدىء (ران) في قوله تعالى « كلا بل ران »^(٢) وكان قراءة حفص جاءت على لغة أهل الحجاز في الاظهار .

ب (إدغام لام (هل وبل) في التاء .

والادغام جائز ، لأن العلاقة واضحة بين اللام والتاء ، لأن آخر مخرج اللام قريب من مخرجها ، وقد جاء على قراءة الادغام قوله تعالى « بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا » فقد قرأ حمزة والكسائي : « بتؤثرون » بالادغام^(٣) . وقوله تعالى : « قل يا أهل الكتاب هل تَنقِمُونَ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ »^(٤) فقد قرئ : « هَتَنَقِمُونَ مِنَّا » ، وقوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا »^(٥) فقد قرئ : « هَتَعْلَمُ » والذين ترددت أسماءهم في هذا الادغام الكسائي ، وحمزة^(٦) ، والقارئان كوفيان ، والكوفة متأثرة بالقبائل التي سكنت شرق الجزيرة العربية كما يقولون كتميم وأسد ، ثم إن الكسائي كان مولى لبني أسد ، تلك القبيلة التي آثرت الادغام . وقد ورد الادغام فسيما أنشده سيبويه :

فذر ذا ولكن هتَعَيْنُ مُتَيِّمًا على ضوء برقٍ آخر الليل ناصب^(٧)

فأصل الكلمة على الاظهار (هَلْ تَعَيْن) ولكن هذا الشاعر نطقها بالادغام ، وهذا البيت كما يقول سيبويه والأعلم لمزاحم العقيلي^(٨) ، فهو من بني عقيل ، وبنو عقيل من القبائل البدوية

(١) ابن يعيش : ١٤٠/١٠ .

(٢) سورة المطففين : آية ١٤ .

(٣) ابن يعيش : ١٤٢/١٠ .

(٤) سورة المائدة : ٥٩ .

(٥) سورة مريم : ٦٥ .

(٦) الإتحاف : ٢٨ .

(٧) ابن يعيش : ١٤١/١٠ .

(٨) كتاب سيبويه : ٤١٧/٢ .

الضاربة في صحراء نجد والتي كانت على صلة قوية بالقبائل المدغمة كتميم وأسد والتي تؤثر الادغام ، لهذا لا نعجب إذا روى البيت على الادغام من قبيلة بدوية كعقيل .

ج (إدغام لام (هل وبل) في الشين :

وإدغام اللام من هل وبل - في الشين أضعف ، والعلة في ذلك ما بين الحرفين من بعد ، ولكن جاز الادغام فيها لاتصال نخرجها بطرف اللسان . وقد حدث هذا الادغام فيما أنشده سيويه :

تقول إذا أهلك ما لا للذة فكيفه هشيء بكفك لائق^(١)

في هل شيء .

وقد عزا سيويه والأعلم : البيت السابق الى طريف بن تميم العنبري^(٢) ، وقبيلة بلعنبر - من قبائل عمرو بن تميم^(٣) ، وإذا كان الادغام قد شاع في تميم فلا عجب إذا وجد في بلعنبر - وهي إحدى فروع تميم .

٣- نقل السيوطي عن سر الصناعة : « أن المتأثرين يخفان بالادغام ، ولذلك لما أرادت بنو تميم إسكان عين « معنهم » كرهوا ذلك ، فأبدلوا الحرفين حاءين »^(٤) وجاء مثل هذا في ابن يعيش^(٥) ، وفي مخطوطة السيراقي على سيويه^(٦) ، وشرح الرضي^(٧) . ودراسة هذا النص ترينا صموية قلب الحرف الأول وهو العين الى الثاني وهو الهاء مثل « مَهْم » وكذلك قلب الثاني وهو الهاء الى الأول وهو العين « مَعْم » وكذلك ثقل وجود العين مع الهاء ، « لأن كل واحدة منهما مستقلة لنزولها في الحلق فكيف بها مجتمعين مع تدافرهما »^(٨) ؟ إذ العين مجهورة والهاء مهموسة .

(١) الكتاب : ٤١٧/٢ .

(٢) ابن يعيش : ١٤٢/١٠ ، الكتاب : ٤١٧/٢ .

(٣) نسب عدنان وقحطان : ٧ .

(٤) المزهر : ١٩٤/١ .

(٥) ابن يعيش : ١٣٧/١٠ .

(٦) ٤١٣/٢ خط بالتميمورية .

(٧) الشافية : ٢٦٦/٣ .

(٨) الشافية : ٢٦٦/٣ .

والحق أن حروف الحلق أقل الحروف تألفاً في الكلام ، وذلك لصلابة عضلة الحلق إذا قيست بمرونة عضلة اللسان والشفيتين ، فليست عضلة الحلق من المرونة بحيث تسمح باجتماع حروفه في كلمة^(١) . وعلل السيرافي لهذا بقوله : « لأن التقاء حروف الحلق مستثقل »^(٢) فبين الهاء والعين خلاف في الهمس والرخاوة والشدّة والجهر مما جعلهم يطلبون حرفاً متوسطاً بينهما وهو الحاء ، فقلبت العين حاء فصار : محّم^(٣) ، وهذا تأثر رجعي شاع في اللهجات العربية^(٤) ، ثم حدث تطور آخر ، إذ تأثرت الهاء بالحاء تأثراً كاملاً حتى فنيت فيها فصارت « مَحْمٌ » وهذا تأثر تقدمي نادر الحدوث في العربية . ولذا نسب سيبويه « مَحْمٌ - في مَعْمٍ ، ومَحْأُولاءٌ - في مع هؤلاء الى تميم »^(٥) وعلى ذلك قرئ قوله تعالى « ألم أَحَدٌ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ »^(٦) في أعهد ، وعزيت الصيغة أَحَدٌ - لتمييم ومثل تلك القراءة قولهم « دَحَاً مَحَاً »^(٧) أي دعها معها .

٤ - ومن وجود الإدغام في البيئة التميمية ما جاء عن الفراء من أنهم كانوا يقولون : في « عبد شمس التميمية (عَبْشَمْسٌ) »^(٨) وكانهم ألقوا حركة الدال على الباء وأدغموا الدال في الشين ، وكان غيرهم يقول : « عبد شمس » من غير إدغام . ولهذا قال محمد بن حبيب : « كل شيء في العرب عبد شمس إلا (عبشمس) ابن سعد بن زيد بن مناة بن تميم^٩ . وعلى هذا فيكون القلقشندي قد أخطأ ، لأنه كتبها « عبد شمس بن سعد » بدون إدغام^{١٠} ، وكذلك صاحب معجم قبائل العرب حيث سار على نهجه^{١١} . وهذا إن دل فلإنما يدل على أن كتابتنا العربية لا تصور اللهجات تصويراً دقيقاً .

(١) الخليل الفراهيدي : ١٢٨ الخزومي .

(٢) شرح السيرافي : ٥٠٨/٦ غطوط .

(٣) السيرافي على سيبويه : ٤١٣/٢ خط .

(٤) في اللهجات العربية : ١٢١ .

(٥) شرح السيرافي : ٥٠٧/٦ خط .

(٦) سورة يس : ٦٠ .

(٧) الكشف : ١٨/٤ .

(٨) السيرافي على سيبويه : ٦٢٧/٦ خط في تيمور .

(٩) السيرافي على سيبويه : ٦٢٧/٦ خط في تيمور .

(١٠) نهاية الأرب : ٧٢٤/٢ .

(١١) معجم قبائل العرب : ٧٢٤/٢ كعالة .

٥ - صيغة « الافتعال » ودرجات تقريب الأصوات فيها بين القبائل العربية :

يلاحظ على تاء الافتعال أنها تتأثر بالأصوات المجاورة لها ، والهدف من عملية التأثير هو تيسير عملية النطق ، وقد يكون هذا التيسير بين الحرفين في صفتي الجهر والهمس ، أو بين الشدة والرخاوة ، وقد يبلغ التأثير درجة كبيرة في ذلك الصوت ، فيصيبه الضعف والوهن ثم لا يلبث أن يموت ويفنى ، شأنه شأن عالم الأحياء ، وهذه العملية لا تتم إلا وفق شروط خاصة ، كما أن درجة هذا التأثير تختلف باختلاف القبائل العربية ، ونعرض الآن دراسة لهذه الصيغة ، ومدى تباین اللهجات العربية فيها :

أ (جاء في معاني القرآن للفراء : « وسمعت بعض بني أسد يقول : قد ائْثَرُ ، وهذه اللفظة كثيرة فيهم خاصة ، وغيرهم : قد ائْثَرُ « بالثاء »^١ ولتفسير كلام الفراء نرى أن الفعل أصله : افتعل : ائْثَرُ ، فاجتمع صواتان متجاوران مهموسان وهما الثاء والتاء ، والثناء صوت رخو ، ونظيره الشديد هو التاء ، وانتقال اللسان من مخرج الثاء الى مخرج التاء فيه جهد ، لأنه جمع بين عمليتين متناقضتين ، لأن النطق بالثناء يقتضي الصغير والتاء يقتضي الانفجار ، ووضع اللسان مختلف مع كلا الصوتين ، لهذا انتقل مخرج الثاء الى التاء حتى المحبس بالتقاء طرف اللسان بأصول الثنايا العليا وهو مخرج التاء ، فأصبحت الثاء شديدة بعد أن كانت رخوة ، وبذلك اتحد الصوتان في الشدة والمخرج والهمس - وتماثل الصوتان كل المائلة فتم الادغام - وأصبحت « ائْثَرُ » بالثاء وهي لهجة أسد ، وقبيلة أسد من القبائل التي سكنت نجد فهي بدوية ، ولهذا آثرت صوت التاء الشديد ، أما من قال في تلك الصيغة : ائْثَرُ - بالثاء فأرجح أنها قبيلة حضرية ، والقبائل الحضرية تميل الى الأصوات الرخوة ، ولا شك أن صيغة (ائْثَرُ) بالثاء أسهل ، لأن فيها اقتصاداً في المجهود العضلي ، إذ اللسان قد يسهل عليه أن يرتطم بالحنك والالتقاء به التقاء محكماً - وهو ما يكون مع التاء - من أن تقف حركته عند مسافة قصيرة من الحنك - كما يحدث مع الثاء ، وعلى مثل هذا يمكن أن نفهم الروايات المتخالفة التي وردت في قول لبيد :

والنَّيِّبُ إن تَعَرَّمني رَمَّةٌ خَلَقَا بعد المات فإني كنتُ ائْثَرُ^٢

وقد ورد في رواية أخرى « ائْثَرُ » وكتب الطبقات نخبر أن لبيداً هذا من بني عامر من قيس^٣ ، وهم مدغمون .

(١) معاني القرآن : للفراء : ٢١٥/١ ط دار الكتب .

(٢) سر الصناعة : ١٩٠/١ .

(٣) الشعر والشعراء : ٨٨ ت السقا .

ب) ما رواه الفراء « من أنه سمع بعض بني عقيل يقول : عليك بأبوال الظباء فاصمِطها ، فإنها شفاء للطحل »^١ .

ولشرح هذه الظاهرة نقول : أصل الصيغة « افتعل » ، « اصتعل » وقد اجتمع في تلك الصيغة صوتان مهموسان : الصاد والتاء ، غير أن أحدهما مطبق والآخر مستفل فقلبت التاء الى نظيرها المطبق وهو الطاء ، فصارت الكلمة « اصطعل » ثم زاد تأخر الطاء بالصاد فصارت « اصّعل » ولهجة عقيل فيها تيسير للمجهود العضلي ، لأن عمل اللسان فيها من وجه واحد ، وعقيل من قيس - وهي ضاربة في البداوة والبدو حريصون على أن تتأثر الأصوات المتجاورة وتتفاعل حتى لا ينتقل اللسان من علو الى استفال أو عكسه ولا شك أن هذا التفاعل أدى أخيراً الى خلق صيغة أيسر ، وذلك ما تهدف إليه القبائل البدوية ، وخير من يمثلها عقيل .

ج) كما تقلب تاء الافتعال أيضاً - إذا كانت مع الدال والذال والزاي - دالاً - فإذا أردنا أن نضوع « افتعل » من ذكر - قلنا « اذتكر » فالذال مجهورة والتاء مهموسة فتأثرت التاء بالذال ، وانقلبت الى صوت مجهور يماثلها وهو الدال فأصبحت « اذدكر » وهذا تأثر تقدمي ، لأن الثاني تأثر بالأول ، وحدث أن أصابها تطور آخر فصارت « اذكر » ففني الصوت الثاني في الأول ونطق بها صوتاً واحداً كالأول ، وهذا تأثر تقدمي أيضاً^٢ ، وتلك لهجة أسد كما رواها الفراء حيث يقول : « وبعض بني أسد يقول : « مذكر »^٣ ، وقد مالت بعض اللهجات الى أن فني الصوت الأول في الثاني فصارت « اذكر » بالدال وهذا هو القياس في الإدغام إذ يقلب الأول الى الثاني . لا العكس ، ومن أجل هذا قال عنه ابن جنبي : « وهو الوجه »^٤ وهو تأثر رجعي . أما ما جاء عن قبيلة ربيعة من قولها : « الذكر » بالدال في « الذكر » بالذال فهم قد توهموا أنه من « اذكره » وهو ليس منه ، لأن « الذكر » لعبة يلعب بها الزنج والحبش ، وكأنهم ألفوا فيها هذا القلب لما رأوه في اذكر واذكر ، ويمكن أن يكون هذا تعليلاً لقول سيبويه معلقاً على لهجة ربيعة السابقة : وهو غلط حملهم عليه اذكر^٥ ، وبما يؤيد ما أميل إليه من أن الكلمة عند ربيعة لم

(١) معاني القرآن : للفراء : ٢١٦/١ دار الكتب .

(٢) الأصوات اللغوية : ١١٥ ط ٢ .

(٣) اللسان : ٣٧٦/٥ .

(٤) المنتصف : ٣٣١/٢ .

(٥) اللسان : ٣٧٦/٥ .

يحدث فيها إدغام قول الليث : « الدّكر » ليس من كلام العرب ، وربّعة تغلط في الدّكر بالذال ، فتقول : دكر « بالذال »^١ ولعل ربّعة ورثت هذا الخلط بين الدال والذال نتيجة اتصالها بالقبائل المخالطة للسريانيين والآراميين إذ كان يكثر عندهم الخلط بين الدال والذال^٢ .

ولقد كان القرآن الكريم صدى لهذه الظاهرة ، فقد جاء فيه « وادّكر بعد أمة »^٣ قرأ الحسن : واذكر — بالذال^٤ . كما نلمح صداه أيضاً في مماثل لهذه الظاهرة في قوله تعالى : « وما تدّخرون في بيوتكم »^٥ وأصلها « يذّخر » فلما اجتمعت الذال والتاء وهما متقاربتا المخرج ثقل إظهارهما على اللسان ، فادغمت إحداهما في الأخرى وصيرتا دالاً مشددة ، (ومن العرب من يغلب الذال على التاء ، فيدغم التاء في الذال فتصبح « تذّخرون »)^٦ ، ولكن الطبري أبعد قراءة الدال بدليل قوله « لا يجوز القراءة بغيرها لتظاهر النقل من القراءة بها » ثم ظهر إيثاره لها بقوله مرة أخرى « وهي اللغة الجودي »^٧ مع أن الفراء في معاني القرآن قرأ بها^٨ — وهذا ان دل فإنما يدل على أن الطبري كان سلفياً ، يعتمد على الرواية والنقل ، والإجماع .

د (كما حدث تأثير آخر من نوع آخر في صيغة الافتعال السابقة ، وذلك فيما إذا كانت فاء الافتعال السابقة واواً أو ياء أصلية — فقد حدث تطور في الصيغة فبعض القبائل العربية آثرت قلب الواو أو الياء — تاء — في جميع فروع الصيغة كاسم الفاعل والمفعول — ثم تدغم تلك التاء في تاء الافتعال مثال ذلك في الواو : اتّصال ، اتّصل ، يتّصل ، متّصل به ، ومثاله في الياء :

اتسار ، واتسر ، ويتّسر ، ومتّسر ، وأصل الصيغ الواوية :

(١) اللسان : ٣٧٦/٥ .

(٢) الفلسفة اللغوية : ص ٦١ تحقيق د. مراد كامل .

(٣) سورة يوسف : آية ٤٥ .

(٤) إتحاف فضلاء البشر : ٢٦٥ .

(٥) آل عمران : آية ٤٩ .

(٦) تفسير الطبري : ٤٣٦/٦ - ٣٧ تحقيق شاكِر .

(٧) تفسير الطبري : ٤٣٦/٦ - ٣٧ تحقيق شاكِر .

(٨) معاني القرآن : ٢١٥/١ .

أو تصل ، واو تصل ، وموتصل ، كما أن أصل الصيغ الياثية : إيتسار ، وإيتسر ، وميتسر ، فقلبت الواو والياء تاء وادغمتا في تاء الافتعال .

وقد وصف صاحب التصريح هذه اللغة بأنها اللغة ١ الفصحى ، وكذلك نقل صاحب الجاسوس^٢ عن الأشموني مثل هذا ، وقد وصفها ابن جنى في سر الصناعة بأنها : « الأكثر والأقيس » ، وهي لغة الحجاز^٣ .

ولا أوافق ابن جنى في أنها لغة الحجاز ، كما أن قول صاحب التصريح والأشموني بأنها هي اللغة الفصحى ، لا يعني بأنها لغة الحجاز ، لأن اللغة الفصحى شيء ، ولهجة الحجاز شيء آخر ، ويظهر أن القدامى من علماء اللغة كانوا يسمون لغة الحجاز بأنها الفصحى ، ولا أرى ذلك إلا عصبية منهم ، ولقد عثرت على شواهد لهذه اللهجة لشعراء ليسوا من شعراء الحجاز فمن ذلك :

١ - ما عزاه صاحب التصريح الى الأعشى :

فإن تَتَعِدْنِي أَتَعِدْكَ بِثَلْهَا وسوف أزيد الباقيات القوارضا

٢ - كما أنه عزى الى طرفة :

(فإن القوافي يَتَلَجِّن مَوَالِجاً)^٤

وإذا استشرنا كتب الطبقات عن هؤلاء الشعراء - أشار القلقشندي بأن الإعشى هو ميمون ابن قيس ينتهي نسبه الى بكر بن وائل^٥ ، وأشار الزوزني الى أن طرفة بن العبد من ضبيعة بن قيس بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل^٦ . وأرى أن هذا لا يمكن أن يكون لضرورة الشعر ، لأن البيت لا يتأثر وزناً إذا قال : توتعدني أو تعدك ، كما أن بيت طرفة لا يتأثر وزناً لو قال : يوتلجن . فالوزن الشعري مستقيم على كلتا الهجتين .

٣ - قيل للأحنف بن قيس : أي المجالس أطيب فقال : ما سافر فيه البصر ، واتدع فيه

(١) التصريح : ٣٩١/٢ .

(٢) انظر : الجاسوس : ٥٣٥ .

(٣) سر الصناعة : ١٦٥/١ ط إدارة إحياء التراث .

(٤) التصريح : ٣٩٠/٢ - ٣٩١ .

(٥) نهاية الأرب : ٣١٩ .

(٦) شرح المعلقات : ٤٣ - للزوزني ط ٣ الحلبي .

البدن^١ والأحنف هذا ابن قيس أحد بني مرة بن عبيد بن الحرث بن كعب بن سعد من تميم^٢ ، وهذه الأدلة الحاسمة تقطع بأن تلك اللهجة لم تكن لهجة الحجاز. بل لهجة شرق الجزيرة العربية التي تجنح للادغام ، وتأثر الأصوات ، بدليل تحقيق نسب : الأحنف التميمي ، والشاعرين البكريين . وهؤلاء جميعاً كانوا يسكنون شرق الجزيرة العربية ، ويظهر أن لهجة الحجاز كانت لا تبدل الواو والياء - تاء ، بل كان لهم مذهب آخر - إذ كانوا يبدلون من جنس حركة ما قبلها فيقولون في الأمثلة السابقة : ياتصل ، موصل ، ايتسر ، مويسر ، وايتعاداً ، وايتساراً . وبما يؤيد أن هذه الأخيرة لهجة الحجاز - أنها كانت ترد بكثرة في أسلوب الشافعي (رضي الله عنه) فقد ورد في « باب العلل في الأحاديث » قوله « وأخرى موثقة ، وأخرى مختلفة : ناسخة ومنسوخة ... »^٣ وقوله في باب البيان الثالث « وتختلف سننه واتفق »^٤ وقوله في باب « الحجة في تثبيت خبر الواحد » ، « ولا نستطيع أن نزعم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالموصل »^٥ وقوله في (باب القياس) « ايتفقَ المقاييسون في أكثره ... »^٦ .

فجميع هذه الأساليب للشافعي مستقاة من رسالته - أبدلت فيه فاء الافتعال حرفاً ليناً من جلس الحركة قبلها ، ويمكن أن نوثق هذه الأساليب على أنها لهجة الحجاز داخلياً وخارجياً - فالتوثيق الداخلي أن الشافعي أملى هذا الكتاب الذي به هذه الأساليب املاءً على الربيع تليذه^٧ ، فهي أساليب الشافعي نفسه ، والتوثيق الخارجي يثبت أن الشافعي قرشي حجازي ، فالشافعي إذاً عندما يملئ أو يتحدث فإنما يتحدث بلفته لغة أهل الحجاز .

وبما يؤسف له أن الذين حققوا رسالة الشافعي هذه ، قد حرفوا في الظواهر اللهجية التي أشرت إليها على أنها لهجة الشافعي - وحملوها على اللغة الفصحى ، فقالوا : « متفق » ، « وتنتفق » و « بالمتصل » و « اتفق » .

(١) الكامل للبهر : ١٠٢/١ .

(٢) نهاية الأرب : للقلقشندي : ٢٨٦ ، الكامل : ١٠٢/١ .

(٣) الرسالة : ٢١١ للشافعي .

(٤) الرسالة : ٣١ للشافعي .

(٥) الرسالة : ٤٦٤ للشافعي .

(٦) الرسالة : ٤٧٩ ، للشافعي .

(٧) الرسالة : ١٢ ، ١٨ ، للشافعي .

وجميع هذه التحريفات مخالفة لأصل الكتاب المخطوط^١ ، وهذا يشير الى أن السمات اللهجية كثيراً ما تهدر بيد المصححين والمحققين - حيث يحملونها ويغيرونها مسيطرة للفصحى ، وبذلك يقع كثير من ضياع ظواهر اللهجات العربية على أيديهم ، فإذا ما زوى الكسائي عن العرب « الطريق ياتسّق وياتسع »^٢ أي : يتسّق ويتسّع - فالمعنى بتلك الرواية عن الكسائي - لهجة الحجاز دون غيرها ، كما تقدم ، ولقول السيرافي « وبعض العرب من أهل الحجاز يلزم في افتعل الأصل ولا يقلب الواو تاء »^٣ وعلل الشدياق للهجة الفصحى التي أبدلت فيها الواو والياء - تاء بقوله « لأنهم لو أقروها لتلاعبت بها حركات ما قبلها فكانت تكون بعد الكسرة ياء » وبعد الفتحة ألفاً وبعد الضمة واواً ، فلما رأوا مصيرها الى تغييرها لتغير أحوال ما قبلها - أبدلوا منها حرفاً يلزم وجهاً واحداً - وهو التاء^٤ ، كما علل ابن جنبي لإيثار التاء بقوله : « وكانت التاء قريبة المخرج من الواو ، لأنها من أصول الثنايا ، والواو من الشفة ، ... وقد فعلوا هذا أيضاً في الياء وأجروها مجرى الواو فقالوا في افتعل من اليبس واليسر : اتبس واتسر »^٥ وهذه اللهجة الفصحى ، والتي جاء عليها شعر الشعراء وحدث فيها تأثر رجعي وهو الشائع في العربية :

٦ - وكما اختلفت القبائل العربية في درجات التقريب بين الأصوات في صيغة الافتعال اختلفوا كذلك في حركة آخر الفعل الأمر المضعف ، ومضارعه المجزوم - إذا لم يتصل بها شيء :

أ (الفتح مطلقاً مثل : مُدَّ وَعَضَّ وَعِزَّ ، وقد عزا الأشموني تلك اللفظة الى بني أسد وناس غيرهم^٦ ، وقد أهمل رضي الدين^٧ عزوها ، وكذلك صاحب الهمع^٨ .

(١) انظر : الرسالة : ٤٧٩ ، وتعليق رقم ه للمرحوم أحمد شاکر .

(٢) سر الصناعة : ١٦٥/١ .

(٣) شرح السيرافي على سيبويه : ٥٥٦/٥ - ٥٥٧ خط بالتيمورية .

(٤) الجاسوس على القاموس : ٥٣٥ .

(٥) سر الصناعة : ١٦٤/١ .

(٦) الأشموني : ٣٥٣/٤ .

(٧) الشافعية : ٢٤٣/٢ .

(٨) ٢٢٧/٢ .

ب (والكسر مطلقاً - وم كعب وغني^١ ، وعزيت في الأشموني الى كعب ونير^٢ ومثل
الأشموني عزها صاحب الدرر اللوامع^٣ . بينما عزها السيرافي الى كعب وغني^٤ . وفي
التصريح الى كعب وغير^٥ .

ج (الاتباع لحركة الفاء ، وهذا أكثر في كلامهم مثل : مُدْ ، عَضْ ، عِزْ .

ويمكن أن يعلل الفتح الذي جاء على لغة أسد - بأنه جاء للتخفيف ، ويعلل الكسر الذي
جاء لغة كعب وغني ، لأنه الأصل في التخلص من الساكنين ، أما الاتباع لحركة الفاء - فأرجح
أن القبيلة التي نطقت به قبيلة تهدف الى انسجام الأصوات ، ولذا أميل الى أنها قبيلة تميم ، لأن
الانسجام فيها أكثر مثل قولهم : بَعِير ، شَعِير .

بقيت مسألة وهي مناقشة الخلاف في تحديد المؤثرين للكسر ، وباستشارة كتب الأنساب
تهدينا بأن كعباً من عامر بن صعصعة من قيس^٦ وأن نُمَيْرَاً كذلك من عامر بن صعصعة من
قيس^٧ ، وأن غنياً بطن من قيس^٨ . ولهذا أرجح أن الظاهرة في تلك البطون الثلاثة ، لأنها
يرجعان الى أصل واحد ، فمن عزها الى كعب وغني ، فلأنه اكتفى بها عن أختها نير ، ومن
عزها الى كعب ونير - اكتفى بها عن أختها غني ، كما يلاحظ أن تلك الظاهرة تنحصر في
قبائل الشرق من فتح أو كسر أو إتباع .

٧- وكما اختلفت مذاهب العرب فيما تقدم ، اختلفت كذلك في حالة اتصال الفعل المضعف
بالنون واء الضمير ، فاللغة الفصحى تفك الإدغام - كقولنا : رددتْ ورددنا ورددتْ
وغيرها ، وهذا مذهب للعرب حجازيهم وتميمهم - وإنما وجب الفك للزوم سكون الثاني ،
ولأن ما قبل الضمير البارز المرتفع لا يكون إلا ساكناً ، إلا أن بكر بن وائل - أو على

(١) الشافية : ٢٢٧/٢ .

(٢) ٣٥٣/٤ .

(٣) ٢٤٠/٢ .

(٤) شرح السيرافي على سيوريه : ٦٨٢/٤ خط بالتيمورية .

(٥) ٤٠٢/٢ .

(٦) نهاية الأرب : ٤٠٦ ، القلقشندي .

(٧) حاشية الصبان على الأشموني : ٢٥٢/٤ ، نهاية الأرب : ٤٣٣ القلقشندي .

(٨) تاريخ العرب : ٣٢٠/٤ جواد علي .

وجه الدقة أناساً من بكر بن وائل^١، يدغمون فيقولون «رُدْنُ» و«يرُدْنُ» و«رُدْنُ» في المضارع والماضي والأمر^٢ فيحركون الثاني بالفتح للساكنين وكأنهم قدروا الإدغام قبل دخول النون والتاء فأبقوا اللفظ على حاله بعد دخولها، ويرى الدكتور إبراهيم أبيس في لهجة بكر بن وائل – أن النبر فيها قد انتقل إلى الأمام، من المقطع «رَدْ» إلى المقطع «دَ»^٣ ولهجة بكر بن وائل هذه قد دخل عليها علماء اللغة عدة أوصاف أشهرها ما جاء عن الخليل من أنها لغة ضعيفة^٤، وقال عنها اللسان بأنه تركيب قبيح في العربية^٥، ورأى الشارح رضي الدين بأنه شاذ قليل^٦، وعلق عليها صاحب التسهيل «بأنها لفظة»^٧ وأيضاً ما كان من تلك الأوصاف القاذحة – فهي تمثل بيئة لغوية، وحقاً لهجياً – انعكست صفحته في المأثور من القرآن والسنة.

١ – أما الكتاب الكريم فقد قرأ ابن أبي عبة والوليد بن مسلم والقورصي عن أبي جعفر والسمسار عن شيبة قوله عز وجل: «أَفَمَعَيْنَا بِالْحُلُقِ الْأَوَّلِ»^٨ بتشديد الياء من غير إشباع في الثانية – هكذا قال أبو القاسم الهذلي^٩. كما وردت رواية مثل السابقة عن ابن أبي عبة – في شواذ القرآن لابن خالويه^{١٠}. ولا توجيه لتلك القراءة إلا على إدغام الياء في الياء في الماضي: عي في عيسى – فلما أدغم لحقه ضمير المتكلم من غير فك للإدغام. فتكون الصيغة «عَيْنَا» – وهذا شبيه بما تفعله بكر بن وائل في مثل هذا، ولهذا عزيت في البحر المحيط إليها^{١١}.

(١) الشافية: ٢٤٦/٢.

(٢) التصريح: ٤٠٣/٢.

(٣) في اللهجات العربية: ١٣٩ ط ٢.

(٤) التصريح: ٤٠٣/٢، الأشموني: ٣٥١/٤ – ٣٥٢.

(٥) ٢٢٠/٤.

(٦) شرح الشافية: ٢٤٥/٣.

(٧) الصبان على الأشموني: ٣٥١/٤ – ٣٥٢.

(٨) سورة ق: آية ١٥.

(٩) البحر: ١٢٣/٨.

(١٠) مختصر شواذ القرآن: ١٤٤ ابن خالويه.

(١١) البحر: ١٢٣/٨.

٢- وأما السنة فقد جاء فيها « قالوا يا رسول الله : كيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت »^١ وأحسن الآراء فيها أن أصلها : أرمت - أي (بليت) وقد صرت رميمًا - فحذف إحدى الميمين ، كقولهم : ظلمت - في ظلمت^٢ . والوجه في من نطق على هذا الوجه أنهم قدروا الإدغام قبل دخول التاء . وهذه اللغة في ناس من بكر بن وائل ، وقد جاء في حديث أحد ما يشبه هذا وفيه « حتى رأيت النساء يشتدن في الجبل »^٣ أي يعدون . وقد جاءت الرواية على اللغة الفصحى هكذا عن كتاب الحميدي ، وورد في كتاب البخاري رواية أخرى : يشتدن « بدال واحدة » ، كما جاء في رواية أخرى : يُسندن - بسين مهيمة ونون^٤ - والمعنى : يصعدن فيه . واللغة الفصحى في هذه الروايات هي يشتدن ، لأن ما قبل نون النساء لا يكون إلا ساكنًا فيلحق ساكنان ، فيحرك الأول ، وينفك الإدغام ، وأما رواية البخاري فلا وجه لها إلا أن تحمل على لغة بكر بن وائل ، ووجهها كما قال الخليل : « أنهم قدروا الإدغام قبل دخول التاء والنون »^٥ والمقصود هنا نون النسوة .

ولا شك أن السنة تعكس كثيراً من جوانب اللهجات العربية القديمة ؛ لأن الرواة الذين رووها كثيراً ما يروون الأحاديث الشريفة فتظهر فيها آثار اللهجاتهم هم ، كما في الأثرين السابقين . ويظهر أن لهجة بكر بن وائل لم تكن وحدها في هذا الطريق ، بل شاركتها قبائل أخرى ، ولكن على شكل آخر ، فبدلاً من أن تقول بكر بن وائل : ردت ، تصوغها تلك القبائل على هذا النمط أيضاً لكن بزيادة ألف بعد المدغم قبل الضمير ، جاء في شرح الشافعية « وبعضهم يزيد ألفاً بعد الإدغام نحو : ردت وردان »^٦ وكان هذه اللهجة تلتزم تسكين ما قبل هذه الضائر - كما في الأفعال الصحيحة مثل ضربت وكتبنت . ونقل الصبان مثل هذه اللهجة عن التسهيل بدون عزو كما في الشافعية^٧ ، ولم أجد فيما تحت يدي من المصادر ما يشير إلى عزو تلك

(١) اللسان : ١٤٥/١٥ .

(٢) اللسان : ٢٨٠/١٤ .

(٣) اللسان : ٢٢٠/٤ .

(٤) اللسان : ٢٢٠/٤ .

(٥) التصريح : ٤٠٣/٢ .

(٦) شرح الشافعية : ٢٤٥/٣ .

(٧) الصبان على الأسمري : ٣٥١/٤ - ٣٥٢ .

اللهجة الى قبيلة أو عشيرة ، لكن نسبها الدكتور ابراهيم أنيس الى قيس عيلان^١ ، بدون أن يشير الى مصدرها ، ولعل تلك اللهجة هي أصل لهجتنا العامية حتى الآن حيث نقول: رَدَّيتْ ، سَدَّيتْ . في ردَّات وسدَّات وكل ما حدث أنه أميلت الفتحة نحو الكسرة ، والألف نحو الياء .

تعقيب :

ظهر من كلام علماء النحو واللغة أن الإدغام كان في قيم وقيس وأسد ، وعندما تصدينا لدراسة نصوصه ظهر أن الإدغام كان يغطي منطقة أوسع مما حددها النحاة فقد ظهر الإدغام في قبائل عقيل ، وعامر بن صعصعة ، وبني عجل ، وهم بطن من بكر بن وائل كما ظهر في بكر ابن وائل نفسها ، كما بدت سماته واضحة في بلعنبر ، وبني سعد بن زيد مناة من قيم بل سمعنا صداه في الحجاز ، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: « أيتها رجل من المسلمين سببته أو لعنته أو جلدته ... »^٢ بإدغام التاء في الدال .

كما قرأ ابن عباس بحروف من الإدغام ، وذلك في قوله تعالى : « هل ترى من فطور » قرأها : « هتري »^٣ بإدغام اللام في التاء ، والنبي ﷺ وابن عباس من بيئة الحجاز . ثم في غير ذلك نرى كثيراً من قراء مكة والمدينة يقرءون بالإدغام - فنافع المدني (١٦٩ هـ) وقالون المدني راوي نافع : قرأ بإدغام الذال في التاء من (اتخذتم وأخذتم) كيف وقعا جمعا أو فرداً^٤ . كما أدغم ورش ، (١٩٧ هـ) وهو راوي نافع المدني (دال قد) في الضاد والظاء المعجمتين نحو : فقد ضل ، فقد ظلم - وقاء التأنيث الساكنة في الظاء المعجمة نحو : « حرمت ظهورها » ، كما أدغم النون في الواو من (يس والقرآن) ومن (نون والقلم) ، وكذلك أدغم الذال في (اتخذتم) و (أخذتم) كيف أتيا^٥ . فإذا كان الأمر كذلك عرفنا أن الإدغام كان منتشرأ في أجزاء من الجزيرة العربية شرقها وغربها ، بل كان هو اللغة الرسمية السائدة التي تلقفها القرآن الكريم من لهجات العرب ، ولهذا يقول أبو عمرو : « الإدغام كلام

(١) في اللهجات العربية : ١٣٩ .

(٢) اللسان : ١٢٥/٣ ط بيروت .

(٣) شرح السيرافي : باب إدغام القراء .

(٤) الإضاءة : ١٣١ .

(٥) الإضاءة : ١٤٠ .

العرب الذي يجري على ألسنتها ، ولا يحسنون غيره ،^١ وعنده ابن فارس من خصائص العربية^٢ ، ولهذا ترددت ظاهرة الإدغام في كثرة غامرة من آيات الكتاب الحكيم ، لأنه ظاهرة راقية تهدف الى الوصول بالكلمة الى أقصى درجات الخفة والسهولة ، ولهذا عبر هذا الإدغام القرون حتى وجدنا سماته في لهجاتنا الحديثة فنحن نقول : قالك ، جمل لك ، كما نسمع في لهجاتنا : حدثهم في حديثهم ، كما قد نشأت بعض الأساليب العامية من قبل الإدغام ، ومن ذلك قولنا : إاش زيتك ، وأصل هذا : أي ش زيتك - فذهب التنوين ، وكذلك حركة الإعراب ، وأبدلت الشين زايًا ، وأدغمت في الزاي .

(١) النشر : ٢٧٥/١ .

(٢) الصاحبي : ١٥ .

الادغام يفسر إهمال الاعراب في اللهجات الحديثة

عرفنا أن الإدغام الكبير يسلب الحرف الأول حر كته ، ثم ينبو اللسان بهما نبوة واحدة فتصير شدة الامتزاج في السمع كالحرف الواحد ، فكان الإدغام يزيل الإعراب كما في قوله تعالى (مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا)^١ ، والأصل : تَأْمَنُنَا - فذهبت الضمة التي هي علامة الرفع ، لأجل الإدغام ، وإذا ما تصفحنا كتاباً كالنشر ، أو إبراز المعاني - برزت لنا آيات عدة من كتاب الله قرئت بالادغام - أي بذهاب الاعراب ، وهذا دليل على أن العربية الفصحى كانت تهمل الاعراب أحياناً بدليل ما أثر عن أبي عمرو من تسكين حركة الإعراب في مثل « بارئكم ، يعلمهم ، يأمرهم ، يأمرهم ، يأمرهم ، يشعركم ، نخشركم ، وبمولثهم ، ومكر السيئ » وغيرها - بل جاء الاسكان في الشعر لغير ضرورة - ثم إننا نرى فقد الإعراب في لهجاتنا الحديثة ، بل إن كثيراً من علمائنا المحدثين قد رحلوا الى جزيرة العرب بغية التنقيب عن آثار تلك الظاهرة ، فلم يجدوا أثراً لها في كلامهم^٢ ، فإذا كانت ظاهرة الإعراب قد فقدت من اللهجات الحديثة ، حتى في مكان الوحي ونزول القرآن ، ولهجاتنا الحديثة تلقفناها عبر التاريخ وورثناها عن آبائنا العرب ، فلهجاتنا موصولة بلهجاتهم ، وإذا كانت لهجاتهم تهمل الإعراب في كثرة غامرة في صور الإدغام الكبير ، « أفلا يصح اتخاذ ذلك أساساً سليماً لتفسير انتشار ضياع الاعراب في لهجاتنا الحديثة »^٣ والحق أن الإعراب ليس في حقيقته إلا ناحية متواضعة من نواحي اللغة^٤ ، ولكن النحاة جعلوه هامة تلك الظواهر ، حتى عظم شأنه ، وأصبح سلاحاً في يدهم ، ولكن الشعراء ثاروا عليهم ويتجلى ذلك فيما حدث بين الفرزدق وعبدالله الحضرمي ، ثم قامت المناقشات الكثيرة بين النحاة والقراء بسبب الإعراب - حتى رمى النحاة القراء بالجهل وذلك بسبب خروجهم عن قواعدهم وأصول إعرابهم ، مع أن القراء يؤولون بقراءتهم الى العهد الذي لا يشوبه أبداً شوب من لحن ، أو دنو من خطأ ، والقراء في الضبط والتحري بالمكان الذي لا يجاري ، ثم ان القرآن عند نزوله لم يكن النحو العربي قد استنشق نسيم الحياة ، وإنما وجد النحو بعد ذلك ،

(١) سورة يوسف : آية ١١ .

(٢) من أسرار اللغة : ١٣٩ هامش الطبعة الأولى .

(٣) مجلة كلية الآداب : م ١٥ ج ١ من مقال « للدكتور عبد الحليم النجار » .

(٤) من أسرار اللغة : ١٢٥ ظ الأولى .

وعندما وضع أخذوا يخضعون نصوص القرآن واللغة لقواعدهم وإعرابهم ، ولكن قراءة القرآن يجب أن تحكم النحو ، والنحو لا يحكم على القراءة ، لاسيما وأنه كان من القراء أئمة في النحو واللغة ، وجهابذة في العربية كأبي عمرو البصري (١٥٤هـ) ، وعلي بن حمزة الكسائي الخزومي (١٩٠هـ) وغيرها .

والخلاصة : أن انتشار الإدغام واتساع دائرته في القراءات يربط بين اللغة الفصحى كما يمثلها القرآن - حيث فقدت بعض مظاهر الإعراب بالإدغام - وبين لهجاتنا الحديثة ، تلك التي لا نلح فيها أثراً لهذه الظواهر الإعرابية . ولا شك أن هذه النظرة تؤيد العلاقات اللهجية عبر القرون بيننا وبين آبائنا ، أو بين السالفين والخالفين . ولست مغالياً إذا قلت : إن الحقل اللغوي الذي تصوّره قراءات القرآن الكريم - ينطوي على تاريخ لغتنا ، ويمثلها تمثيلاً واقعياً أصدق من غيره .

الفصل الثالث

ظاهرة الهمز والتسهيل بين لهجات القبائل

عندما ننظر الى اللهجات العربية الحديثة في الأقطار العربية، نرى بعض هذه اللهجات تحقق الهمزة، وبعضها الآخر يسهلها، وهذا ولا شك يفسر لنا اختلاف القبائل العربية النازلة في العالم العربي، فبعض تلك القبائل النازلة لا شك أنها كانت تحقق، والأخرى تخفف، أو تسهل الهمزة، فورثنا هذه الظواهر عن أسلافنا ظاهرياً: الهمز والتسهيل، ولأجل هذا يقف الباحث موقف الشك فيما رواه موسى بن عبيدة عن نافع عن ابن عمر قال: «ما همز رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا الخلفاء - وإنما الهمز بدعة ابتدعوها من بعدهم»^١ إذ كيف يكون الهمز بدعة، وهو سمة لهجية لا يستطيع العربي أن يتخلى عنه - لاسيما إذا كان هذا العربي من أهل التحقيق، ثم كيف يتفق هذا الحديث مع الروايات القرآنية التي جاءت بتحقيق الهمزات في كثير من الآيات، وبما يقدح في صحة هذا الحديث ما جاء عن أبي شامة - من أن موسى بن عبيدة ضعيف عند أئمة الحديث.

وقد يكون مثل هذا الحديث في الضعف ما روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا نبي الله - بالهمز، فقال له: لا تنبر باسمي، أي لا تهمز،^٢ فحال أن يكلف النبي ﷺ رجلاً أن يتنقل من لهجته الى لهجة أخرى - لما في ذلك من العنف والمشقة، وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإذا أضيف الى هذا أن حمران - وهو الرجل الذي جاءنا الحديث السابق من طريقه - رافض، بل قال عنه الذهبي «ليس بثقة»^٣ داخلنا الشك في هذا الحديث، وقد يكون الرسول ﷺ إنما كره «النبي» بالهمزة، لأنه يتوهم منها أنها من «نبا من أرض الى أرض»^٤ أي خرج منها،

(١) الإنتقان: ١٠٠/١.

(٢) اللسان: ٤٠/٧، اشتقاق ابن دريد: ٢٧٣ ط وستنفلد.

(٣) الإنتقان: ١٠٠/١، وما يقوي ضعف هذا الحديث أنه عليه السلام قد أنشده المادح: «يا خاتم النبلاء إنك مرسل» انظر القرطبي: ٤٣١/١.

(٤) المصباح: ٤٣١/٢.

فقد يحمله بعض من يضمر السوء - على خروجه من مكة الى المدينة على غير وجه التكريم ، والنبر في الحديث السابق يرادف الهمز ، ويؤيده ما جاء عن أبي زيد من أن « أهل الحجاز وهذيل ، وأهل مكة والمدينة لا ينبرون ، وقف عليها عيسى بن عمر فقال : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر ، وهم أصحاب نبر ، وأهل الحجاز إذا اضطروا نبروا »^(١) ، فالمراد بالنبر في قول عيسى بن عمر : تحقيق الهمز ، ويفسر الدكتور إبراهيم أنيس الضرورة في قول عيسى بن عمر بأنهم ما كانوا يهزون إلا حين يلجئون الى اللغة النموذجية ، وفي المجال الجدي من القول فحينئذ يخرجون عن عادتهم وسليقتهم في تسهيل الهمز « فكأن الحجازيين ما كانوا يهزون إلا حين يلجئون الى اللغة الأدبية »^(٢) ، وذلك تفسير الاضطرار في قول عيسى السابق ، ولكني ربما أجد فهماً آخر لهذا « الاضطرار » في قول عيسى ، فالشاعر قد يضطره الوزن الشعري الى أن يبدل من الحرف همزة كما ورد ذلك في قول الشاعر :

فأقسم لو لاقى هلالاً وتحتَه مِصْلُكَ كَذِيبِ الرِّدْهَةِ المتأَوِّبِ
لأدأها كرهاً أو أصبح بيته لديه من الإعوَال نوحَ مسلَّبِ

قال السيرافي على شرح سيديويه « فهمز الألف في « أدأها » - لأنه لو تركها ساكنة لم يستقم البيت »^(٣) . ومثل الضرورة السالفة ضرورة أخرى جعلت الشاعر « كثيراً » الحزاعي يهز في غير موضع الهمز ، قال في رثاء عبد العزيز بن مروان :

وللأرض أماً سودها فتجلَّلتْ بياضاً وأماً بياضها فاسوَّأدتِ^(٤)

وما رواه السيرافي من قول الشاعر :

قد كان يذهب بالدنيا ولذتها موالىء ككباش العوس سُحاح^(٥)

فهز الياء من « موالى » لاستقامة البيت . وخزاعة التي منها كثير تخفف الهمز ، بدليل أن « كثيراً » دخل على عبد العزيز بن مروان فأنشده شعراً ، فقال له بعض جلسائه : لحنْتَ قال : في أي شيء ؟ قال : في قولك :

(١) اللسان : ١٤/١ .

(٢) مستقبل اللغة العربية المشتركة : ٦٩ .

(٣) شرح السيرافي على سيديويه : ٢٧٢/١ مخطوط بالتيمورية .

(٤) الموشح : ١٤٦ .

(٥) شرح السيرافي على سيديويه : ٢٧٢/١ مخطوط بالتيمورية .

لا أنزr النائل الخليل إذا ما اعتلّ نزرُ . الظثور لم ترم

وأصل الفعل « ترأم » بالهمز ، فقال له كثير : اسكت : هذا كلام قومي . فإذا كان الشاعر وقومه يسهلون - فما الذي يدعوه إلى أن يهزم ما ليس بهمز ؟ لا شيء إلا الضرورة ، ولذلك قال في بيته الأسبق (فاسوأدت) . ثم إن كثيراً من القراء كانوا يقرءون بالتحقيق مرة ، وبالتسهيل أخرى ، ولم يقل أحد إنهم كانوا مضطرين عندما يحققون الهمز . فإبن كثير وأبو عمرو ، وابن عامر ، وغيرهم يقرءون « مرجئون »^(١) و « ترجى »^(٢) بالهمز ، والباقون يقرءون ذلك بغير همز^(٣) . وقرأ عاصم « يأجوج ومأجوج »^(٤) بالهمز ، والباقون بغير همز^(٥) . ويظهر أن الهمز وإن كان من خصائص التيمية ، إلا أنه لما شاع وظهر أمره ، اتخذته الفصحى شعاراً لها وأصبح الهمز ينتمي لها أكثر مما ينتمي إلى مهده الأول في تميم . ولهذا يعد تحقيق الهمز من أبرز الأمور التي اقتبستها اللغة النموذجية من غير البيئة الحجازية^(٦) . ووجدنا الهمز حينئذ يفقد طابعه المحلي ، وينتمي إلى الفصحى الأدبية ، ولهذا وجدنا أمثال نافع المدني (١٥٧) يحقق : النبيين ، والنبين ، والنبوة ، والنبي « إذ كان يقرؤها بالهمز ، مع أنه في بيئة حجازية لا تهزم »^(٧) ! ما ذاك إلا لأن الهمز قد ملك على الناس شعورهم ، ولهذا فإبن القارئ المشهور حمزة الكوفي (١٥٦ هـ) وجد من الضروري أن يحذر الناس من المبالغة في تحقيق الهمز عند التلاوة ، « لأن نطق الهمزة أصبح (موضحة) العصر »^(٨) . بل كانوا يبالغون فيه ، ويهزمون ما ليس أصله الهمز ، قال صاحب الصحاح « وربما خرجت بهم فصاحتهم إلى أن يهزوا ما ليس بهمز »^(٩) . ومثل السيوطي لهذا بقولهم « حلات السويق ، ورثأت زوجي بأبيات ، واستلأمت الحجر ، ولبتأت بالحج »^(١٠) . والمثال الأول : من الحلواء والثاني على التوهم ، لأنها سمعتهم يقولون :

(١) سورة التوبة : آية ١٠٦ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥١ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ٥٩٠ .

(٤) سورة الكهف : ٩٤ .

(٥) إتحاف فضلاء البشر : ٥٤٠ .

(٦) في اللهجات العربية : ٦٨ ط ٢ .

(٧) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(٨) Rabin. P. 145 .

(٩) الزهر : ٢٥٢/١ .

(١٠) الزهر : ٤٩٦/٢ .

رثأت اللب ، فظنت أن المراثية منها ، والثالث من السلام وهي الحجارة ، والرابع من التلبية ، وكل هذا ليس أصله الهمز . ومن العجيب أن قولهم « حلات السوق » ورثأت زوجي بأبيات واستلأمت الحجر ، ولَبَّأت بالحج ، هذه الصيغ الأربع قد اختلف عزوها في كتب العربية اختلافاً شديداً ، ففي الجهرة « ورثيت الميت أرثيه مراثية » وممدان تقول : رثأت الميت^(١) ، ومثل هذه الرواية جاءت عن ابن دريد في المخصص^(٢) . وعن الفراء « سمعت امرأة من طيء تقول : رثأت زوجي بأبيات ... »^(٣) وعن الفراء في رواية أخرى أنه قال « سمعت امرأة من غني تقول : رثأت زوجي بأبيات ، ولَبَّأت بالحج ، وحلات السوق ... »^(٤) ، وعن ابن دريد أنه عزأها في مكان آخر من الجهرة إلى أهل اليمن^(٥) . فهذا النص كما نراه قد عزي مرة إلى ممدان ، وأخرى إلى طيء ، وأحياناً إلى غني ، وحيناً إلى اليمن . والعلاقة النسبية واضحة بين ممدان وطيء ، واليمن ، ولكن لا توجد علاقة بين تلك المجموعة وقبيلة غني ، لأن غنياً من قيس^(٦) ، ولهذا أرجح أن استقرار اللغويين لتلك الظاهرة ، لم يكن استقرار كاملاً ، بدليل أنه جاء في اللسان « وقالت امرأة من العرب : رثأت زوجي بأبيات ... »^(٧) وإذا كان أصل هذه الصيغ التي جاءت مهموزة هي غير الهمز . لم تكن الصيغ المهموزة التي سمعت من هؤلاء النسوة إلا نوعاً من القياس الخاطيء^(٨) ، والدليل على هذا ما جاء عن الفراء « وربما غلطت العرب في الحرف إذا ضارعه آخر من الهمز ، فيهمزون غير المهموز »^(٩) ، ويمكن أن يكون مثل هذا ما جاء عن أبي علي في تعليل مثل هذا الخروج والشذوذ « إنما دخل هذا النحو كلامهم ، لأنهم ليست لهم أصول يراجعونها ، ولا قوانين يستمعصمون بها ، وإنما تهجم بهم طباعهم على ما ينطقون به ، فربما استهواهم الشيء فزاغوا به عن القصد »^(١٠) ، وهذا معنى قول ثعلب « وكان

(١) الجهرة : ٢١٨/٣ .

(٢) ١٩٢/١٢ .

(٣) معاني القرآن للفراء : ٤٥٩/١ دار الكتب .

(٤) اللسان : ١٠/١ .

(٥) جهرة اللغة : ٢٨٢/٣ .

(٦) نسب عدنان وقحطان : ١٠ للمبرد .

(٧) اللسان : ٧٧/١ .

(٨) من أمرار اللفظة : ٣٢ ط أول .

(٩) معاني القرآن للفراء : ٤٥٩/١ .

(١٠) الزهر : ٤٩٤/٢ .

ينبغي أن يقول : لببت «^(١) في قولهم « لبأت بالحج » ويفهم منه أن القياس يغير الهمز ، وأنهم خالفوا القياس والحقيقة أن مثل هذه الصيغ كثيرة الورد في المعاجم ، ومنها ما جاء في اللسان : استنشأت الريح ، ذهبوا به الى قولهم نشأ السحاب ، والقياس « استنشيت »^(٢) وكلها ترجع الى القياس الخاطيء الذي لعب دوراً كبيراً في الحقل اللغوي ، أو الى أخطاء الأطفال لاسيما الذين يعيشون في بيئات منعزلة ، ولا يجدون من يصحح لهم أخطاءهم . ونشير الآن الى بعض النصوص التي تتناول الهمزة بين القبائل العربية :

أولاً : أهل التخفيف من العرب :

- ١ - قال يونس في نوادره « أهل الحجاز يقولون : جونة ، وتميم : جؤنة بالهمز »^(٣) .
- ٢ - عزيت كلمة « جبرئيل » كمنتريس الى تميم ، وجبريل - كقنديل الى الحجاز ، وميكال بدون همز الى الحجاز أيضاً^(٤) ، وفي قوله تعالى « مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ »^(٥) قرأ بالتسهيل ابن عامر وأبو عمرو ونافع ، وبالهمز - الأعمش وحمة والكسائي^(٦) . ويظهر أن العرب تصرفت فيه على عادتها في تغيير الأسماء كما تصرفت في كلمة (يونس) حيث جاءت بالهمز تارة مع الكسر ، والهمز مع الضم وهي لفظة أسد ، ولغة الحجاز فيها ترك الهمز وضم النون ، وبها قرأ الجمهور^(٧) في قوله تعالى « وأوحينا الى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس »^(٨) .
- ٣ - وروى أن « منسأته »^(٩) على البدل من الهمزة - لغة الحجاز ، وهذا البدل مسموع على غير قياس . وقرأ على البدل من الهمزة - أي التسهيل نافع وأبو عمرو وأبو جعفر^(١٠) .

(١) اللسان : ٢٢٨/٢ .

(٢) اللسان : ٢٢٨/٢ .

(٣) المزهر : ٧٦/٢ .

(٤) إتحاف : ١٤٤ .

(٥) سورة البقرة : آية ٩٨ .

(٦) البحر المحيط : ٣١٨/١ .

(٧) البحر : ٣٩٧/٣ .

(٨) سورة النساء : آية ١٦٣ .

(٩) سورة سبأ : آية ١٤ .

(١٠) إتحاف فضلاء البشر : ٣٠٨ .

٤ - كما ظهر التسهيل في لهجة الحجاز فيما جاء في مخطوطة الغريب المصنف عن الأصمعي أنه قال إذا قدمت بلداً أو مكثت فيها خمسة عشر يوماً فقد ذهبت عنك قراءة البلاد ، وأهمل الحجاز يقولون : قرة البلاد - بدون همز^(١) ، ووردت روايات مثلها في الأضداد^(٢) . وجاءت رواية أخرى في المخصص عن أبي عبيد^(٣) . كما وافانا ابن الأنباري بما يشبه هذا^(٤) . والذي يظهر أن الحجاز حذفت همزتها المتحركة وهي (قَرَاة) وألقتها على الساكن قبلها وهو نوع من القياس ، فصارت عندهم « قِرَاة » .

٥ - ساق صاحب الجمهرة قصة مؤداها « أن قوماً^(٥) من جهينة جاءوا الى النبي ﷺ بأسير وهو يرعد من البرد فقال : أدفوه ... فذهبوا به فقتلوه » ، كما نقل ابن سيده هذا الخبر في مخصصه عن^(٦) ابن دريد وسبب قتل هذا الأسير أن النبي ﷺ لم يكن من لغته الهمز ، وهو يريد ﷺ أدفئوه من البرد ، فحسبوه الإدفاء بمعنى القتل في لغة أهل اليمن^(٧) ، ومما يؤيد ذلك رواية اللسان « والإدفاء : القتل في لغة بعض العرب »^(٨) . وهدف النبي ﷺ الإدفاء من الدفء وأن يدفأ بثوب مثلاً ، فحسبوه بمعنى القتل فقتلوه ! وما كان النبي يريد قتله ، بدليل رواية الزعشمري « فوداه الرسول ﷺ »^(٩) . والتخفيف القياسي في تلك الكلمة أن تجعل همزتها بين بين لا أن تحذف^(١٠) ، ولكن النبي ﷺ حذفها ، لأن الهمز ليس من لغته ، وهذا الحذف شاذ ، ونظيره ما رواه ابن سيده من قول الفرزدق :

راحت بمسلة البغال عشية فارعي فزاره لا هناك المرتع^(١١)

(١) الغريب المصنف : ٦٨ ، لأبي عبيد القاسم ... خط بدار الكتب رقم ١٢١ .

(٢) الأضداد للأصمعي : ص ٥ تحقيق هفتر .

(٣) المخصص : ص ١٠ : ص ١٤٧ .

(٤) الأضداد : ٢٣ ابن الأنباري .

(٥) جمهرة ابن دريد : ٢٩١/٢ .

(٦) المخصص : ابن سيده : سفر ٦ : ص ١١٨ .

(٧) الفائق في غريب الحديث : الزعشمري : ٤٠١/١ - ٤٠٢ تحقيق أ. الفضل .

(٨) اللسان : ٧٠/١ .

(٩) الفائق في غريب الحديث : ٤٠١/١ ، النهاية : ٢٦/٢ ابن الأثير ط العمانية .

(١٠) اللسان : ٧٠/١ .

(١١) المخصص : سفر ١٤ : ص ١٤ .

فإنها أبدل الألف من الهمزة ضرورة وكان حقها أن تجعل بين بين لأنها متحركة ، « لكنه لما لم يتزن له البيت بحرف متحرك أبدل منها الألف ضرورة »^(١) ، وجعل الهمزة بين بين هو : تليين صوتها وتقريبه من حرف اللين الذي منه حركتها - كما قال السخاوي^(٢) - وهمزة بين بين لا تتكون في أقصى الحلق حيث تتكون الهمزة الأصلية بل في الموضع الواقع بين الحلق وجوف الفم لذلك يطلق عليها (بين بين) أي بين الحروف الحلقية والحروف الجوفية (اوى) وصوت هذه الهمزة ضعيف جداً حتى يقال عنه - تقريب من الساكن - ومن الصعب جداً وصفه ، قال ابن يعيش (ولا يظهر سرّ هذه الهمزة ولا ينكشف حالها إلا بالمشافهة)^(٣) ويتساءل بعض المحدثين^(٤) : أكان عليه السلام يلجأ أحياناً إلى الحديث بلهجات الخطاب ، أم كان يلتزم في كلامه تلك اللغة النموذجية ؟ لا شك أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قد سيطر على اللغة الأدبية النموذجية سيطرة تامة وملك زمامها حتى أصبحت له سليقة ، ولكن العظماء ينزلون أحياناً إلى مستوى الناس في خطابهم ، ويخاطبونهم على قدر مستواهم اللغوي ، ولا بد أنه كان أحياناً يتكلم بلهجته القرشية ، وينسئ إلى حين تلك اللغة النموذجية . أو كان يكلم الأقوام عند جلوسهم بين يديه لأمرهم الدينية بلهجتهم الخاصة كما في الحديث « وانت مال الله مستول ومنطى »^(٥) أي معطى ، وفي الحديث « اليد المنطية خير من اليد السفلى » وفي كتابه عليه السلام لوائل « وأبطوا التَّبَجّة » ، والإنطاء - الإعطاء بلغة اليمن^(٦) ، وساق أبو حيان الحديث « اليد العليا المنطية واليد السفلى^(٧) المنطاة » كما وردت قراءة « إنا أنطسَيْنَاكَ الكوثر » وهي قراءة مروية عن الرسول^(٨) . فكان النبي إذا وفدت عليه وفود العرب ، يلتبس في حديثه بما يعرفه عن لهجاتهم ، تأليفاً لقلوبهم وزيادة في تكريمهم والاحتفاء بهم .

وكما أوقع الحديث الشريف في لبس ، حدث ما يشبهه في حديث أخرجه البخاري في باب

(١) ابن يعيش : ١١٣/٩ .

(٢) الإضاءة في بيان أصول القراءة : ٢٩ سنة ١٩٣٨ .

(٣) مجلة كلية الآداب : مايو سنة ١٩٤٦ : ١٣٧ من مقال للدكتور فؤاد حسانين .

(٤) في اللهجات العربية : ١٠١ دكتور إبراهيم أنيس ط ٢ .

(٥) اللسان : ٢٠٦/٢٠ .

(٦) اللسان : ٢٠٦/٢٠ .

(٧) البحر المحيط : ٥١٩/٨ .

(٨) مختصر شواذ القرآن : ١٨١ ابن خالويه ، البحر المحيط : ٥١٩/٨ ، شمس العلوم : ١٠٤ الجيري .

الاطعمة وفيه يقول أبو هريرة لعمر « أقريني » ففهمها عمر على أنها مهلة الهمز من « أقريني »^(١)، وكما ساق البغدادي نصاً لبعض العرب يقول « قريت »^(٢) فلا ندري أمن القراءة أم من القرى .

٦ - يظهر أن القرشيين كانوا يميلون إلى قلب الهمزة ياء، وذلك من قبيل التخفيف فكانوا يقولون « اللآي » بدل « اللآي » بالهمز ، وهي اسم موصول لجمع المؤنث ، وتنطق كذلك بحذف الياء أيضاً « اللآي » ، وكتابتها في المصحف الشريف (والشيء^(٣) ينسب من المحيض) ، بالهمز تشير إشكالاً ، لأن البزي وأبا عمرو قرآها بياء ساكنة بدلا من الهمزة^(٤) - وذكر أبو حيان أنها لغة قريش^(٥) ، وكذلك عزها ابن الجزري^(٦) ، فما دام التسهيل فيها لفظة قريش ، فكان يجب أن نرى مرسومها في المصحف بدون مز ، لأن عثمان لما نسخ المصاحف أثر في رسمها لغة قريش^(٧) ، وأرى تخلصاً من هذا أن نسخ المصحف كتبها بالهمز متأثرين باللغة النموذجية الفصحى ، لأن الهمز وإن كان من صفة^(٨) تميم ، إلا أنه اقتحم اللغة الفصحى وأصبح من مميزاتها وخصائصها ، بل أضحت ينتمي إلى الفصحى أكثر من انتسابه في قبيلته الأولى تميم ، ولهذا كانت يلتزم ابن كثير - وهو القارئ المكي بتحقيق الهمزة ، مع أنه في بيئة الحجاز التي تسهل^(٩) ، وهذا نافع المدني كانت يقرأ « النبيين » ، « النبيون » ، « الأنبياء » ، « النبي » ، « النبوة » بالهمز على الأصل^(١٠) ، وقولة « عيسى بن عمر : ما آخذ من قول تميم إلا بالنبر »^(١١) ، تشير تلك العبارة إلى اعتزازه بهذا النبر - الهمز - الذي ملك عليه حسه ، وكأنه صفة سامية لا يتصف بها إلا العلماء والفصحاء - أمثاله .

(١) Rabin. P. 145

(٢) خزائن الأدب : ٤٤٤/١ ، ٤٤٤/٢ ، ٤٤٤/٣ .

(٣) سورة الطلاق : آية ٤ .

(٤) البحر المحيط : ٢١١/٧ .

(٥) البحر المحيط : ٢١١/٧ .

(٦) النشر : ٤٠٤/١ .

(٧) المقنع : الداني : ١١٤ دمشق ، الكلمات الحسان : ٥٠ .

(٨) كتاب سيبويه : ١٦٩/٢ ، شرح شواهد الشافية : ٣٣٥/٤ .

(٩) في اللهجات العربية : ٦٦ .

(١٠) إتخاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(١١) اللسان : ١٤/١ .

٧ - كما يظهر تسهيل الهمز - في إبدالها أو التخفيف منها فيما يأتي :

أ (دفاع ابن قتيبة عن أبي نواس عندما اتهم باللحن في أشياء من شعره منها قوله :

فليت ما أنت واطير من الثرى لي رمساً

وابن قتيبة لا يراه في ذلك لاحقاً كما رآه غيره ، وإنما « يراه على حجة من الشعر المتقدم وعلى علة بينة من علل النحو »^(١) فكثير من العرب تترك الهمز « وإن قريشاً تركه وتبدل منه »^(٢) ، وما يؤكد قول ابن قتيبة في أن قريشاً تترك الهمز ما روى عن علي رضي الله عنه : « نزل القرآن بلسان قريش ، وليسوا بأصحاب نبر »^(٣) .

ب (ما روي من أن قريشاً كلتها ، ومن جاورها من قبائل العرب كهذيل وسعد بن بكر وكنانة يقولون : سورة - بغير همزة ، بينما تميم يهزون فيقولون « سورة »^(٤) .

ومن غريب التخفيف ما حكاه أحمد بن يحيى في خبر له مع ابن الأعرابي بحضرة سعيد بن سلم ، عن امرأة قالت لبنات لها وقد خلون إلى أعرابي كانت يالفهن : « في السوآتِ أنتنَّه »^(٥) ! قال أحمد بن يحيى فقال لي ابن الأعرابي : تعال إلى هنا ، اسمع ما تقول : قلت : وما في هذا ! أرادت : « في السوآتِ أنتنَّه » ! فألفت فتحة (أنتن) على كسرة الهاء ، فصارت بعد تخفيف همزة السوأة ، ما نطقت به من قبل .

ج (ما ذكره الفراء في تفسير قوله تعالى : « قل من يكلؤكم بالليل والنهار »^(٦) بأن « يكلؤكم » مهموزة ، ولو تركت همزة مثله في القرآن قلت : يكلؤكم - بواو ساكنة ، ويكلأكم - بآلف ساكنة ومن جعلها واواً ساكنة قال « كلات » بآلف يترك النبرة منها . ومن قال « يكلأكم » قال : كليت مثل قضيت ، وهي من لغة قريش ، وكل حسن^(٧) .

(١) الشعر والشعراء : ٣١٩ - ٣٠ تحقيق السقا .

(٢) الشعر والشعراء : ٣١٩ تحقيق السقا ، شرح الشافعية للرضي : ٣١/٣ ، ٣٢ ، شرح المفصل : ابن يمين : ١٠٧/٩ .

(٣) شرح الشافعية : ٣١/٢ - ٣٢ .

(٤) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٨٣ - ٢٨٤ .

(٥) الخصائص : ١٤٢/٣ ، ١٥٠ .

(٦) سورة الأنبياء : ٤٢ .

(٧) لسان العرب : ٩٤/٢٠ .

(د) ما روي عن ابن عباس « أتى النبي ﷺ أتى بكثف مشوية فأكل منها فتملتى ... »^(١) وأصل ذلك : الهمز من الملاءة - بمعنى الامتلاء ، وحذف الهمزة تسهيل^(٢) ، ومما يؤيد ذلك ما ذكره ابن دريد من أنه « ليس في لغة النبي ﷺ الهمز »^(٣) ، وذكر مثل ذلك ابن سيده^(٤) .

(هـ) كما مالت لهجات قریش ومكة والنبي ﷺ الى التسهيل فيما سبق مالت كذلك لهجاتهم الى التسهيل في صيغة « سأل » فكانوا ينطقونها « سال » بغير همز وإذا تتبعنا مواطن تلك الصيغة في كتاب الله ظهر منها :

(أ) قوله تعالى : « سأل سائل بعذاب واقع »^(٥) فقد قرأها نافع وابن عامر « سال » بألف^(٦) . كما زاد صاحب الإتحاف « أبا جعفر » فيمن قرءوا بالتسهيل^(٧) . ونص الزنجشيري بأن ذلك لغة قریش^(٨) ، فهم يقولون « سلت تسال » وما يتسايلان « ، كما نص ابن خالويه على أن ابن عباس قرأها « سال سيل »^(٩) ، ورسمت في مصحف عبدالله بن مسعود « سال سال »^(١٠) ، وهكذا رسمت أيضاً في مصحف أبي بن كعب^(١١) ، وكتبت في مصحف ابن عباس « سال سيل »^(١٢) .

(١) المسند : ابن حنبل : ٣٢٩٣/٥ تحقيق الشيخ شاکر .

(٢) المرجع السابق : المحقق .

(٣) الجوهرة : ابن دريد : ٢٩١/٢ .

(٤) المحقق : سفر : ٦ ص ١١٨ .

(٥) سورة المعارج : آية ١ .

(٦) البحر المحیط : ٣٣٢/٨ .

(٧) إتحاف فضلاء البشر : ٤٢٣ .

(٨) البحر : ٣٣٢/٨ .

(٩) مختصر شواذ القرآن : ص ١٦١ ابن خالويه .

(١٠) Material For The History of The Text of The Qur'an Jeffery . مصحف عبدالله بن مسعود : سورة ٧٠ .

(١١) المرجع السابق : مصحف أبي بن كعب .

(١٢) المرجع السابق ، مصحف ابن عباس .

ب (قوله تعالى « ولقد آتينا موسى تسع آيات بَيِّنَات فاستل بني إسرائيل »^(١) . قرأ الجمهور — فسل بني إسرائيل ، وقراءة الرسول ﷺ بغير همز — وهي لغة قريش^(٢) .

ج (قال تعالى (واسألوا الله من فضله)^(٣) ، فقرأ ابن كثير والكسائي « وسأوا » بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على السين ، وذلك إذا كان أمراً للمخاطب وقبل السين واو أو فاء نحو « فسل الذين يقرءون — فسأوا أهل الذكر » .

وروى اليزيدي عن أبي عمرو أن لغة قريش « سل »^(٤) كما ذكر يونس في نوادره : أن أهل الحجاز يقولون : « سل ربك » ، وتميم اسأل^(٥) .

د (قرأ ابن كثير والكسائي وخلف « وسألوا الله من فضله » ، « وسأل القرية »^(٦) ، « فاسأل الذين يقرءون الكتاب »^(٧) ، « فسألوهن من »^(٨) وراء حجاب » ، ففي تلك الأمثلة حذفت الهمزة ونقلت حركتها الى ما قبلها ، كما قرأ بعض القراء غير هؤلاء السابقين^(٩) — بالهمز في كل ذلك . فتلك القراءات جميعاً جاءت على لغة المسهلين من العرب وهم قريش ومن جاورها ، وتحليل تلك القراءة أن مادتها من « السؤال » بالهمز أبدلت أو حولت تلك الهمزة — على غير قياس عند سيبويه ، (والقياس أن ننطق تلك الهمزة « بين بين »)^(١٠) كما يجوز أن تكون مادتها مأخوذة من (سلت تسال) حكاه سيبويه^(١١) .

وقد رأى بعضهم أن قوله تعالى « سال سائل » بالتخفيف ، أن ذلك من « السيلان » ، ويؤيده

(١) سورة الإسراء : آية ١٠١ .

(٢) البحر المحيط : ٨٥/٦ .

(٣) سورة النساء : آية ٣٢ .

(٤) البحر المحيط : ٢٣٦/٣ .

(٥) المزهر للسيوطي : ٢٧٦/٢ .

(٦) سورة يوسف : آية ٨٢ .

(٧) سورة يونس : آية ٩٤ .

(٨) سورة الأحزاب : آية ٥٣ .

(٩) إتحاف فضلاء البشر : ٦١ ، ٢٦٦ .

(١٠) البحر المحيط : ٣٣٢/٨ .

(١١) المحقق : سفر ١٤ : ص ١٤ ، الكامل لمبرد : ٣٠٠/١ .

قراءة ابن عباس^١ (سال سيئل^٢) ، ولذا قال زيد بن ثابت « في جهنم واد يسمى سايلا »^٣ .
أما ما جاء من قول حسان^٤ :

سالت هذيل رسول الله فاحشة ضلت هذيل بما سالت ولم تصب^٥

فلا يمكن أن تكون « سال يسال » لغة في سأل بالهمز ، لأن الشاعر ليس من لغته ترك
الهمز^٦ ، فقول حسان : سالت – البيت إنما هو على التخفيف البديلي^٧ الضروري ، لأن لغته
الهمز ، فسهل لضرورة الشعر ، ومثل ذلك ما عزي لبعض السهيمين :

سالتني الطلاق أن رأاني قل ما لي قد جئتني بنكر^٨

فهذا الشاعر لغته أن يهمز « سأل » ولكنه اضطر الى تحويل الهمز للضرورة الشعرية ، لا أن
ذلك لهجته . ومن عجيب تلك المادة أنها جاءت بالهمز والإبدال في وقت واحد وصيغة واحدة –
وعزي ذلك لبلال بن جرير :

إذا ضفتهم أو سألكتهم وجدت بهم علة حاضره^٩

وإنما المتبع لغويًا أن نقول : سائلت – بالهمزة ، أو نقول : سائلت على الإبدال من
الهمزة – أما أن تجمع بينهما كما فعل بلال فذلك هو العجب ، ويزول هذا العجب عندما نسمع
قول صاحب الهمع « وكان هذه لغة الشعراء »^{١٠} وهذا النص يشير الى أن هناك فرقًا بين لغة
الشعر ولغة النثر في الاستعمال . وتشير النصوص السابقة الى أن تسهيل الهمز ، أو قلبها ياء ،

(١) مختصر شواذ القرآن : ابن خالويه : ١٦١ .

(٢) البحر المحيط : ٣٣٢/٨ .

(٣) شرح المفصل : ٩ : ١١٤ ابن يعين .

(٤) وقد فسر المبرد سؤال هذيل هذا بقوله « وكانت هذيل سألت رسول الله » ص « أن يحل لها الزنا » الكامل
المبرد : ٣٠٠/١ .

(٥) شرح ابن يعين : ١١٤/٩ .

(٦) الخصص : ٢١٨/١٢ .

(٧) الخصص : ١٤/١٤ ، وانظر خزائن البغدادي : ٩٧/٣ والبيت فيها على صورة أخرى .

(٨) مجالس تملب : ٣٧٣/١ .

(٩) الهمع : ٣٧/١ .

للتخفيف ظهر في لهجة الرسول ﷺ وقريش ، وسعد بن بكر وكنانة ولهجات الحجازيين ، بل يظهر أنه شمل مناطق جغرافية أكثر من ذلك ، وأدلة هذا :

أ (ما جاء عن الفاضري : قد برىء فلان من وجعه يبرى بربياً - كله على التحويل وقربت القرآن فأنت تقرا وهو مقر ، وخبيت المتاع فهو مخبي^١ - وقالوا : « جافلان ، وجايا ، وقد جات المرأة ، والله المسول الخير ... »^١ فهذه الألفاظ التي جاءت عن غاضرة - ورد فيها البدل على غير وجهه ، والوجه في إبدالها أن يقال « قرات » بالألف وكأنت غاضرة آثرت إبدال الهمزة ياء ، لأن الياء أقرب إلى الألف من الواو ، ولأن اللام ياء أكثر منها واواً .

ب (كما جاء التحويل عن هذيل في قول أبي عمر الهذلي « قد توضيت »^٢ فلم يهمز . وإنما حول الهمزة ياء ، ومما يذكر أن الحسن قال يوماً لبعض جلسائه : توضيت ، فقليل له : أتلحن يا أبا سميذ ؟ فقال : إنها لغة هذيل . وعقب الرافعي على إجابته بقوله : وكان هذا الجواب أبين عن فصاحته من الفصاحة نفسها^٣ . كما ورد عن أبي عبيد : الجيئانة^٤ - وذكر ابن جنبي : هي الجواءة والجياء والجيائة ، والحيبارة - ثم قال ابن جنبي - ترك الهمز لغة هذيل^٥ . ولعل أصلها : جيئاء ثم خففت .

ج (كما روي عن الأنصار كذلك قلب الهمزة ياء ويظهر هذا من قول ابن رواحة : (باسم الإله وبه بديننا)^٦ .

وابن رواحة هذا رضي الله عنه - أنصاري^٧ ، وأصل الفعل « بدأنا » - فلما خففت الهمزة كسرت الدال فانقلبت الهمزة ياء ، قال ابن برى : قال ابن خالويه « ليس أحد يقول : بدئيت بمعنى بدأت - إلا الأنصار »^٨ .

(١) نوادر أبي زيد : ٢٠١ .

(٢) اللسان : ١٤/١ .

(٣) تاريخ آداب العرب ج ١ للرافعي .

(٤) وهي الشيء الذي يوضع عليه القدر إن كان جلدأ .

(٥) المخصص : ٥٤/٥ .

(٦) لغات مختصر ابن الحاجب : مخطوط دار الكتب ٤٧ لغة .

(٧) جمهرة اللغة : ٢٠٢/٣ .

(٨) اللسان : ٧١/١٨ .

ثانياً : أهل التحقيق من العرب :

وبالطبع ظهر تحقيق الهمزة في مناطق تختلف عن المناطق الجغرافية السابقة ، ويجب أن نعرض النصوص التي تشير الى تحقيق الهمزة أولاً - حتى يمكن أن نستدل على مناطقها في ضوء هذه النصوص وهي :

١ - ما جاء في الجهرة من أن بني تميم يهزون أحرفاً مما كانت على وزن فعل في موضع العين من الفعل ألف ساكنة نحو : « الفأس والرأس والكأس والرأس »^١ ، ولهذا يجب أن نكون على حذر مما جاء في المصباح « من أن بني تميم تترك الهمز لزوماً في كلمة الرأس »^٢ ، ومن التحقيق ما جاء في المخصص عن الفارسي « أن تميماً تهمل المثار - وغيرهم لا يهمل »^٣ وجاء في ابن يعيش أن الحجاج كان يهمل العالم والخاتم وهو القائل : (فخذف هامة هذا العالم) .

وعن أبي زيد أنه سمع عمرو بن عبيد يقرأ (فيومئذ لا يسأل عن ذنبه انس ولا جأت) فظننته قد لحن ، حتى سمعت العرب تقول « دأبة وشأبة »^٤ في دابة وشابة . وما ورد في سر الصناعة يؤيد قلب ألف همزة - مما حكاه اللحياني عنهم (نأر)^٥ . في « نار » . وهمز هذه الصيغ الأخيرة قد أفضى الى تقسيم الحركة الطويلة الى حركتين قصيرتين ، وهذا يوضح لنا كيفية هروب بعض لهجات القبائل من الحركات الطويلة في المقاطع المقفلة .

٢ - كما ظهر تحقيق الهمزة في صورة المنعنة المعروفة ، وقد تقدم الحديث عنها ، وهي تشير الى الحرص على تحقيق الهمزة ، لاسيما في أول الكلمة أو آخرها خشية أن يحور عليها بدء النطق أو الوقف ، فيقوون الهمزة الى أن تكاد تقارب العين - وقد عزيت كما تقدم الى تميم وأسد وقيس .

٣ - وقد يكون من المستحب أن نعد مقارنة لهجية في الفعل (يرى) ومشتقاته ، لتعرف على مذاهب المسهلين والمحققين من العرب في هذا الفعل ، قال سيبويه : « كل شيء كانت أوله

(١) الجهرة : ٢٩٣/٣ .

(٢) المصباح : ٣٧٦ .

(٣) المخصص : س ١٣ : ص ٢٨٧ .

(٤) ابن يعيش : ١٣/١٠ ، سر صناعة الإعراب : ٨٣/١ ط الحلبي .

(٥) سر الصناعة : ١٠٢/١ ط الحلبي .

زائدة سوى ألف الوصل من (رأيت) فقد اجتمعت العرب على تخفيف همزة ^١ ، وكان سيبويه يشير الى أن مشتقات تلك الصيغة لا تدخلها الهمزة ، وعلل ذلك أي عدم الهمز بقوله « وذلك لأنهم جعلوا همزة المتكلم في أرى - تعاقب الهمزة التي هي عين الفعل وهي همزة أرى - وكانهم فروا من إلتقاء همزتين » ^٢ . وأرى أن كلام سيبويه لا يثبت أمام الواقع اللغوي ، لأنه قد حكى عن العرب « قد أراهم » وجاء في التهذيب « زيد يراى رأياً حسناً » ^٣ ، وبيت سرافة الباري :

أرى عيني* ما لم ترأياه كلانا عالمٌ بالترهات^٤

وقد رواه أبو الحسن : ما لم تراه - على التخفيف ، ورواه أبو زيد في نواتره « ما لم تبصراه » ^٥ ولا شاهد حينئذٍ فيها ، وفي اللسان « ما لم ترأياه » ^٦ وقد رواه الأخفش « ما لم تراه » ^٧ وقد عزا اللسان همز الأفعال المستقبلية من هذه المادة (رأى) وهي : يرى ، ترى ، نرى ، أرى - الى تميم الرّباب فيقولون : هو يراى ، وترأى ، ونراى ، وأراى . وإذا قالوا : متى نراك ؟ قالوا : متى نراك ؟ مثل : نراك ^٨ ، وفي سر الصناعة : يراك بوزن يراك ^٩ ، وعلى ذلك جاء قول شاعرهم ، وهو للأعلم بن جرادة السعدي :

ألم تر ما لاقيت والدهر أعصر ومن يتمل العيش يرأ ويسمع^{١٠}

ويمكن أن تثير رواية البيت على هذا الوضع شيئاً من الشك ، لأن الشاعر من الرّباب ، وهم يهزون كل مشتقات (رأى) ولهذا جاءت رواية اللسان :

(١) اللسان : ٣/١٩ .

(٢) اللسان : ٣/١٩ .

(٣) اللسان : ٤/١٩ .

(٤) سر الصناعة : ٨٦/١ ط الحلبي .

(٥) نوادر اللغة : لأبي زيد ١٨٥ .

(٦) اللسان : ٤/١٩ .

(٧) المرجع السابق .

(٨) اللسان : ٥/١٩ .

(٩) ٨٧/١ .

(١٠) سر الصناعة : ٨٧/١ ، شرح الشافية : ٣٢٣/٤ .

ألم ترأ ما لاقيت والدهر أعصر^١ ومن يتملّ العيش يرأ ويسمع^(١)

وهي أصح ، لأن (ألم ترأ) في صدر البيت حينئذ تتناسب مع (يرأ ويسمع) في عجزه . وأعتقد أن الهمز في هذا ليس مقصوداً على تيسر الرباب كما في اللسان ، بل يشمل المنطقة المجاورة لها ومنها تيم ، وإذا علمنا أن الرباب كانت موصولة النسب بتيم ، وأن ديارها كانت على كتب منها^(٢) - صح ما استنبطه من أن الهمز شمل تيماً وتيماً ، ودليل آخر وهو أن الحجاز يتركون الهمز في الأمر ، فيقولون : رذلك ، وللاثنين : رباً ذلك ، وللجاعة روا ذلك ، وبنو تيم يهزون جميع ذلك فيقولون : أرأ ذلك ، وأرأيا ...^(٣) ولنتقل بعد ذلك الى القرآن الكريم لنرى في صفحته آثار تلك اللهجات في تلك الكلمة :

١ - قال تعالى : « ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل^(٤) » ذكر أبو حيان أنه نقل عن صاحب اللوامح : ترأ - بهزة مفتوحة مع سكون الراء على الأصل - وعزاها لتيم^(٥) .

٢ - قال تعالى « فترى الذين في قلوبهم مرض^(٦) » ، « فترى القوم فيها صرعى^(٧) » ، « إني أرى في المنام^(٨) » ، « ويرى الذين أوتوا العلم^(٩) » فكلها جاءت على لهجة الحجازيين ، كما قرأ الأعمش عن عاصم « فلما ترات الفشتان » بلا همز . وقرأ أبو جعفر وقالون وورث : أرأيتم . أرأيتكم . أرأيت . أفرأيت . بالتسهيل بين بين ، ولورث من طريق الأزرق وجه آخر وهو : إبدالها ألفاً خالصة مع إشباع المد للساكنين ، وحذفها الكسائي وهي لغة فاشية ، وحققها الباقون . (ابن خالويه ١٠٧ . إتحاف فضلاء البشر ٥٦ ، ٢٥٥ ، ٢٩٢) .

ولهذا فإني أقف موقف الشك مما ذكره : رابين « من أن تيماً تحذف الهمزة من الفعل يرأى فيكون يرى^(١٠) » ، ومما يؤكد شكي ما نقله البغدادي عن أبي زيد من قول الشاعر :

(١) اللسان : ٥/١٩ .

(٢) معجم قبائل العرب : ٢/٤١٥ .

(٣) اللسان : ٥/١٩ .

(٤) سورة الفيل : آية ١ .

(٥) البحر : ٥١٢/٨ .

(٦) سورة المائدة : آية ٥٢ .

(٧) سورة الحاقة : آية ٧ .

(٨) سورة الصافات : ١٠٢ .

(٩) سورة سبأ : آية ٦ .

(١٠) رابين : P. 131 .

هل ترجعن ليالٍ قد مضينَ لنا والعيش منقلب إذ ذاك أفنانًا
لما استمر بها شبحان مبتجع بالبين عنك بما يراك شنانًا^(١)
وصاحب هذا الشعر أعرابي من بني تميم^(٢) .

كما ظهر تحقيق الهمزة عند بعض القبائل الأخرى :

أ (فقد جاء تحقيقها في قبيلة غني ، فقد روى أبو زيد « سمعت رجلاً من غني يقول هذه قسمه
ضنزي »^(٣) بالهمز ، وفي المحتسب في سورة البقرة آ (١٦) أن قيساً تقول « اشتروا
الضلالة » .

ب (وفي قبيلة عكل ، وقد روى ابن جني عن قطرب أن بعض عكل يقولون « ترَقَوَة » ،
بالهمز وأصلها ترقوة^(٤) .

ج (كما روي أن أبا الفضل - وهو أعرابي من بني سلامة من أسد - قال الضنء : الولد ،
والضنء : بينا رواها أبو عمرو : الضنو ، والضنو بلا همز^(٥) .

د (أنه قرئ « قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض »^(٦) بالهمز ، وهي
قراءة عاصم والأعمش ويعقوب ، وقد ذكر الفراء أن الهمز فيها لغة أسد^(٧) .

هـ (روي عن عقيل أنها تهمز (الجؤنة ، والمؤسى ، والخؤت) بدلاً من نطقها بغير همز وهو
الشائع^(٨) . هذا كله إذا كانت الهمزة واحدة .

فإذا اجتمع الهمزتان ازداد الثقل ووجب التخفيف ، ولها حالتان :

الأولى : إما أن تكون الهمزتان في كلمتين :

(١) شرح شواهد الشافية : الشاهد : ١٦٠ - الشبحان = القبور ، المبتجع = المتنخر .

(٢) شرح شواهد الشافية : ٣٣٠/٤ .

(٣) المحمص : ٢٠٩/١٢ .

(٤) الخصائص : ٢٠٧/٣ .

(٥) اللسان : ٢٢٢/١٩ .

(٦) سورة الكهف : آية ٩٤ .

(٧) البحر المحيط : ١٦٣/٦ والاتحاف : ٢٩٥ .

(٨) في اللهجات العربية : ١٠٠ .

وذلك في : اقرأ آية ، واقريء أباك السلام - فأهل الحجاز يخففونها معاً ، وغيرهم يحقق ، وساق الرضي وجوه هذا التخفيف^(١) ، ومن طرق التخفيف ما ذكره السيرافي في مخطوطته من أنهم يقلبون الأولى ألفاً ، لأنها ساكنة وقبلها فتحة ، ويجعلون الثانية بين بين^(٢) ، فيقولون « اقرا آية » ، وفي « اقريء أباك السلام » على لغة الحجاز « أقريء أباك السلام »^(٣) ، يقلبون الأولى ياء لسكونها وانكسار ما قبلها ، ثم يلقون حركة الثانية على الياء وتسقط الثانية .

الثانية : أو تكون الهمزتان في كلمة واحدة :

أ () فإذا كانت غير همزة استفهام وذلك مثل (أئمة) بهمزتين ، فقد قرأ ابن عامر وعاصم وحمة والكسائي « فقاتلوا أئمة الكفر »^(٤) ، « أئمة يهدون بأمرنا »^(٥) ، « ونجعلهم أئمة »^(٦) وغيرها من الآيات بتحقيق الهمزتين^(٧) .

وهذا مذهب من يميل الى تحقيق الهمز من القبائل العربية ، لأن ثلاثة من القراء السابقين كوفيون ، والكوفة متأثرة بقبائل شرق الجزيرة كتميم وغيرها ، وهم يحققون الهمز .

ولهذا يكون سيبويه قد جانبه الصواب حيث قال « إنه ليس من كلام العرب أن تلتقي همزتان فتحققا »^(٨) ويسير ابن جني على طريقه حيث يقول « فالهمزتان لا تلتقيان في كلمة واحدة إلا أن تكونا عينين نحو : سأل وسأل »^(٩) وهما محجوجان بقراءة الكوفيين في « أئمة » ، وبما سمعه أبو زيد عن بعض العرب « اللهم اغفر لي خطائتي »^(١٠) وعلى مثل هذا جاء : فإنك لا تدري متى الموت جانيء إليك ولا ما يحدث الله في غد^(١١)

(١) شرح الشافية : ٦٦/٣ .

(٢) شرح السيرافي على سيبويه : ٢٨/٥ خط .

(٣) شرح السيرافي : ٢٨/٥ مخطوط .

(٤) سورة التوبة : آية ١٣ .

(٥) الأنبياء : ٧٣ .

(٦) القصص : آية ٥ .

(٧) النشر : ٣٧٨/١ .

(٨) الشافية : ٦٥/٣ .

(٩) الخصائص : ١٤٣/٣ .

(١٠) الشافية : ٥٨/٣ .

(١١) الخصائص : ١٤٣/٣ .

كما وردت في الآيات السابقة قراءات أخرى :

١ - أن تخفف الهمزة الثانية بجعلها بين الهمزة والياء^(١) .

٢ - أن تزيد ألفاً بين الأولى والثانية^(٢) . كراهة اجتماع الهمزتين .

٣ - وآخرون من القراء إلى جعلها ياء خالصة - نص على ذلك أبو عبدالله بن شريح^(٣) .

وقد رمى الزخشي هذه القراءات الأخيرة باللحن^(٤) . ولكنها ثبتت قراءة فكيف تكون لحناً ؟ مع أمانة الرواية وصحة السند ، ثم هي تصور لهجات القبائل العربية ومذاهبهم في التحقيق ، والتسهيل ، وبين بين - وهذه القبائل نزل القرآن بلمجاتها « والقراءات جاءت على لغة العرب قياساً^(٥) وشاذها » .

ب (أو تكون الهمزة الأولى همزة استفهام ، والتخفيف إنما يلحق الثانية ، لأن التخفيف لا يكون في الابتداء .

ففي قوله تعالى « سواء عليهم أأنذرتهم »^(٦) فأهل الحجاز لا يرون الجمع بينها طلباً للتخفيف . وقرأ الحريمان وأبو عمرو وهشام بتحقيق الأولى وتسهيل الثانية^(٧) ، ومنهم من حقق الهمزتين وهم عاصم وحزمة والكسائي ، وقرأ أبو عمرو (أأنذرتهم) مطولة . وقرأ عبدالله بن أبي إسحق « أأنذرتهم » بألف بين الهمزتين ، وهي لغة سائرة بين العرب^(٨) ، وعلل لهذه القراءة السيرافي : بأنهم كرهوا التقاء الهمزتين ففصلوا . واستشهد لها سيويه بقول ذي الرمة :

فيا ظبية الوعاء بين جلاجل وبين النقا آنت أم أمّ سالم^(٩)

(١) الشافية : ٥٨/٣ .

(٢) الشافية : ٥٨/٣ .

(٣) النشر : ٣٧٩/١ .

(٤) النشر : ٣٨٠/١ .

(٥) البحر المحيط : ٤٩٣/٨ .

(٦) سورة البقرة : آية ٦٠ .

(٧) البحر المحيط : ٤٧/١ .

(٨) اللسان : ١١/١ .

(٩) السيرافي : ٢٨/٥ بالتمورية ، وكتاب سيربي : ١٦٨/٢ .

وهؤلاء أهل التحقيق . وأما أهل الحجاز فيدخلون ألفاً بين الهمزتين لئلا يلتقي هزتان ، ثم يلينون الثانية^(١) . وإنما جاء هذا التخفيف والتسهيل للهمزة ، لأنها كما يقول ابن يعيش فيها : نبرة في الصدر تخرج باجتهاد فتقل عليهم لإخراجها^(٢) ، إذ تحدث من حفز قوى من الحجاب وعضل الصدر^(٣) - كما رأها ابن سينا . وعلى أي حال فهي أدخل الحروف في الحلق ، ولهذا ثقلت على لسان الناطق بها ، لأنها كما جاء في الشافية « لها نبرة كرية تجري مجرى التهوع »^(٤) .

تعقيب :

من هذا العرض وجدنا أن القبائل التي تميل الى تحقيق الهمز هي :

١ - تميم (٢) تنسب الرباب (٣) غني (٤) عكل (٥) أسد (٦) عقيل (٧) قيس (٨) بنو سلامة من أسد . بينما القبائل الأخرى :

٢ - كالحجاز - وغازة ، وهذيل ، وأهل المدينة والأنصار ، وقريش ، وكنانة وسعد بن بكر - يميلون الى البعد عن الهمزة ، بتخفيفها أو تسهيلها نارة ، أو تحويلها أو نقلها نارة أخرى .

ويظهر من هذا التقسيم أن قبائل البدو تنجح الى تحقيق الهمزة وجميعها تتمثل في القسم الأول ، وأما القسم الثاني فأكثرها قبائل حضرية ، لذلك مالت الى التخلي عن الهمزة ، إلا غاضرة - فلا نعرف تحديدها بالضبط ، وبالرجوع الى كتب الأنساب وجدنا عدة قبائل مختلفة النسب تسمى كل منها غاضرة ، فغازة - من ثقيف ، وغازة من بكر بن هوازن ، وغازة من كندة ، وغازة من خزاعة^(٥) ، وغازة من أسد .

وأرجح أن غاضرة - تلك التي أثر عنها تحويل الهمزة ، وتخفيفها - أنها تنسب الى إحدى

(١) شرح السيرافي : ٢٩/٥ مخطوط .

(٢) ابن يعيش : ١١٦/٩ .

(٣) أسباب حدوث الحروف - ابن سينا : ص ١١ ط السلفية .

(٤) النبرة - ارتفاع الصوت ، يقال : نبر الرجل نبرة ، إذا تكلم بكلمة فيها علو : قال الشاعر :

إني لأسمع نبرة من قولها فأكاد أن يفشى علي سرورا

(٥) التهوع : تكلف القيء ، شرح الشافية : ٣١/٣ وما بعدها .

(٦) معجم كعالة : ٨٧٤/٣ .

القبائل المتحضرة : كخزاعة ، أو ثقيف ، أو هوازن ، أما غاضرة – التي تنسب الى أسد فأرجح أنها كانت تحقق الهمزة .

هذا ويجب في دراستنا لباب الهمز أن نكون على حذر تام لنصوص قد تعزو ظاهرة الهمز – الى بعض القبائل ، ولكن بفحص النص فحصاً داخلياً يتبين عدم الأخذ بهذه النصوص ، فقد روى الأزهري بإسناده عن الفراء قال : سمعت أعرابياً من بني سليم ينشد :

(فإنها حِيلَ الشيطان يَحْتَمِل)^(١)

وأصله من الحيلة^(٢) كما جاء في المصباح . فقبيلة سليم في ضوء هذا النص تهمز ، ولكنني لا أرى هذا ، لأن الفعل يحتال – فالشاعر السليمي اضطر الى حركة الألف ، فلما حركها انقلبت همزة – إلا أنه حركها بالكسر ، لأنه أراد الكسرة التي كانت في الواو المنقلبة الألف عنها ، وذلك لأن أصل المادة (حول) بكسر الواو ، فالشاعر السليمي همز للضرورة . كقول الآخر :

يا دار ميّ بدكاديك البرق سقياً وإن هيجت شوق المشتق^(٣)

فأصل : المشتق : المشتاق ، فقلب الألف همزة للضرورة ، فالهمز كذلك في بيت السليمي للضرورة وليس من لغته لسببين : الأول : أن سليماً كانت تسكن الحجاز^(٤) ، وأغلب الحجاز لا يهمز ، والثاني : أنه جاء في اللسان أن رجلاً من بني سليم يقول : يحتال – بلا همز^(٥) . وكذلك يجب أن نقف موقف الشك مما ذكره السيرافي في شرحه لكتاب سيويه حيث قال : « وبنو تميم من لغتهم تخفيف الهمز »^(٦) ، ولكنني أرجح أن ناسخ شرح السيرافي هو الذي حرف في الكتابة ، بدليل ما ذكره السيرافي بعد النص السابق مقابلاً له « وأهل الحجاز يخففون »^(٧) فالتحريف لهذا من كاتب النسخة لا من السيرافي المؤلف ، لأن سياق النص يقابل بين تميم التي تحقق ، والحجاز التي تخفف . ولكن هل معنى هذا أن هذا التقسيم السابق ضربة لازب ؟

(١) اللسان : ١٩٨/١٣ - ١٩٩ .

(٢) المصباح : ٢٤٤/١ .

(٣) سر صناعة الإعراب : ١٠٢/١ .

(٤) تاريخ العرب : ٣٢٤/٤ جواد علي .

(٥) اللسان : ١٩٨/١٣ - ١٩٩ .

(٦) شرح السيرافي : ٣٣٠/٤ مخطوط .

(٧) المرجع السابق .

الحق أنه يجب ألا نقلق إذا وجدنا بعض الظواهر اللهجية في الهمز تناقض ما عرفناه ، لأن اللهجات لا تميل الى المحافظة بل هي تهدف الى التطور بعكس اللغة الفصحى ، ومن هذه الأمثلة :

أولاً : (أ) قال أبو عبيدة : قال يونس « وأهل مكة يخالفون غيرهم من العرب ، فيهمزون النبي عليه السلام ، والبرية والذرية »^(١) .

ب (وفي التهذيب كما في اللسان « وأهل مكة يخالفون غيرهم من العرب يهمزون البرية ، والنبي ، والذرية »^(٢) ، كما زاد ابن سيده كلمة أخرى وهي « الحابية »^(٣) فإن أهل مكة ينطقونها بالهمز أيضاً ، وذهب الى ذلك ابن الأثير في النهاية^(٤) .

ج (وينقل ابن منظور عن سيبويه نصاً مؤداه أن العرب تركوا الهمز في « النبي » كما تركوه في « الذرية ، والبرية ، والحابية » — إلا أهل مكة فإنهم يهمزون هذه الأحرف ، ولا يهمزون غيرها ، ويخالفون العرب في ذلك »^(٥) ثم قال : « والهمز في النبي لغة رديئة »^(٦) . ولا بد لنا من تحليل هذه الكلمات ، قبل مناقشة النصوص ، (فالبرية) : معناها : الخلق ، وهي كما قال الفراء من برأ الله الخلق — فأصلها على ذلك الهمز^(٧) ، وان أخذت البرية من البري : وهو التراب فأصلها غير الهمز^(٨) .

(والنبي) : أصلها من النبأ^(٩) ، وقال الفراء : هو من (أنبأ عن الله)^(١٠) ، وقد يؤخذ من النبوة والنبأوة — وهي الارتفاع عن الأرض : أي أنه أشرف على سائر الخلق — وأصله غير

(١) إصلاح المنطق : ١٥٩ ابن السكيت .

(٢) لسان العرب : ٢٢/١ .

(٣) الخصاص : سفر ١٧ : ص ١٥٣ ، سفر ١٤ ص ٨ .

(٤) النهاية : ١٢٠/٤ ابن الأثير .

(٥) اللسان : ١٥٧/١ .

(٦) المرجع السابق .

(٧) اللسان : ٢٢/١ ، الخصاص : ١٥٣/١٧ .

(٨) اللسان : ٢٢/١ .

(٩) الخصاص : سفر ١٧ : ص ١٥٣ .

(١٠) اللسان : ١٥٧/١ .

الهمز،^(١) و (الخابية) : أصلها الهمز من خبأت^(٢) .

و (الذرية) : من ذرأ الله الخلق^(٣) ، أي خلقهم . يؤيد هذا ما جاء من قراءة زهير عن خُصَيْفٍ في المحتسب من سورة الأعراف آية ١٧٢ « من ظهورهم ذُرِّيَّتَهُمْ » .

وإذا كان أهل مكة ينطقون ذلك بالتحقيق ويخالفون غيرهم من العرب الذين يسهلون ذلك بل انهم يخالفون طبيعتهم ، لأن طبيعتهم اللغوية هي النفور من الهمز ، فكيف حققوا ذلك ؟ وأقترح للإجابة ما يأتي :

أ (أن ذلك الشذوذ في لهجة مكة ، وميلها الى التحقيق في تلك الألفاظ – مع أنها تنفر من الهمز في لهجاتها – ليس غريباً إذا ما فهمنا أن اللهجات تخضع لظروف المجتمع والبيئة فهي مرنة متقلقة ، وليس شأنها في ذلك شأن القوانين الطبيعية في الكون تلزم حالة واحدة لا شذوذ فيها ،^(٤) وبما يقوي تلك النظرة أن نافعاً (١٦٩ هـ) وهو حجازي كان يحقق^(٥) (النبيين^(٦) ، النبيون^(٧) ، الأنبياء^(٨) ، النبي^(٩) ، النبوة^(١٠)) وكانت يقرأ كل ذلك بالهمز على الأصل ، مع أنه في بيئة تنفر من الهمز .

ب (أن تحقيق الهمز في تلك الأربعة ، في بيئة عرف عنها النفور من الهمز ، ربما يرجع الى أن بعض الأشخاص في البيئة المكية نطقوا بها محققة ، فحاكاهم الآخرون ، وهذا كما يحدث لشخص زار القاهرة ومكث فيها أياماً ثم عاد الى بلده الريفي ، وزاء يتمثل بالنطق القاهري في قلب القاف همزة – ثم يقلده في ذلك بعض رفاقه ، ولعل سبب انتشار تلك الظاهرة في مكة يرجع الى عامل المحاكاة .

(١) اللسان : ١٥٧/١ .

(٢) المحصص : سفر ١٧ : ص ١٥٣ .

(٣) المحصص : سفر ١٤ : ص ٨ .

(٤) في اللهجات العربية : ٦٧ ط ٢ .

(٥) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(٦) سورة البقرة : آية ٦١ .

(٧) سورة البقرة : آية ١٣٦ .

(٨) سورة آل عمران : آية ١١٢ .

(٩) سورة الأنفال : آية ٦٤ ، ٦٥ .

(١٠) سورة الحديد : آية ٢٦ .

ج (أن تحقيق هذه الأربعة يعتبر من قبيل المبالغة ، لأن أهل مكة وم أهل تسهيل شعروا بالنقص ، لأن اللغة الفصحى تحقق الهمز وم يسهلون - « فالتحقيق في النبي والذرية ، والخابية ، والبرية - هو كرد فعل لإحساسهم بشعورهم بالنقص في الظاهرة العامة عندهم ، وهي تسهيل الهمزة « ١ » ، ولهذا يقول رابين (وكان شعراء الحجاز غالباً ما يعاملون همزة الوصل كأنها همزة قطع ، مبالغة منهم في تحقيقها ، لأنهم شعروا بتسهيلها عندهم فأراد الشعراء منهم تحقيقها حذقة) ٢ .

ومن ذلك قراءة معاذ وابن مسعود وأبي المتوكل « تزور » بسكون الزاي وبالهمز وبالراء مشددة (ابن خالوية ٧٨ والبحر ١٠٨/٦) وذلك في قوله تعالى : « وترى الشمس إذا طلعت تزاور » الكهف ١٧ .

وكذلك قراءة أبي عثمان النهدي وغيره « وازْ يَأْنَتْ » (ابن خالوية ص ٥٦ والمحتسب ٣١٢/١ ط المجلس الأعلى . والبحر ١٤٤/٥) وذلك في قوله تعالى « حق إذا أخذت الأرض زخرفها وازيّنت » يونس ٢٤ . وأصل القراءة الأولى من : الزور وهو : الميل ، ومنه زاره إذا مال إليه ، والثانية : من الزينة ، وكانت في الأصل بوزن : احرّات - فكروها الجمع بين ساكنين ، فحركت الألف فانقلبت همزة مفتوحة وعليها قول الشاعر : إذا ما الهوادي بالمبيط احرّات .

وقول كثير :

وللأرض أما سودها فتجلّت بياضاً وأما بيضها فادهامت

وفي رواية : فاسوأدت . مكان : فادهامت . (المحتسب ، والخصائص ١٢٧/٣ . وسرّ صناعة الإعراب ٨٤ . والبحر لأبي حيان) .

د (وصنيع أهل مكة في هذا ومخالفتهم للعرب ، حيث أن العرب يسهلون ذلك تدعونا الى أن منطقة مكة في هذه الألفاظ أشبه بالجزيرة اللغوية Speech Island لأن خصائصها في هذا متميزة تخالف ما يشيع عند العرب .

والآن نريد أن تناقش سيبويه في قوله : « والهمز في النبي لغة رديئة » ٣ ، مع أن ابن سيدة

(١) Rabin Ancient, West ... P. 133

(٢) المرجع السابق ، وانظر Schwartz ديوان عمر بن أبي ربيعة ، الكراسة الرابعة .

(٣) اللسان : ١٠٧/١ .

نقل عن سيبويه بأن « أصل النبي » - الهمز - بل قال سيبويه ^١ « وهو الصحيح الذي لا يجوز غيره » والدليل على أن النبي أصل الهمز عند سيبويه قوله « وليس أحد من العرب إلا وهو يقول قنباً مسيلة » ^٢ وإذا كان سيبويه مؤمناً بأن أصلها الهمز فلم استردأها ؟ بل كُنَّا ننتظر منه أن يقول بأن همزه جيد - ويظهر أن سيبويه إنما استردأه بالهمز لشذوذه عن الاستعمال ، وإن كان مطرداً في القياس ، فقلة استعمالها بالهمز هو الذي جعل سيبويه يقول برداءتها . ولكن رغم هذا الدفاع عن سيبويه فلا زالت التهمة متمسكة بأثوابه ، لأن نافعاً حقق ذلك في قراءته ، وقرأ : النبي ^٣ بالهمز في القرآن ، كما قرأ هو وابن ذكوان قوله تعالى : « أولئك هم خير البرية » ، بالهمز ^٤ . وما كان لسيبويه ولا لأمثاله أن يحكم عليها بالرداءة « وأئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة ، والأقيس في العربية » بل على الأثبت في الأمر ، والأصح في النقل والرواية ، إذا ثبت عنهم لم يردأها قياس عربية ، ولا فحولغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها ^٥ ونافع بن أبي نعيم (توفي ١٦٩ هـ) أحد القراء السبعة والأعلام ، وقال فيه مالك بن أنس قراءة نافع سنة ، وترجم له صاحب طبقات القراء وذكره بأنه « ثقة صالح » ^٦ ولهذا كله كانت التهمة محيطة بسيبويه حيث استردأ قراءة متواترة عن رسول الله ﷺ منقولة عنه طبقة بعد طبقة حتى وصلت « نافعاً » وهو في الضبط والتحري بالمكان الذي لا يحارى .

ثانياً : أ) ما جاء في الأمالي من أن لغة الحجاز - ذى البقل بذأى ، وأهل نجد يقولون : ذوى يذوي ^٨ . ورواية أخرى مثلها جاءت عن ابن السكيت ^٩ ، كما وردت رواية عن الأصمعي ^{١٠} .

(١) المخصص : سفر ١٧ : ص ١٥٢ ، ٨/١٤ .

(٢) المخصص : سفر ٧/١٤ .

(٣) إتحاف فضلاء البشر : ١٣٨ .

(٤) سورة البينة : آية ٧ .

(٥) إتحاف فضلاء البشر : ٤٤٢ .

(٦) القراءات واللهجات : ١٦٣ الأستاذ حمودة ط الأولى .

(٧) طبقات القراء : ٣٣٠/٢ ابن الجزري .

(٨) الزهر : ٢١٥/١ .

(٩) الزهر : ٤٦٣/١ .

(١٠) أمالي القالي : ١٦٦/٢ - ١٦٧ .

ب (جاء في المخصص عن أبي حاتم : أن أهل العالية يقولون : عظمة ، وتيم يقولون : عظاية والجمع عندهم جميعاً العطاء^١ . وفي إبدال السكيت : أن تيماً يقولون : عباية ، وعظاية^٢ ، وصلاية ، وسحاية^٣ ، وغيرهم بالهمز ، وذكر هذه الصيغ ابن جني^٤ ولم يعزها . ولا شك أن أهل العالية كان يقصد بها أحياناً كما يقول ابن منظور « الحجاز وما والاها »^٥ . فتكون الحجاز قد همزت ، وتيم قد سهلت ! ، قال ابن سيده^٦ : فمن همز ، فعلى حكم التذكير بناء عليه ، ومن لم يهمز فإنه عنده تأنيث لحق آخر الاسم فتغير حكمه ، فجعلوه ياء ، لأنه لما اتصل به حرف التأنيث لم يقع الإعراب على الياء - صارتا كأنهما في وسط الكلمة كقولهم : مذروان . وقد نقل بعض الباحثين أن التميميين يقولون : رثأت ، وعباة ، ونبيء ، بينما يقابلها : رثيت وعباية ونبي ، عند الحجازيين^٧ . ولكن الثابت : أن التميميين كانوا يقولون : عباية - بدون همز ، كما أن أهل مكة كانوا ينطقون النبي - بالهمز ، وسبق أن ناقمنا وهو حجازي كان يحقق : النبيين ، والنبيون^٨ ، وأما بقية العرب بما فيهم تيم - فكانوا يسهلون النبي . ولعل الذي أوقع بمض العلماء في تلك الشبهة أن المعروف في تيم الهمز ، وفي الحجاز التسهيل .

ج (ما جاء في ديوان الأدب للفارابي « الزغام » السلف غير مهموز في لغة «عكلى» - وغيرها يهمزها^٩ .

د (قرأ النخعي وابن وشاب قوله تعالى « وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس ... »^{١٠} بفتح النون وتخفيف الهمز من يونس ، وهي لفظة لبعض عقيل^{١١} .

(١) المخصص : س ٨ : ص ١٠٠ .

(٢) العظاية : درية كسام أبرص ، والصلاية : مدق الطيب : المخصص : ١٠٠/٨ ، والمصباح : ٦٣٩/٢ .

(٣) إبدال ابن السكيت : ٥٦ .

(٤) سر الصناعة : ٧٩/١ ط الحلبي .

(٥) اللسان : ٣٢٠/١٩ .

(٦) المخصص : س ١١/١٤ .

(٧) تاريخ الأدب العربي : ١٢٤/١ د. شوقي ضيف .

(٨) الإتحاف : ١٣٨ : .

(٩) ورقة : ٣١٩ مخطوط بالتيمورية لغة .

(١٠) سورة النساء : آية ١٦٣ .

(١١) البحر المحيط : ٣٩٧/٣ .

٥ (وعزى الى هذيل أنها تبدل الواو المكسورة المصدره همزة ليقولون « اشاح في معنى وشاح »^(١) ، « الدة في ولدة »^(٢) قال الهذلي :

له إلمة "سُفح الوجوه كأنها يصفقهم وعك" من الموم ما هن^(٣)

كما يقولون : « إعاء في وعاء »^(٤) وشاهده قول الأعم :

هواء مثل بملك مستميت على ما في إعائك كالخيال^(٥)

وعلى لغة هذيل تلك قرأ ابن جبير قوله تعالى : « ثم استخرجها من وعاء أخيه »^(٦) « إعاء بإبدال الواو المكسورة همزة »^(٧) . ولهذا أرجح أن الدكتور شوقي صيف قد ألبس عليه حين قال « وكانت قبيلة هذيل تقول « وشاح » بدلاً من « اشاح »^(٨) . ولكنني أرجح العكس ، ولم يقتصر الأمر على الواو المكسورة ، بل وردت شواهد على إبدال الواو المضمومة همزة في شعر معقل بن خويلد ، ومالك بن خالد الحناعي ، وهما من هذيل « ديوان الهذليين : ٤/٣ ، ٦٥ ، .

ومن هذا العرض نرى ان عكلاً - وهي قبيلة بدوية من طابخة متصلة بتميم البدوية ، نراها قد سهلت الهمزة على غير عاداتها ، كما رأينا هذا التسهيل في عقيل وهي ضاربة في البداوة ، أما هذيل والتي صرح أئمة اللغة بأنها تسهل الهمز - فقد رأيناها هنا تحققة على غير ما اعتادته ، وكذلك أهل مكة - رأيناهم يحققون الهمز في عدة ألفاظ - وهذا إن دل - فلنما يدل على أن الفروق اللهجية بين الكتلتين مضطربة ، وذلك مما يؤيد نظرتنا في عدم الفصل بين الكتلتين الشرقية والغربية ، لأن نظام اللهجات ليس نظاماً رياضياً بحتاً ، ولا قانوناً يلتزم السير عليه ولكن الشذوذ فيه هو القاعدة ، والحق أن أحكام الهمز وطرقه واختلافه - من أشق البحوث على الدارسين ، ولا بد لدراسته دراسة جديده من البحث في تاريخه وأوليائه ورسمه ، لأن الهمزة

(١) المجهرة : ١٦١/٢ .

(٢) إبدال السكيت : ٥٧ .

(٣) ديوان هذيل : ٤٩/٣ دار الكتب .

(٤) عبث الوليد : ١٨٣ دمشق .

(٥) ديوان هذيل : ٨٣/٢ .

(٦) سورة يوسف : آية ٧٦ .

(٧) البحر المحيط : سورة يوسف : ٧٦ .

(٨) تاريخ الأدب العربي : ١١٤/١ ط أولى .

لم ترسم في القرآن كما تراها الآن ، وإنما كانت نقطة في ففا الألف تارة أو بين يديه تارة أخرى^(١) ، ففي قوله تعالى « بل أتيناكم بذكرهم » كانت تكتب (انهم) وفي قوله تعالى « ولقد آتيناكم » كانت الهمزة تكتب نقطة بين يدي الألف وترفعها قليلا الى رأس الألف مثل (ناهم) ، لأن (أتيناكم) الأولى بمعنى جئناهم - والثانية بمعنى أعطيناهم^(٢) .

ويضرب السجستاني أمثلة لاختلاف الهمزة وأنواعها مسهلة أو محققة فيحدثنا أن « السفهاء ألا^(٣) ، إذا مزتها نقطت على الألف الأولى نقطة بين يديها ، وعلى الأخرى نقطة فوقها مثل : (السفهاء) » ، وإن شئت تركت همزة الأولى ، وهي قول عمرو بن العلاء : إذا اختلفتا تركت الآخرة ولم ينقط عليها ، وإن أحببت فانقط عليها بخضرة ليعرف أنها تقرأ على وجهين^(٤) . أما الداني^(٥) فتختلف ألوان النقط عنده ، من حرة الى صفرة ، تبعاً لاختلاف مذاهب العرب في تحقيق الهمز وتسهيلها ، ويظهر أن النقط وحده لم يظهر كمعناوات على الهمزة بل ظهرت أنواع أخرى حلت محل الهمز ، ويرى Noldeke^(٦) أن هناك مجموعة من المصاحف كانت تستعمل قبل الهمزة المعروفة لنا رسماً يقرب من العدد (٧) ومكتوب بمداً أحمر ، وفي بعض المخطوطات إشارة أخرى وهي عبارة عن ثلاث نقط ترسم بالمداد الأحمر إما عمودية كما في (: إرسله) أي (أنزلناه) وإما مثلثة كما في كلمة (ثمنون) أي (يؤمنون) .

ولهذا يجب لمن يتصدى لبحث الهمزة - أن يدرس تاريخ رسمها الطويل وأنظمتها ، ولون النقط الذي كان يستعاض به عنها ، وأشكاله الهندسية حتى تكون الأحكام عليها أقرب الى الصحة .

وما لا شك فيه أن الرسم القرآني كان صدى لهجات العربية المختلفة ، بل قراءاته المختلفة تعطينا ألواناً من التوسط (أي بالتحقيق مرة وبالتسهيل مرة أخرى) ويظهر ذلك في تتبع نموذج منه :

-
- (١) كتاب المصاحف : ١٤٤ للسجستاني . نشر الدكتور آثر جفري .
 - (٢) كتاب المصاحف : ١٤٥ للسجستاني : نشر الدكتور آثر جفري .
 - (٣) الى السجستاني : ص ١٤٧ « السفهاء » إلا : وصحة الآية الكريمة « السفهاء ألا » البقرة : ١٣ .
 - (٤) السجستاني : ١٤٧ .
 - (٥) المقنع : ص ١٣٦ ط دمشق .
 - (٦) مجلة كلية الآداب : ١٣١ عدد ٨ مجلد أ .

- ١ - إن يشأ يذهبكم^(١) - إن يشأ يذهبكم ، بالهمز وبدونه .
- ٢ - وقراءة مجاهد « يؤقد^(٢) » من شجرة « في « يؤقد » بالهمز وبدونه .
- ٣ - وقراءة قنبل « بالسؤوق »^(٣) وقراءة حفص « بالسؤوق » بغير الهمز .
- ٤ - وقرئ (مؤصدة) و (موصدة) ويقول أبو بكر بن عياش الكوفي (كان لنا إمام يهمل (موصدة) فأشتهي أن أسدّ أذني إذا سمعته)^(٤) وسبب ذلك المحباس الهواء في المزمّار عند النطق بالهمز انحباساً تاماً ، ثم انفراج المزمّار فجأة ، وهي عملية تحتاج إلى مجهود عضلي كبير . ولهذا لاحظ تولدكه - أن الكتابة القديمة للقرآن يبدو فيها عدم الاطراء^(٥) ؛ لأنها كانت مرآة للهجات العرب ، ولهذا أيضاً يقول ابن يعيش « وإنما كتبت الهمزة تارة واواً وياء أخرى على مذهب أهل الحجاز في التخفيف »^(٦) .

(١) سورة النساء : آية ١٣٣ .

(٢) النور : آية ٣٥ .

(٣) سورة : ص ٣٣ وانظر الإنحاف : ٣٧٢ .

(٤) الكشف : ٦٠٤/٤ .

(٥) Rabin Ancient P. 133 .

(٦) ابن يعيش : ١٢٦/١٠ .

الفصل الرابع

اتساع مدرج العربية ولهجاتها في إبدال الحروف

علاقة هذا الفصل بما قبله تتضح عندما نفسر الإبدال بأنه تناسب أصوات الحروف في لهجة القبيلة - فهو من أجل هذا شبيه بالإمالة والإدغام في تقريب الصوت بعضه من بعض ، والإبدال إما أن يكون لإدغام أو لا .

١ - فالأول : إذا تجاور حرفان بينهما علاقة مخرجية ووصفية فقبل أن تحدث عملية الإدغام - لا بد أن تسبق بعملية إبدال ، حتى تحدث عملية التماثل والتي يكون على أساسها الإدغام وذلك كقراءة بعضهم « فَلَاحُجَّاحَ عليها أن يصلحاً بينهما صلحاً »^(١) بتشديد^(٢) الصاد ، فأصلها « اصطلاحاً » أبدلت الطاء صاداً ثم حدث الإدغام ، وكما حدث هذا حدث مثله في قراءة بعضهم « تأخذهم وهم يخلصون »^(٣) فأصلها « يخلصون فالتاء والصاد من الحروف المتقاربة فيجوز بينهما الادغام ، ولكن لا يصح الإدغام إلا بحدوث التماثل بينهما ، ولهذا أبدلوا من التاء صاداً فصارت « يخلصون » ثم أدغمت الصاد الأولى في الثانية فالتقى ساكنان الخاء والمثل الأول فتخلص بكسر الأول .

٢ - وإذا لم يكن الإبدال لغير الإدغام كان على ثلاثة أنواع :

أولاً : ما يبدل من غيره ندوراً وذلك في سبعة أحرف وهي : ق ، خ ، ذ ، ظ ، ض ، ح ، غ . وذلك مثل : وقته في وكنة ، وأخن في أغن ، وتلعثم في تلثم الخ .

ثانياً : ما يبدل من غيره ابدالاً قياسياً شائعاً مضطراً إليه في التصريف بحيث يوقع تركه في الخطأ . وذلك في تسعة أحرف جمعها ابن مالك في قوله : هدأت موطياً^(٤) .

(١) سورة النساء : آية ١٢٨ .

(٢) سر صناعة الإعراب : ١٩٠/١ .

(٣) سورة يس : آية ٤٩ .

(٤) شذا العوف : ١١٣ .

ثالثاً : ما يبدل من غيره شيوعاً من غير اضطرار إليه في التصريف بأن يشيع عند قوم مقصوراً على السماع وذلك ما أشارت إليه الروايات اللغوية معزواً لقوم أو لقبائل مخصوصة دون غيرهم : كالنعنة ، والفحفة ، والعججة وغيرها .

والذي أهدف إليه في تلك الدراسة هو النوع الثالث ، لأن فيه تتفاوت القبائل العربية وتختلف ، فبعضها يؤثر في الإبدال حرفاً . بينما يؤثر قبيل آخر حرفاً آخر .

وإذا نظرنا الى كتب العربية لمخنا منها أن علماء اللغة كانوا يرون أثر عملية الإبدال إرادية يأتي بها الشخص متى أراد ، وحيثما شاء ، ولنستمع الى أحدهم يقول : « من سنن العرب إبدال الحروف ، وإقامة بعضها مقام بعض^(١) » لكنني أرجح أن الإبدال عملية لا إرادية ، ترتبط^(٢) بالتاريخ والزمن الطويل - بحيث يجد المتكلمون باللغة أنفسهم أمام كلمات متعددة يبدل تشابهها على أن إحداها قد تعرضت لمثل هذا التطور خلال السنين ، وليس من حق أي إنسان أن يقوم هو بإحلال صوت محل آخر .

وهناك عوامل عدة دعت الى ظاهرة الإبدال بعضها يرجع الى أسباب داخلية ذاتية في الحروف نفسها وبعضها الآخر يرجع الى أسباب خارجية . أما الأسباب الداخلية فهي :

أولاً : ظاهرة التشابه : وفيها تتأثر أصوات الكلمة وتتفاعل بعضها مع بعض هادفة الى التخفيف من بعض القيود النطقية بتحقيق الانسجام بين الأصوات وملاك هذه الظاهرة إذا اجتمع صوتان أحدهما مهموس والآخر مجهور ، أثر أحدهما في الآخر بحيث يصبحان مجهورين أو مهموسين^(٣) ، وذلك إذا كانت فاء الافتعال « د أو ذ أو ز » أبدلت فاؤه دالاً مهملة ، مثل : ادتمى إذ تكرر ، ازداد . فاجتمع في هذه الأمثلة صوتان متجاوران : الأول منهما مجهور والثاني مهموس فتأثر الثاني بالأول ، وانقلب الى صوت مجهور ليجتمع صوتان مجهوران ، فأصبحت الأمثلة السابقة : ادعى ، اذ ذكر ، ازداد ، ونظرة واحدة الى مفصل الزنجشري نعر على مثل هذا التشابه في أمثلة كثيرة ساقها . منها قولهم : اظلم ، واطلم ، واطلم ورويت الثلاثة في بيت زهير :

هو الجواد الذي يعطيك نائله عفواً ويظلم أحياناً فيظلم^(٤)

(١) مظهر السيوطي : ٤٦٠/١ .

(٢) الأصوات اللغوية في قراءة أبي عمرو : ٢٩٦ مخطوط .

(٣) الأصوات اللغوية : ١١٥ ط ٢ .

(٤) مفصل الزنجشري : ٤٠٢ .

وقول يزيد بن الطثيرة :

فقلت لصاحبي لا تحبسانا بنزع أصوله واجدز شيحا^(١)

وما أشبه العلاقة بين الحروف في ثنائليها حيناً وتباعدها حيناً آخر في حالتي التشابه والتخالف - الآتي ذكرها - بالدائرة المغناطيسية في تجاذبها آنا ، وتخالفا آنا آخر ، تبعاً لاختلاف نوعها سلباً وإيجاباً .

والغرض من هذا الإبدال ، الذي نتج عن تأثر الأصوات وتشابهها - التقريب بين الصوتين المتجاورين ، تيسيراً لعملية النطق ، واقتصاداً في الجهد العضلي ولا شك أن هذا التشابه يحدث مع توالي الزمن عبر التاريخ اللغوي ويرجع الى قوة ذاتية في الصوت يجعله أن يحول مجاوره الى مثله ، لأن الحرف القوي له تأثير في الضعيف إذ يؤثر فيه حتى يزحزحه عن مخرجه الأصلي ويحوّله الى حرف أقرب ما يكون منه ، ليكون عملهم من وجه واحد ، وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد^(٢)

ثانياً : قانون المخالفة في اللهجات العربية Dissimilation :

وملاك هذه الظاهرة أن تشمل الكلمة على صوتين متماثلين كل المائلة - فيقلب أحدهما الى صوت آخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين - ونرى نتفاً من تلك الظاهرة في كتب العربية^(٣) وإليك عرضاً لهذه الظاهرة :

جاء في المصباح : أمليت الكتاب على الكاتب إملاً - ألقيته عليه ، وأمليته عليه إملاء - والأولى لغة الحجاز وبني أسد ، والثانية لغة بني تميم وقيس^(٤) ، وحكى مثل هذا أبو زيد في اللسان^(٥) .

وجاءت قراءات على كلتا اللهجتين :

١ - قوله تعالى « وَلِيُنْمِلَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ » .

(١) المرجع السابق : ٣٧١ .

(٢) انظر : الكتاب : ٤٢٦/٢ ، المخصص : ٢٧٣/١٣ .

(٣) مفصل الزخشي : ٣٦٤ .

(٤) المصباح : ٨٩٦/٢ ، أدب الكاتب لابن قنينة : ٣٧٦ .

(٥) اللسان : ١٥٤/١٤ .

٢ - قوله تعالى « فَبِهِيَ نُفْسَى عَلَيْهِ بِكَرَّةٍ وَأَصِيلًا »^(١) فهذا من أمليت .

٣ - قوله تعالى « أَوَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَمْلِكُ دُو فُلَيْمِلُّ وَلِيَهُ بِالْعَدَلِ »^(٢) فهذا من أمملت .

ولتفسير اللهجة التميمية وهي (أمليت) بدل (أمملت) - نرجع الى قانون المخالفة ذلك الذي يفسر مثل هذه الظاهرة ، فصيغة (أمملت) تحتاج الى مجهود عضلي أكثر ، لأنها صوتان متماثلان ، وقانون المخالفة يبذل أحد اللامين المتجاورين - اى صوت لين ، أو الى أحد الأصوات المشبهة بأصوات اللين وهي : الدون . واللام والميم . والراء ، ولقد لحظ القدماء ما بين هذه الأصوات من علاقة حيث أطلقوا عليها الأحرف الذلقية ، أو المتوسطة بين الشدة والرخاوة^(٣) كما ملح المحدثون علاقة بين هذه الأصوات : وبين أصوات اللين أيضاً^(٤) . وفي تحويل هذه الأصوات المتماثلة الى أصوات اللين وما يشبهها - أقصى مراحل التيسير في الجهد العضلي^(٥) .

فمثل هذا التخالف أو المخالفة Dissimilation ما جاء في صيغة أما - التفضيلية فلفسة الحجاز ومن جاورهم فتح همزة وكسرها ، ولغة قيس وتميم فتحتها^(٦) . وساق السيوطي شواهد لها منها :

تلقحها أمّا شمال عريّة^٧ وأما صبا جنح العشي هبوب^(٧)

وقد تبدل الميم الأولى ياء مع كسر همزة وفتحها كقوله :

لا تفسدوا آباكم أيّمّا لنا أيّمّا لكم^(٨)

وقد شذذ الأشموني فتح همزتها وإبدال ميمها الأولى ياء^(٩) . وذكر أبو حيان أن إبدال ميمها

(١) المصباح : ٨٩٦/٢ .

(٢) شرح فصيح ثعلب الهروي : ٨٩ تحقيق خفاجة .

(٣) تاريخ الأدب : ٢٠ حفي ناصف .

(٤) مجلة الجمع : ١٦ ، ١٣ - ١٤ .

(٥) الأصوات اللغوية : ١٤٥ ط ٢ .

(٦) الدرر اللوامع : ١٨٢/٢ .

(٧) الجمع : ١٣٥/٢ .

(٨) الدرر اللوامع : ١٨٢/٢ .

(٩) الأشموني : ١٠٩/٣ .

الأولى ياء ذلك لغة تميم^(١) ، ولهذا تأخذنا الدهشة لرواية ساقها الأشموني حيث نسب إلى عمر بن أبي ربيعة قوله :

رأت رجلاً أيماً إذا الشمس عارضت فيضحى وأيماً بالعشي فيخصر^(٢)

ولما رجعت إلى الديوان والمصادر الأولى لأتحقق من النص وجدته (أما) لا (أيما) كما جاء في الأشموني وعمر لا يمكن أن يقول (أيماً) كما جاء في الأشموني لأنها لهجة تميمية ، وهو قرشي حجازي ، وأرجح أن التحريف في رواية الأشموني يرجع إلى النسخ والنقلة ، أو ربما يرجع إلى ما يقوله ابن هشام في شرح الشواهد « وقد كان العرب ينشد بعضهم شعر بعض ، وكل يتكلم على مقتضى سجيته التي فطر عليها ، ومن ذلك تكثرت الروايات في بعض الأبيات »^(٣) . وتعلل لهجة تميم بقانون المخالفة ، لأن أما – بالتشديد فيها جهد عضلي بعكس أيما – التي تحول التشديد فيها إلى حرف لين ففيها اقتصاد في هذا الجهد يهدف إليه البدو مثل تميم ، ولهذا أشد المعجاج « تقصّي البازي إذا البازي كسر »^(٤) والمعجاج تميمي ، وأصلها « تقضض » . كما حدث في تميم أيضاً أن تماثل في الصيغة حرفان – فأثروا إبدال واحد منها بأحد الأصوات المشبهة بأصوات اللين ، فقد جاء في شعر الفرزدق :

(ألسنتم عائجين بيننا لعنا)^(٥)

وجاء في اللسان أن بني تميم يقولون : لعنك ، وبني ثيم الله بن ثعلبة يقولون « رعنك » – يريدون « لعلك »^(٦) وفي هذه الأمثلة تغير نخرج الهواء عند النطق بالصوت . ففي « لعل » لامن ، وهما من الفم ، والحروف إذا تماثلت نخرجها كانت أثقل ، فأتجه الجري إلى النون الأنفية للمخالفة بين الصوتين ، وقد وجد هذا التخالف في لهجة الجزيرة بالسودان حيث ينطقونها (نعل)^(٧) بقلب لامها الأولى نونا .

(١) البحر : ١١٩/١

(٢) الأشموني : ٤٩/٤

(٣) ديوان عمر بن أبي ربيعة : ١٢١ ط بيروت ، وانظر : الخزانة : ٤٣١/٢ ، والكامل : ١٧٢ ففيها « أما » كما في ديوانه .

(٤) الاقتراح : ٣٠

(٥) أمالي القالي : ١٧١/٢

(٦) إبدال أبي الطيب : ٢٩٦/٢ ، أمالي القالي : ١٣٤/٢ مع خلاف يسير في الرواية .

(٧) اللسان : ١٦٨/١٧ ، ٢٧٥ ، ٤٣

(٨) من لهجات الجزيرة بالسودان : ١٢٦

كما حكى أن أهل العالية يقولون : « دهديت الحجر » وأصله « دهدت الحجر » فقلبت الهاء الثانية ياء كراهية التضعيف^(١) ، كما وجدت هذه المغايرة في طيء أيضاً وذلك :

١ - ما جاء في إبدال أبي الطيب (وأنثَ الذي دسَّنتَ عمراً فأصبحت ...)^(٢) وأصلها « دسست » .

٢ - ما جاء عن الكسائي من أن طيئاً تقول : رأيت إيسانا بالياء^(٣) ، وعن الفراء : العرب جميعاً يقولون : الانسان إلا طيئاً فإنهم يعملون مكان النون ياء^(٤) وأورد اللسان شاهداً لها لرجل من طيء^(٥) . ولا شك أن طيئاً تشارك تيمناً في البداوة .

ومثال هذه المخالفة أيضاً ما جاء في لغات مختصر ابن الحاجب من قوله : الأرز : حب معلوم فيه ست لغات : آرز ، وأرّز ، وأرّز ، وأرّز ، ورّز ، ورنز وهي لعبد القيس^(٦) ، وساق الهروي شارح فصيح ثعلب رواية مثلها^(٧) ، وكذلك ابن منظور في اللسان^(٨) ، فعبد القيس قد آثروا المغايرة بين الصوتين الشديدين وهما (الزاي) فقلبوها الى حرف النون ، وما فعلوا ذلك إلا ليزيدوا النطق تيسيراً ، فوجود النون في (رنز) لا يعدو أن يكون عملية مخالفة بين الحرفين المتماثلين « ولهذا عزى لبعض اليمع أنهم كانوا يقولون في « حظ » حنظ ، وفي « اجاص » انجاص ، وفي « اجانة » انجاة^(٩) . ويظهر أن هذا التخالف كان كثيراً في اللغات السامية ، « ففي السريانية كلمة (كَبَّاراً) أي : الجبار : كتبت (كنباراً) »^(١٠) .

(١) المخصص : ص ٢٨٧/١٣ .

(٢) ٢١٦/٢ .

(٣) إبدال أبي الطيب : ٤٦١/٢ .

(٤) اللسان : ٣٠٩/٧ وما بعدها .

(٥) اللسان : ٣٠٩/٧ .

(٦) لغات مختصر ابن الحاجب : خط بدار الكتب رقم ٤٧ لغة .

(٧) شرح فصيح ثعلب للهروي ٧٠ تعليق خفاجة .

(٨) اللسان : ١٦٨/٧ .

(٩) ما تلحن فيه العامة للكسائي : ٣٤ - ٣٥ .

(١٠) مجلة كلية الآداب المجلد العاشر : ج ١ مايو سنة ١٩٤١ .

على أن القبائل العربية لم تسر سير تميم وطيء في هذا التخالف . فقد كانت همدان تقول « سبولة » أو « سبلة »^(١) .

فآثرت الحرفين المماثلين ولم تخالف بينهما - شأنها في ذلك شأن العبرية ففيها : **إبدال الحروف** بينما صارت الباء الأولى في فصاحتنا نونا .

وهذا يشبه ما جاء في اللسان^(٢) : ومضت سبة وسبلة من الدهر أي ملاوة . فهذا التطور الى حروف اللين أو ما يشبهها هو إحدى نتائج نظرية السهولة ، تلك التي تشير الى أن الانسان في نطقه يميل الى تلمس الأصوات السهلة^(٣) ، ولهذا نقول في عاميتنا « مديت » حطيت ، فكيت « بدل : مددت ... وقد اعترف القدماء بكراهية التضعيف ومنهم سيديويه حيث يقول (هذا باب ما شذ فأبدل مكان اللام ياء لكراهية التضعيف وليس بطر) ، وذلك قولك : تسريت وتظنيت وتقصيت من تسرد وتظنن وتقصص^(٤) .

ولذا اتجهنا الى القرآن الكريم لحنا فيه هذه الظاهرة في قوله تعالى : « الى طعامك وشرابك لم يتسن » ، وقد ذكر أبو عمرو بن العلاء^(٥) أنه من ذوات التضعيف أي : « لم يتسن » ومثلها « وقد خاب من دساها »^(٦) قال الزمخشري : أصل : دس - دسس^(٧) فكأنه أبدل من إحدى السينات ياء ، لاستثقال التضعيف .

أما أهم الأسباب الخارجية فتعود الى :

أولاً : أخطاء الأطفال :

مما لا شك فيه أن اللغة كائن حي ، يخضع للتطور والتغير من جيل الى جيل ، مهما أحيطت بسياسات قوي يحفظها من هذا التغير ، والطفل في محاكاته لغة آبائه ، لا يحكيها كما هي بل تتأثر في

(١) بقايا اللهجات المربية : ١٤ .

(٢) اللسان : « سبب » .

(٣) الأصوات اللغوية : ١٤٤ ط ٢ .

(٤) الكتاب لسيديويه : ٤٠١/٢ .

(٥) إبدال أبي الطيب : ٤٥٩/٢ .

(٦) سورة الشمس : آية ١٠ .

(٧) الكشف : ٦٠٦/٤ .

أصواتها حيناً وفي دلالاتها حيناً آخر . فمن ناحية الأصوات نرى الطفل يبدل حرفاً من حرف قريب منه في المخرج كأن ينطق الكاف تاء فيقول : تتاب = كتاب . الستينة = السكينة ، وغالباً ما تقر القوانين الصوتية ما يأتي به الطفل في أثناء محركاته فالكاف والتاء ، في المثال السابق كلاهما يتحد في صفتي الهمس والشدة ولا فرق بينهما إلا في المخرج ، فهما يتعاقبان ، وقد نرى الطفل في تلقفه لمة بيئته يقلب الشين سيناً فيقول في شعر = سحر ، وشمس = سمس . وقد رأينا مثل هذا فيما جاء عن العرب حيث ساق السيوطي قولهم : جمعشوش وجمعسوس^(١) . كما يخطئ الطفل في نطق « نمة » فيقول « نمة » .

وساق لنا السيوطي ما يشبه هذا من قول العرب : ارمعل الدم = وارمعن ، وخامل الذكر = وخامن^(٢) .

وفي نطق الطفل السابق بكلمة « نمة » ملاحظة هامة ، وهي أن الطفل في نطقه يتلمس أيسر السبل في النطق ، وهو لهذا لا يميل الى توالي صوتين أحدهما مجراه الأنف كالنون والآخر مجراه الفم كاللام – في مثل « نمة » – ولهذا مال الى جعل كلا الصوتين المتجاورين من الأنف تيسيراً له في النطق « كما نجد الطفل في محركاته لنطق كلمة : موز يقولها : بوز ، ولا شك أن العلاقة واضحة بين الحرفين لأنها لمن أصوات الفم ، فلها أن يتعاقبا مثل : أزمة = وأزية^(٣) وقعبة وقعمة^(٤) وما عليه طحربة وطحرمة^(٥) . ولا شك أن الطفل في البيئته العربية القديمة – وهي بيئة منعزلة ، لا يجد فيها الأطفال من رعاية الآباء ما يستحقونه ، وذلك لانشغالهم بالحرب أو السفر ، كما أن الأمهات مشغولات بحياة الكدح والسعي ولهذا يشب محتفظاً بلهجته تلك على ما فيها من أخطاء الطفولة لكنها تصبح فيما بعد عنصراً معترفاً به في لهجتهم وظاهرة من ظواهرها ، وتلك سنة التطور ، فما كان يعد بالأمس خطأ تنفر منه الآذان – أصبح اليوم صواباً في جيل جديد من المتكلمين^(٦) ولا شك أن بعضاً من ظواهر الإبدال قد ترجع الى خطأ الأطفال وانتقال اللغة من السالفين الى الخالفين ، ولهذا رأينا الأمثلة الآتية : ثوب ، ثلج ،

(١) الزهر : ٥٤٩/١ والجمعسوس : القبيح اللثم .

(٢) زهر السيوطي : ٥٥٥/١ - ٥٥٦ .

(٣) وهي الشدة .

(٤) يقال للسنة المعجوز .

(٥) أي خرقة : الزهر : ٤٦٣/١ .

(٦) في اللهجات العربية : ١٠٧ الطبعة الثانية .

ثعبان ، ثلث . تتحول الى : توب ، تلج ، ثعبان ، ثلت^(١) . وقد جاء مثل هذا عن العرب من قولهم « وثن بالمكان يثن وتنا ووتونا - إذا أقام به . ووثن يثن وثنا ووثنا أيضاً . كما قالوا : الحثلة والحثلة ، لأسفل البطن »^(٢) كما تحولت الذال الى الدال ومثال ذلك ما جاء عن أبي الطيب « ذبرت الكتاب أذبر ، ذبراً - إذا كتبته وحكى اليزيدي دبرته أدبره دبراً ، بالدال غير المعجمة »^(٣) ويمكن أن يفسر هذا الإبدال تفسيراً آخر ، لا على أنه من خطأ الأطفال كما مر ، وإنما يفسر على أن له نظائر في اللغات واللهجات السامية الأخرى - إذ نجد أن كل ثاء عربية تقلب أو تبدل ثاء في اللغات الآرامية ، كما تقلب شيئاً في العبرية ، وسيناً في الحبشية ، كما وجدنا أن الذال العربية تبدل دالاً أو زايماً في اللهجات الآرامية ، ولهذا تكون تلك الإبدالات من هذه الزاوية ، كالأصول المطردة ، والقوانين الصوتية ، ويكاد يجمع الباحثون على أن عوامل عدة تتدخل في تطور اللغة في أصواتها وحروفها من السالفين الى الخلفين ، ولا نريد الإشارة الى هذه العوامل جميعها بل نشير الى واحد منها وهو : التطور الطبيعي المطرد لأعضاء النطق في الانسان ... وصاحب هذا الرأي هو العلامة (روسلو) . وخلاصة هذا الرأي أن أعضاء النطق تختلف من جيل الى جيل إن لم يكن في بنيتها فعلى الأقل في استعداداتها ، بل هي تختلف عما كانت عليه عند آبائنا المباشرين ، وعلى أي حال فإن أي تطور يحدث في أعضاء النطق أو في استعدادها يتبعه تطور في أصوات الكلمات ، فتنحرف حيث تتلاءم وحالة أعضاء النطق^(٤) ، ويمكن أن نلمح أمثلة لهذا القانون فيما ورد عن العرب في باب الإبدال من قولهم :

زجاء الطير ، وزمكاؤه^(٥) ، والعاذر والعاذل^(٦) ، والذعاق : الزعاق^(٧) ، والدشيشة والجشيشة^(٨) . وما جاء في كتاب الفرق للبطلبيوسي من قولهم : ماء مظفوف : ومضفوف^(٩) :

(١) اللغة والمجتمع : ٥٠ دكتور وافي ط ١٩٤٦ .

(٢) الإبدال لأبي الطيب : ٩٦/١ .

(٣) المرجع السابق : ٣٥٤/١ .

(٤) نشأة اللغة عند الانسان والطفل : ١٥٢ وافي ط ١ .

(٥) المزهر : ٤٦٥/١ .

(٦) الجاسوس : ٣٤٦ .

(٧) كتاب العين : ٧١ .

(٨) اللسان : ١٩٠/٨ .

(٩) المزهر : ٥٦٢/١ .

ونثر : ونثل ١ ، وأثفرت الشاة : وأمفرت ٢ ، والجعر : والجأز ٣ .

ثانياً : أمراض الكلام :

وأراض الكلام ولاسيا ما كان مختصاً منها باللسان يثير تحولاً صوتياً ، وانتقالاً لخارج الحروف حتى يتكون للصيغة شكل جديد يختلف عما كانت عليه من قبل وليس السبب في تلك الصورة الجديدة إلا عيوب المنطق ، وإصابة الجهاز الصوتي بعلّة فيه فيتحوّل اللسان من النطق بالسین الى الثاء أو الدال أو الشين ، أو من الراء الى الفين أو اللام أو الياء ، أو من حرف الى حرف آخر . ويظهر أن القدماء من اللغويين قد تنبهوا الى تلك الظاهرة . وهي ظاهرة أمراض الكلام ولهذا نسمع عدة أسماء تشير الى تلك الظاهرة فمنها :

اللغلفة ٤ ، اللف ٥ ، النعمة ٦ ، الارتضاح ٧ ، الششفة ٨ ، الهبة ٩ ، الرته ١٠ . التتمة ، الغافاة . العقلة ١١ ، الحبسة ، اللكنة ، الغنة ١٢ ، الحنة ، اللثغة ١٣ .

ولا شك أن عدم انتظام تكوين الأسنان له دخل في اللغات ، لهذا لا يستطيع الانسان أن

(١) اللسان : ١٤٤/٧ .

(٢) اللسان : ٨١/٧ .

(٣) وهي النقص : ١٧٦/٧ .

(٤) يراد باللغفة : المعجمي : مجلة المشرق السنة ٦ عدد ١٢ سنة ١٩٠٣ .

(٥) إدخال حرف في حرف : التذكرة المحدثية ، المرجع السابق .

(٦) رته في اللسان : وهي قلب اللام نوناً : التاج ، وانظر مجلة المشرق : المرجع السابق .

(٧) يقال : هو يرتضخ لكنة أعجمية : إذا نشأ معهم وكان عبد بني الحساس يرتضخ لكنة حبشية ، المرجع السابق .

(٨) وهي في لغة اليمن تجعل الكاف شيئاً مطلقاً : مجلة المشرق : المرجع السابق .

(٩) وهي النطق بالحاء هاء المزهر : ٥٥٧/١ .

(١٠) جعل اللام هاء المزهر : ٥٦٦/١ .

(١١) التواء اللسان عند الكلام : تاريخ أدب العرب للرافعي : ١٦٠/١ .

(١٢) وهي أن يشرب الصوت الخيشوم ثم هي عيب إذا جاءت في غير حروفها ، المرجع السابق .

(١٣) في الحكم : الألف الذي لا يستطيع أن يتكلم بالراء : وقيل : هو الذي يجعل الراء في طرف لسانه أو يجعل القصاد ظاء وقيل هو الذي يتحول لسانه عن السين الى الثاء ، المزهر : ٥٦٦/١ .

يعدل من نطق الألتخ - إلا إذا تدخل إحصائي الأسنان فيها ، وقد يرث الطفل هذه اللغات عن آباءه ، ويرثها منه جيله ثم يرثها منه جيل آخر ، حتى تصبح اللغة سنة فيهم ، بل تكون صواباً في جيل المستقبل بينما هي نفسها في الجيل الأول كانت آفة نطقية محط ازدراء الناس واحتقارهم والدليل على ذلك تحير علماء اللغة بين اللغة واللغة ، فالخليل على جلاله العلمي لا يدري : أن الذعاق بمنزلة الزعاق لغة مستقلة أم لغة ^١ ، وابن سيده لا يدري أن المرريس - وهو الداهية لغة مستقلة عن المرريت أم لغة ^٢ ، والأزهري ينكر أن الدشيشة لغة في الجشيشة ويقول بأنها لكنة ، بينما رويت عن أبي الوليد بن طخفة الففاري على أنها لغة ^٣ وصاحب الصحاح لا يدري أن اللس لغة مستقلة عن اللبس أو هشة ^٤ وكذلك الأصمعي وهو الثقة اللغوي لا يدري أن العاذور - وهو الشر لغة في العاثر أو لغة ^٥ ، فاللغات وأمراض الكلام تشبه على أفذاذ اللغة - باللغات لأن وجه الشبه في كل منها انتقال المخرج الصوتي من مكانه وانحراف الأصوات عن الصورة الأولى لها ، ومرتب على أمراض الكلام وجود كلمات عربية صحيحة متحدة المعنى رويت مرة بالراء وأخرى باللام : مثل : رثدت القصعة بالثريد ، ولثدت ، وجرمه وجلمه بمعنى قطعه ، وسهم أمرط وأملط : ليس له ريش ^٦ ، كما رويت مرة بالظاء وأخرى بالذال كقولهم رجل شظيرة وربما قالوا : شذيرة ^٧ « أو الغين والراء كقولهم كل راية غاية » وفي الصحاح الغاية = الراية ^٨ . وقد يمكن أن تتسم شخصية عظيمة باللغة فتفتدي بها الطبقات الأخرى المحيطة بها وتقلدها أولاً في تلك اللغة ، وبعد مرور زمن يصبح هذا الانحراف أو تلك اللغة مقبولة ، وهذا يشبه (المودة) التي تسري من أعلى المجتمع إلى أدناه . والناس مجبولون على تقيد العظماء وما يجري على اللغة في هذا المنحى يجري على الأمور الأخرى كالآزياء والعادات .

(١) العين : ٧١ ، المخصص : ١٣٦/٩ .

(٢) اللسان : ١٠١/٨ .

(٣) اللسان : ١٩٠/٨ - ١٩١ .

(٤) الزهر : ٥٥٧/١ .

(٥) الزمر : ٥٥٧/١ .

(٦) الزهر : ٥٥٨/١ .

(٧) الزهر : ٥٥٧/١ .

(٨) اللغات : للكروملي في مجلة المشرق : ص ٥٩١ .

ثالثاً : التصحيح :

كانت الكتابة في القرن الأول بدون نقط ولا شكل ، لهذا كان عدة قراءة القرآن هو التلقي والمشافهة ، لا الأخذ عن الصحف وان كان ما في الصحف صحيحاً ، ولذلك نسميهم يقولون : إن فلاناً ثقة ، وبعض روايته صحيفة ، بل كانت أكبر وصمة للإنسان أو الراوي أن يقال له : أنت صحفي . ومعناها أن تأخذ من الكتب بنفسك دون مشافهة ولقاء بين مؤلفيها ، لأن هذا يورث التصحيف في الحروف ولهذا قيل « لا تأخذوا القرآن من مصحفي ولا العلم من صحفي ^١ » وكان حماد الرواية قد حفظ القرآن من المصحف وكان يصحف نيماً وثلاثين حرفاً منها : وما كان استغفار إبراهيم لإبيه إلا عن موعدة وعدّها أباه ، يريد « إياه » وقيل إن حمزة الزيات - كان يتعلم القرآن من المصحف فقرأ يوماً وأبوه يسمع « ذلك الكتاب لا زيت فيه » بالزاي والتاء ، فقال أبوه : دع المصحف وتلقن من أفواه الرجال ^٢ ، كما نجد أمثلة منه متناثرة في أدب الكاتب لابن قتيبة وإصلاح المنطق لابن السكيت ، وما يلحن فيه العامة لأبي حاتم السجستاني ، والأمايلي للقالبي وتصحيح التصحيف ^٣ للصلاح خليل بن أبيك الصفدي .

وقد ساق المزهري أمثلة عديدة لما وقع فيه التصحيف ، من ذلك ما جاء عن ابن خالويه « الناس كلهم قالوا : قد بلغ فيه الشيب إذا خطه القثير - أما ابن الأعرابي فقال « بلغ » بالعين المعجمة ^٤ وكان أبو عمرو الشيباني يقول : « في صدره على حسيكة » وكان أبو عبيدة يقول « حسيكة » بالشين فأرسلت إليه : يا أبا عبيدة : إنك تصحف في هذين الحرفين فأرجع عنها قال : قد سمعتها ^٥ . وفي الجمهرة : الفضفاض = بالعين المعجمة : المرّين وما والاه من الوجه وقال أبو عمر الزاهد : هو العضاض بالعين غير المعجمة ^٦ . واختلف المعمرى والنحويات في « الظروري » فقال أحدهما : الكيس ، وقال الآخر : الكبش . فقال كل منهما لصاحبه : صحفت ، وكتب بذلك إلى أبي عمر الزاهد فقال : من قال ان الظروري : الكبش : فهو تيس ،

(١) كتاب التصحيف والتحريف : ٨ للمكري .

(٢) كتاب التصحيف والتحريف للمكري : ٩ .

(٣) منه نسخة مصورة في الخزائن الزكية بدار الكتب .

(٤) المزهري : ٣٦٣/٢ .

(٥) المزهري : ٣٦٦/٢ .

(٦) المزهري : ٣٦٧/٢ .

ولمّا الظروري الكيس^١ ، وجاء التصحيف في « زخرب وزحرب » وصحّته بالخاء ، وبالحاء تصحيف^٢ . فالتصحيف – قد لعب دوراً كبيراً في تشويه اللغة ، ولم تسلم منه القراءات القرآنية ، بل سجل السيوطي تصحيفات وقعت لأشهر المعاجم العربية الموثقة : كالعين للخليل^٣ والصاحح والمخصص . وغيرهم . كما سجل العسكري في كتابه التصحيف – تصحيفات لأكثر من خمسين لغوياً مشهوراً ، والذي أريده الآن أن جميع ما تحت يدينا من الإبدال – يجب أن نأخذ به بحذر ، لأن التصحيف لا بد أنه لعب دوراً هاماً فيه . فالإنسان سيظن حتماً أن بين ما سقته من الأمثلة السابقة – ما يصلح منها للإبدال ، لأن العلاقة بينها قائمة ولكن بالبحث أخرجناها من الإبدال وألحقناها بالتصحيف . بل أحياناً ما تقع مهارات بين أئمة اللغة ويتهم أحدهم صاحبه بالتصحيف في الكلمة ، فيرد عليه الآخر بدفع التهمة ، ويبين له أن ما توهمه تصحيفاً إنما هو لهجة عربية^٤ .

ولنتنقل الآن الى دراسة نصية تقارنية للهجات القبائل العربية – والتي وردت معزوة في باب الإبدال ويمكن تقسيمها الى ما يأتي :

أولاً : لهجات منسوبة ملقبة .

ثانياً : لهجات منسوبة غير ملقبة .

أولاً : اللهجات المنسوبة الملقبة :

(١) الكشكشة :

بعض اللغويين يرى أن الكشكشة لتيم^٥ ، أو ربيعة^٦ ، أو بكر بن وائل^٧ ، أو أسد^٨ ،

(١) المزهر : ٣٦٥/٢ .

(٢) إبدال أبي الطيب : ٣٥/١ مقدمة .

(٣) المزهر : ٣٨١/٢ .

(٤) انظر : اللسان : ١٣٩/١١ - ١٤٠ .

(٥) خزائن الأدب : ٥٩٥/٤ ، إبدال أبي الطيب : ٢٣٠/٢ .

(٦) كتاب العين : ٣١ للخليل .

(٧) شرح السيراني على سيبويه : ٦٨/٥ ، خطوط في التيمورية .

(٨) الصاحي : ٢٤ .

كما عزاها السيوطي في ربعة^١ ومضر . ويمكن أن نوفق بين هذه الروايات المتنافرة بالقول بتجاور مساكن هذه القبائل التي عزيت إليها الكشكشة - فبكر بن وائل ينتهي نسبها الى ربعة^٢ وكلاهما عزى له الكشكشة ، وإذا كانت الظاهرة قد عزيت الى تميم - فلما نرى نيران الحرب قد استعرت بين تميم وبكر ، فالصلة بينها قائمة والأخذ والعطاء في اللهجات مما تجوزه النظرة الحديثة .

واختلف في كنه الكشكشة على ثلاثة مذاهب :
قسم يثبت الشين حالة الوقف ، وهو الأشهر ، وقسم يثبتها في الوصل أيضاً ، وقسم يجعل الشين مكان الكاف ويكسرهما في الوصل ، ويسكنها في الوقف^٣ .

واليك هذه الروايات :

١ - قال السيرافي وقد أنشدنا أبو بكر بن دريد :

تضحك مني أن رأيتني أحترش^٤ ولو حرشت لكشفت عن حرش^٥

وأنشد ثعلب :

« ... ومن يحلل بواديش يعيش^٦ »

يريد « بواديك » . كما ساق أيضاً :

على فيما أبتغي أبغيش بيضاء ترضيني ولا ترضيش^٧
وتطبي^٨ ودبني أبيش إذا دلوت جعلت تنبش^٩
وإن نأيت جعلت تدنيس^{١٠} حتى تنقي كنفقي الديش^{١١}

٢ - واستشهد اللسان لها حيث يجعلون الشين مكان الكاف ، وذلك في المؤنث خاصة ، يقول الشاعر :

(١) المزهر : ٢٢١/١ .

(٢) نهاية الأرب للقلقشندي : ١٧٨ .

(٣) تاريخ آداب العرب : ١٣٨/١ ، الخزانة : ٥٩٤/٤ - ٥٩٧ ، الصاحي : ٢٤ .

(٤) إبدال أبي الطيب : ٢٣١/٢ .

(٥) في الخزانة : ٥٩٤/٤ « وتطلي » مع خلاف في الألفاظ والترتيب .

(٦) السيرافي عن سيوريه : ٤٦٧/٥ - ٥٧٢ ، كتاب العين للخليل : ٣١ بغداد .

فميناشر عيناها وجيدش جيدها ولكن عظم الساق منش دقني^١

وروى هذا البيت في الخزانة على الأصل بدون إبدال^٢.

٣- وقرأ بعضهم « قد جعل ربش تحتش^٣ سرياً » في قوله تعالى « قد جعل ربك تحتك سرياً »^٤. وبها قرأ من قرأ: « إن الله اصطفاش وطهرش » آل عمران ٤٢ في قوله تعالى: « إن الله اصطفاك وطهرك ». لهجات العرب ٦٩. أحمد تيمور. المكتبة الثقافية (٢٩٠). ولتفسير هذه الظاهرة نرى أن تيمناً حرصت على إبراز الحركة الأخيرة إذا كان في الوقف عليها ما يلبس، فالوقف على كاف المؤنثة بالسكون يجعلها تلتبس بكاف المخاطب، فللفرق بينهما قلبت كاف المؤنثة شيناً، ثم توسعوا في ذلك فقلبت في حالة الوصل أيضاً، وإنما قلبت الكاف شيناً لقرب الشين من الكاف في المخرج، وأنها مهموسة مثلها فأرادوا البيان في الوقف « لأن في الشين تفشياً »^٥ ويقول سيويو « وقوم يلحقون الشين ليبينوا بها الكسرة في الوقف »^٦. ويقول البغدادي « وربما جعلوا بعد الكاف الشين والسين. يقولون: انكش وانكس - وهي الكاف المكسورة لا غير يفعلون هذا تأكيداً لكسر الكاف بالسين والسين^٧. وأرجح أن البغدادي لم ينقل لنا الظاهرة كما كانوا ينطقونها - إذ ليس هناك ما يدعو إلى أن تتصل الكاف بصوت آخر، بل حل مكان الكاف حرف Ch. - ولهذا أرجح أنهم كانوا يقولون « انتش » وانتس » لا كما قال البغدادي آناً « انكش » وانكس ».

ولقد علل المستشرقون تلك الظاهرة بقولهم « إن الكاف كالجميم الخالية من التعطيش، دفعتها الكسرة التي تليها إلى أن تكون من وسط الحنك - أي قريبة في المخرج من مخرج الحروف

(١) اللسان: ٢٣٣/٨.

(٢) الخزانة: ٤٩٥/٤.

(٣) الأشموني: ٢٨٢/٤.

(٤) سورة مريم: آية ٢٤.

(٥) الكامل للبرد: ٣٧١/١.

(٦) كتاب سيويو: ٢٩٥/٢، وشرح السيرافي: ٤٦٨/٥ تيمور مخطوط.

(٧) الخزانة: ٥٩٤/٤.

الشجرية ، لذلك صارت Ch. ^١ فهذا الصوت هو ما كان يسمعه القدماء في تلك الظاهرة .

وقد وجدت هذه الظاهرة في بلاد العرب الجنوبية ومن ذلك :

جال والله يا دقيق الساج لجمع عlish ألف ديك 'نقار

كما وجدت الكشكشة أيضاً في المهرية والسقطرية ^٢ .

ب) الشنشنة :

وبما يتصل بظاهرة الكشكشة هذه ما سماه علماء العربية بـ « شنشنة اليمن » وهي قلب الكاف مطلقاً الى شين ، وقد عزاها الأئمة الى اليمن ، فقد نقل السيوطي عن الفراء « أن قريشاً خلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستبشع الألفاظ فن ذلك ... الشنشنة في لغة اليمن » ^٣ وقد سمع بعضهم يقول في عرفة « لبش اللهم لبش » ^٤ وأصحاب الشنشنة يلتقون بأصحاب الكشكشة في بعض وجوها ، وقد سماها الأب أنستاس الكرمل بالشفشفة ^٥ - وربما يرجع هذا الخطأ الى التحريف في الكتابة . وظاهرة الشنشنة لازالت موجودة في اللهجات اليمنية الحديثة حيث قلبت الكاف في الشجرية والمهرية والسقطرية وبعض مناطق ^٦ ظفار الى نش - Ch. - أي شيناً شجرية ، ثم تطورت حتى صارت شيناً - أي أن الكاف انتقلت من مخرجها وهو أقصى اللسان الى وسطه وهو مخرج الشين .

كما رأى حفي ناصف أن « هذه الظاهرة في (لهجة شرويدة وزنكلون) وما حولها من مديرية الشرقية ^٧ ويمكن أن أعلل لوجود هذه الظاهرة اليمنية في ديار مديرية الشرقية بما يذكره المقرئ من أن « جذاماً ^٨ قدموا مع عمرو بن العاص ، وكانت لهم عدة اقطاعات منها « هريبط »

(١) محاضرات الدكتور نامي سنة ١٩٥٥ في معهد اللغات الشرقية ، وانظر محاضرة للمستشرق الألماني الدكتور ا. شاده وعنوانها « علم الأصوات عند سيبويه وعندنا » .

(٢) محاضرات الدكتور نامي في معهد اللغات الشرقية .

(٣) الاقتراح : ٨٤ .

(٤) الجاسوس : ١٨٣ ، والمزهر : ٣٢٢/١ .

(٥) مجلة المشرق السنة ٦ عدد ١٢ سنة ١٩٠٣ .

(٦) دكتور خليل نامي - محاضراته سنة ١٩٥٥ .

(٧) مميزات لغات العرب : ١٣ ط ٢ .

(٨) البيان والإعراب للمقرئ : ٢٣ ، ٩٧ تحقيق عابدين .

و « تل بسطة » و « نوب » وجميع هذه القرى التي نزلتها جذام تتبع مديرية الشرقية^١ ، وهذا يشير الى أن في النازلين الأولين في مديرية الشرقية من العرب قوماً من اليمن .

(ج) الكسكة :

أ (بعضهم يرى أنها لغة بكر بن وائل ، وهي كما رأها الثعالبي « إلحاقهم لكاف المؤنت سيناً عند الوقف كقولهم أكرمتكس وبكس^٢ كما نسبها الكامل في المبرد الى بكر بن وائل^٣ أيضاً ، وعزاها صاحب شرح الكافية^٤ الى بكر . وأورد الحريري في درة الغواص هذا الخبر عن الأصمعي : فقال قوم تباعدوا عن عنقنة تميم ... وكسكة بكر^٥ . ثم اختلف في وضع هذه الظاهرة وتفسيرها فقوم يبدلون من الكاف سيناً وهم أقلهم ، وقوم يبنون حركة كاف المؤنت في الوقف فيزيدونها بعدها (أي يزيدون السين بعد الكاف في الوقف) كقولهم أعطيتكس في أعطيتك^٦ .

ب (ونسبها ثعلب في أماليه : الى هوازن حيث ساق نصّاً « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عنقنة تميم .. وكسكة هوازن^٧ » .

ج (وبعضهم نسبها الى ربيعة^٨ ، ويظهر ذلك من نص لابن فارس وعرفها « بأنها هي أن يصلوا بالكاف سيناً » .

د (وعزاها السيوطي الى « ربيعة ومضر »^٩ وعرفها « بأنهم يجعلون بعد الكاف أو مكانها في المذكر: سيناً » .

(١) هربط بركز كفر صقر ، وتل بسطة عن قرب من الزقازيق ، ونوب من أعمال الشرقية كذلك .

(٢) فقه اللغة العربية : ١٧٢ - ١٧٣ للثعالبي : ط ١٩٣٣ م .

(٣) خزائن الأدب : للبغدادي : ٥٩٥/٤ - ٥٩٦ .

(٤) شرح الكافية : ٣٨١/٢ .

(٥) خزائن الأدب : للبغدادي : ٥٩٥/٤ .

(٦) المرجع السابق : ٥٩٦/٤ .

(٧) المرجع السابق : ٤٩٥/٤ وانظر مجالس ثعلب : ١٠٠/١ تحقيق الأستاذ هارون .

(٨) الصاحبي لابن فارس : ٢٤ .

(٩) الزهر : ٢٢١/١ .

هـ) وقد نسبها صاحب القاموس الى تميم لا لبكر^١.

فالحلاف كما تقدم عريض ممل مشوه في عزو اللهجة ، وكما كان ممسوخاً ملفقاً كذلك في وصف تلك الظاهرة : هل هو قلب كاف المؤنثة سيناً في حالة الوقف ، أو أن هذه السين لا تحل محل كاف المؤنثة - وإنما تلحق بها في حالة الوقف ، أو أن الكاف مطلقاً سواء كانت لمؤنث أو مذكر تقلب سيناً ، وكما عاتينا في عزوها من خلافات ، نعاني خلافات في وصف تلك الظاهرة كذلك. ونفسر ظاهرة الكسكة كما فسرت ظاهرة الكشكشة آتفاً إلا أنه يلاحظ :

١- أن الأصل في هذه الظاهرة أن تكون الكاف للمؤنث - حتى تجتذب الكسرة الكاف الى الأمام فتقلب الى نظائرها من أصول الثنايا فتصير Gh. أي شجرية وبعد ذلك صارت « تس » ، وقلب الشين سيناً مطرد في اللغات السامية فضمير الغائب « شو » في الأكادية و « سو » في بعض اللغات العربية الجنوبية .

٢- نرفض الروايات التي تشير بأن تجعل السين بعد كاف المخاطبة . وذلك كما جاء عن الثعالبي^٢ ، والمبرد^٣ ، وابن يعيش^٤ ، وثلعب^٥ ، وصاحب الكافية^٦ بل أرجح أن الكاف المؤنثة تبدل سيناً .

٣- أن الكاف لا تقلب سيناً كما رأى القدماء وذلك ما يدل عليه قولهم « أبوس وأمس يريدون أبوك وأملك »^٧ بل قلبت الى « تش » ثم الى ما يشبه « تس » بدليل أن بعض المحدثين سمع رجلاً في نجد يقول في (عسكرى) عَسْتَرِي^٨ .

٤- أن الغرض من هذا الإبدال - هو إبراز الحركة الأخيرة إذا كان في الوقوف عليها لبس إذ الوقف على كاف المخاطبة - يجعلها تلتبس بكاف المخاطب .

(١) شرح الشافية : ٣٨١/٢ المحققون .

(٢) فقه اللغة للثعالبي : ١٧٢ - ١٧٣ .

(٣) الكامل : ٣٧١/١ .

(٤) ابن يعيش : ٤٨/٩ - ٤٩ .

(٥) مجالس ثعلب : ١٤١/١ .

(٦) شرح الكافية : ٣٨١/٢ ، رشافية ابن الحاجب : ٣٨١/٢ .

(٧) الأشموني : ٢٨٢/٤ .

(٨) في اللهجات العربية : ١١٣ للدكتور ابراهيم أنيس .

د) المنعنة :

ويستدل عليها بروايات عدة تقتطف منها ما يلي : ما جاء في كنز الحفاظ من قول الراجز :

قد علمت أني مروّي هامها ومذهب الغليل من أوامها^١

وفي التبريزي : ويروى « قد علمت عني »^٢ ، ويقول أبو حبة النميري^٣ :

يقلن وما يدرين عني سمعته وهنّ بأبواب الخيام جنوح^٤

وفي البيان للجاحظ :

إما تربني قائماً في جلّ جسم الفتوق خلق هملّ

محاذراً أبغض عنّ تحتلي عند اعتلال دهرك المعتلّ^٥

فمن : أصلها أن - وهي المنعنة^٦ . وفي تفسير الطبري : وأنشد لرجل من فقمس^٧ :

تعرضت لي بكان حلّ تعرض المهرة في الطول

تعرضاً لم تألّ عن قتلي^٨

قال بعضهم : إنما هي : أن قتلي^٩ .

كما ورد لها شاهد في قوله تعالى « عسى الله أن يأتي بالفتح » فيقرءون « عن يأتي » بقلب الهمزة عيناً^{١٠} . وفي قوله تعالى « ولقد نعلم أنهم يقولون » قرء « عنهم » وقد عزيت الى : تميم

(١) كنز الحفاظ : ابن السكيت : ٤٦١ .

(٢) تهذيب التبريزي : ٤٦٢ .

(٣) أمالي القاضي : ٦٩/١ .

(٤) المرجع السابق : ٧٠/١ .

(٥) البيان والتبيين للجاحظ : ٦/٣ هـ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(٦) البيان والتبيين للجاحظ : ٥٦/٣ .

(٧) هو من بني أسد . مجالس ثعلب : ٦٠٢/٢ .

(٨) تفسير الطبري : ١٧١/٦ تحقيق شاکر .

(٩) المرجع السابق : ١٧٢/٦ .

(١٠) العين للخليل : ٣١ ط بغداد .

وقيس وأسد . (شواذ القراءة واختلاف المصاحف ورقة ٢٦ رضي الدين الكرمانى . رقم ٢٤٤ قراءات بمكتبة الأزهر .

وعزى هذا الإبدال في سر الصناعة لتمام^(١) ، وكذلك عزى إليها في المفصل^(٢) ، واللسان^(٣) وشرح الشافية^(٤) ، والجمهرة^(٥) ، وكتاب العين^(٦) للخليل ، وعزاها ابن السكيت الى تمام وقيس^(٧) ، كما نسبت في شرح المفصل الى تمام وأسد^(٨) ولكن عثرت على نصوص أخرى فيها تتسع البقعة الجغرافية لظاهرة العننة أكثر من ذلك وسأعرضها لمناقشتها :

١ - جاء في نوادر أبي زيد بشرح الأخفش : وأنشدني أعرابية من بني كلاب :

فتملّمن وإن هويتك عنتي قطاع أرمم الجبال صروم
فقلت لها ما هذا ؟ فقالت هذه عنتكنا^(٩) .

٢ - جاء في البيان للجاحظ ، وقال أعرابي :

رعماك ضمان الله يا أم مالك والله أن يشقيك أغنى وأوسع^(١٠)

وذكر محقق الكتاب : أن هذا الأعرابي من هذيل ، ولكن جاء هذا البيت في شرح الحماسة للتبريزي :

(والله عن يشقيك أغنى وأوسع)^(١١)

(١) سر الصناعة : ٢٣٥/١ - ٢٣٧ .

(٢) المفصل للزغشري : ٣١٨ .

(٣) لسان العرب : ١٦٨/١٦ ، ١٦٤/١١ ، ١٦٤/١٥ ، ٣٢٣/١٥ .

(٤) شرح الشافية : ٢٠٣/٣ .

(٥) جمهرة ابن دريد : ٢٣٨/١ .

(٦) كتاب العين للخليل : ٥١ بغداد .

(٧) الإبدال لابن السكيت : ٢٤ .

(٨) شرح المفصل لا يعيش : ١٤٩/٨ - ١٥٠ .

(٩) نوادر أبي زيد : ٢٩ .

(١٠) البيان والتبيين للجاحظ : ٣٣٠/٣ تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون .

(١١) شرح الحماسة للتبريزي : ٢٧٠/٣ تحقيق محيي الدين .

فكأن المعننة في هذيل .

فقبيلة كلاب التي وردت في نوادر أبي زيد عامة ولا ندرى هل يقصد بها بطن من عامر بن صعصعة ، أو كلاب بن مرة التي هي بطن من قريش^(١) ، أم كلاب بن معاوية ؟ ولكني أرجح أن التي تنطق بالمعنة من هذه الأسماء المتشابهة هي كلاب من عامر بن صعصعة لا غير ، لأن نسبها ينتهي إلى قيس ، وقيس هذه أثر عنها المعننة صراحة ، وأما كلاب من بني مرة - فأرى أنها لا تنطق بالمعنة ، لأنها كما تشير كتب الأنساب من قريش^(٢) ، وقريش لم يؤثر عنها المعننة بل ولا قبائل الحجاز ، وأما ما جاء في الشاهد الثاني في التبريزي ، وأن شاعراً هذلياً نطق بها - فلأنني أرجح - كما رأى التبريزي في أحد قولي - بأن التقدير « عن أن يشقيك »^(٣) ، وعلى هذا لا شاهد للهذلي في المعننة وما يرجح أن هذيل لا تقول « المعننة » أن الشاهد السابق ورد في بيان الجاحظ « والله أن يشقيك » بدون أثر للمعننة فيه ، فإذا فرضنا أن رواية المعننة صحيحة عن هذا الهذلي - فأرجح أن الذي ينطق بها منهم هم أهل البادية من هذيل - لا كلهم ، ولا شك أن هذا الهذلي نطق برواية واحدة فقط ، ولهذا إذا جاءت رواية أخرى عنه ، فلا بد أن نقف منها موقف الناقد لبحثها وتمحيصها ، ومثل هذا ما جاء عن الأصمعي في بيت طفيل :

فنحن منعنا يوم حرس نساءكم غداة دعانا عامر غير معتلي

قال الأصمعي : يريد : غير مؤتلي^(٤) . فكأن هذا الشاعر أثر المعننة ولكن وردت رواية أخرى (بالهمز يعني : غير مؤتلي)^(٥) ومعنى هذا أنه لا يقول المعننة ، وأمام هذه الخبرة لا بد من توسيع دائرة البحث حتى نتعرف على الحقيقة ، وأنت نعتصم برواية واحدة لهذا الشاعر ، فطفيل هذا من غني بن أعصر^(٦) - والتي يؤول نسبها إلى قيس . وسبق أن ذكرنا أن المعننة في قيس ، لهذا أرجح أن الرواية (معتلي) بالمعنة وإنما جاءت رواية الهمزة ، لأن الشعراء كان بعضهم ينشد شعر بعض ، ومن ثمة كثرت الروايات في البيت الواحد . وبملاحظة النصوص

(١) معجم كحالة : ٩٨٩/٣ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) شرح التبريزي للحصاة : ٢٧٠/٣ .

(٤) سر الصناعة : ٢٤٠/١ .

(٥) ديوان طفيل : ٣٧ .

(٦) مختصر شرح الحصاة للتبريزي : ١٠٣/١ .

السابقة نرى أن الإبدال قيد بـ - أن - المفتوحة دون المكسورة ، ويستدل لذلك بما روي عن ابن هرمة :

أَعْنُ تَغَتَّتْ عَلَى سَاقٍ مَطْوَقَةٍ ورقاء تدعو هَدِيلاً فوق أعواد^(١)
وكان ابن هرمة هذا قد تربى في ديار تميم ، مما يدل على أنه تأثر بهم في لهجتهم ، ومثله ما أنشده ابن دريد في جهرته لذي الرمة :

أَعْنُ تَرَسَّمَتْ مِنْ خِرْفَاءَ مَنْزِلَةٍ ماءُ الصَّبَابَةِ مِنْ عَيْنِكَ مَسْجُومٌ^(٢)
أو لمجنون بني قيس :

(سوى عَنْ عَظْمِ السَّاقِ مَنْشٍ دَقِيقٍ)^(٣)

فالإبدال من (أن) المفتوحة الهمزة فقط ، ويقول في ذلك ابن يعيش « ولا يجوز مثل ذلك في المكسورة »^(٤) ، وكان في (أن) لكثرة استعمالها فحولت إلى العين والعلاقة الصوتية واضحة بين الحرفين إذ العين صوت مجهور ، وهو أقرب أصوات الحلق المجهورة للهمزة ، ولهذا يقول الداني « فحيث ما وقعت العين وقعت الهمزة مكانها فتقول في : آمَنُوا : عامنوا ، وفي « وآتى المال وعائى المال » وفي « خاسئين : خاسعين » وفي قوله « متكئون : متكعون »^(٥) فهذا يدل على أن الهمزة كان يمتحن موضعها من الكلمة بالعين للصلة بينها .

وباستعراض نوع آخر من النصوص على تلك الظاهرة نرى أن هذا الإبدال الذي قيد بكونه في أن المفتوحة ، وأن الهمزة يجب أن تكون في أول الكلام - لا يثبت أمام النصوص الآتية ، وقد وجد فيها أن العنونة تكون في أن - وفي غيرها ، بل في وسط الكلام وآخره ، فما معنى هذه القيود التي لا تستطيع أن تثبت أمام نصوص اللغة التي لا يرقى إليها مغمز أو مطعن ؟ وإليك بعضها :

١ - جاء في اللسان : عنفوان - فعلوان من العنف ضد الرفق ، ويجوز أن يكون الأصل فيه

(١) شرح المفصل لابن يعيش : ١٤٩/٨ .

(٢) جهرة ابن دريد : ١٣٨/١ ، شرح الشافية : ٢٠٣/٣ ، وشرح المفصل : ٧٩/٨ .

(٣) الجهرة : ٢٣٨/١ ، شرح المفصل : ٧٩/٨ .

(٤) شرح المفصل : ١٤٩/٨ - ١٥٠ .

(٥) كتاب النقط : الداني : ١٤٣ ط دمشق .

أنفوان ... وسمعت بعض بني تميم يقول « اعتنفت الأمر بمعنى اتلفتته ، واعتنفتنا المراعي : أي رعيناً أنفها »^(١) .

٢ - كما جاءت العنمنة في الوسط كما قال الأصمعي « السأف » والسعف^(٢) ، ودام الحائط : دعمه والتأرض للشيء : التعرض له والدثث : الدعث^(٣) (أي الحقد ، والأسنا وهو قسديم الشجر - وبعضهم يقول : العُسُن^(٤)) .

٣ - كما تكون هذه العنمنة في الآخر .

ومن ذلك ما ذكره الخليل أن الخبج : الخبأ في لغة تميم^(٥) ، ويتشكك ابن دريد في نسبته ما كان من هذا الضرب - إلى تميم حيث يقول « خبج الرجل في المكان إذا دخل فيه ، وأحسب أن هذه العين همزة ، لأن بني تميم يحققون الهمزة فيجعلونها عيناً فيقولون : هذا خباعنا = يريدون : خباؤنا »^(٦) .

وما قيل من أن : الفنا = الفنع ، وهو الكثرة ، وتشاء ما بينهم = تشاء أي بمسد ، والتماؤونه = التمع أي تفتير^(٧) ، فهذه النصوص إن دلت - فإنما تنقض تلك القيود التي وضعها النحاة للعنمنة ، وربما أن الذي دفعهم للقول بهذا « أن استقراءهم لهذه الظاهرة كان ناقصاً وأن الأمر لا يعمد أن يكون حكماً خاصاً مبنيّاً على مثل خاص سمعه الراوي دون استقراء لبقايات الحالات »^(٨) ، ويظهر أن قلب الهمزة عيناً لم يقتصر أمره على تميم بل يرى الدكتور خليل ناهي أنه سمع في « بيت الفقيه من يقلب الهمزة عيناً » وقد علم من اليمينيين الشقاة . أن ذلك يحدث في كل مدن تهامة ، فهم يقولون : « عالة » للآلة ، « العمام » للإمام ، « والعير » للأمير^(٩) ،

(١) لسان العرب : ١٦٤/١١ .

(٢) أمالي القاضي : ٧٩/٢ .

(٣) مجلة كلية الآداب : المجلد ١٥ ج ١ سنة ١٩٥٣ من مقال الدكتور عبد الحليم النجار .

(٤) أمالي القاضي : ٧٩/٢ .

(٥) كتاب العين للخليل : ٥١ ط بغداد .

(٦) الجهرة : ٢٣٧/١ ، مقدمتان في علوم القرآن : مباتي ٢٢٢ جفري .

(٧) مجلة كلية الآداب : المجلد ١٥ ج ١ سنة ١٩٥٣ .

(٨) في اللهجات العربية : ٩٨ ط ٢ الدكتور إبراهيم أنيس .

(٩) محاضرات الدكتور ناهي سنة ١٩٥٥ . معهد اللغات الشرقية .

كما وجد أثر قلب الهمزة عيناً في لهجات الجزيرة بالسودان حيث يقولون « أسعلكم سعال »^(١) في أسالك سؤالا .

ويرى الدكتور ليتان أنها ظاهرة عريقة في السامية وسمع أن أهل الحبشة يقولون: « جع عوضاً عن حباً : أي خبأ »^(٢) كما سمعت في صعيد مصر « لسع » في « لأ » بقلب الهمزة عيناً ، وهذا يشير الى أن في النازلين بصعيد مصر قوماً من تميم ، بدليل كثرة تسميتهم بـ تَمَام ، و تميم . وهذا المثال وغيره يشير الى أن العنمة تكون في آخر الكلمة . ومن هذه المقارنات نرفض تقييدات النحاة لها كأن تكون في (أن) المفتوحة الهمزة ، وكأن تقييد الهمزة بالابتداء . أما لهجة الحجاز – فكانت لا تبدل الهمزة عيناً ، لأنهم من الحضر فلا يبالغون في تحقيق الهمزة يدل على ذلك ما رواه السجستاني من أن لغة الحجاز – استأديت الأمير فآداني في معنى – استعديته فأعداني^(٣) ، وفي حديث هجرة الحبشة « والله لأستأدينه عليكم »^(٤) أي لأستعدينه ، ولا شك أن قلب الهمزة – عيناً في تميم – هو أقصى مراحل تحقيق الهمز ، ذلك الأمر الذي تخلت عنه لهجة الحجاز .

٥ الفحفة :

عرفها اللغويون بأنها قلب الهاء عيناً ، وعزاها السيوطي^(٥) لهذيل – في الهمع ، ولكن ذهب في كتاب الاقتراح في أصول النحو ، الى أنها قلب الهاء عيناً مع نسبتها الى هذيل أيضاً^(٦) إذ قال « والفحفة في لغة هذيل »^(٧) ولكن نظراً للمصادر التي تحت أيدينا الآن وهي :

١ – الهمع^(٨) . ٢ – البحر المحيط^(٩) . ٣ – مختصر شواذ القرآن^(١٠) لابن خالويه . ٤ – ابن

(١) من لهجات الجزيرة بالسودان : ١٢٢ .

(٢) مجلة الآداب : مجلد ١٠ ج ١ – سنة ١٩٤٨ من مقال للدكتور ليتان .

(٣) الأضداد : للسجستاني : ١٢٣ هـ .

(٤) اللسان : ٢٧/١٨ .

(٥) مع الهوامع : للسيوطي : ٢٣/٢ .

(٦) الاقتراح : ٨٣ .

(٧) الاقتراح : ٨٣ .

(٨) ٢٣/٢ .

(٩) ٣٠٧/٥ ، ٢٠٤/١ .

(١٠) ٦٣ .

عقيل^(١) . ٥ - اللسان^(٢) . ٦ - سر صناعة الإعراب^(٣) - مصحف ابن مسعود^(٤) - وكلها تحدد « الفحفة » بأنها قلب الحاء عيناً ، نرفض صيغة السيوطي التي تفرد بها في كتابه الاقتراح والتي يذكر فيها بأنها « جعل الهاء عيناً »^(٥) كما أن اللسان في إحدى رواياته ، يعزوها الى هذيل وثقيف^(٦) إذ يقول « عتسى بمعنى حتى هذلية وثقفية »^(٧) .

وفي عزوها لهذيل يقول ابن مالك : قرأ ابن مسعود « لَيْسُ جَنْتَهُ »^(٨) عتسى حين « فكتب إليه عمر : أن الله أنزل هذا القرآن عربياً ، وأنزله بلغة قريش فلا تقرأهم بلغة هذيل »^(٩) وجاء مثل هذا الخبر في البحر^(١٠) ، كما قرأ ابن مسعود : « فتربصوا به عتي حين » واستدلوا لهذه اللهجة في هذيل بقولهم « اللعم الأحمر أعسن من اللعم الأبيض » أي اللّحم الأحمر أحسن من اللّحم الأبيض ، كما يقولون « علّت العينة لكل عي » أي حلت الحياة لكل حي^(١١) .

وأشك في هذين المثليين اللذين عزيا الى هذيل ، لأن أثر الصنعة باد على كل منها ، وهي أشبه بالفوازير والنكات التي يؤلفها الناس لتمجيز بعضهم بعضاً في النطق ، كما يشك في قصة عمر رضي الله عنه ، وفي قولته لا تقرأهم بلغة هذيل ، لأنها تناقض التيسير في القراءات القرآنية ، وتحالف ما يرمي إليه الحديث الشريف « أنزل القرآن على سبعة أحرف »^(١٢) ثم كيف ينهى عمر عن قراءة ابن مسعود ، وهو نفسه يروي أن رسول الله ﷺ كان يسمر عند أبي بكر في الأمر من أمر المسلمين وأنه سمر عنده ذات ليلة وعمر معهم ، فخرج رسول الله ﷺ يشي وهم معه ،

(١) ٩/٢ - ١٠ .

(٢) ٣٢٨/٢ .

(٣) ٤٦/١ ط الحلبي .

(٤) انظر : تاريخ المصاحف لجفري : P. 61, 80 .

(٥) الاقتراح : ٨٣ .

(٦) اللسان : ٢٥٣/١٩ .

(٧) المرجع السابق .

(٨) سورة يوسف : آية ٣٥ .

(٩) الجمع : ٢٣/٢ .

(١٠) البحر : ٣٠٧/٥ .

(١١) مميزات لغات العرب : ١١ ط الثانية .

(١٢) في اللهجات العربية : ٩٧ .

فإذا رجل قائم يصلي في المسجد ، فقام رسول الله ﷺ يسمع قراءته ، قال عمر : فلما كدنا أن نعرف الرجل قال : من سره أن يقرأ القرآن رطباً كما أنزل فليقرأه على قراءة ابن أم معبد ، قال : ثم جلس الرجل يدعو فجعل رسول الله ﷺ يقول : سل تعطه^(١) ، وابن أم معبد - هو ابن مسعود ، فقراءته بشهادة الرسول - قراءة كما أنزل القرآن . وإذا التفتنا الى مناقشة هذه الظاهرة التي عزيت الى هذيل ، وجدناها لا تثبت أمام النقد ، على الرغم من هذه الروايات التي تثبتها ، وذلك :

١ - لأنه لم يؤثر عن هذيل أن قلبت الحاء عينا في غير هذا المثال ، ومثال واحد لا يكفي لإثبات ظاهرة لهجية ، والقرآن على تردد كلمة (حتى) فيه لم يؤثر عن ابن مسعود أن قلب حاءها عينا إلا في قوله « ليسجنة » حتى حين^(٢) ، وقوله تعالى « فاقربصوا به حتى حين »^(٣) أما في غير هذا فلم يبدل .

٢ - ورد عن ابن مسعود أنه قرأ عدة آيات كريمة أبدل فيها العين حاء - أي على عكس الظاهرة المعزوة لقومه وهي إبدال الحاء عينا ، وذلك أنه قرأ قوله تعالى : « قالوا نحم » في نعم^(٤) ، وأنه قرأ « أفلا يعلم إذا بحثر منا في القبور »^(٥) في بعثر ، وفي مصحف ابن مسعود نفسه وجدت « بحثر » بدل بعثر .

٣ - أن قلب الحاء عينا ، وهي النسوبة لهذيل ، لم توجد فقط في مصحف ابن مسعود ، بل وجدت في مصاحف أخرى منها مصحف الربيع بن خيثم^(٦) . مما يدل على أن هذيل لم تختص بها .

٤ - ولنفرض أن ابن مسعود قرأ (حتى حين) فهل معنى هذا أن قومه يقبلون الحاء عينا ؟ أظن أن قراءة القاريء قد لا تعبر عن لغة قومه في كل حال ، بدليل أن ابن محيصن وابن

(١) المصاحف للسجستاني : ١٣٧ ، وانظر مقدمتان في علوم القرآن ، مقدمة المباني : ٣٥ .

(٢) سورة يوسف : آية ٣٥ .

(٣) سورة المؤمنون : آية ٢٥ .

(٤) الجمع : ٧٦/٢ ، مغنى اللبيب : ٢٥/٢ .

(٥) سورة المعاديات : آية ٩ .

(٦) تاريخ المصاحف لجفري : P. 111 .

(٧) المرجع السابق : P. 291 .

كثير يقرأ ان (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً)^(١) بباء واحدة - وهي لفظة تميم^(٢) ،
وتحدثنا كتب الطبقات أن ابن كثير من مكة ، وابن محيصن قرشي ، ومع هذا فقراءتهما
جاءت على لفظة تميم ، أي خالفا لهجة قومهما - فقراءة ابن مسعود لا تجزم بأنها عكست لهجة
قومه ، ومن ثم أشك في أن قلب الحاء عيناً لهجة هذيل ، وكل ما في الأمر أن قراءة ابن
مسعود يمكن أن تفسر تفسيراً صوتياً ، وذلك أن العربي يستثقل الحروف المتماثلة ، لأنها
تشق عليه في النطق ، فيحاول أن يخالف بينها طلباً للخفة ، ومن ذلك أن العرب قالت :
« تسريت وتظنيت وتقصيت »^(٣) في تسررت وتظننت ، وتقصصت فاستثقل العربي
التأثر وحوله الى حرف آخر وهذا ما يسمى « Dissimilation » أي المخالفة . والأمر في
قراءة ابن مسعود « عتي حين » لا يعدو أنه خالف بين تكرار الحاءين .

ويمكن أن ينظر لهذا التخالف في الإبدال بقولهم « العرجلة - من الخيل القطيع وهي بلغة
تميم^(٤) العرجلة » ولتفسير هذا الإبدال نرى أن العين « صوت مجهور مخرجه وسط الحلق » ثم هي
من الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة^(٥) والراء صوت مجهور مثل العين ، وهي أيضاً من
الأصوات المتوسطة بين الشدة والرخاوة ، فالبدوي التميمي استثقل هذا التشابه بين الحرفين ،
فأثر أن يخالف بينها طلباً للخفة ، ولهذا حول العين في « العرجلة » الى (حاء) والحاء هو
الصوت المهموس الذي يناظر العين فخرجها واحد ، ولا فرق بينها إلا في أن الحاء مهموس
نظيره المجهور هو العين .

ويربط بعض الحديثين بين كلمة « عَدَيَّ » الموجودة في بعض اللغات السامية والعربية
الجنوبية القديمة وبين كلمة (حتى)^(٦) فالعين تقابل الحاء ، كما في العبرية ، وربما انتقلت
عدوى العين الى بعض اللهجات العربية . وفي اللهجات اليمنية حولت الحاء الى العين مثل « صفعه

(١) سورة البقرة : ٢٦ .

(٢) البحر : ١٢١/١ .

(٣) كتاب سيويو : ٤٠١/٢ .

(٤) اللسان : ٤٦٥/١٣ .

(٥) تاريخ الأدب : ٢٠ حفي ناصف ط ٢ .

(٦) الدكتور خليل نامي محاضرات فقه اللغة في معهد اللغات الشرقية : ١٩٥٢ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام :

١٢٧/٧ جواد علي .

بمعنى صفحة أو صحفه بمعنى طبق^(١)، وأيضاً ما كان فالعلاقة واضحة بين الحاء والمين فكلاهما حلقى إلا أن الأولى مهموسة والثانية نظيره المجهور وحدد ابن جني علاقتها بقوله «ولولا بحة^(٢) في الحاء لكانت عيناً» ولهذه العلاقة روى اللحياني قولهم «عصد الرجل: إذا مات» كما حكى عن أبي طيبة أنه قال «لغتنا حصد» وعقب اللحياني على ذلك بقوله «وإنما قال هذا - أي أبو طيبة - لأن لغة الأكثر إنما هو «عصد»^(٣)».

و) المججمة :

أشار إليها اللغويون بأنها قلب الباء جيماً، ثم تضاربت الروايات، هل الباء الخفيفة هي التي تقلب أم تشاركها الثقيلة أيضاً، وهل تشمل الظاهرة كذلك ياء النسب أم لا، ويحسن أن نعرض التصوص حتى نستشف منها الحقيقة أو جانباً منها.

١ - يقول الأصمعي: كل ياء مشددة للنسبة وغيرها، فإن بعض العرب يقلبها جيماً^(٤) ثم يقول بعد ذلك «وزعم الفراء أنها لغة طيء»^(٥).

٢ - قال أبو عمرو «وهم يقلبون الباء الخفيفة أيضاً إلى الجيم» قال الفراء: وذلك في بني دبير من بني أسد خاصة^(٦).

٣ - وقال أبو عمرو «قلت لرجل من بني حنظلة: ممن أنت؟ فقال: فقيمج، فقلت: من أيهم؟ فقال: مرّج»^(٧).

٤ - وفي نوادر أبي زيد: ساق أبياتاً قلبت فيها الباء الخفيفة جيماً - والأبيات لبعض أهل اليمن^(٨).

(١) المرجع السابق.

(٢) سر الصناعة: ٢٤٦/١.

(٣) عصد: إبدال أي الطيب: ٣٠٠/١.

(٤) إبدال أي الطيب: ٢٥٧/١.

(٥) المرجع السابق.

(٦) إبدال أي الطيب: ٢٦٠/١.

(٧) إبدال السكيت: ٢٨.

(٨) النوادر: ١٦٤.

٥ - وجاء في الشافية : يبدل ناس من بني ثميم الجيم مكان الياء في الوقف ، شديدة كانت الياء أو خفيفة^(١) .

٦ - وفي كتاب سيبويه : وأما ناس من بني سعد فلأنهم يبدلون الجيم مكان الياء في الوقف^(٢) .

٧ - وفي اللسان : أن قلب الياء جيماً عند ناس من بني سعد في الوقف خاصة ، فلإذا وصلوا لم يبدلوا وقد تبدل في الوصل^(٣) .

٨ - ويقول ابن منظور : المعجمة : في قضاة كالمعنة في تميم يحولون الياء جيماً مع العين^(٤) ، وفي التصريح ما يؤيد ذلك : إذ أن الجوهري اشترط لقلب الياء جيماً في قضاة أن تجتمع مع العين^(٥) .

٩ - وفي أمالي القالي أنه عزاء قلب الياء جيماً إلى فقيم^(٦) .

وبالنظر إلى الروايات السابقة نستنتج ما يأتي :

١ - أن الظاهرة عزيت إلى : طيء ، وبني دبير ، وحنظلة ، وفقيم ، وبعض أهل اليمن ، وناس من تميم ، وناس من بني سعد ، وقضاة .

٢ - أن قلبها عند قضاة مقيد بأن يسبقها العين .

٣ - أن هذا القلب قيد في حالة الوقف حيناً ، وحيناً آخر لم تنص الروايات على ذلك .

٤ - أن هذه الياء المقلوبة لا خير أن تكون مشددة كياء النسب ، ولكنها مقيدة عند أهل اليمن بالياء الخفيفة ، وكذلك عند بني دبير من أسد .

وإذا ما بحثنا الظاهرة من الناحية الصوتية ، وجدنا أن العلاقة قائمة بين الجيم والياء - فكلهما مجهور ومما من الحروف الشجرية ، وخرجها من وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك

(١) شرح الشافية : ٢٨٧/٢ .

(٢) الكتاب : ٢٨٨/٢ .

(٣) اللسان : ٦١/٦ مادة « شجر » .

(٤) اللسان : ١٤٤/٣ .

(٥) التصريح : ٣٦٧/٢ .

(٦) الأمالي : ٧٧/٢ - ٧٨ .

– غير أن الجيم أدخل والياء أخرج – لهذا أمكن انتقال الياء الى الجيم لهذه العلاقة ، والنطق بالجيم أقوى من النطق بالياء، لهذا أرجح أن الذين قلبوا الياء الى الجيم من البدو، فإذا استعرضنا القبائل التي نطقت بتلك الظاهرة وجدناهم :

١ – طيء – وهي متبدية تسكن أو اسط نجد .

٢ – بنو دبير : شأنها كطيء . وهي من أسد .

٣ – حنظلة – وهي بدوية أيضاً – وهي أكبر قبيلة في تميم وتنسب الى حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم^(١) .

٤ – فقيم : وهي بطن من دارم من تميم^(٢) أيضاً .

٥ – وبعض أهل اليمن : وأرجح أن هؤلاء البعض من القبائل البدوية .

٦ – سعد : وأرجح أنها سعد من تميم ، والمصادر لم تبين من سعد تلك ا ولكنني أرى أنها سعد تميم ، والسبب في ذلك :

أولاً : أن صاحب الشافية عزا تلك الظاهرة الى ناس من تميم^(٣) .

ثانياً : وجود شاهد شعري وهو :

(يطير عنها الوبر الصَّهَابِجَا)

يريد الصَّهَابِيَّ . والبيت عزاه أبو الطيب اللغوي الى هيمان بن قحافة ، وهذا الشاعر من بني سعد بن زيد مناة من تميم^(٤) ، فتكون الظاهرة في سعد التميمية .

بقي أن نناقش ، لم اشترط الجوهري وجود العين عند قضاة حتى يصح القلب ؟ بينما غيره من الرواة لم يشترط ذلك . وأرجح أن الجوهري اشترط ذلك ، لأنه صادف جملة من كلامهم فيها العين فاشترط وجودها ونقل صاحب التصريح ما يؤيد ما أقول فهو يذكر : قال الجوهري

(١) معجم كعالة : ٣١٠/١ .

(٢) المرجع السابق : ٩٢٦/٣ .

(٣) شرح الشافية : ٢٨٧/٢ .

(٤) معجم كعالة : ٥١٥/٢ .

وعجمجة قضاة يحولون الياء جيماً مع العين يقولون « هذا راعجٌ خرج مَعِجٌ » أي هذا راع
خرج معي ^(١) بينما وجدت هذه الظاهرة مع غير العين مثل :

١ - قال الأصمعي : أنشدني رجل من أهل البادية :

عمّي عوفٌ وأبو عُلجِ المَطعمان اللَّحْمُ بالعِشجِ
وبالْعداة كسر البرنج تفلح بالودِّ وبالصَّيصجِ ^(٢)

يريد أبو عليّ ، وبالعشيّ ، والبرنجيّ ، والصيصيّ ^(٣)

٢ - وما أنشدوه لهيان بن قحافة :

يطير عنها الربر الصَّهَّابِجَا ^(٤)

يريد : الصَّهَّابي : فحذف إحدى الياءين وقلب الثانية جيماً .

٣ - وما أنشده ابن الأعرابي :

كأن في أذنانهم الشوَل من عبس الصيف قرون الإجل ^(٥)

يريد الأيل ، والشعر لأبي النجم المعجلي في وصف الأيل كما في شرح الشافعية ^(٦) .

٤ - وما عزي لبعض اليمنيين :

لا همَّ إن كنتَ قبلتَ حَجَّتَجْ
فلا يزال شاججٌ يأتيك بَجْ
أقرُّ نَهاتٌ ينزّي وقرتج ^(٧)

(١) التصريح : ٣٦٧/٢ .

(٢) إبدال السكيت : ٢٨ .

(٣) سر صناعة الإعراب : ١٩٢/١ .

(٤) شرح الشافعية : ٢١٦/٤ .

(٥) سر الصناعة : ١٩٣/١ .

(٦) ٤٨٥/٤ .

(٧) اللسان : ٢٦/٣ - ٢٧ ، شرح الشافعية : ٢٨٧/٢ ، والسيرافي على سيبويه : ٤٤١/٥ مخطوط ، ليس في كلام العرب لابن خالويه : ٤٧ .

فلم نجد من اشترط وجود العين ، وإذا ذهبنا على أن قضاة يمنية في نسبها فما عزي منسوباً إلى اليمن لا نجد فيه أثراً لهذه العين ، التي يشترطها الجوهرى - بل نلمح شيئاً آخر في شاهد أبي النجم وهو أن الياء قد قلبت جيماً مع أنها ليست طرفاً وإذا عرفنا أن هذا الشاعر كما تحدثنا كتب الطبقات من بني عجل بن لجيم التي يؤول نسبها إلى بكر بن وائل^(١) - عرفنا أن هذه الظاهرة قد شملت بقاعاً جديدة فوق ما حددته الروايات اللغوية وأيضاً ما كان فالعلاقة التاريخية والجغرافية تربط أكثر هذه القبائل التي تنطق الياء جيماً ، فاليمن موصولة النسب بقضاة على رأي كثرة من النسابين ، وقضاة تربط بطيء ، لأن كليهما من اليمن ولأن الروايات العربية التاريخية تلمح على أن بطون قضاة لما انتشرت إلى شمال الجزيرة ، أخذت بعض هذه البطون أماكنها في أجأ وسلمى ، وهو موطن طيء ، « بل يذكر الأخباريون أن طيئاً بعد أن بلغت جبلي أجأ وسلمى - شاهدت هناك شيخاً مع ابنته يمتلكان هذين الجبلين ، وهذا الشيخ من « صحرار » ، « وصحرار » اسم بطن من قضاة^(٢) وإذا قد عقدنا هذه الصلة ؛ فإننا نعدها أيضاً بين بني دُبَيْش من أسد ، وبين طيء من جانب آخر ، لأنها هي الأخرى قد وجدت فيها ظاهرة العجمجة « فطيء عندما نزحت من الجنوب اختلطت بقبائل أسد^(٣) ثم أجلت طيء أسداً واستقرت مكانها ولا شك أن هذا الاتصال الجغرافي يمكن أن يولد لنا اتصالاً لغوياً .

وندير البحث ناحية أخرى ، وهي : هل كانت هذه الظاهرة في حالتها الوصل والوقف ؟ أكثر الشواهد التي تحت يدي تترك هذا الأمر غفلاً ، وبعضها قيدته بأن هذا الإبدال لا يكون إلا في حالة الوقف - فابن يعيش يقيد ذلك بحالة الوقف^(٤) ، وكذلك رضي الدين^(٥) ، وسيبويه^(٦) ، والسيرافي على سيبويه^(٧) ، وابن منظور ناقلاً عن سيبويه^(٨) ، أما أبو الطيب اللغوي

(١) معجم كحالة : ٧٥٧/٢ .

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام : ٢٦٨/٤ - ٢٦٩ جواد علي .

(٣) نهاية الأرب : ٣٢٦ .

(٤) شرح ابن يعيش : ٧٤/٩ ، ٥٠/١٠ - ٥١ .

(٥) شرح الشافية : ٢٨٧/٢ .

(٦) الكتاب : ٢٨٨/٢ .

(٧) شرح السيرافي : ٥٦٢/٥ .

(٨) اللسان : ٦١/٦ - ٦٢ مادة شعر .

في إبدال^(١)، وابن السكيت^(٢) في الإبدال ، وصاحب الأمالي^(٣) ، وابن جنبي في سر الصناعة^(٤) فلم يقيّدوا هذا الإبدال بالوصل أو بالوقف .

والذي أميل إليه أن هذه الظاهرة تكون في الوقف فقط ، ومساعد ذلك ضرورة ، والسبب في ذلك أن النطق بالياء يزداد خفاء في الوقف لسكونها ، لهذا أبدلوا منها الجيم ، والجيم أظهر من الياء ، أما في حالة الوصل فلا حاجة إلى هذا الإبدال ، لأن الياء ظاهرة واضحة وشأنها في ذلك كأي حرف ولهذا جهل الإمام السخاوي بعض القراء في قراءتهم لقوله تعالى (اياك نعبد)^(٥) إذ ينطقون الياء كالجيم . « أما ما ذهب إليه ابن عصفور في ضرائره ، بأن هذا الإبدال^(٦) خاص بالشعر » فقد جانب الصواب لأنه ثبت أنه لغة ، بل لا تزال هذه اللغة في اللهجات العربية الجنوبية الحديثة^(٧) ، وفي لغة Tigré في بلاد الحبشة الشمالية^(٨) ، كما في حضرموت في أيامنا هذه ، كما كانت موجودة أيضاً في النقوش اللحيانية^(٩) .

ز (المجرفية :

والمجرفية كالمغممة من جهة أنها أنماط مختلفة تتعلق بهيئة النطق والتلفظ وكما ضمن الرواة بمثال للمغممة ضنوا كذلك بنموذج للمجرفية ، ولهذا لجأت إلى المعاجم لتلمس تلك الظاهرة :
١ - فالمجرفة : ركوب الرأس في الأمر^(١٠) . كما يقولون : رأيت عجارف المطر : إذا أقبل بشدة^(١١) . وعن ابن دريد أنها « الإقدام في هوج »^(١٢) ، وعن الزمخشري أنها « الجفوة »^(١٣) .

(١) ٢٦٠/١ .

(٢) ٢٨ .

(٣) أمالي القاضي : ٧٧/٢ - ٧٨ .

(٤) سر الصناعة : ١٩٢/١ .

(٥) نهاية القول المفيد : ٧٤ .

(٦) شواهد الشافية : ٢١٦/٤ .

(٧) محاضرات الدكتور نامي في معهد اللغات سنة ١٩٥٢ .

(٨) مجلة كلية الآداب : مجلد ١٠ ج ١ : ص ٣١ .

(٩) لغات النقوش العربية الشمالية : ١٠ دكتور مراد كامل .

(١٠) المجرة : ٤٢٦/٣ .

(١١) المرجع السابق : ٣٢٣/٣ .

(١٢) المرجع السابق .

(١٣) أساس البلاغة : ٢٩٤ .

٢ - ويرى ابن سيدة أن المعجرفية هي التقعر في الكلام^(١) ، ويقول الزمخشري « ورجل مقعر يتكلم بقعر حلقه »^(٢) ، والتقعر هو : التشدق .

ومن خلال هذه النصوص أرجح أن المعجرفية صفة أقرب إلى الشدة والغلظة والجفوة تتمثل في تفخيم الحروف وتفليطها حتى يملأ صداها الحنك والفم - فأصحابها كما أظن يؤثرون الأصوات الشديدة المجهورة ، أو المفخمة ، لأن فيها عناصر الانفجار والبروز وما يشبه الفرقة ، وهي صفات للكلام تنبع منها الأسماع وتأنف منها الطباع لوحشيتها وغلظتها ، ويمكن أن تنمّس هذه المعجرفية في الأعراب البداءة الذين وفدوا على الرسول ﷺ وأخذوا ينادونه من وراء الحجرات بصوت أجش أشبه بالمتفجرات المتصلة الدوي - وكأنه سلسلة يتبرأ بعض حلقاتها من بعض - حتى وصفهم القرآن بأن « أكثرهم لا يعقلون »^(٣) وراح يدعوم إلى أدب الإسلام حين يخاطبون الرسول في قوله « ولا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ » وقوله : « واغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ - إن أنكر الأصوات لصوت الحمير »^(٤) .

وإذا كان الأعراب البداءة يتسمون بالشدة والغلظة في المحسوس من أمورهم كالأصوات والأقوال ، فإنهم أشد وأغلظ في خفيات الأمور ، ودخائل النفوس ، ألا ترى إلى قوله تعالى « الأعراب أشد كفراً ونفاقاً »^(٥) .

وكان من الطبيعي أن تحافظ قبيلة ضبة على تلك الظاهرة ، لأنها قبيلة بدوية حافظت على النطق القديم ، فهي لم تتأثر بغيرها ، ولم يتأثر غيرها بها ، يوضح هذا المعنى « أن ضبة داخلية في قبائل الجمرات - وهي قبائل اتفقت على ألا تخرج أحداً منها إلى غيرها ، ولا تدخل من غيرها أحداً فيها »^(٦) ولهذا بقيت لهجة ضبة في حفاظها على الطور الأول من لهجتها لعزلتها حتى بعد الإسلام حين ذهب الرواة يتلففون اللغة من القبائل - فلمسوا تلك الظاهرة التي أطلقوا عليها « المعجرفية » ، لذا قد جاءت رواية عن ثعلب في عدة مصادر تشير إلى أن المعجرفية في ضبة^(٧) ،

(١) الخزائن : ٥٩٦/٤ .

(٢) الأساس : ٣٧٣ .

(٣) سورة الحجرات : آية ٤ .

(٤) سورة لقمان : آية ١٩ .

(٥) سورة التوبة : آية ٩٧ .

(٦) انظر : تاريخ أدب العرب للرافعي : ١٢٧/١ .

(٧) مجالس ثعلب : ١٠٠/١ ، الخزائن : ٥٩٦/٤ ، الزهر : ٢١١/١ .

لكن ورد عن ابن فارس ما يفيد غير ذلك ، وهو أنه عزا « العجرفية لقيس »^(١) وأرى أن ابن فارس إما أن يكون قد حرف في الرواية ، وإما أن يكون على رغم هذا التحريف لا تعارض بين الروایتين ما دامت العجرفية من صفات القبائل البدوية ، لكن أرى أن تخصص رواية ابن فارس ببعض قبائل قيس لا كلها ، كما رأى ابن فارس وهي تلك التي جاورت ضبة - كباهلة وغني ، وهما من قيس ، وكانت ضبة وباهلة على جوار حيث سكنتا اليامة ،^(٢) .

فلعل العجرفية - والتي هي من خصائص ضبة - قد تأثرت بها بعض القبائل القيسية المتصلة بضبة ، والتأثير والتأثر قائم بين اللهجات ، وهذا معنى قول ابن جني عن العرب « فسيانهم بتجاورهم وتلاقيهم وتزاورهم يحرون مجرى الجماعة في دار واحدة »^(٣) .

ح) الغفمة :

ولتفسير هذه الظاهرة نعرض ما يلي :

جاء في كامل المبرد « أن معاوية قال يوماً لجلسائه : من أفصح الناس ؟ فقام رجل من السباط فقال : قوم تباعدوا عن فرائية العراق ، وتيامنوا عن كشكشة تميم ، وتياسروا عن كسكة بكر ، ليس فيهم غفمة قضاة ، ولا طمطمانية حمير ، فقال له معاوية : من أولئك ، فقال : قومي يا أمير المؤمنين ، فقال له معاوية : من أنت ؟ قال : أنا رجل من جرّم »^(٤) كما وردت نفس هذه الرواية في الفائق في غريب الحديث للزغشري^(٥) ، والمفصل^(٦) ، وشرحه لابن يعيش^(٧) ، ودرة الغواص^(٨) ، وشرحها^(٩) ، وخزانة^(١٠) البغدادي ، كما وردت أيضاً في البيان^(١١)

(١) الصاحبي لابن فارس : ٢٣ .

(٢) معجم كحالة : ٦٠/١ ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : ٣٢٨/٤ جواد علي .

(٣) الخصائص : ١٥/٢ ط دار الكتب .

(٤) الكامل للمبرد : ٣٧٠/١ وما بعدها .

(٥) ٤٥٨/٢ .

(٦) ٣٣٣ .

(٧) ٤٨/٩ وما بعدها .

(٨) ١١٤ .

(٩) ٢٣٤ .

(١٠) ٥٩٥/٤ وما بعدها .

(١١) ٢١٢/٣ .

للمحافظ ، وشرح السيراني^(١) ، مع اختلاف في بعض عبارات الرواية .

وفهم من المناقشة التي دارت بين معاوية وجلسائه أن الغمغمة عيب في المنطق تتنزه عنها اللغة الفصحى ، وبعد البحث والاستقصاء لم أجد أمثلة فيما تحت يدي من المصادر توضح هذه الظاهرة ، لهذا لجأت الى المعاجم لأسترشد بها في كنه هذه الظاهرة .

١ - ففي الجوهرة : أن « الغمغمة مثل المهمة - كلام لا تفهمه »^(٢) .

٢ - وفي أساس البلاغة : غم الشيء إذا غطاه ... ومن المجاز « سحب أغم : لا فرجة فيه »^(٣) .

٣ - « أن الغمغمة : صفة للقيسي إذا كانت هتوفاً - أي أن صوتها يطيف بالقوس فيكون له رنة »^(٤) .

وفهم من المعنى المجمي أنك تسمع الصوت ولكن تخفي فيه مقاطع الحروف وبيان أجزائها ، وتمييز كلماتها لسرعة النطق « ولهذا يقال لأصوات الأبطال والثيران عند الذعر - غماغم »^(٥) ، وكان المعنى الجامع هو الاختلاط وعدم التمييز والإفصاح في نطق الكلام حتى لا يفهم السامع المراد ، ولهذا أرجح أن خفاء النطق وعدم تميزه كان عند قضاة في حروف الكلمة ، وفي ربط الكلمات بعضها ببعض ، وهي لذلك أشبه شيء باللتف : وهو إدخال حرف في حرف^(٦) ، وإذا ذهبنا لبحث الغمغمة - وهي عكس الغمغمة - وجدنا لها نفس المعنى ، إذ يقول ابن دريد : مغمغ كلامه - إذا لم يبينه »^(٧) .

وإذا كانت ظاهرة الغمغمة كما في المصادر السابقة - قد اتصفت بها قضاة ، فقد عثرت على رواية تفيد أن الغمغمة في قریش لا قضاة^(٨) ، ولكنني أرد هذه الرواية لما يأتي :

(١) ٤٦٨/٥ مخطوط في مكتبة تيمور .

(٢) الجوهرة : ١٦١/١ .

(٣) أساس البلاغة : ٣٢٩ .

(٤) الجوهرة : ٤٥٧/٣ .

(٥) شرح الدرر : ٢٣٥ .

(٦) المقد الفريد لابن عبد ربه : ٢٩٦/٢ .

(٧) الجوهرة : ١٦١/١ .

(٨) تاج العروس : ٦/٩ .

- أ (ما عزي الى فتادة (١١٧ هـ) من أن « قريشاً كانت مجتبي - أي مختار أفضل لغات العرب حتى صار أفضل لغاتها لغتها - فنزل القرآن بها »^(١) .
- ب (وما ورد في اللسان عن أبي بكر « قريش هم أوسط العرب في العرب داراً ، وأحسنه جواراً ، وأعربه ألسنة »^(٢) .
- ج (وما نقله ابن فارس عن أشياخه من « أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة »^(٣) .
- د (وما جاء عن الفراء عند حديثه عن قريش وأنهم « صاروا أفصح العرب ، وخلت لغتهم من مستبشع اللغات ، ومستبشع الألفاظ »^(٤) .

ولهذا كله تخلت لهجة قريش عن هذه الغمغة ، لأنها مستبشعة مستبشعة ، فإذا أضيف الى هذا رواية أخرى للمحاورة التي وقعت آنفاً بين معاوية وجلسائه حين سألهم عن أفصح الناس فقال (أحدهم) : قوم ارتفعوا عن فراتية . للعراق . ليس فيهم غمغة قضاة ... قال من هم ؟ قال : قومك قريش ، قال : صدقت^(٥) . فلو كانت الغمغة في قريش كما جاء عن صاحب التاج ، لكان المعنى في الرواية السابقة « ليس فيهم غمغة قريش قال : من هم ؟ قال : قومك قريش » فيتعارض النص داخلياً إذ تكون في قريش الغمغة ، فلقتها لذلك ليست فصيحة ، وهذا يناقض قوله في آخر النص « قومك قريش » أي أفصح الناس . ويبدو أن ظاهرة الغمغة هذه قد شاعت في بعض قرى مديرية الشرقية كما رجح ذلك حفني ناصف^(٦) . وقد اكتشفت فيما جاء عن المقرئ - ما يوضح تلك القرابة اللهجية بين قضاة وبين بعض القرى في مديرية الشرقية ، إذ يقول « وبلي » (وهي من قضاة) قبيلة عظيمة فيها بطون كثيرة ، وكانت بلي بالشام فتأدى رجل من بلي بالشام يال قضاة ، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه فكتب الى عامل الشام أن يسير ثلث قضاة الى مصر فنظروا ، فإذا بلي ثلث قضاة ، فسيروا الى مصر^(٧) .

(١) اللسان : ٧٧/٢ .

(٢) اللسان : ٧٧/٢ .

(٣) المزهر : ٢١٠/١ ، الصاحي : ٢٣ .

(٤) المزهر : ٢٢١/١ ، الاقتراح : ٨٣ .

(٥) الفائق للزخشري : ٤٥٨/٢ .

(٦) ميزات لغات العرب : ٣٥ .

(٧) البيان والاعراب : ٢٩ .

ويرجع أن بلياً - سكنت الصحراء الشرقية ، كما أن قبائل عدة من جهينة (وهي فرع من قضاة) قد سكنت الشرقية ومركز فاقوس ، حيث بها إلى الآن قرية قديمة تسمى « دوار جهينة »^(١) .

وهذا يشير إلى أن الغممة في بعض قرى مديرية الشرقية موروثه عن قضاة اليمنية - وذلك يؤكد قوة العلاقة اللهجية بين السالفين والخالفين عبر القرون .

ط (الوشم :

وهو كما ذكره اللغويون - إبدال السين المهملة - تاء فوقية فيقولون : (النات بالناات) أي الناس بالناس . وقد عزيت هذه الظاهرة لأقوام عديدين ، فعزاها الأزهرى لمير^(٢) ، واستشهد لها بقولهم « لبات » بمعنى « لا بأس عليك » واستشهد لها اللسان بقول شاعرهم :

تنادوا عند غدرهم لباتٍ وقد بردت معاذر ذي رعين

ويبدو أن الأزهرى نقل هذا الشاهد من كتاب شعر^(٣) . كما حكيت هذه الظاهرة عن (قضاة) واستشهد لها بقول الشاعر :

يا قاتل الله بني السعلات عمرو بن يربوع شرار النات

غير أعفاء ولا أكيات^(٤)

وفي نوادر أبي زيد : أن هذا من قبيل البدل ، أو من قبيل الضرورة^(٥) ، ووصف الرضي هذا الإبدال بالندور^(٦) ، ولكن حكاية أبي عمرو بأن صيغة (النات) بدل الناس في قوله تعالى « قل أعودُ بربّ النات »^(٧) لغة قضاة^(٨) يقف في سبيل أبي زيد حيث يرى أنها ضرورة

(١) البيان والاعراب : ٣٢ هامش .

(٢) اللسان : ٣٨٨/٢ .

(٣) اللسان : ٣١٨/٧ وما بعدها .

(٤) نوادر أبي زيد : ١٤٧ .

(٥) المرجع السابق : ١٠٤ .

(٦) شرح الشافية : ٢٢١/٣ .

(٧) سورة الناس : آية ١ .

(٨) مختصر شواذ القرآن : ١٧٣ ابن خالويه .

وليست لغة، ولا ضرورة في القرآن، على أنه لا ضير أن تتبادل التاء مع السين فكلاهما متقارب من الآخر، فالتاء من الأصوات الشديدة ونظيرها الرخو هو السين، ثم هي موافقة لها في الهمس وقرب المخرج، وقد جاءت ألفاظ تؤيد هذا البديل: منها ختيت في خسيس^(١) ومرمرت الداهية من الرجال في مرميس^(٢)، وإذا كانت الظاهرة قد عزيت لمخير مرة، ولقضاة أخرى فلا تهاقت في هذا العزو، لأن قضاة على الرأي الأشهر من مالك بن عمرو بن مرة بن زيد بن مالك بن حمير^(٣)، ولكن قضاة شعب كبير، فهل كانت كل سين تبدلها تاء في جميع قبائلها أم أن ذلك في بعض بطونها فقط؟ - أرجح الرأي الثاني وسبب ذلك أن تحول السين وهو صوت رخو إلى التاء وهو صوت شديد لا يكون إلا من سمة القبائل المتبدية، لأنها تميل إلى الأصوات الشديدة، والصوت الشديد أيسر من نظيره الرخو وخير قبائل قضاة تنسب لها الظاهرة هي جرم وجهينة - لأخذها من البداوة بقسط كبير. وإذا كان معنى الوتم هو قلب السين المهملة تاء فوقية^(٤)، فذلك يشير إلى الخطأ الذي تردى فيه شارح القاموس في المقدمة حيث ذكر أن (الوتم) هو جعل الكاف شيناً مطلقاً^(٥)، وما أراده شارح القاموس يجب أن تكون الشنشة لا الوتم، والشنشة هي قلب الكاف شيناً مطلقاً وهي في اليمن^(٦).

ي (الاستنطاء :

وهو عند اللغويين أن تبدل العين الساكنة نوناً - إذا جاورت الطاء وذلك مثل: أنطى - في أعطى وقد جاءت عدة روايات في نسبة هذه الظاهرة :

١ - ففي اللسان : الإنطاء = الإعطاء بلغة أهل اليمن^(٧)، وكذلك جاءت رواية مماثلة في كتاب^(٨) شمس العلوم .

(١) مر الصناعة : ١٧٣/١ ط الحلبي .

(٢) اللسان : ١٠١/٨ .

(٣) معجم كحالة : ٩٥٧/٣ .

(٤) اللغات واللهجات : مقال للأب أنستاس الكرمل في مجلة المشرق السنة ٦ عدد ١٢ سنة ١٩٠٣ .

(٥) تاج العروس : ٨/١ .

(٦) الجاسوس : ١٨٣ .

(٧) اللسان : ٢٠٦/٢٠ .

(٨) ١٠٤ .

٢ - وعزاها التبزي الى العرب العاربة^(١) .

٣ - كما عزاها السيوطي : الى سعد بن بكر ، وهذيل ، والأزد ، وقيس ، والأنصار^(٢) .

٤ - وعزاها الشدياق : كرواية السيوطي مستثنياً قيساً ، فلم يذكرها^(٣) .

وبالبحث في الظواهر اللهجية لقيس ، وفي ديوان هذيل ، لم أعر على تلك الظاهرة ، لذلك أرجح أن « قيساً » في نص السيوطي ، ليس المراد بها قيس عيلان وإنما هي قيس أخرى ، وأرجح أنها بطن من ممدان القحطانية وما يؤيدني في ذلك ما جاء في البحر المحيط من قول الشاعر الأعشى :

جياذك خير جياذ الملوك تصان الجلال وتنطى الشعير^(٤)

وقائل هذا البيت هو الأعشى - وهو من قيس القحطانية^(٥) . وكذلك أرجح أن هذيل ليست تلك القبيلة المعروفة من مضر - وإنما هي هذيل اليمنية^(٦) فتكون الظاهرة قد خلصت لليمن بدليل وجود الأنصار ، والأزد في نص السيوطي وجميعهم من اليمن .

وأما النصوص الدالة على تلك الظاهرة فهي :

أ (جاء في البحر المحيط : في قوله تعالى « إنا أعطيناك الكوثر »^(٧) أن الحسن وطلحة وغيرهم قرأوا « أنطيناك وهي قراءة مروية عن الرسول ﷺ^(٨) كما قرأ ابن مسعود والأعشى « وآتاهم تقوam » ، « وأنطام تقوam »^(٩) كما وجدت هذه الصيغة في المصاحف القديمة الآتية :

(١) البحر المحيط : ٥١٩/٨ .

(٢) الاقتراح : ٨٣ - ٨٤ .

(٣) الجاسوس : ١٨٣ .

(٤) البحر : ٥١٩/٨ ، وانظر إبدال أبي الطيب : ٣١٨/٢ .

جياذك في القيسط في نعمة تصان الجلال وتنطى الشعير

وفي البحر : الجلال « الشعير » .

(٥) معجم كعالة : ٩٧٢/٣ .

(٦) معجم كعالة : ١٢١٣/٣ .

(٧) سورة الكوثر : آية ١ .

(٨) البحر : ٥١٩/٨ ، مختصر شواذ القرآن : ١٨١ .

(٩) المرجع السابق : ١٤١ ابن خالويه .

- ١ - مصحف ابن مسعود .
- ٢ - مصحف أبي بن كعب .
- ٣ - طلحة بن مصرف .
- ٤ - مصحف الربيع بن خيثم^(١) .

(ب) جاء في الأثر :

- ١ - أن الرسول ﷺ قال : اليد العليا المنطية ، واليد السفلى المنطاة^(٢) .
- ٢ - إن مال الله مسئول ومنطى^(٣) .
- ٣ - وفي كتابه ﷺ لوائيل : وأنطوا التبعة^(٤) .
- ٤ - وفي كتابه ﷺ لتميم الداري : هذا ما أنطى محمد رسول الله لتميم الداري وإخوته :
حبرون ، والمرطوم وبيت عينون ، وبيت إبراهيم ، وما فيهن نطية بت بذمتهم^(٥) « وابن
فضل الله العمري صاحب كتاب مسالك الأبصار نقل هذا النص من الكتاب النبوي نفسه ،
إذ قال وقد رأيت ذلك كله بعيني » .

(ج) وجاء في الأدب ، ما أنشده ثعلب :

من المنطيات المركب المعج بعدما يرى في فروع المقلتين نضوب^(٦)
ويرى بعض المحدثين أن الرواة لم يصفوا لنا هذه الظاهرة بدقة ، ويميل إلى أنهم ربما كانوا
ينطقون بالعين نطقاً أنفياً - بأن يجعلوا يجرى النفس معه من الفم والأنف معاً ، فتسمع العين

(١) انظر : تاريخ المصاحف لجفري .

(٢) البحر : ٥٠٩/٨ .

(٣) اللسان : ٢٠٦/٢٠ .

(٤) مجموعة الوثائق السياسية : ١٠٧ الحيدر آبادي .

(٥) مسالك الأبصار : ١٧٤/١ لابن فضل الله العمري : دار الكتب ، وانظر : جبهة رسائل العرب :
٧٢/١ - ٧٣ أحمد زكي صفوت ط ١ ، ومجموعة الوثائق السياسية : ٦٩ .

(٦) اللسان : ٢٠٦/٢٠ .

ممتزجة بصوت النون ، وليست في الحقيقة نونا^(١) ، ولا يرضى « رابين »^(٢) أن العين محمولة الى نون مطبقة تحت تأثير الطاء لعامل صوتي ، بل يذكر أنه يوجد في العبرية الفعل נָתַן ويعتمدى به الى ومعناه (مديده الى) ، ويقترح (رابين) أن يكون الفعل انطى مخالفاً للفعل أعطى ، وليس مغايراً صوتياً له ، وإنما الفعل « انطى » هو صيغة التعدية من الفعل الجرد « نطى بمعنى مديده الى » كما يميل بعض المستشرقين^(٣) الى أن أنفية العين كانت صفة صوتية ملازمة لها منذ السامية الأولى ، وقد وجدت ظاهرة الاستنطاء في لغة الاغراب بصحاري مصر ، ويرى بعض المحدثين أنها شائعة في لهجة العراقيين^(٤) أيضاً .

وهذا يشير الى أن في النازلين الأولين في العراق ، ومصر من العرب قوماً ممن كانت سمتهم تلك الظاهرة ، وجدير بالذكر أن صيغة (أعطى) قد استبدلت بصيغة (أطمى) في بعض قرى فلسطين^(٥) ، وكأنها مقلوبة عن الصيغة الأولى .

ك (التثنية)

لم تكن القبائل العربية متفقة في تلك الظاهرة بل كان كل قبيل من العرب أو كل مجموعة من القبائل تتخذ لها خطأ أو اتجاهًا يختلف عن الأخرى ، ولا يستطيع الباحث اعتماداً على نص أو نصين - أن يصل الى حقيقة هذا الأمر ، لهذا وسعت دائرة البحث وحاولت جمع النصوص التي تتناول الظاهرة ، ثم دراستها ومقارنتها ، وكانت النصوص تشير - بعد عرضها وتلخيصها - الى تلك الاتجاهات الكبرى .

أولاً : يزداد حرف المضارعة مضموماً في الماضي الرباعي - تقول : يدحرج ويكرم كما يزداد حرف المضارعة مفتوحاً - إذا أردت بناء المضارع من ثلاثي أو خماسي أو سداسي في مثل : ينصر ، ويتعلم ، وينطلق ، ولا يجوز عند الحجازيين كسر حرف المضارعة .

ثانياً : عند غير الحجازيين :

١ - يكسر ما عدا الياء من أحرف المضارعة فيما يلي :

(١) في اللهجات العربية : ١٣٠ الطبعة الثانية .

(٢) Rabin, P. 32

(٣) Rabin, P. 32

(٤) فقه اللغة : وافي ١٥٣ الطبعة الثالثة .

(٥) محاضرات للدكتور عساكر نغلا عن الأطلس الجغرافي اللغوي لفلسطين : عمل برجستراسر .

أ (مضارع الثلاثي المبني للفاعل إذا كان الماضي على وزن فعل بكسر العين وقد استقصيت ما جاء على ذلك من منشور العرب ومنظومها فمن ذلك :

قراءة أبي عمرو (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا)^(١) بكسر التاء على لغة تميم^(٢) ، والماضي منه فعل بكسر العين ، كما قرأ ابن وثاب وأبو رزين « مالك لا تيمنا »^(٣) على لغة تميم بكسر التاء مع الإدغام^(٤) وفي مصحف ابن مسعود « تيمنه »^(٥) ، وكذلك في مصحف أبي بن كعب « تئمنه »^(٦) وعلى هذا كتبت في مصحف الربيع بن خيثم^(٧) ، ومن ذلك ما جاء في المحتسب من قراءة يحيى « فإنهم ييلون كما تيلون »^(٨) والفعل ألم - بكسر العين ، وقد قرأ يحيى بن وثاب « ألم أعهد إليكم »^(٩) بكسر همزة « أعهد » ، كما ذكر أبو حاتم السجستاني أنه سمع حترش بن ثمال - وهو عربي فصيح - يقول في خطبته : « الحمد لله أحسده واستعينه وأتوكل عليه » فيكسر الألفات كلها^(١٠) ، واستشهد صاحب التصريح بقول الشاعر :

لوقلت ما في قومها لم تيشم يفضلها في نسب وميسم^(١١)

وقد عزا صاحب المفضل على المفضل - هذا الشاهد لشاعر من تميم^(١٢) ، وساق المعري قول الشاعر :

قلت لبوابٍ لديه دارها تيدن فإني حمؤها وجارها^(١٣)

(١) سورة هود : آية ١١٣ .

(٢) البحر : ٢٦٩/٥ ، وشواذ القرآن : ٦١ .

(٣) يوسف : آية ١١ .

(٤) البحر : ٢٨٥/٥ ، تفسير الكشاف : ٣٤٩/٢ ط الثانية ١٩٥٣ .

(٥) مصحف ابن مسعود لجفري : سورة آل عمران : آية ٧٥ .

(٦) المرجع السابق : مصحف أبي بن كعب .

(٧) المرجع السابق : مصحف الربيع لجفري .

(٨) المحتسب : ٢٣٧/١ خط تيمور .

(٩) سورة يس : آية ٦٠ .

(١٠) مقدمتان في علوم القرآن : جفري مباني : ٢٢٠ .

(١١) التصريح : ١١٨/٢ ، الأشموني : ٧٠/٣ .

(١٢) المفضل : ١١٨ .

(١٣) عبث الوليد : ١٦٨ .

وأصلها : أتأذن ؟ ثم كسرت التاء ، وإنما كسر حرف المضارعة دلالة على كسر عين الماضي^(١) . هذا ، وقد رأى ابن عطية أن كسر حروف المضارعة لغة قرشية ، وقد نقل عنه ذلك أبو حيان في تفسيره لقوله تعالى « ومن أهل الكتاب من إن تأمنه »^(٢) . والذي أراه أن ابن عطية واهم في ذلك ، إذ كسر حروف المضارعة لم يكن في لهجة قريش ، قال الداني عن ظاهرة الكسر « وهي لغة قيم »^(٣) ، كما عزاها إليهم أيضاً أبو عمرو^(٤) ، كما عزيت في الخزائن إلى قيم وبراء^(٥) .

ب (الفعل الناقص المكسور العين واوياً كان أو يائياً - كقولهم : شقيت فأنت تشقى ، وخشيت فأنا أخشى^(٦) ، بكسر التاء من تشقى ، والهمزة من أخشى .

وفي قوله تعالى : « فكيف آسى على قوم كافرين » الأعراف ٩٣ . قرىء : « فكيف إيسى على قوم ... » بكسر الهمزة وهي قراءة يحيى بن وثاب وطلحة . (مختصر شواذ القرآن ٤٥ لابن خالويه) .

ج (الفعل الأجوف كقولهم : خلنا فنحن نخال وأنا إخال : بكسر النون والهمزة وقد ساق المرزوقي قول رجل من جرم :

إخالك موعدي ببني جفيف وهالة ، إنني أنهاك هالا^(٧)

وَجَرَّمْ هَؤُلَاءَ : من طيء ، فكأنهم يكسرون همزة إخال ، وما يؤيد تلك الملاحظة ما جاء في شرح التبريزي حيث نسب الكسرة في إخال - لطيء^(٨) ، ولكن وجدت في مكان آخر من شرح المرزوقي ما يفيد أن كسر إخال - في لغة هذيل^(٩) ، وقد عزا صاحب الخزائن الفتح لأسد ، حيث ذكر البيت :

(١) الشافية : ١٤١/١ .

(٢) البحر : ٤٩٩/٢ .

(٣) الثهر الماد : ٤٩٨/٢ .

(٤) البحر : ٢٦٩/٠ .

(٥) خزائن الأدب : ٤٩٥/٤ - ٤٩٦ .

(٦) كتاب سيبويه : ٢٥٦/٢ ، شرح الشافية : ١٤١/١ .

(٧) شرح حملة المرزوقي : ٢٤٨/١ .

(٨) حاشية التبريزي : ٢٤٢/١ .

(٩) حاشية المرزوقي : ١٨٤٥/٤ .

أرجو وأمل أن تُدنو مودتها وما إخال لدينا منك تنويل^(١)

ثم قال « وفتحها لغة أسد »^(٢) ، وكذلك عزاها صاحب اللسان^(٣) ، والمصباح^(٤) ، والأزهري^(٥) إلى بني أسد كذلك ، وكان المفروض أن تقول أسد ذلك بالكسر ، لأن كسر حرف المضارع من خصائص الجزء الشرقي من الجزيرة « كقيس وتميم وأسد وربيعه وعامة العرب »^(٦) ، كما أن هذيلًا وهي قبيلة تتصل بالحجاز كان عليها أن تقول ذلك بالفتح ، لأن الحجاز تفتح هذا بدليل ما جاء في شعر ابن أبي ربيعة :

ما لقلبي كأنه ليس مِنِّي وعظامي أخال فيهن فتنراً

بفتح همزة أخال ، والسبب أن عمر حجازي ودليل آخر وهو قول صاحب اللسان من أن « أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل يقولون : تعلم »^(٧) بفتح التاء . وجلاً لهذا أشك في أن قبيلة أسد تفتح أخال - كما جاء عن الرواة ، بل هي تكسر ، وإنما الذي يفتح هي قبيلة أزد كما في الرواية السابقة ، ومن الجائز أن يكون الرواة قد خلطوا بين قبيلة الأزد وقبيلة أسد لاسياً في الكتابة ، وقد وقع في هذا الخلط أحمد بن فارس حيث ذكر الاختلاف في الحركات كقولهم « نَسْتَمِين ، نِسْتَمِين » ، ثم نقل عن الفراء في ذلك بما يفيد أن التثنية « مفتوحة في لغة قریش وأسد ، وغيرهم يقولونها بكسر النون »^(٨) فالفتح نسلم به في لهجة الحجاز وقریش ، ولكن لا نستطيع أن نسلم به في لهجة أسد ، لما تقدم ، ولأن أسداً من المجموعة الشرقية التي تؤثر الكسر ، وقد عثرت على نص لابن فارس يعارض نصه السابق حيث يقول « وكانت قریش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقصة ألسنتها إذا أتتهم الوفود من العرب تخبروا كلامهم ... ثم قال : ألا ترى أنك لا تجد في كلامهم عننة تميم ، ولا عجرية قيس ، ولا

(١) خزانة البغدادي : ٧/٤ .

(٢) الخزانة : ١١/٤ .

(٣) اللسان : ٢٤٠/١٣ .

(٤) ٢٨٨/١ .

(٥) التصريح : ٢٥٨/١ .

(٦) اللسان : ٢٨٣/٢٠ .

(٧) شرح السيرافي : ٣١٦/٥ خط بالتيمورية .

(٨) الصاحبي : ١٩ .

كشكشة أسد، ولا كسكسة ربيعة، ولا الكسر الذي تسمعه من أسد وقيس - مثل ثعلبون - نعلم ...^(١) فابن فارس هنا يعزو الكسر صراحة الى أسد وقيس ، بينما عزا الفتح في نصه السابق الى قريش وأسد ، ولهذا الاضطراب والخلط رجحت أن المقصود بالفتح في أسد - أزد - في نص ابن فارس حتى يتفق مع نصه الثاني ، هذا وقد أوقع وهم ابن فارس بعض المحدثين فوقعوا فيما وقع فيه^(٢) .

كما وقع خلط آخر لبعض علماء العربية حين توهم أن قريشاً تكسر حرف المضارعة وذلك في رواية نقلها السيوطي عن ثعلب مفادها « ارتفعت قريش من الفصاحة عن عننة تميم ، وتلتة بهراء ، وكسكسة ربيعة ، وكشكشة هوازن ، وتضعج قريش وعجرفية ضبة »^(٣) ولتوثيق هذا النص الذي ساقه السيوطي عن ثعلب ، عرضت النص نفسه على ما جاء في أمالي ثعلب لأستوثق منه فوجدته فيه « ارتفعت قريش في الفصاحة عن عننة تميم ... وتضعج قيس »^(٤) ، وقد نقل ابن جنبي في كتابيه الخصائص^(٥) ، وسر الصناعة^(٦) عن ثعلب ، رواية تتفق وما نقلته عن مجالس ثعلب ، كذلك رأى صاحب الخزنة رواية في أمالي ثعلب تتفق وما نقلته^(٧) .

وأما أن كسر الهمز من إخال - حيث عزاه المرزوقي الى طيء مرة ، والى هذيل مرة أخرى فهو يشير الى الخلط في أمر اللهجات - والى أن اللهجات عندهم لم تكن إلا أمراً ثانوياً على هامش الدراسة غير جديرة بالبحث والتحقيق - غير أنني أرى أن الكسر في طيء أولى لسببين:

أولهما : أن المرزوقي ساق شاهداً لها في لهجة جرم ، وجرم بطن من طيء ، أما حين عزاهما لهذيل فلم يقدم شاهداً لها ، بل اكتفى بقوله « وهي لغة هذيل »^(٨) .

(١) الصاحبي : ٢٣ .

(٢) تاريخ الأدب العربي : ١٢٧/١ الدكتور شوقي ضيف .

(٣) الزهر : ٢١١/١ .

(٤) مجالس ثعلب : ١٠٠/١ .

(٥) ١١/٢ .

(٦) ٢٣٤/١ .

(٧) الخزنة : ٥٩٦/٣ .

(٨) حاشية المرزوقي : ١٨٤٥/٤ .

التبريزي لأرى هذا الشاهد فيه ، وجدت أن كلمة (أخال) قد غيرت بكلمة أخرى وروى البيت فيه هكذا :

ما لقلبي كآنته ليس منسي وعظامي كأن فيهن فتشرا^(١)

ورواه المرزوقي :

(وعظامي أخال فيهن فترا)^(٢)

فالتبريزي غير رواية الشاهد .

وثانيها : لأن المرزوقي لما عزاها الى طيء عقب وقال « فكثرت استعمالها (أي الظاهرة) في السنة غيرها »^(٣) فكأن الظاهرة أصلاً في طيء ، ثم انتشرت الى مساجورها ، فإذا عثرت مستقبلاً على روايات وشواهد تؤيد أن هذيلاً نطقوا بالكسر رجحت أنهم من البدو .

د (مضعف الثلاثي الذي على وزن فعل بكسر العين ، وقد مثل له سيبويه بقوله : وعض فأنتن تعضضن ، وأنت تعضين)^(٤) بكسر التاء ، وأصل الفعل « عضض » بكسر العين وقد حاولت أن أجده صدقاً لهذا الفعل في القرآن فوجدته في قراءة ابن وثاب وعلقمة والأعمش وغيرهم « فتمسك النار »^(٥) حيث قرأوا بكسر التاء على لغة تميم^(٦) ، وفي قوله تعالى « ونقر في الأرحام »^(٧) بكسر النون . كما وجدت شاهداً لهذا الفعل المضارع بكسر حرف المضارعة في رواية لابن دريد جاء في اللسان وهي « كان لنا وهو فلو يرْبَبْهُ »^(٨) بكسر حرف المضارعة ، وعزى فيها كسر حرف المضارعة الى هذيل^(٩) . وبالبعث عن قائل

(١) حاشية التبريزي : ٣٣٦/٤ .

(٢) حاشية المرزوقي : ١٨٤٥/٤ .

(٣) حاشية المرزوقي : ٢٤٨/١ .

(٤) الكتاب : ٢٥٦/٢ .

(٥) سورة هود : آية ١١٣ .

(٦) البحر : ٢٦٩/٥ .

(٧) سورة الحج : آية ٥ .

(٨) اللسان : ٣٨٦/١ .

(٩) اللسان : ٤٣٣/١ ، ٣٨٦ .

هذا البيت وجدت الأصمعي قد عزاه الى دكين بن رجاء الفقيمي^(١) . وبالبحث عن فقيم في كتب الأنساب وجدت أنها بطن من حنظلة ، وحنظلة من تميم^(٢) . ولهذا لا أوافق على رأي ابن دريد السابق حيث عزا الظاهرة الى هذيل لأنها وجدت في شاهد لرجل من فقيم ابن حنظلة ، فالأولى أن تنسب الى فقيم ، ومما يقوي هذا أن هذا الكسر عزى الى تميم ، وحنظلة هذه من تميم أيضاً .

هـ (ما كان مبدوءاً بهزمة وصل مما جاوز ثلاثة أحرف^(٣) ، وذلك قولهم : أنت تستغفر وتحرنجم ، تنبياً على كون الماضي مكسور الأول وهو هزمة^(٤) . وقد وجدت توثيقاً لتلك اللهجة في قراءة لعبيد بن عمير الليثي وزر بن حبيش ويحيى بن وثاب وغيرهم حيث قرأوا « وإياك نستعين »^(٥) بكسر النون وقد عزاه أبو حيان الى قيس وقيم وأسد وربيعه^(٦) . وعزاه أبو جعفر الطوسي الى هذيل^(٧) ، وهذا يوضح لنا مدى الخلط بين اللهجات ، وأميل الى أن بعض هذيل كان يفتح كما في اللسان حيث عزا الفتح لبعض هذيل^(٨) ، ومفاد هذا أن بعضها الآخر كان يكسر - لا كلها كما جاء عن أبي جعفر الطوسي في روايته السابقة كما أرجح أن الذين يكسرون من هذيل كانوا بدوا ، وجاء في المحتسب « يَوْمَ تَبْيَضُّ وجوهٌ وتسود وجوهٌ »^(٩) بكسر حرف المضارعة كذلك .

و (ما كان ماضيه على وزن تفعّلت أو تفاعلت أو تفعّلت ، كقولهم : تكلمتم ، وتغافل ، وتدحرج ، فيقولون فيها : نتكلم ، ونتغافل ، وتدحرج ، وقد ذكر المحقق الرضي أن العرب أجازت فيه الكسر أيضاً^(١٠) .

(١) الأضداد للأصمعي : ٥١ - ٥٢ هـ فخر ، أضداد ابن السكيت : ٢٠٤ .

(٢) نسب عدنان وقحطان : ٦ - ٧ للبرد .

(٣) شرح الشافية : ١٤٣/١ .

(٤) المرجع السابق .

(٥) سورة الفاتحة : آية ٥ .

(٦) البحر المحيط : ٢٣/١ - ٢٤ .

(٧) المرجع السابق .

(٨) اللسان : ٢٠ : ٢٨٣ .

(٩) المحتسب : ١١١/١ خط تيمور .

(١٠) شرح الشافية : ١٤٣/١ ، وانظر سيويو : ٢٥٦/٢ - ٢٥٧ .

٢- يكسر حرف المضارعة بما فيها الياء في غير لغة الحجازيين فيما يأتي :

أ (في المثال الواوي الذي ماضيه على وزن فعل يكسر العين نحو وجل ووحل - فقالوا : ييجل - بكسر الياء .

وعلل ذلك السيرا في شرحه على سيبويه فقال : وإنما كسروا الياء فيما كان فاء الفعل منه واواً قالوا : وجل ييجل ، لأنهم أرادوا بكسرها قلب الواو ياء استثقالاً للواو^(١) ، وإنما كرهوا قلب الواو ياء من غير كسرة ما قبلها ، لتخف الكلمة بانقلاب الواو ياء لسكونها وكسر ما قبلها^(٢) . وقد عزا الفارابي هذه اللهجة لأسد^(٣) ، كما عزاها إلى بني أسد كذلك ابن منظور^(٤) ، ولكن المأثور عن القبائل أنها لا تكسر الياء وعلل ابن سيده هذا بقوله « الذين يقولون تعلم (بكسر التاء) لا يقولون تعلم بكسر الياء ، لاستثقالهم الكسر على الياء ... »^(٥) وعلل ابن جني في المحتسب بمثل هذا^(٦) . ولكن وجدنا فيما سبق أن بني أسد تكسر الياء في ييجل ، فلماذا خالفت بنو أسد في هذا المثال بالذات ؟ يظهر أن بني أسد ، لم تستثقل كسر الياء في ييجل كما استثقلتها في يعلم ، لأن الياء في ييجل تقوت بالياء الأخرى^(٧) .

ب (أنهم كسروا الياء في مضارع أبي يابى ، حيث قالوا فيه يئى - بكسر الياء ، وهو شاذ من وجهين :

أولاً : أنه فعل يفعل بفتح العين في الماضي والمضارع ، وما كان كذلك لم يكسر أوله في المضارع ، وإنما كسروا هذا لأن مضارعه مشاكل مضارع فعل بكسر العين ، فلفسوا كسر أول مضارع فعل (بكسر العين) في جميع اللغات إلا في لغة أهل الحجاز ، كذلك كسروا يفعل (بفتح العين) هنا^(٨) .

(١) شرح السيرا في : ٣١٧/٥ مخطوط .

(٢) شرح الشافية : ١٤١/١ .

(٣) ديوان الأدب : ورقة ٣٠٠ مكتبة تيمور .

(٤) اللسان : ٢٤٨/١٤ ، ١٦٢/٧ .

(٥) الخصاص : ٢١٧/١٤ .

(٦) المحتسب : ٤١١ مخطوط .

(٧) اللسان : ٢٤٨/١٤ ، ديوان الأدب : ورقة ٣٠٠ خط .

(٨) اللسان : ٣/١٨ ، الشافية : ١٤١/١ .

ثانياً : أنهم لم يجوزوا الكسر في الياء من يثي إلا لأن الشذوذ قد كثر في هذه الكلمة وهذا معنى قول سيبويه « أنهم ربما شذ الحرف في كلامهم فخرج عن نظائره ، فيجسروهم ذلك على ركوب شذوذ آخر فيه »^(١) وكأنهم استعملوا طعم الشذوذ في تلك الكلمة ، والشذوذ كما يقولون مفر بالشذوذ ، وقد ساق ابن بري شاهداً لهذا الكسر^(٢)

ج (كما عثرت على نص لأبي حيان في تفسيره لقول الله (ألم أعهد إليكم)^(٣) يفيد أن لغة لبعض كلب تكسر في الياء حيث يقولون « هل يعلم »^(٤) بكسر الياء والياء يصعب نطقها لاسيما مع الكسرة ، إذ هي نادرة الشيوخ في النطق العربي لأن الكسرة من الياء ، والياء تقوم مقام كسرتين . وقد استطعت توثيق لهجة بعض قبائل كلب بقراءة قرآنية حيث قرىء « فإنهم يألمون كما تألمون ، بكسر الياء^(٥) والتاء .

وبقراءة الأعمش والحسن « يكاد البرق يخطف أبصارهم » (البقرة : آية ٢٠) بكسر الياء والخاء والطاء المشددة : البحر ٩٠/١ . شواذ القرآن لابن خالويه ص ٣ . القراءات الشاذة للشيخ القاضي ٢٥ .

ويلاحظ أن (كلبا) هذه من قضاة^(٦) ، ومعنى هذا أنها تكسر جميع حروف المضارعة حتى الياء ، إلا أننا نرى بهراء وهي من قضاة^(٧) أيضاً تكسر ما كان أوله التاء فقط ، وشاهد ذلك قول البغدادي ، وأما تاتلة بهراء فإنهم يقولون تعلمون وتفعلون ، وتصنعون . بكسر أوائل الحروف^(٨) فهذا يشير على أن بهراء تكسر التاء فقط بدليل الأمثلة السابقة في نص البغدادي ، كما أورد ابن جني أمثلة لثلاثة بهراء بالتاء فقط^(٩) .

(١) شرح السيرافي : ٣١٥/٥ ، خط ، المحصص : ٣١٧/١٢ ، المحتسب : ٤١١/١ .

(٢) اللسان : ٣/١٨ .

(٣) سورة يس : آية ٦٠ .

(٤) البحر : ٣٤٣/٧ ، الدر اللقيط : ٣٤٣/٧ .

(٥) الجمع : ١٦٤/٢ .

(٦) نسب عدنان وقحطان : ٢٣ .

(٧) المرجع السابق : ٢٤ .

(٨) الخزانة : ٤٩٥/٤ .

(٩) الخصائص : ١١/٢ ، دار الكتب ، سر الصناعة : ٢٣٤/١ .

كما أورد ابن منظور شاهداً لها من قول الشاعر (تَكْتَبَانِ فِي الطَّرِيقِ لَامٌ أَلِفٌ) بكسر التاء - قال ابن منظور « وهي لغة بهراء يكسرون التاء »^(١) ، ولا أدري إلى الآن ، لم اختصت بهراء بكسر التاء وحدها دون أخواتها من حروف المضارعة .

ويرى الدكتور ابراهيم أنيس أن بهراء تكسر حرف الياء أيضاً ، ولم يستشهد بما يؤيد رأيه^(٢) إلا أنني أثبت آنفاً أن القبيلة التي كانت تكسر في الياء هي كلب لا بهراء ، على أننا إذا نظرنا إلى كلمة « التلثة » المعزوة إلى بهراء توحى بأنها كسر التاء - لا الياء . وكسر حروف المضارعة لم تختص به لهجات القبائل العربية التي أشرت إليها آنفاً ، بل وجدت هذه الظاهرة في معظم الساميات كالعبرية والسريانية^(٣) ، غير أن كسر أحرف المضارعة قد انتقل في العبرية والسريانية من وزن فعل يفعل بكسر العين في الماضي وفتحها في المضارع إلى بقية الأوزان الأخرى فصارت أحرف المضارعة كلها مكسورة إلا في اللغة العبرية في الأفعال الحلقية الفاء ، والجوفاء ، والمضغفة - فإن أحرف المضارعة بقيت مفتوحة فيها^(٤) .

كما وجد كسر أحرف المضارعة في لهجات جنوب اليمن الحديثة كالمهرية والشحرية والبهوتاحارية^(٥) ، وفي لهجات السريان في هذه الأيام^(٦) ، كما يكسر حرف المضارعة في عامية مصر ، وفي لهجة بلدي « أتميدة - المنصورة » ، كما لحت الظاهرة في عامية نجد حيث يقولون في أمثالهم : « بُرَقَ النِّعْيُ تَشْتَبُهُ »^(٧) وقولهم « يَدِرْ تَعْطِي مَا تَعْطِي »^(٨) ، وقولهم « ضَرِيعٌ لَا يَسْمَنُ وَلَا يَغْنِي مِنْ جُوعٍ »^(٩) فالظاهرة قد عبرت التاريخ الطويل حتى وصلت الأحفاد بالأجداد ، والخالفين بالسالفين .

(١) اللسان : ١٩٢/٢ .

(٢) في اللهجات العربية : ١٢٧ ط ٢ .

(٣) الكنز في قواعد اللغة العبرية : ١٧ .

(٤) محاضرات الدكتور خليل ثامي .

(٥) محاضرات الدكتور خليل ثامي .

(٦) تاريخ آداب اللغة العربية : ٥٠/١ زيدان .

(٧) الأمثال العامية في نجد : ٤٥ رقم ١١٩ القسم الأول ، والمثل للأشخاص الذين لا خير فيهم يشته بهمض في الرداءة .

(٨) المرجع السابق : ٣٦٦/١ رقم ٩٩ والمثل يشبه قولنا « اليد اللئيمة تأخذ متديش » .

(٩) المرجع السابق : ١٥٥/١ .

ل (الطلمطانية :

تطلق هذه الكلمة عند اللغويين ويراد بها إبدال لام التعريف ميماً كقولك مثلاً « طاب امتهواء ، وصفا امجوه ، أي طاب الهواء ، وصفا الجو ، أما المصادر العربية فقد اختلفت في عزو تلك الظاهرة :

- ١ - فقد عزاها صاحب مقدمة المباني الى دوس^(١) .
- ٢ - كما عزاها أبو العباس ثعلب الى الأزدي^(٢) .
- ٣ - وعزاها الأشموني^(٣) ، وابن هشام^(٤) ، والسيوطي في الجمع^(٥) ، وشرح الدرة^(٦) ، وابن الحاجب^(٧) الى طيء .
- ٤ - كما عزاها المعيني^(٨) في شواهد ، وابن مالك^(٩) ، واللسان^(١٠) ، وشارح المفصل^(١١) الى اليمن .
- ٥ - وعزاها المغني^(١٢) ، والجمع^(١٣) ، وصاحب كتاب شمس العلوم^(١٤) ، وشمر^(١٥) - الى حمير .

(١) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٢ .

(٢) مجالس ثعلب : ٧٣/١ .

(٣) ٣٧/١ ، ٩٦/١ .

(٤) المغني : ٤٧/١ .

(٥) ٧٩/١ .

(٦) ٢٣٤ .

(٧) تشرح الشافية : ٢١٥/٣ .

(٨) ٩٦/١ علي الأشموني .

(٩) الجمع : ٧٩/١ .

(١٠) ٦٨/١٠ ، ٣٠١/١٤ .

(١١) ٢٠/٩ .

(١٢) ٤٧/١ .

(١٣) ٧٩/١ .

(١٤) ٣٩ .

(١٥) اللسان : ٣٦٣/١٢ .

وبالبحث في هذا العزو لمجدد يدور كله حول القبائل التي كانت تسكن جنوب اليمن ، فدوس - في النص الأول هي بطن من شثوة من الأزد من القحطانية ^١ وكذلك طيء من القحطانية ، إلا أنه يلاحظ أن علماء العربية خلطوا بين اليمن وحير ، وربما أنهم فعلوا ذلك لعدم معرفتهم باللغة الحيرية فظنوا أنها هي اليمنية ، والحق أن الحيرية شيء واليمنية شيء آخر ، كما أظن أن النحاة العرب كانوا يخترعون عبارات يصفون بها ما خالف لغتهم ، وأظن أنهم اخترعوا هذه الظاهرة اللهجية ، والطمطانية كما يراها الزمخشري : المعجمة ^٢ . وما يدل على ذلك ما جاء في الكامل للمبرد في قول عنتره :

تبرى له حُولُ النعام كأنها حِرْزُ يمانية لأعجم طمطم ^٣

وفي الخزانة ، أن الطمطانية هي : أن يكون الكلام مشبهاً لكلام المعجم ، وفي شرح درة الغواص : أنهم يقولون للعجيب : طمطم ^٤ ، ويكون المعنى الذي أراده اللغويون على هذا أنهم شبهوا كلام حير - لما فيه من الألفاظ العجيبة المتكررة بكلام المعجم يشير إلى هذا ما روي عن عمرو بن العلاء « ما لسان حير وأقاصي اليمن لساننا ، ولا عربيتهم عربيتنا » ^٥ .

وقد ساق المصاحف العربية شواهد لتلك الظاهرة نذكر منها :

١ - ما ورد عن الرسول ﷺ أنه قال : ليس من أمير أمصيام في أمصفر ^٦ ، وقوله « من زنى من أمبكر فاصقهوه مائة جلدة » ^٧ .

٢ - ما رواه ثمر من أنه سمع حيرية فصيحة سألها عن بلادها فقالت : النخل قلل ولكن عيشتنا أمقمح أمفرسك ، أمغنب ، أمحباط - طوب ^٨ ، أي طيب .

(١) نهاية الأرب : ٢٥٣ .

(٢) الفائق للزمخشري : ٤٥٩/٢ .

(٣) الكامل للمبرد : ٣٧٣/١ .

(٤) ٥٩٦/٤ .

(٥) شرح الدرة : ٢٣٥ .

(٦) المزمع : ١٧٤/١ ، طبقات فحول الشعراء : ١١ .

(٧) مقدمتان في علوم القرآن : ٢٢٢ ، اللسان : ١١٦/٥ ، التصريح : ١٤٩/١ .

(٨) اللسان : ٦٨/١٠ .

(٩) اللسان : ٣٦٣/١٢ .

٣ - قال الشاعر :

ذاك خليلي وذو يعاونني يرمي ورائي بأمنهم وأمنسله^١

ودراسة أداة التعريف في تاريخها الطويل يحتاج الى بحث طويل نخرج منه بالنقاط التالية :

أ (اللغات السامية تميل الى استخدام أداة الإشارة ، أو الضمير الشخصي للتعريف ، والإشارة أقدم من الضمير الشخصي ، وهذا أقدم من التعريف^٢ .

ب (أداة التعريف قد تسبق المعرف كما هو الحال في العربية والكنعانية ، وقد تلحقه ، كالآرامية والسبئية .

ج (تستخدم الكنعانية « ٧/ » مع تشديد الحرف الأول إن لم يكن حرفاً حلقياً^٣ .

د (في اللغات اليمنية القديمة (نون) نهائية^٤ ، وفي لهجة طيء (أم) .

هـ (في اللحيانية والشمودية والصفوية نجد أداة التعريف (الهاء) ، واستخدمت اللحيانية (هن) ، (هل) بجانب (هـ) وهذه النون التي في (هن) تدغم في الحروف الأولى من الأسماء بشرط ألا تكون حروف حلق .

و (في عربيتنا أداة التعريف (أل) ، واختلف العلماء في الأداة هل هي (أل) كما قال الخليل أم (اللام) فقط وهو رأي سيويه^٥ .

ومما سبق بيانه نلاحظ الأدوات الآتية في التعريف في الساميات وهي (اللام والنون . والميم) والعلاقة واضحة بين هذه المجموعة ، فهي أكثر الأصوات شيوعاً في اللغات السامية ، كما أنها من الأصوات المتوسطة الشبيهة بأصوات اللين^٦ - ولهذا لا غرابة أن يقع التبادل بينها مثل :

(١) شمس العلوم : ٣٩ .

(٢) محاضرات الدكتور فواد حسانين ، وتاريخ العرب قبل الإسلام : ٢٥٩/٧ .

(٣) محاضرات الدكتور فواد حسانين في كلية دار العلوم .

(٤) تاريخ العرب : ٣٣/٧ جواد علي .

(٥) ابن عقيل : ١٥٣/١ .

(٦) الأصوات اللغوية : ٦٠ ط الثانية .

(بن) بمعنى (بل) ، (والبنام) في البنان^(١) (وطامه) الله على الخير وطانه^(٢) ، و (لعن) في لعل^(٣) ، والأيم والأين للذكر من الحيات^(٤) .

م) المعاقبة :

رأينا في لغتنا العربية ، بل وفي الساميات أيضاً كثيراً ما تتعاقب الواو مع الياء ، كما رأينا في دراستنا للحركات هذا التعاقب بين الضمة والكسرة ونسوق بعض الأمثلة لبيان هذا :

١ - الميائر والموائر ، والموائق والمياثق^(٥) .

٢ - وقد دوخوا الرجل وديخوه ، ومالك تتحوز مني كما تتحوز الحية ، وقد تحيزت الى فئة ، وقد تحوزت ، وساغ الرجل طعامه يسيفه ، وبعضهم يقول « يسوغه »^(٦) .

٣ - إن فلاناً سريع الأوبة والأيبة^(٧) ويمكن أن تكون هذه معاقبة في العين . كما قد تكون المعاقبة في اللام أيضاً من ذلك :

كنوت الرجل وكنيته^(٨) ، وعزوت الرجل وعزيتته^(٩) - إذا نسبته الى أبيه .

كما قد يكون هذا التعاقب في التثنية ومن ذلك : نسيان ونسوان ، ورحوان ورحيان^(١٠) .

ويكون بين الواو والياء في الجمع مثل : هو ذو دغيات ودغوات^(١١) ، كما قد تعقب الواو

(١) شافية ابن الحاجب : ٢١٦/٣ .

(٢) المرجع السابق : ٢١٧ .

(٣) شافية ابن الحاجب : ٢١٩/٣ .

(٤) اللسان : ١٨٧/١٦ .

(٥) المحمص : ٩/١٤ ، اللسان : ٣٢٥/٢ - ٣٢٦ .

(٦) أدب الكاتب : ٣٦٥ ط السعادة تحقيق عبي الدين ، المحمص : ٢٠/١٤ .

(٧) أدب الكاتب : ٤٥٩ .

(٨) زهر السيوطي : ٢٧٩/٢ ، أدب الكاتب : ٣٦٤ .

(٩) أدب الكاتب : ٣٦٤ .

(١٠) المحمص : ٢٥/١٤ .

(١١) أي أخلاق رديئة .

والباء على فمول كقولهم : هو الكذاب الأثوم والأثيم^(١) ، وقد تمتعق الباء والواو زائدتين من بنات الأربع كقولهم : مما رواه ابن السكيت :

جعلته على حنديرة عيني ، وحندورة عيني - أي نصب عيني^(٢) . وقد نجد حكماً لأحد أئمة العربية حيث يرجح صيغة على أخرى كقول أبي عبيد : « والحنديرة أجود »^(٣) .

ولكن هل يمكن أن نضع نظاماً للقبائل تسير عليه إزاء هذه الظاهرة ؟ كان ندعي مثلاً أن هذه القبيلة تؤثر نظاماً من المعاقبة تتخالف به مع القبيلة الأخرى . أرى أنه لا يمكن أن نحسم برأي ، حتى نستدل بنصوص لهجية ، من شأنها أن تساعدنا في الحكم ، وإليك بعضها :

١ - ما روي عن الأصمعي من قوله : سألت المفضل عن قول الأعشى :

لعمري لمن أمسى من القوم شاخصاً لقد نال خيصاً من عقبرة خائصاً

فقلت ما معنى خيصاً خائصاً ؟ فقال : أراه من قولهم : فلان يخوص العطاء في بني فلان - أي يقلله فكان خيصاً شيء يسير ، ثم بالغ بقوله : خائصاً - قلت له : فكان يجب أن يقول : لقد نال خوصاً ، إذ هو من قولهم : هو يخوص العطاء فقال : هو على المعاقبة ، وهي لغة لأهل الحجاز^(٤) ، وزاد اللسان « وأهل الحجاز يسمون : الصواغ : الصياغ ، ويقولون : الصيام : للصوام ، ومثله كثير »^(٥) ، ولقد عزا الفراء الصيغة اليائية إلى الحجاز^(٦) ومثل ذلك فعل ابن جني في محاسبته^(٧) ، وابن خالويه في شواذه^(٨) ، وابن السكيت في إصلاحه^(٩) ، وابن سيده في

(١) المخصص : ٢٥/١٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المخصص : ١٩/١٤ .

(٥) اللسان : ٣٠٠/٨ .

(٦) معاني القرآن للفراء : ١٩٠/١ .

(٧) المحتسب : ١٧٥/١ خطوط : تيمور .

(٨) مختصر شواذ القرآن : ١٩ .

(٩) إصلاح المنطق : ١٣٧ .

مخصصه^(١) ، وابن جرير الطبري في تفسيره^(٢) ، وأبو الطيب اللغوي^(٣) في إبداله ، وأرجح أصالة الصيغة الواوية ، لكثرة استعمالها ، كما أن الاشتقاق منها .

٢ - ما جاء عن أبي علي :

ليث عليه من البردي هبرية كالمزبراني^(٤) عتار بأوصال

ويروى : عيال وعوال - فأما عوال فمن عال عولاً ، وأما عيال - فلا أعرف ما هي ! إلا أن يكون على المعاقبة التي بين الياء والواو بغير علة - وهي حجازية^(٥) ، كما روى عن تميم أنهم يقولون « القنوة » والحجاز تقول : القنية^(٦) ، وكما جاء في اللسان أن « حوث » بالواو لفظة تميم^(٧) . وأن تيمناً تقول : قلنسوة ، بينما الحجاز تقول « قلنسية »^(٨) .

ومن هذا العرض نقترح أن الحجاز تؤثر الياء - بينما تميم تؤثر الواو . ولكن قد تقف بمض الشواهد لتحول بيننا وبين نتيجتنا السابقة - وأهمها :

١ - ما رواه أبو هريرة أن قوماً يتعادون فقال ما لهم ، فقالوا : خرج الدجال . فقال : كذبة كذبها الصباغون ، وروى الصواغون : أي اختلقها الكذّابون^(٩) .

٢ - جاء عن ابن منظور في حديث علي رضي الله عنه « وأعدت صواغاً من بني قينقاع »^(١٠) .

والمعروف أن المتكلم في النص الأول هو الرسول ، والشاهد الثاني علي - وكلاهما قرشيان ، وكان يجب أن تكون الرواية بالياء في « صواغاً » و « الصواغون » حتى يستقيم ما سبق أن

(١) المخصص : ٣١/١٢ ، ٢٢/٣ ، ٦٣/٨ .

(٢) تفسير الطبري : ١٦٠/٦ ط دار المعارف .

(٣) الإبدال لأبي الطيب : ٤٧٨/٢ .

(٤) المزبراني : شعر مجتمع على موضع الكاهل : المخصص : ٦٢/٨ .

(٥) المخصص : ٦٢/٨ .

(٦) المزهري : ٢٧٦/٢ .

(٧) اللسان : ٤٤٥/٢ .

(٨) المزهري : ٢٧٦/٢ .

(٩) اللسان : ٣٢٥/١٠ .

(١٠) اللسان : ٣٢٥/١٠ .

قررناه ، وأرجح أن رواية الحديث الأولى بالياء ، بدليل ما جاء من رواية أخرى بالياء فيه ، وإنما جاءت رواية الواو ، لأن الحديث ربما روى على لهجة رجل من لفته إشار الواو على الياء . وأما ما جاء عن ابن منظور فإنني أشك فيه ، والروايات اللغوية كثيراً ما حرفت وصحفت ، ومنها جاء البلاء .

٣- جاء عن ابن السكيت قوله : يقال فلان ذو دغوات ودغيات ، ولم يسمع دغيات إلا في بيت رؤبة فإنهم زعموا أنه قال « نحن نقول : دغية وغيرنا يقول دغوة » . وأنشد (ذا دغيات قلب الأخلاق)^(١) ورؤية هذا من تميم ، وآثر الياء على الواو - والجواب على هذا الإشكال: أن شاهد رؤية السابق روي في إبدال أبي الطيب^(٢) بالواو ، وكذلك في اللسان^(٣) فيكون هذا مما يؤيد رأينا . وثانياً أن قول ابن السكيت السابق حاكياً رواية الياء لرؤية تجعلنا نقف موقف الشك منها لقوله « فإنهم زعموا » فكان الرواية لم تفارق منطقة الزعم إلى حدود التأكيد والتأييد .

وهب أن رؤية قالها بالياء فهل يكفي شاهد واحد - لنقض عدة شواهد متتالية متواترة ؟ وبعد أن وضح ما أوردته في منطق الحجاز وتميم أريد أن أعرض جوانب أخرى في بقاع جغرافية لنرى اتجاهات بقية اللهجات العربية في تلك الظاهرة :

١ - حكى الفراء عن بعض بني كلب « غنيان الكتاب » في عنوانه وعنوانه^(٤) .

٢ - شذ في تثنية الممدود خمسة أشياء منها « حرايان » وحكى بعضهم أنها لغة « فزارة »^(٥) وقياسها « حراوان »^(٦) .

وجاء في اللسان عن أبي زيد « سمعت بعض فزارة يقول : هما كسايان وخبايان وفضايان »

(١) الزمر : ٢٥٤/١ ، أي ذا أخلاق رديئة متلونة .

(٢) إبدال أبي الطيب : ٥١٩/٢ .

(٣) اللسان : ٢٨٨/١٨ .

(٤) إبدال السكيت : ٨ .

(٥) الأشموني : ١١٤/٤ .

(٦) الجمع : ٤٤/١ .

فيحول الواو الى الياء^(١) ، وقد حكم النحاة بشذوذ لهجة فزارة السابقة^(٢) ، ولكن الكوفيين قاسوا عليها^(٣) ، ومنع ذلك غيرهم .

٣ - جاء في الغريب المصنف أن الكسائي - سأل بني سليم عن نما ينمو - فلم يعرفوه بالواو^(٤) ، ومعنى هذا أنهم عرفوه بالياء ويلاحظ على هذه النصوص أنها آثرت الياء كلهجة الحجاز ، فهل هناك علاقة بين هذه القبائل وبين الحجاز ؟

أما كلب فقد تأثرت بالحجاز ، لأنهم عاشوا على الطريق الذي كان يسلكه الحجازيون في تجارتهم على حدود الشام^(٥) ، وأما فزارة فقد كانت بطونها تسكن منطقة الحجاز ، وإن كانت قيسية ، وأما سليم - فقد كانت على صلة وثيقة بقرش^(٦) .

فعلاقة هذه القبائل كما ترى - وثيقة الصلة بالحجاز - فإذا عرفت أن الحجاز يغلب عليها طابع الحضارة ، وقد شاركتها القبائل السابقة - أمكننا أن نرجح أن القبائل المتحضرة آثرت الياء .

وإذا كان هذا هو موقف القبائل المتحضرة - فإنني أعرض الآن نموذجاً جديداً لقبائل أخرى لها وضع مميز في هذه الظاهرة وهي :

١ - جاء في مجالس ثعلب :

تحنّ إلى الفردوس والشّير دونها وأبيات عن أوطانها حوث حلتـ

قال أبو العباس : هذه لغته ، وهو رجل من طيء .

٢ - قال عياض بن أم درّة^(٧) :

(١) اللسان : ١٣/١ .

(٢) التصريح : ٢٩٥/٢ ، والأشتموني : ٢١٢/٤ .

(٣) الجمع : ٤٤/١ .

(٤) الغريب المصنف : ٥٠٢ مخطوط رقم ١٢١ .

(٥) في اللهجات العربية : ٨٥ .

(٦) تاريخ العرب : ١٧٦/٤ جواد علي .

(٧) قال أبو سعيد : حفطي عياض بن درّة : نوادر أبي زيد : ٦٤ .

حَتَّى لَا يُحِلُّ الدَّهْرُ إِلَّا بِإِذْنِنَا وَلَا نَسْأَلُ الْأَقْوَامَ عَهْدَ الْمَوَاتِقِ^(١)

(ورواه ثعلب عقد الميثاق) .

٣- حكى ابن السكيت عن بعض الطائيين أنهم يقولون « أوتق » ثم قلبها بعض العرب ياء تخفيفاً فصار « أيتق »^(٢) ، وكما حكاه عن طيء ابن السكيت فقد حكاه عنهم يعقوب^(٣) .

٤- وجاء في التخصص عن صاحب العين : « وطيء تقول : يحته حياء ، ومحوأ »^(٤) .

٥- جاء في إصلاح المنطق عن الفراء : ضاره يضيره . قال : وزعم الكسائي أنه سمع بعض أهل العالية يقول لا ينفعني ذلك ولا يضورني^(٥) .

٦- حكى ابن سيده عن العرب « يقولون ما أعيج من كلامه بشيء - أي ما أعبا به وبنو أسد يقولون : ما أعوج »^(٦) . كما روى ابن السكيت عنهم « عزيتة الى أبيه وبنو أسد يقولون : عزوته الى أبيه »^(٧) .

٧- جاء عن أهل نجد قولهم : هوت عنه أهو - وغيرهم هيت^(٨) .

وبالنظر الى هذه النصوص نرى أن طيئاً ، وقبائل أسد ، ونجد آثرت الواو في تلك الروايات باستثناء الشاهد الثاني الذي ورد مرة بالياء وأخرى بالواو ، ولكنني أرجح رواية الواو لطيء ، وبما يؤيد رواية الواو - قول ثعلب عنها « وهي أجود وأشهر »^(٩) ثم ان صاحب رواية الواو هو عياض بن درة - وهو من طيء وإذا كانت هذه القبائل قد آثرت الواو كتميم - فما العلاقة

(١) نوادر أبي زيد : ٦٤/٦٥ ، شرح الشافية : ١/٢١٠ .

(٢) شرح المفصل : ٨/١٢٩ ، إصلاح المنطق : ١٤٤ .

(٣) اللسان : ١٢/٢٤١ .

(٤) التخصص : ٧/١٣ .

(٥) إصلاح المنطق : ١٣٦ ، التخصص : ١٤/٢١ .

(٦) التخصص : ١٤/٢١ ، إصلاح المنطق : ١٣٦ ، اللسان : ٣/١٦٠ .

(٧) التخصص : ١٤/٢٣ .

(٨) المصباح : ٢/٨٦٢ .

(٩) نوادر أبي زيد : ٦٤/٦٥ .

بينها وبين ثيم ؟ لا علاقة بينها إلا أنها قبائل بدوية - فكأن البدو قد مالوا الى الواو في تلك الصيغ .

ولكن ألا ينقض هذا التقسيم - ما عثرنا عليه من روايات تسند الكلمة الواحدة وقد وردت بالياء والواو لقبيلة بعينها ؟ فقد ورد في المخصص عن أبي صخر ؟

فإن يعذر القلب العشيّة في الصبّا فؤادك لا يعذر في الأقاوم^(١)

وقد روى « الأقيام » يريد القوم ، وبما أن صخرأ هذا من هذيل ، وهذيل تقع في منطقة الحجاز ، وكان المفروض أن تقول (الأقيام) بالياء إلا أنها وردت بالياء مرة والواو مرة أخرى ، وأرجح أن هذيلاً وإن كانت تسكن مناطق الحجاز إلا أن جزءاً منها كان بدوياً يعيش على قنن الجبال ومسابر المياه . كان عملهم إثارة الرعب ، ونهب القوافل ، والصعلكة التي تتمثل في مجموعة من شعرائها وعدائتها - وهنا نرجح أن الصيغة الواوية للبدو منهم ، والبائية للحضر ، وعلى النظرة الى المجتمع يمكن أن نحل المشكلات التي تعترضنا ، فإذا ما عزا صاحب الجهرة صيغة : يأتوا - بدل : يأتي في قول خالد بن زهير :

يا قوم مالي وأبا ذؤيب كنت إذا أتوت من غيب^(٢)

الى هذيل ، وسار على هذا ابن سيده في مخصصه^(٣) ، وأبو علي في أماليه^(٤) ثم يعرض يونس ابن حبيب نصاً مخالفاً يقول فيه « أجويت القدر » - وهذيل تقول أجويتها^(٥) . فكأن هذيلاً نطقت مرة بالواو ، ومرة بالياء . وإذا عزي الحميري - الكلوة - على أنها لغة اليمن في الكلية^(٦) فإننا لا نرى أن اليمن كلها كانت تنطق بالواو في مثل هذا - بل أرجح أن المجتمع البدوي منهم كانوا ينطقون ذلك بالواو فقط وخير من يمثلهم قبائل خثعم وزبيد .

وهذه المعاقبة بين الواو والياء كما كانت في العربية - حدثت في أخواتها فقد حدث ذلك في الآرامي « كما أنها وجدت في النقوش اليمنية فكلمة : قول - تقابل الكلمة العربية قَيْل »^(٧) .

(١) المخصص : ٢٢/١٤ .

(٢) الجهرة : ١٧٠/١ ، ديوان الهذليين : ١٦٥/١ ط دار الكتب .

(٣) ٢٨/١٤ .

(٤) أمالي الغالي : ٢٠٩/٢ .

(٥) ما تفرد به بعض أئمة اللغة : القسم الثاني مما تفرد به يونس بن حبيب : خط دار الكتب : رقم ٤١٨ .

(٦) شمس العلوم للحميري : ٩٣ .

(٧) Rabin, P. 148, F,6 .

وإذا أردنا أن نوثق هذه اللهجات من القراءات القرآنية لمجد :

أ (أن عمر بن الخطاب^(١) قرأ « الله لا إله إلا هو الحي^(٢) القيّام » وأصله القيّوام ، فلما التقت الواو والياء وسبقت الأولى بالسكون ، قلبت الواو ياء ، وأدغمت فيها الياء ، وعمر قرأ على منطلق الحجاز ، لأنه قرشي ، والقيّوم : الذي لا ينام بالسريانية (المتوكلي : ٩) .

ب (وقوله تعالى « لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا »^(٣) وهو دوار : فعال من دار يدور فكان الآية نزلت على لهجة الحجاز ، وأقرت كذلك^(٤) في المصحف ولا شك أن رسم المصحف يعتبر مرشداً الى حد كبير للهجة الحجازية .

ج (وقوله تعالى « جعل الله الكعبة البيت الحرام^(٥) قيّاما » والأصل : قواما ، فحولت واوها ياء ، والدليل على هذا ما جاء من كلام العرب مقولاً على أصله من قول حميد الأرقط :

(قوامٌ دُنْيَا وقوامٌ دين)

وبعضهم قرأ في الآية : « قواماً للناس »^(٦) .

هـ (وإذا وسعنا الدائرة قليلاً وخرجنا من حقل المعاقبة الى حقل آخر وجدت أن هذا النظام الذي رجحته وقد التزم في عدة ملامح من ظواهر العربية فالفعل الثلاثي الذي انقلب عين فعله ألفاً في الماضي - إذا بني للمفعول - نراه يختلف في صيغته عند القبائل العربية ، فقريش ومن جاورها من بني كنانة^(٧) آثرت الياء في عينه كقولهم : قيل : بينا قبائل قيس ، وعقيل ومن جاورهم ، وعامة أسد^(٨) يقولون فيها : « قول » ، بالواو ، كما عزيت

(١) تفسير الطبري : ١٥٥/٦ ط دار المعارف ، المحتسب لابن جنى : ١٧٥/١ خط بالتيمور ، مختصر شواذ القرآن : ١٩ ، معاني القرآن للفراء : ١٩٠/١ دار الكتب ، ديوان الأدب للفارابي : ورقة ٣٣٠ خط بدار الكتب : رقم ٣٨٣ لغة تيمور .

(٢) سورة البقرة : آية ٢٥٥ .

(٣) سورة نوح : آية ٢٦ .

(٤) تفسير الطبري : ١٦٠/٦ .

(٥) سورة المائدة : آية ٩٧ .

(٦) تفسير الطبري : ٩١/١١ دار المعارف .

(٧) البصر : ٦١/١ .

(٨) المرجع السابق .

الصيغة الواوية أيضاً الى بني دبير وفقم^(١) ، وقد قرأ بها نافع وابن عامر^(٢) والكسائي . كما جاء في البحر أن الكسائي وهشاماً قرءا في قيل وغيض وحيل وجيء وسبق - بالواو^(٣) فنجد أن قريشاً وكنانة وهما من قبائل الحضر قد آثرتا الياء في مثل هذه الصيغ ، بينما آثرت أسد ، وقيس ، وعقيل ومن جاورهم وعامة أسد ، وكذلك قبائل دبير ، وفقم^(٤) الصيغة الواوية وجميعها يغلب عليها البداوة ، إذ وفقم^(٥) ودبير بطنان من أسد ، وأسد بدوية أو يغلب عليها البداوة ، ومن المفيد أن أشير الى أن هذه القبائل التي آثرت الواو في هذه الصيغة كانت جميعها تسكن مناطق بدوية في نجد .

ثانياً : لهجات منسوبة غير ملقية :

وهي لهجات لم يخلع عليها الرواة لقباً ، ولكنهم يشيرون إليها مجردة عن التسمية ، ويمكن أن أدرس هذا القسم بالنظر الى العلاقات التي تكون بين الأصوات وهي اما أن تكون علاقة تقارب أو تجانس ، أو تباعد ، فعلاقة التباعد في المخرج أو الصفة لا تبيح الإبدال ، أما علاقة التقارب أو التجانس فكل منها تبينه .

والمقاربان : هما الحرفان اللذان تقارباً مخرجاً وصفة ، كاللام والراء ، أو مخرجاً لصفة : كالذال والسين . أو صفة لا مخرجاً : كالشين والسين .

والمجانسان : هما الحرفان اللذان اتحدا مخرجاً واختلفا صفة - كالذال والطاء أو الذال والظاء ، أو الثاء والذال ، أو الباء والميم^(٦) . وإنما أقننا هذه الدراسة على هذا المنهج ، لأن « معرفة المخرج بمنزلة الوزن والمقدار ، ومعرفة الصفة بمنزلة الحك والمعيار »^(٧) .

(١) ابن عقيل : ٤٢٦/١ - ٤٢٧ ، البحر : ٦١/١ .

(٢) البحر : ١٥١/٧ .

(٣) البحر : ٦١/١ .

(٤) المعقد الفريد في فن التجويد : ١١ - ١٢ .

(٥) نهاية القول المفيد في علم التجويد : ٣٢ .

أولاً: بين الأصوات الشفوية ، والشفوية الأسنانية

(م - ب - ف)

وقد وقع التبادل بين تلك المجموعة كثيراً ، لتمييزها عن غيرها ، فمنطقتها خارج الفم ، إذ تشمل الشفتين ، ويطلق عليها ابن جنى « حروف الذلاقة »^(١) وربما سميت كذلك لأنها تخرج من ذلق الشفة . ونعرض الآن للروايات التي وردت في كتب العربية متناولة فيها هذا التعاقب :

أولاً : ذكر الحريري في الدرة أن بعض أهل الذمة قصد أبا عثمان المازني ليقراً عليه كتاب سيبويه ، وبذل له مائة دينار ، فامتنع أبو عثمان ، فقيل له : أترد هذه النفقة مع فافتك فقال : إن هذا الكتاب يشتمل على ثلاثمائة وكذا آية من كتاب الله ولست أرى أن أمكن منها ذمياً غيراً على كتاب الله ، قال : فاتفق أن غنت جارية بحضرة الواثق بقول العرجى :

أظلم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحية ظم^(*)

فاختلف من بالحضرة في إعراب « رجل » فمنهم من نصبه وجعله اسم (إن) ، ومنهم من رفعه على أنه خبرها - والجارية مصرة على أن شيخها أبا عثمان المازني لقنها إياه بالنصب ، فأمر الواثق بإشخاصه - قال أبو عثمان : فلما مثلت بين يديه قال : ممن الرجل ؟ قلت : من بني مازن ، قال : أي الموازن ؟ مازن تميم أم قيس ، أم مازن ربيعة ؟ قلت : من مازن ربيعة ، فكلمني بكلام قومي ، قال لي : بأهلك ؟ لأنهم يلقبون الميم بـاء ، والباء ميماً - إذا كانت في أول الأسماء . قال : فكلمته أن أجيبه على لغة قومي ، لئلا أواجهه بالمكر ، فقلت : بكر ، ففطن لما قصدته وأعجب به ...^(٢) ، وفي طبقات اللغويين للزبيدي أنه قال له « اجلس واطمن »^(٣) ، وفي شرح التصريف « اجلس فاطبتن »^(٤) .

(١) سر الصناعة : ٧٤/١ .

(*) وفي رواية الأغاني ترجمة العرجي [أظلمتيم] اسم امرأة .

(٢) درة الفواص : ٤٣ - ٤٤ .

(٣) ٩٨ .

(٤) النصف : ٣٣٨/٣ لابن جنى .

والذي يظهر أن الرواية السابقة جاءت مختلفة في كتب العربية ، ففي رواية الدرة^(١) قال المازني : بكر - بالباء يشير الى اسمه ، وفي رواية عن اليزيدي : قال المازني : مكر - بالميم يشير الى اسمه^(٢) . وفي كتب الطبقات أن المازني هذا هو « أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني »^(٣) ، كما أن الرواية التي هنا تشير الى أنه من مازن ربيعة ، وفي اليزيدي « أنه من مازن ابن شيبان بن ذهل »^(٤) فهو متصل النسب إذاً ببكر بن وائل التي يؤول نسبها الى ربيعة ، والعجيب أن رواية الدرة السابقة هي التي قيدت قلب الميم باء إذا كانت في أول الأسماء - بينما لم أجد هذا الشرط في الروايات الأخرى^(٥) .

وأيضاً لا أفهم لهذا القيد من سر في هذا الإبدال ، بل الذي أفهمه ، والذي يسوغ مثل هذا الإبدال بين الباء والميم أن تتجاوز الميم - وهي التي يسير الهواء للنطق بها متخذاً مجراه من الأنف - مع حرف كالنون - وهي مثل الميم في أن مجراها الأنف - فيحاول الانسان أن يخالف بين اتجاه هذين الحرفين فيبدل الميم الى الباء ، ولا فرق بينها إلا في تغير مخرج الهواء ، فالميم من الأنف ، والباء من الفم ولا شك أن المخالفة بين الصوتين المتماثلين - فيها تيسير للمجهود العضلي في النطق ، فكلمة « صنم » ينطق بها « صنب » ، فتحويل الميم الى الباء أو العكس لا يكون إلا تحت ظروف لغوية خاصة كما تقدم ، وليست المسألة مباحة ، فتقلب الميم الى الباء ، أو الباء الى الميم في لهجة واحدة ، ولهذا أرى أن الحريري أخطأ في تعليقه لقول الواثق المازني « باسمك ؟ حيث يقول » لأنهم يقلبون الميم باء ، والباء ميماً .

وناحية أخرى وهي أن هذه الظاهرة ، لم تقتصر على مازن من ربيعة ، بل تردد صداها في مناطق متفرقة من الجزيرة العربية منها :

١ - أنها وجدت في مزينة وساق لها المبرد في كتابه قول الشاعر :

خليلي بالبوبة عوجاً فلا أرى بها منزلاً إلا جديب المقيّد^(٦)

(١) درة الفرائص : ٤٣ - ٤٤ .

(٢) طبقات اللغويين : ٩٨ لليزيدي .

(٣) طبقات اليزيدي : ٩٢ .

(٤) طبقات اليزيدي : ٩٢ .

(٥) انظر : حنفي ناصف في مميزات لغة العرب : ١٤ ط ٢ ، طبقات اليزيدي : ٩٨ .

(٦) الكامل : ١١٧/١ .

- ٢ - ما جاء عن أبي علي قال : وكان أبو سَرَّار الغنوي يقول « با اسمك » يريد : ما اسمك^(١) .
- ٣ - ما جاء عن أبي الطيب من قول الشاعر :
- وأسمر خطيئاً كأن كعوبه نوى القَسْب قد أرمى ذراعاً على عشر^(٢)
- أي أرى بالباء - وقائله : حاتم الطائي ، كما أثر عنهم أنهم كانوا يعاقبون بين الميم والباء فيقولون « حبلت بدل حملت »^(٣) .
- ٤ - وعزى لعمر بن شاس قوله :
- (وقوم عليهم عقبة السرور مقتفى)^(٤) في عكمة .
- ٥ - كما عزا الفراء : اطماننت في اطماننت - الى بني أسد ، واستشهد لها بقول الشاعر :
- وبشترني جبينك من بعيدٍ بخير فاطبانٍ له جنابي^(٥)
- ٦ - كما وردت عدة روايات مختلفة منها ما جاء عن ابن دريد من أنه سمع عامرياً يقول : نقول . إذا قيل لنا أبقى عندكم شيء - حمام وحمام وبجباح - أي لم يبق شيء^(٦) ، وجاءت روايات أخرى في المزه^(٧) ، وإبدال أبي الطيب^(٨) ، واللسان^(٩) .
- ٧ - ما جاء من قولهم « صرب الزرع » أي صرمه بلغة بعض أهل اليمن ، ويسمون : الصرام : الصراب ، وحير تسمى أيلول : ذا الصراب - لأن فيه صرام الزرع^(١٠) كما جاء في اللسان

(١) أمالي القاضي : ٥٢/٢ .

(٢) إبدال أبي الطيب : ٣٨/١ .

(٣) Rabin, P. 201 .

(٤) إبدال السكيت : ١٤ .

(٥) إبدال السكيت : ١٣ .

(٦) المخصص : ٢٥٥/١٣ .

(٧) ١٣٣/٢ .

(٨) ٣٢٥/١ .

(٩) ٥٠/١٥ ، ١٠٧/١٦ ، ٢٣٠/٣ ، ٤٢٦ .

(١٠) شمس العلوم : ٦٠ للحميري .

والجمهرة أن « الكعب - لغة في الكعب - وهو الحص - واحده كعبه - يمانية »^١.

ومن هذه النصوص التي اختصرت أكثرها يستنتج أن هذه الظاهرة لم تكن في مازن ربيعة فقط - بل شملت بقاعاً كثيرة من الجزيرة العربية فهي في مزينة كما في الشاهد الأول ، ومزينة من قضاة^٢ . كما أن أبا سراً الفنوي يؤول نسبه إلى غني بن أعصر بن سعد بن قيس عيلان كما في الشاهد الثاني ، كما أنها عزيت لطبيء في الشاهد الثالث ، وما يحسن ذكره أن مزينة كانت تجاور طيناً ، وإن كانت تعد من قضاة ، والشاهد الرابع لعمر بن شأس ، وهو من بني أسد ، كما أنها عزيت في الشاهد الخامس لبني أسد أيضاً ، كما أنها انتشرت كذلك في اليمن - بل ما يؤكد أن انتشارها في اليمن كان واسعاً رواية أبي علي القاسم : قال العباس المبرد : قال المازني : « فلما دخلت على الواثق سألت فقال : باسمك ؟ وهي لغة بلحارث بن كعب - فقلت : بكرياً أمير المؤمنين »^٣ - فكان هذا التعاقب في بلحارث أيضاً - وهي قبيلة يمنية . بل إن هذه الرواية تحالف رواية الدرة ، لأنها تعزو هذه الظاهرة إلى لغة أبي عثمان المازني ، في حين رواية أبي علي القاسم تعزوها إلى بلحارث ، وكثيراً ما نجد هذا التعاقب في العربية الجنوبية - فحرف الجر « من » يقابله في العربية الجنوبية « بن »^٤ ، ولعل سبب الإبدال هنا المخالفة .

ولعموم هذه الظاهرة في الجزيرة رأى الدكتور إبراهيم أنيس أنها يمكن أن تعزى إلى أية لهجة من اللهجات المنعزلة حيث لا يجد الطفل وقتاً كافياً لإصلاح أخطائه - لانشغال أبيه وأمه بكسب العيش ، فتشبه هذه الأخطاء معه ، حتى تصبح ظاهرة معترفاً بها من ظواهر اللغة^٥ . وأرى أن ظواهر كثيرة من ظواهر الإبدال تحمل على هذا ، فمنه ما جاء عن بني عامر من قولهم : بجباح ، ومجماح - أي لم يبق شيء - وهذا التبادل نفسه ينطق به أطفالنا حتى اليوم فيقولون : بجع بج ، مع مع^٦ - بمعنى لم يبق شيء - كما يمكن أن يكون مثل هذا التعاقب إذا لم نجد له سبباً لتفسيره كالمثالة والمخالفة - سببه بعض أمراض الكلام - ولهذا إذا سمعنا كلمة من إنسان مريض بالجيوب الأنفية أو الزكام - مثل كلمة « حملت » بالميم نحسبها « حبلت » بالباء ، ولا

(١) اللسان : ٤١٢/٥ ، الجمهرة : ١٨٦/٢ .

(٢) معجم كعالة : ١٠٨٣/٣ .

(٣) طبقات الزبيدي : ٩٣ .

(٤) تاريخ العرب : ١٣٠/٧ جواد علي .

(٥) في اللهجات العربية : ١٠٧ ط .

(٦) انظر : إبدال أبي الطيب : ٧٦/١ محقق .

شك أن كثيراً من أمراض الكلام كاللكنة ، والرثة ، والحنسة - مسئولة في كثير من مظاهر التغيرات اللغوية ، وربما أن جامعي اللغة « لما سمعوا قبيلة تنطق « بالميم » في بعض الكلمات حيث ينطق غيرها بها « باء » ظنوا أن تلك القبيلة تلتزم هذه الصيغة في كل الكلمات ، وكذلك العكس ^١ ، ولكن الحق أن الراوي اللغوي كان يغيب عنه كثير من الظروف اللغوية ، وكثير من علل الكلام وأمراضه - مما يجعل الباحث الحديث يتردد في أخذ هذه الروايات كتلة واحدة بدون بحثها وفحصها .

ثانياً : كذلك حدث تعاقب بين الباء والفاء ، وبينهما علاقة تبيح ذلك ، فالباء والفاء حرفان شفويان من نخرج واحد ، فالتبادل يكثر بينهما ، ونشير الآن الى بعض الظواهر اللهجية التي حدث فيها ذلك :

١ - جاء في كتاب الخليل : عكبت حولهم الطير : عكفت فهي طير عكوب - أي عكوف وعزا الخليل الصيغة الأولى البائية الى الخفاجيين من بني عقيل ^٢ . وفي اللسان : وعكفت الخيل عكوفاً ، وعكبت عكوباً بمعنى واحد ^٣ ، وعزاها كما جاء في كتاب العين ، ويمكن أن نلتبس من شعرهم ما يؤيد تلك الظاهرة ، فقد جاء عن الخليل :

تَظَلَّ نسور من شمامٍ عليهم عكوباً مع العقبان عقبان يذبل ^٤

وهذا الشعر منسوب الى مزاحم العقيلي ، فكأن الباء في (عكوباً) لغته ولغة قومه .

٢ - وذكر ابن دريد أن « الخنزف - ما عمل بالطين وشوي بالنار فصار فخاراً واحده خنزفة - والخنزب - لغة في الخنزف : يمانية ^٥ .

٣ - وروى الأزهري : أنه سمع أعرابياً من بني حنظلة يسمى « المصطبة - المصطفة بالفاء ^٦ . وفي رواية أخرى عن الأزهري : أنه سمع أعرابياً من بني فزارة يقول لخادم له : ألا

(١) في اللهجات العربية : ١٠٨ .

(٢) العين للخليل : ١١٦ ط بغداد .

(٣) اللسان : ١١٧/٢ .

(٤) العين : ١١٦ ط بغداد .

(٥) الخصاص : ١٢٥/٥ .

(٦) اللسان : ٩٥/١١ .

وارفع لي عن صعيد الأرض مصطبة أبيت عليها بالليل فرفع له من السهلة شبه دكان مربع
قدر ذراع من الأرض يتقي بها من الهوام بالليل . ثم عقب الأزهري نفسه على ذلك بقوله
« وسمعت آخر من بني حنظلة سماها « المصطفة » بالغاء ».

وبالنظر في هذه الروايات جميعاً يتبين أن عقيلاً آثرت الباء - على الفاء ولا فرق بين الباء
والفاء - إلا أن الفاء صوت رخو مهموس نظيره الشديد هو الباء ، ويرى الدكتور إبراهيم أنيس
معللاً لصوت الباء في لغة عقيل ، أن تلك القبيلة بدوية ، والبدويون يميلون إلى الأصوات
الشديدة ، بينما يميل أهل الحضرة إلى الأصوات الرخوة ، ولكن يقف في سبيل هذا من أن حنظلة
قد آثرت الصوت المهموس الرخو وهو الفاء على الشديد وهو الباء - مع أن حنظلة هذه يفتحي
نسبها إلى تميم البدوية ، ومساكنها ضاربة في البادية ، فماذا خالفت هذا القانون ؟ والذي أجنح
إليه للخروج من هذا الإشكال : أحد أمرين : الأول : أن اللغة إحدى الظواهر الاجتماعية التي
تخضع لظروف عديدة ، وليس من شأن القوانين اللغوية الصرامة ، وعلى هذا فلا ضير أن نلج
في اللهجات تنوعاً وشذوذاً تتخالف مع ما عرف من هذه القوانين . والثاني : أن هذه الفاء التي
جاءت في لهجة حنظلة - ليست فاء مهموسة كالتي نعرفها في عربيتنا ، وإنما هي مجهورة تشبه
الحرف (V) في اللغات الأوروبية وما يؤدي في هذا الظن نص اللسان المعزو إلى الأزهري
من أنه سمع حنظلياً ينطق بها « المصطفة » بتشديد الفاء^٢ ، وعلى هذا فتكون « حنظلة »
البدوية قد نطقت بصوت مجهور ، ليست بينه وبين الباء إلا أن ينحس الهواء قليلاً فيصبح
انفجارياً كالباء - ولا شك أن غالبية لهجات البدو مالت إلى المجهورات ، ثم إن الكتابة العربية
- لم تكن تعكس اللهجات العربية كما هي ، وإنما تنظر إلى قصورها الشديدة - قد ضيعت ، بل
طمست جانباً لهجياً هاماً .

كما يلاحظ على نص ابن دريد أنه نسب « الحزب » بالباء لليمن ، وهي في فصاحتها بالفاء
- ولكن مما يقع فيه القدماء دائماً العزو لمنطقة شاسعة كاليمن - واليمن تختلف فيها البيئات
اختلافاً متبايناً فهو عزو مشاع ، يعارض ما يهدف إليه الباحثون المحدثون من التحديد والدقة ،
ولكنني مع هذا أرجح أن « الحزب » ، بالباء لبينة بدوية يمنية - لأن الباء شديدة تناسب
البدو - ويمكن أن تكون الصيغة البائية (الحزب) كانت تطلق - على نوع من الحزف غليظ ،
وكان الباء الشديدة تتلاءم والطين الغليظ المتماسك الذي يصنع منه الحزف .

(١) اللسان : ١١/٢ .

(٢) المرجع السابق .

وبما يرجع ما أقول قول ابن دريد عن « الخبز » : (وأحسبهم يخصون به ما غلظ منه)^١ ، ولا شك أن العربية يمكن أن يلتبس فيها أمثلة لهذا فمنه : قوله تعالى : إنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تكوّنهم أزا (أي تزعمهم وتقلقهم ، فهذا في معنى) تهزهم هزاً (والهمزة أخت الهاء ، فكأنهم خصوا هذا المعنى بالهمزة ، لأنها أقوى من الهاء ، كما أن المعنى نفسه أعظم في النفوس من الهز ، لأنك قد تهز ما لا حراك له ، كالجدع مثلاً ، فيبقى الهز المقرون بالإزعاج خاصاً بذى الحياة ، لأنه متعلق بالشعور ، وذلك ما أفادته الهمزة وحدها^٢ . فالعرب تقارب حروف الألفاظ متى تقاربت معانيها ، وكثيراً ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث ، فمن ذلك قولهم : خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب ... والقضم للصلب اليابس ، وفي الخبر « قد يدرك الخضم بالقضم » ، وعليه قول أبي الدرداء « يخضمون ونقضم والموعد الله »^٣ . وكأنهم اختاروا الخاء من أجل رخاوتها للرطب ، والقاف من أجل صلابتها لليابس وهم - كما يقول ابن جنى - يعملون ذلك ، حذواً لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث^٤ ، والحق أن هذا النظام الذي يتمثل في مساوقة الصيغ اللفظية لمعانيها - يعد نمطاً لسياسة الحروف في العربية ، ويشير إلى تمدن العرب في لغتهم .

(١) الخصاص : ١٢٥/٥ .

(٢) الخصاص : ٣٨/١ ط دار الهلال ، تاريخ آداب العرب : ٢٢٧/١ للرافعي .

(٣) الخصاص : ٥٥٠/١ ط الهلال .

(٤) الخصاص : ٥٥٠/١ ط الهلال ، تاريخ آداب العرب : ٢٢٩/١ للرافعي .

عدد الناشر : 83 - 47* - 400

